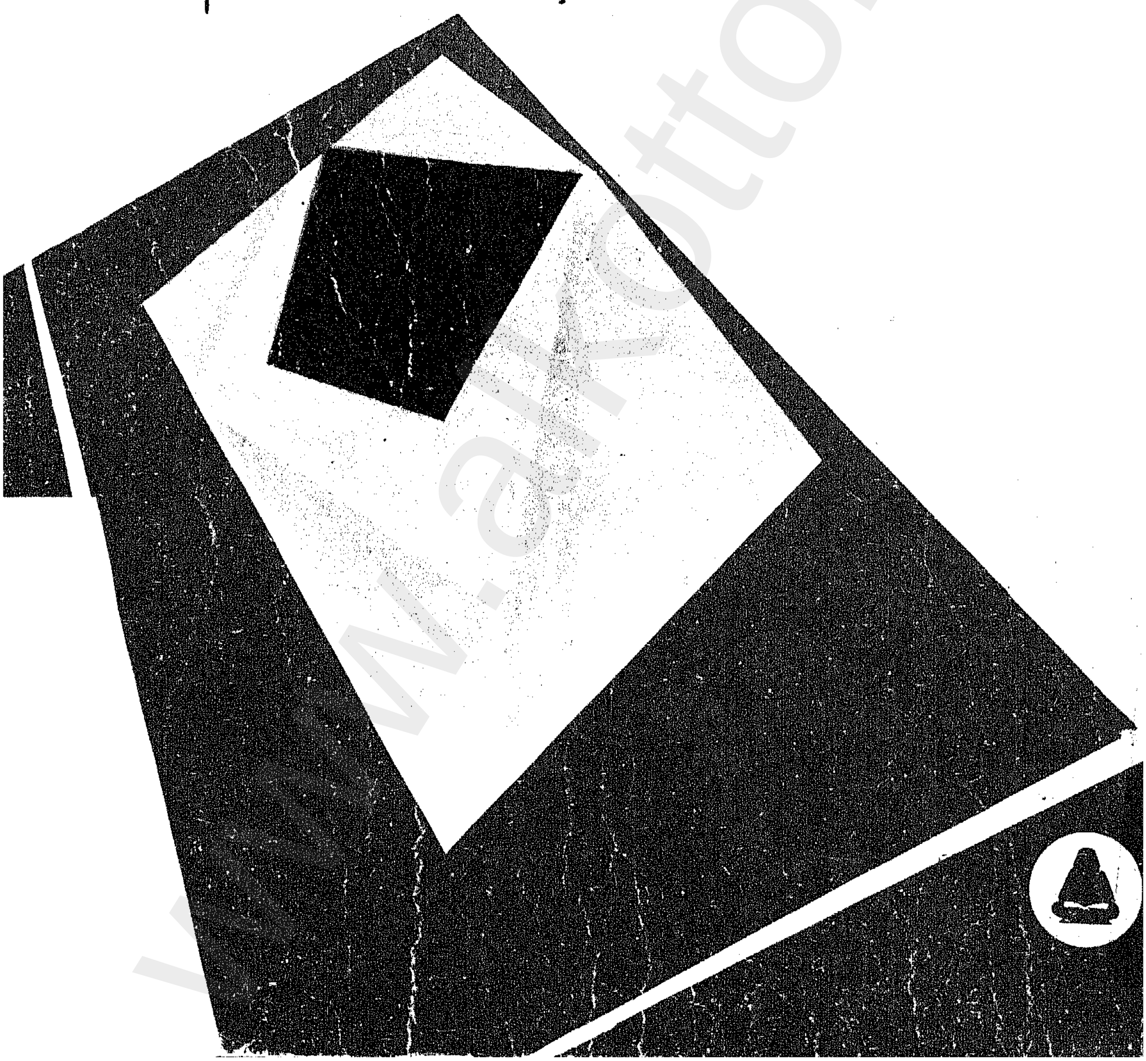
نصوص فلسفية

الحلم والواقع

تأليف: نيكولاس برديائف

ترجمة: فؤاد كامل

مراجعة: على أدهم



اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

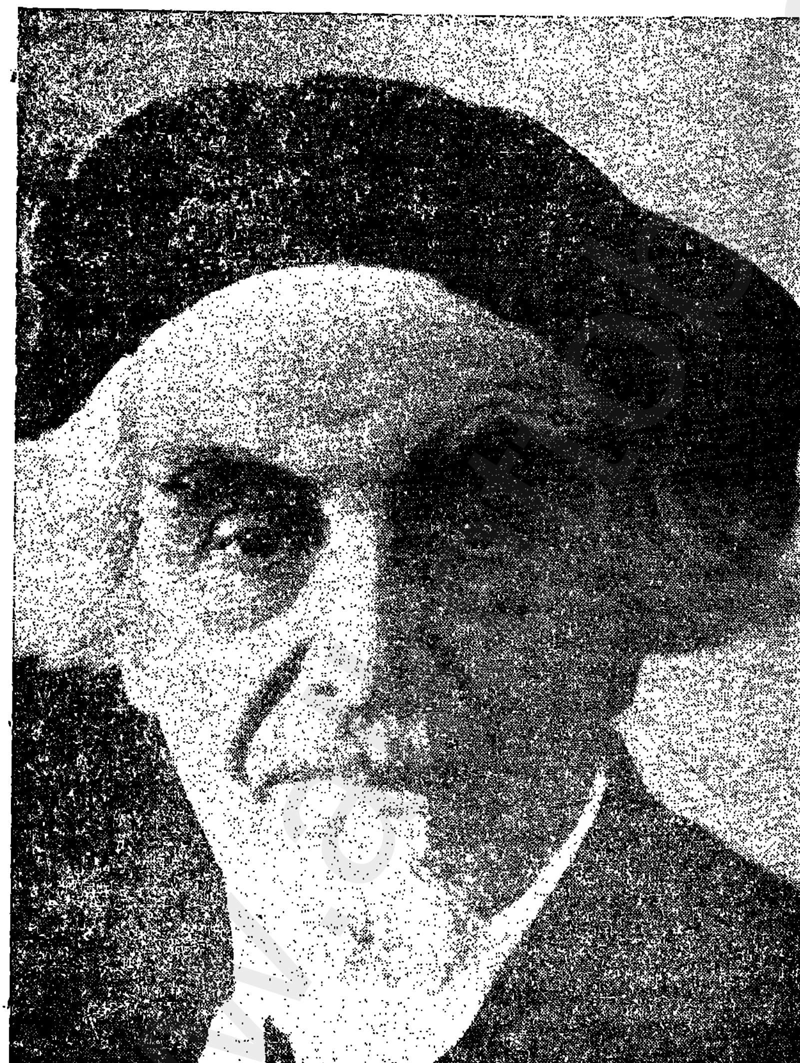
نصوص فلسفية

الحلم والواقع

الحلم والواقع

تأليف: نيكولاس برديائف
ترجمة: فؤاد كامل
مراجعة: على أدهم

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٤



مقدمة

اختمرت فكرة هذا الكتاب فى ذهنى زمنا طويلا ، وكنت اتصورها شيئا جديدا كل الجدة ، ذلك أن الكتب التى يكتبها الانسان عن نفسه صريحة فى دورانها حول ذاته ، ومطالعة الذكريات تترك خلفها شعورا بعدم الارتياح ، فالكاتب يستحضر اشـــخاصا وحوادث ، ولكنه فى الواقع لا يهتم فى اثناء ذلك كله بغير شخصه هو • وثمة أنواع متعددة من كتب الترجمة الذاتية ، فهناك فى المحل الأول « اليوميات » التى تكتب عاما بعد عاما ، ويما اثر يوم • وهى تمثل شكلا متحررا أشد التحرر من أشكال الأدب ، ومن أكثرها اليوم شيوعا فى فرنسا ، ويوميات أمييل Amiel من الأمثلة البارزة على هذا النمـــط من أنماط الترجمة الذاتية ، ومن أحدث « اليوميات » يوميات أندريه جيد • ثم هناك « الاعترافات » التى قدم لنا منها « القديس أغسطين » و « جان جاك روسو » أشهر الأمثلة • وهناك « الذكريات » • ويعد كتاب : اسكندر هرتزن Alexander Herzen وعنوانه « حوادث وأفكار ماضية » ــ الذى اتخذ مادته من مجموعة مذهلة من الموضوعات التاريخية ــ من ألمع الكتب فى هذا الباب • وأخيرا هناك « الترجمة الذاتية » المسماة بهذا الاسم ، وهى تعيد رواية الأحداث الداخلية والخارجية التى مرت بحياة ما فى ترتيبها الزمنى • وهذه الأنماط جميعا من الكتب تحقق تسجيلا للماضى أو تلخيصا له بدقة وصراحة تترددان بين الزيادة والنقصان ، والأفكار والمشاعر التى يعبر عنها الكاتب تتعلق بالماضى •

والكتاب الحالى لا ينتمى الى نمط من تلك الأنماط ، فأنا لم أحتفظ قط بدفتر اسجل فيه يومياتى ، كما لا أنوى الاعتراف بافعالى ومســاوئى على ملأ من

الناس ، ولا أريد كتابة ذكريات عن الأحداث التى عبرت مجــرى حياتى ، أو بالأحرى ليس ذلك هو موضع اهتمامى الرئيسى ٠٠ بل اننى لا أرمى الى كتابة ترجمة ذاتية بالمعنى الشائع لهذه الكلمة ، أى سرد قصة حياتى بترتيبها الزمنى ٠ ولما كان كتابى « ترجمة ذاتية » من حيث الطابع ، فانه يمكن أن يوصف بأنه « ترجمة ذاتية فلسفية » أو « تاريخ للروح ومعرفة الذات » ٠

ولا يمكن أن يظل تذكر الماضى موقفا سلبيا ، كما لا يمكن أن يكون مجرد تسجيل موضوعى للحوادث الماضـــية ٠ فليس غريبا اذن أن ينظر الناس الى التراجم الذاتية باعتبارها مفتقرة الى الصراحة ٠ بيد أنه لا مندوحة للذاكرة عن ان تكون ايجابية ، اذ تتسم بأنها تنطوى على قوة خلاقة تعمل على تغيير الأشياء ، وتقتضــى التوكيد الفردى والمحاباة ، وبالتالى التحــيز ٠ الذاكرة انتقائية فهى تنتقى أو تختار أشياء معنية ، وتترك أشياء أخرى للنسيان ، سواء شعرت بذلك أو لم تشـــعر ٠ وتذكرى لحياتى فى ظواهرها المتباينة هو بالنسبة الى تذكر ايجابى لا مراء فيه ، أعنى مجهودا خلاقا يبذله عقلى لفهم ماضى فى حاضرى ٠ وبين وقائع حياتى وتسجيلها فى هذا الكتاب يتدخل نشاط ادراكى خالق ، وبهذا التدخل تكتسب تلك الوقائع دلالتها ٠ وهذا هو ما يهمنى فوق كل شىء آخر ٠

ولقد كتب « جيته » كتابا عن نفسه يحمل هذا العنوان الدال « الشـــعر والحقيقة » ، وهذا الكتاب لا يتضمن تسجيلا فعليا لحياته فحسب ، بل يعكس أيضا خيال الشاعر المبدع ، وأنا لست شاعرا ، بل فيلسوف ٠ والكتاب الذى سطرته لا يحتوى على مادة خيالية ، وانما يعكس عملية من النشاط الادراكى ومحاولة للكشف عن المعنى فى حياتى ٠ ومثل هذه العملية الادراكية ليست مجرد تذكر أو تلخيصا للماضى ، وانما هى فعل خلاق أقوم به فى اللحظة الحاضرة ٠ وتتحدد قيمة هذا الفعل وفقا للدرجة التى يعلو فيها على الزمان ليتحد بالزمان « الوجودى » أى بالأبدية ٠ ولقد كان الانتصار على تيار الزمان الذى يفنى كل شىء هو الشاغل الرئيسى لحياتى ٠

وهذا الكتاب يدور فى صراحة وبلا مواربة حول ذاتى ٠ بيد أن « مركزية الذات egocentrism » وان تكن منفرة ، الا أنه من الممكن التكفير عنها بأننى أضع نفسى وحياتى موضع الاتهام ، وأجعلهما موضوعا لبحث نقدى ٠ وهذا ما أحاوله فى هذا الكتاب ، فأنا لا أريد أن أعرض روحى عارية أو أن اغســل ثيابى الداخلية على ملأ من الناس ، فهذا الكتاب فلسفى فى تصوره ، وهو موقوف على مشكلات الفلسفة ، مهتم بمعرفة الذات ، وبحاجة المرء الى فهم نفسه والكشف عن صورته الخاصة ، ومصيره النهائى ٠

وتنظر الفلسفة التى يطلقون عليها اسم « الوجودية » (وأقول بهذه المناسبة ان الجدة فى هذه الفلسفة مبالغ فيها الى أبعد حد) الى الفلســـفة باعتبارها معرفة بالواقع عن طريق الوجود الانسانى ومظاهره التعينية · والآن أرى ان وجودى هو أكثر وجودية من الجميع ، وهذه حقيقة · وعندما يعرف الانسان نفسه تتكشف له أسرار كان يجهلها خلال معرفته بالآخرين · ولقد خبرت العالم الذى يحيط بى والعمليات التاريخية وأحداث عصرى جميعها باعتبارها جزءا من نفسى وترجمة لحياتى الروحية · أن كل ما حدث فى العالم قد حدث لى اذا شئنا أن نأخذ ذلك على أعمق مستوى صوفى · وهنا أجابة الصراع الأساسى الكامن فى نفسى ، فأنا أختبر من ناحية أحداث عصرى ومصير العالم الذى أعيش فيه باعتبارها أحداثا تقع لى ، وباعتباره مصيرى الخاص ، ولكننى أشعر من جهة أخرى وأتعذب بهذه الحقيقة وهى أن العالم غريب عنى تمام الغـــربة ، منفصل عنى مطلق الانفصال · ولو أننى كتبت يومياتى لجاءت محتوية على هذه الأسطورة وهى : « لا شىء ملكى والأشياء جميعا تدخل فى حوزتى » ·

وقد كان من نصيبى أن أحيا فى عصر الكوارث بالنسبة لوطنى وبالنسبة للعالم أجمع · وأمام ناظرى تداعت عوالم قديمة ، ونهضت عوالم جديدة ، فكنت قادرا على ملاحظة التقلبات غير المألوفة التى طرأت على مصير الانسان ·· ولقد شاهدت أناســا يتحولون بتأثير تجـــاربهم ،و رأيتهم يتكيفون ويخونون أنفسهم فى سياق تلك التجارب · وربما كانت هذه الخيانة هى أشق ما يمكن أن يحتمله الانسان فى حياته · وانتهيت الى الايمان خلال المحن التى عانيتها ـ بقوة عليا كانت تهدينى ، ولعلها هى التى أنقذتنى من الضياع ·

ومن المألوف أن ننظر الى العصور المزدحمة بالأحداث والتغيرات على أنها « شـــائقة » « مثيرة » · والواقع أنها تجلب التعس المفرط والعذاب للكائنات الانسانية الفردية ولأجيال بأكملها · والتاريخ لا يترك الانسـان ، ولا يعبأ به فى الوقت نفسه · ولقد عشت ثلاث حروب منها حربان عانيتان ، وعشت ثورتين فى روسيا هما ثورة ١٩٠٥ و١٩١٧ ، كما حضرت حركة النهضة الروحية فى روسيا فى مستهل القرن العشرين ، وعشت خلال الشيوعية الروسية ، وأزمة مدنية برمتها ، والانقلابات التى حدثت فى أوروبا الوسطى ، وسقوط فرنســـا واحتلال الجيوش الالمانية لها كما عشت فى المنفى ، ومازلت أعيش فيه · وكانت الحرب المدمرة التى دارت رحاها على الأرض الروسية مصدرا لعذابى ·· ولست أعرف كيف تنتهى هذه المحن والاضطرابات التى يعانيها العالم · وكانت حياتى بوصفى فيلسوفا خاضعة للضغط المستمر الذى يفرضه هذا السيل من الأحداث فدخلت السجن أربع مرات : مرتين فى أثناء الحكم الروسى القديم ، ومرتين خلال

الحكم الجديد ، ونفيت الى شمال روسيا ، وحوكمت وهددت بالنفى المؤبد الى سيبيريا ، وأبعدت عن وطنى ، ومن المحتمل أن تنتهى حياتى فى المنفى • ولكننى لم أشتغل قط اشتغالا ايجابيا بالنشاط السياسى ، ومع أننى ارتبطت ارتباطا عميقا بكثير من الأشياء ، الا أننى لم أنتم كلية الى شىء منها بالذات ، ولم أسلم نفسى مطلقا لأى شىء ، اللهم الا مهنتى الخالقة التى يدين جوهر وجـــودى بالولاء • ولما كنت أبعد ما أكون عن عدم المبالاة بالمسائل الاجتماعية طيلة حياتى فقد عانيت حقا من وطأتها على معاناة عميقة ، ولم يعرف « ضميرى الاجتماعى » مطلقا معنى الاستقرار • ولكننى فى نهاية التحليل ، وبمعنى أعمق من ذلك ، كنت شخصا لا اجتماعيا • ولم تستطع الحركات الاجتماعية أن تدعى ولائى لها قلبا وقالبا ، فلقد كنت دائما « فوضويا » روحيا ، وصاحب نزعة فـــردية •

وهذا الكتاب لا يرتبط بأية خطة منظمة ، فهو يضم « ذكريات » ، ولكنها ليست أهم شىء فيه • وذكريات الأحداث والأشخاص تفسح مكانا للتأملات ، وهذه التأملات أهم من حيث النتائج • ولم أحاول تقسيم الفصول ــ كما هى العادة فى التراجم الذاتية ــ وفقا لترتيب زمنى صارم ، بل وفقاً للموضوعات والمشكلات التى كانت ذات أهمية خاصة بالنسبة لى طيلة حياتى • ومع ذلك فان سياق الحوادث لا يخلو من دلالة • وقد يجد القارىء مشـــقة فى متابعة طريقتى التكرارية ، والمبرر الوحيد لى هو أننى أرى الموضوع الواحد قائما فى ســـياقات مختلفة •

ولقد اعتزمت القيام بهذه الدراسة لنفسى ، لا لأننى أشعر بحاجتى الى التعبير عن نفسى ووصلها بالآخرين فحسب (وهو سبب لا أستطيع أن أزعم أنه كاف لاجتذاب اهتمام القارىء) ، ولكن لأن هذه الدراسة قد تساعد أيضا على اثارة وحل عدد من المشكلات التى تتصل بالانسان ومصيره ، كما قد تسهم فى العمل على فهم عصرنا • وأننى لأشعر أيضا بضرورة تفسير المتناقضـــات والمفارقات الظاهرة التى نسبت الى وجهة نظرى الفلسفية •

وتتطلب كتابة هذا النوع من الكتب ممارسة أشد القوى فى الانسان غموضا الا وهى الذاكرة • والذاكرة والنسيان يتعاقبان فى الحياة الانسانية ، وقد أنسى أشياء كثيرة لفترة ما ، وقد تختفى أشياء عديدة من شعورى ، ولكنها مع ذلك تظل باقية فى مستوى أعمق • ولقد كان النسيان مصدرا لقلق عميق بالنسبة الى ، اذ نسيت أحيانا لا مجرد حوادث ذات دلالة فحسب ، بل بعض الأشخاص الذين قاموا بدور عظيم فى حياتى • وأنا أعتبر ذلك دائما ضـــربا من الخيانة

والاخفاق · فثمة قوة واهبة للحياة فى الذاكرة . والذاكرة تسعى للانتصار على الموت · ولقد حان الوقت الذى تذكرت فيه ما نسيت مرة أخرى . وكان لهذا التذكر قوة محولة transfiguring حقيقية ·

ولست ممن ينظرون الى الماضى · وانما اتطلع دائما الى المستقبل · والماضى ذو دلالة بالنسبة الى عندما يكون مشتملا على المستقبل · ولست ممن يخضعون لحالات من انقشاع التوهم ، فهذه الحالات سمة للأشخاص الذين ينظرون الى الماضى ·· ولكننى أعرف عذاب الشوق ، وهو أمر مختلف جد الاختلاف · والعنصر الدرامى فى نفسى يطغى على العنصر الغنائى lyrical وهذا من شأنه أن يترك طابعه على ترجمتى الذاتية ·

وحين أفكر فى حياتى ، أنتهى الى هذه النتيجة وهى أنها لم تكن حياة فيلسوف بالمعنى المتداول لهذه الكلمة ، فقد كانت حياة زاخرة بالعواطف حافلة بالأحداث الدرامية ، الفردية والاجتماعية على السواء · كنت أبحث عن الحقيقة ، بيد أن حياتى لم تكن خاضعة للحكمة والتعقل ، وكنت أدرك دائما طبيعتها اللامعقولة التى لا يمكن التنبؤ بها ، ولهذا تعاقبت فى حياتى فترات السرور وفترات الظلام والقلق ، وتلت فترات النشوة فترات من الكآبة ··· ولكننى لم أنقطع فى وقت ما عن التفكير وعن البحث الجاد ·

وانى لأود قبل كل شىء أن أبرز الفترات المضيئة الخلاقة من حياتى ، وأود أن تتغلب الذاكرة على النسيان بالنسبة لكل ما له قيمة فيها · شىء واحد أطرحه جانبا عن عمد ،فسأتحدث قليلا عن العلاقات الشخصية التى أثرت على حياتى الخاصة · وينبغى على الذاكرة أن تحتفظ بتلك العلاقات فوق جميع الأشياء الأخرى الى الأبد ·

يقول « مارسل بروست » ـ الذى كرس خياله المبدع لمشكلة الزمان ـ فى كتابه الرئيسى « الوقت المسترد » Le Temps Retrouvé « لقد عانيت الى غير حد استحالة الوصول ـ فى الواقع ـ الى ما يستقر فى أعماق نفسى » · وكان ينبغى أن أتخذ هذه العبارة شعارا لكتابى لأنها تعبر عن التجربة الكامنة وراء حياتى كلها ·

وينبع الدافع الى تأليف هذا الكتاب من سلسلة من المتناقضات التى تصطرع فى نفسى · فأنا بطبيعتى متحفظ الى أقصى حد ، ومع ذلك فأنا أحاول أن أنقل نفسى الى الآخرين ·· وعلى هذا فقد فرضت على نفسى مهمة عسيرة ، وان حسن التمييز ليمنعنى من الحديث عن أمور كثيرة كان لها تأثير محدد على

ظاهريا وباطنيا على السواء ، كما أنه من العسير بصفة خاصة التعبير عن الثراء المستمد من الاتصال بشخص آخر • ولا يقل عن ذلك عسرا التعبير عن المأساة الخفية للحياة ، تلك المأساة التى أشعر بها شعورا قويا • فاننى أنتمى — على الرغم من العنصر الغربى فى نفسى — الى الطبقة الروسية المثقفة التى تتصف بسمة مميزة لها هى بحثها الدائم عن الحقيقة • ولقد ورثت من دعاة النزعة السلافية والنزعة الغربية طبيعتهم فأخذت عن « تشادايف » Chadayev و « خومياكوف » Khomyakov ، كما أخذت عن هرتزن Herzen وبلينسكى Belinsky ، بل وحتى من « باكونين » Bakunin وتشرنيشفسكى Cherinshevsky على الرغم من اختلاف كل منا فى موقفه من الحياة • اننى قبل كل شىء وريث للتقليد الذى وضعه « دوستويفسكى » و «تولستوى» ، وفلاديمير سولوفييف Vladimir Solovyev و « نيقولا فيودوروف » Nicolas Fyodorov اننى روسى ، ولهذا أنظر الى نزعتى العالمية ، والى عدائى للقومية على أننى روسى قبل كل شىء • كما أشعر بأننى مفكر أرستقراطى انتهى الى الاعتراف بحقيقة الاشتراكية • وقد قال البعض عنى اننى أتحدث عن المعنى الأرستقراطى للاشتراكية •

ولقد حاولت كتابة هذا الكتاب فى غاية من البساطة والصراحة ودون أى تزويق • والأجزاء التى تروى تاريخ حياتى عارية ولا تعدو تقرير الواقع ، وهذه الأجزاء ضرورية لابراز الجو الذى يوضح المراحل المتعددة من تاريخ ذهنى ابرازا مجسما •• بيد أن التوكيد الرئيسى فى هذه الترجمة الذاتية يلح على معرفتى بذاتى ، وعلى الطريقة التى توصلت بها الى معرفة عقلى ومطلبى الروحى وفهمهما ، ولست أهتم كثيرا بطبيعة البيئة التى عشت فيها قدر اهتمامى بطريقة الاستجابة التى واجهت بها هذه البيئة •

الفصـــــل الأول

الأصول • البيئة • المؤثرات الأولى • طبقة الأعيـــان الروس •

لا يخضع أصل الانسان للتبرير العقلى الا بصورة جزئية • وما من أحد يستطيع أن يفهم سر الشخصية وطابعها الفريد فهما تاما ، فشخصية الانسان أكثر غموضا الى غير حد من العالم الذى نعيش فيه • ذلك أنها - حقا - عالم بأسره فى حد ذاتها • والانسان عالم مصغر microcosmos يضـــم الأشياء جميعا بين جنبيه ، بيد أن الفردى المتميز والسمات المميزة هى وحدها التى تكتسب شكلا ملموسا من بين تلك الأشياء جميعا • والانسان فضلا عن ذلك كائن يحيا فى أبعاد متعـــددة ، ولقد كنت دائما على وعى بهذا الأمر داخـل ذاتى •

واستجابة الكائن الأولى للعالم الذى ولد فيه ذات دلالة هائلة • واذا كنت لا أستطيع أن أتذكر الصرخة الأولى التى أطلقتها حين أتيت الى هذا العالم ، فاننى أعلم - علم اليقين - أن شعورى منذ البداية كان شعور كائن سقط فى جهة غريبة • ولقد شعرت بهذا فى اليوم الأول من حياتى الواعية كما أشعر به فى الوقت الحاضر • وكنت دائما « حاجا » ، اذ ينبغى على المسيحيين أن يشعروا دائما بأنهم لا يملكون مدينة يفيئون اليها على الأرض ، وانما يجب أن يكونوا باحثين عن المدينة المقبلة • بيد أننى لم أنظر قط الى هذا الشعور وهذا البحث على أنهما فضيلة أو كمال ، بل كان يبدو لى - فى الواقع - أنهما يكشفان عن تصدع فى موقفى من العالم والحياة • وكان الاحساس بأننى أمتد بجذورى فى الأرض غريبا على ، وانما كانت تجتذبنى فى قوة تلك الأسطورة الأورفية التى تتعلق بأصل الروح الانسانية ، والتى تتحدث عن سقوط روح الانسان من عالم أعلى الى عالم أدنى ، اذ تقول :

ما برحت موسيقى السماء التى استمعت اليها عند مولدها
تغرق الأغانى الحزينة المنبعثة من الأرض ·(١)

لم أشعر مطلقا بأننى « أنتسب » الى أبوى ، وكانت علاقات القرابة وروابط الدم و « السلالة » تبعث فى نفسى نفورا غريبا · ولست بقادر على أن اهيىء نفسى للميل الى مبادىء الحياة الأسرية والمنزلية ، والارتباط بتلك المبادىء الشائعة فى المجتمع الغربى يثير دهشتى · وكان بعض أصدقائى يسموننى مازحين : « عدو الجنس البشرى » ــ ومع ذلك فاننى أحب الانسان حبا شديدا · ولقد كنت أنفر دائما من المشابهات الأسرية التى تقوم بين الآباء والأبناء وبين الاخوة والأخوات ، ذلك أن التشابه الأسرى يصدمنى دائما باعتباره تحديا لكرامة الشخص الانسانى ، فأنا لا أعتز الا بالفردى المتميز ، وبالذاتى فى الانسان ·

بيد أنه من الخطأ استنتاج أننى لم أكن شغوفا بوالدى · بل على العكس من ذلك كنت أحبهما وأجلهما ·· غير أن موقفى كان موقف الأب أكثر من أن يكون موقف الابن · فأنا معنى بهما ، قلق عليهما خشية أن يصيبهما المرض ، وكانت فكرة وفاتهما مصدر عذاب متصل لى · أما شعورى بالبنوة فكان ــ من جهة أخرى ــ ضعيفا دائما · وما أستطعت أن أدرك مطلقا لماذا يعلق الناس مثل تلك الأهمية على مبدأ « الأمومة » أو مايسمونه « أمنا الأرض » · ولقد كانت أمى جميلة جمالا فائقا ، ولكننى لم أستطع مطلقا أن اكتشف فى نفسى شيئا يقترب أدنى اقتراب من « عقدة أوديب » التى خلق منها « فرويد » أسطورة عالمية : وكان يبدو لى فى الواقع أن صلة الدم تستبعد بالضرورة اية تجربة للحب الجنسى ، ذلك أن موضوع الحب يجب أن يكون بعيدا متعاليا ساميا فوق نفسى : وهذا هو ما يميز حقا تلك العقيدة الرومانتيكية عن « السيدة الجميلة » ، وأنا رومانتيكى روسى ينتمى الى أوائل القرن العشرين ·

وأنا ــ من ناحية الأصل ــ عضو فى طبقة الأعيان الروس · وليس هذا على ما أعتقد مجرد مصادفة ، فقد ترك طابعه على تكوينى العقلى · وكان أبواى ينتميان الى « مجتمع الطبقة الراقية » لا الى طبقة الأعيان فقط : وكنا نتخاطب فى المنزل عادة باللغة الفرنسية · وكان والداى على صلات عديدة بطبقة النبلاء وخاصة خلال النصف الاول من حياتهما الزوجية ، ومن هذه الصلات ما كان

---

(١) من قصيدة « الملاك » نظم لرمنتوف Lermontov وترجمة باتريك تومسون Patrick Thomson.

قرابة بالدم ، ومنها ما كان نتيجة لخدمة والدى بسلاح فرسان الحرس • وكان أبواى فى أثناء طفولتى صديقين لكبيرة الوصيفات « الأميرة كوتشوبيى » Couchoubey التى كان لها تأثير عظيم على « الاسكندر الثالث » • وكان « تشريفين » قومندان القصر ، والصديق المقرب للاسكندر الثالث زميلا لوالدى فى الكتيبة • فأنا أنحدر من ناحية الأب ــ من أسرة عسكرية . وكان أجدادى جميعا « جنرالات » و « فرسانا » من طبقة القديس جورج ، قد بدءوا جميعا حياتهم العسكرية بالخدمة فى الحرس • وكان جدى « م٠ن٠ برديائف » رئيسا لقبيلة « الدون » القوزاقية ، وجدى الأكبر « ن٠م٠ بردياتف » حاكما عاما لمدينة نوفوروسيسك Novorosyisk . وقد طبعت مراسلاته مع « بول الأول » فى كتاب « روسيا القديمة » •

وكان والدى ضابطا بالحرس ، ولكنه تقاعد فى سن مبكرة ، وذهب ليعيش فى ضيعته المسماة « أوبوخوفو » Oboukhovo على ضفاف نهر الدنيبر حيث أنعم عليه برتبة « مارشال » من طبقة النبلاء • وقد انضم الى الجيش فى أثناء الحرب التركية ، ثم أصبح فيما بعد رئيسا لادارة البنك الزراعى الخاص بالاقليم الجنوبى الغربى ، وظل فى هذا المنصب خمسة وعشرين عاما • ولم يكن يميل الى الترقى السريع فى المناصب ، حتى لقد رفض لقبا كان يستحقه على قيامه بوظيفة قاضى الصلح الشرفية أكثر من خمسة وعشرين عاما • وعندما كنت طفلا أدرج اسمى فى سلاح طلبة الياوران العسكرى نظير الخدمات التى قامت بها أسرتى للأمة • ولما كان والداى يعيشان فى « كييف » فقد التحقت بسلاح طلبة الياوران الموجودة بها ، مع احتفاظى بحق الانتقال الى سلاح الياوران فى العاصمة فى أى وقت أشاء •

وكانت أمى تتمتع بلقب « اميرة كوداشف » Kudashev منذ مولدها وكانت نصف فرنسية ، أما أمها ــ وهى جدتى ــ فكانت الكونتسة شوازيل Choiseul ، والحق أن أمى كانت بقلبها فرنسية أكثر منها روسية • فقد تلقت تعليما فرنسيا ، وعاشت صباها المبكر فى باريس ، وكانت تكتب رسائلها بالفرنسية دون غيرها ، ولم تتعلم الكتابة بلغة روسية سليمة على الاطلاق • وكانت تشعر على الرغم من أنها ولدت على المذهب الأرثوذكسى ، أنها بالفرنسية ، وكثيرا ما داعبتها قائلا أنها لم تكن على وفاق مع الله • وربما كان جديرا بالذكر أن واحدة من جداتى ، وواحدة من جداتى الكبريات كانتا راهبتين • أما والدة أبى ــ وكان اسمها باخميتيفا Bakhmeteva فقد صارت سرا راهبة فى أثناء حياة جدى • وكانت على صلة وثيقة بدير

« كييفو - بتشرسكى » Kievo-Pechersky : وكان القسيس الشهير « بارفناى » Parfeny أباها الروحى وصديقها ، وقد خضعت حياتها كلها لارشاده . وانى لاتذكر فى هذا الصـــدد انطباعا من انطباعات الطفولة ، عندما توفيت جدتى ، أخذونى الى جنازتها (وكنت حينذاك فى الســادسة من عمرى) ، فادهشنى أن أراها راقدة فى تابوتها وقد ارتدت ثياب راهبة ، وتمت مراسيم دفنها وفقا لشـــعائر الرهبنة . وأقبلت الراهبات وقلن انها تنتمى اليهن .. وكذلك صارت أم جدتى لأمى « الأميرة كوداشف » راهبة بعد وفاة زوجها .. وكنت أحتفظ فى حجرتى - حتى فى أثناء الحكم السوفييتى - بصورة زيتية كبيرة لها وهى فى ثيا بالراهبات وقد ارتسمت على وجهها علامات الصرامة البالغة .

وكانت جدتى من ناحية أبى تعيش فى منزلها الخاص المحـــاط بحديقة فى الجزء الأعلى من « كييف » الذى يدعى « بتشرسك » Pechersk ، وكان لهذا الحى جو خاص يجمع بين العنصرين الدينى والحربى ، فقد كانت تقع فيه أديرة « كييفو - بتشرسكى » و « نيكولسكى » وعدد كبير من الكنائس الأخرى ، وكان الالتقاء بالرهبان فى الشوارع أمرا مألوفا . وكان قبر « آسكولد » Askold قائما فى الجبانة الراقدة فوق التل المطل على نهر الدنيبر حيث دفنت جـــدتى وبعض أعضاء أسرتى . وفى الوقت نفسه كانت « بتشرسك » حصنا عسكريا يضم عددا ضخما من الجنود .. ولقد كانت روسيا القديمة المقاتلة المتنسكة هى التى عارضت فى نجاح كافة محاولات الأخذ بالمدنية الحديثة . وتعد مدينة « كييف » من أجمل مدن روسيا ، بل من أجمل مدن أوروبا بأسرها ، فهى تنهض عالية فوق التلال المحيطة بضفاف الدنيبر ، وهى تستشرف من ارتفاعها ذاك منظرا لامتناهيا ، كما تمتاز بحدائقها الرائعة ، وتعد كاتدرائية القديسة صوفيا المشـــيدة بها من أروع نماذج فن المعمار الكنسى الروسى . ويجاور « بتشرسك » حى « ليبكى » Lipki وهو فى الشطر الأعلى من المدينة أيضا ، كما أنه الحى الذى تقطنه طبقة النبلاء وكبار موظفى الحكومة ، ويتألف من منازل واسعة لكل منها حديقة . وفى هذا الحى كان يعيش والداى دائما ، وكان لهما منزل بيع عندما كنت صبيا . وأذكر أن حديقتنا كانت تجاور حديقة أخرى كبيرة يملكها الدكتور ميرينج Mering وتحتل الجزء الأوســـط من « كييف » . وكنت طيلة حياتى أحب الحدائق . بيد أن احساسا كان يراودنى بأننى ولدت فى غابة ، اذ كانت الغابات تأسرنى أسرا خاصا لأنها كانت فى نظرى رمز الطبيعة لسر الحياة الفطرى . وقد ارتبطت طفولتى وصباى بحى « ليبكى » الذى كان عالما يختلف الى حد ما عن حى « بتشـــرسك » .. عالما مفتوحـــا لمؤثرات الحضـــارة الأوروبية .. عالما يميل الى المرح ، وهو شـــىء لم يكن مسموحا به فى « بتشـــرسك » .. أما على الجانب الآخر من « كريشـــاتيك » Kreschatic - وهو الشارع الرئيسى الذى تحف به الحوانيت الكبيرة والذى

يمتد بين ربوتين ــ فكانت تعيش فيه الطبقة الوسطى الفقيرة ٠٠ أي السكان الذين يشتغلون بالتجارة ٠ وعلى يمين الدنيبر يقوم حي « بودال » Podal ومعظم سكانه من اليهود ، وان كانت توجد به أيضا « أكاديمية كييف اللاهوتية » ٠٠ وكانت أسرتنا ــ رغم انحدارها من سلالة موسكوفية ــ تنتمى الى الطبقة الأرستقراطية التى تعيش فى الجنوب الغربى ، وهى منطقة كانت عرضة للمؤثرات الغربية القوية ، ويكون ذلك واضحا تمام الوضوح دائما فى « كييف » ٠ اذ كانت أسرة والدتى ذات طابع غربى متميز تتجلى فيه السمات البولندية والفرنسية ٠ أما « كييف » فكانت تبدى دائما ــ خلال تاريخها المتقلب ــ علامات على اتصالها بأوربا الغربية ٠ وقد ترددت مرارا منذ طفولتى على الخارج ، وكنت فى السابعة من عمرى عندما سافرت مع والدتى لأول مرة الى كارلسباد حيث ذهبت للاستشفاء ٠ وكان أول انطباع لى عن مدينة أجنبية هو انطباعى عن « فيينا » التى أثارت فى نفسى اهتماما عظيما ٠

وكان جدى « م٠ن٠ برديائف » من أبرز أسلافى وأكثرهم حيوية ، وكثيرا ما سمعت القصص تروى عنه ٠ وكان والدى مغرما بأن يروى لنا كيف هزم جدى نابوليون ٠ ففى معركة « كولمسك » Kulmsk التى دارت رحاها عام ١٨١٤ هزم نابوليون الجيشين الروسى والألمانى ، وكان جدى فى احدى فصائل الجيش التى قتل ضباطها جميعا بما فيهم الجنرال ، ولم يكن حينذاك أكثر من ملازم صغير فى الحرس ، فكان لابد له من أن يتولى قيادة الكتيبة بأكملها ، وهنا أخذ جانب المواجهة ، وشن هجوما عنيفا على المراكز الفرنسية ، فظن الفرنسيون أن أعداءهم قد تلقوا امدادات جديدة ، فتزعزع موقف جيش « نابليون » وخسر موقعة « كولمسك » ، وأنعم على جدى بصليب القديس جورج وبالصليب الحديدى البروسى ٠ بيد أننى استمعت الى قصة أخرى ٠٠ فقد كان جدى قائدا لاحدى الكتائب ، وكان يعامل رجاله معاملة حسنة الى أبعد حد ، وكان هذا الأمر يدل بالنسبة لجندى فى عهد القيصر « نيقولا الأول » على أنه انسانى جدا ٠ وكثيرا ما قال والدى انه كان يعارض نظام رق الأرض ، ويخجل منه ٠ فلما عين جنرالا ، وذهب الى الحرب أهدى اليه رجال كتيبته وساما على هيئة قلب ، نقشت عليه هذه العبارة : « فليحفظك الرب جزاء ما أبديته من طيبة نحونا » ٠ وكان هذا الوسام معلقا دائما فى مكتب أبى ، وكان فخورا به بصورة خاصة ٠ وهذه قصة أخرى : كان جدى رئيسا لقبيلة « الدون » القوزاقية ، وحين اعتلى « نيقولا الأول » العرش أراد أن يلغى الحريات الخاصة التى يتمتع بها القوزاق كجزء من سياسة المركزية العسكرية والسياسية ٠ وكان هناك استعراض فى « نوفوتشركاسك » ، فطلب « نيقولا » من جدى ــ وكان قائدا للمنطقة ــ أن يتأكد من تنفيذ أوامره الخاصة بالغاء حريات القوزاق ٠٠

وقال جدى انه يعتبر الغاء هذه الحريات ضارا بحياة المنطقة كلها ، وطلب السماح له بتقديم استقالته · واستولى الرعب على الجميع ، وتوقعوا أن ينزل به « نيقولا الأول » الحانق ـ العقاب · بيد أن مزاج « نيقولا » تحول على غير توقع ، فعانق جدى وألغى الأمر الذى أصدره · وشيئا آخر أذكره وهو أن جدى اعتاد أن يعرب فى شيخوخته عن بغضه للرهبان على الرغم من أنه كان عضوا بالكنيسة الأرثوذكسية ·

وربما كان مناسبا فى هذا المقام أن أتحدث عن سمات معينة من الخلق يبدو أنها وراثية فى أسرتنا · فأنا شخص سريع الانفعال ، ميال الى الانفجار غضبا · وكان والدى غاية فى الطيبة والعطف ، ولكنه كان مندفعا الى أبعد حد ، ولهذا السبب حفلت حياته بضروب من الصراع والمشاحنات · وكذلك كانت تستبد بأخى فى بعض الأحيان نوبات غضب حقيقية · وأنا نفسى ورثت مزاجا غضوبا سريع الاشتعال ، وهذا اتجاه غير نادر بين طبقة الأعيان الروسية · وكنت قد اعتدت وأنا صبى صغير على أن أضرب فى أثناء غضبى ·· وهذه السمات ولدت الصلابة فى مسلكى وموقفى من الحياة · وعلى الرغم من صفات والدى الطيبة ، فقد كان ميالا الى الصلابة والعناد ·· وأنا أيضا أشعر بهذه المثالب فى نفسى ، وأعتقد أنها شىء مشترك فى طبقة الأعيان الروسية فى جملتها ، بل لقد أحسست أحيانا بهذه الصلابة فى تفكيرى وموقفى العقلى · واذا كان من الحق ـ وأعتقد أنه لكذلك بعمق ـ أن روح الانسان الحقيقية ، روحه الخلاقة وعمله المبدع ، يتفوقان على ميوله الطبيعية والوراثية ، فان أخلاقه وصفاته النفسية الجسدية تتأثر بها تأثرا بالغا · وعندما كنت فى المنفى « بفولوجدا » ضربت رجلا من موظفى الحكومة المحليين لأنه تعقب سيدة من معارفى فى الطريق ، وحين ضربته هددته بالفصل من وظيفته ·· فى مثل تلك الحالات كانت « دماء أجدادى » تصعد الى رأسى · ولقد عرفت نوبات غضب حقيقية ·· وأنا حين أستحضر هذه الأشياء لذاكرتى لا يسعنى الا أن أفكر فى أننى كنت قادرا على الافصاح عن غضبى دون أن أخشى عقابا ، وذلك لأننى أتمتع بمركز أتميز فيه عن الآخرين · اذ كنا لانزال نحيا فى عصر بطريركى (السيادة الأبوية) · وكان والدى ـ الذى اعتنق فى النصف الثانى من حياته آراء متحررة جدا ـ لا يستطيع أن يتصور الحياة الا فى مجتمع أبوى أو شبه أبوى حيث تلعب التقاليد الأسرية المستقرة والروابط الأسرية دورا حاسما · وعندما ألقى رجال المباحث القبض على وقاموا بتفتيشى ، كانوا يسيرون على أطراف أصابعهم ، ويتحدثون همسا حتى لا يزعجوا والدى · وكانوا يعلمون هم ورجال البوليس أن أبى على صلة حميمة بالحاكم ، وأنه صديق بعض الشخصيات الكبيرة ، وله اتصالات فى بطرسبورج · وأنا نفسى على الرغم من اشتغالى بالنشاط الثورى

واعتناقى للديمقراطية الاشتراكية لم اكف مطلقا - وان يكن ذلك لا شعوريا - على أن أكون نبيلا من حيث جوهر نفسى .. بل كان ذلك يتمثل أيضا فى انكارى للعالم الذى أنتمى اليه عن طريق المولد والنشأة . وكنت أنفر من ذلك خاصة عندما لاحظت أن أصلى كان يولد شعورا « بالدونية » عند رفاقى .

وكانت مربيتى «أنا ايفانوفنا كاتامنكوف» Anna Ivanovna Katamenkov من أكثر الأشخاص الذين عشت بينهم فى أثناء طفولتى تأثيرا على . فقد كانت « نيانيا » Nyanya - ومعناها مربية بالروسية - طرازا خاصا عجيبا من الناس تتميز به روسيا القديمة وخلده بوشكين ، ومن الغريب أن ينشأ مثل هذا الطراز فى ظروف العبودية ، فقد كانت « نيانيا » تابعة لجدى ، وأشرفت على تربية جيلين من آل برديائف ، جيل والدى وجيلى أنا . وكان والدى يضمر لها عاطفة وتقديرا عظيمين . وكانت مربية كلاسيكية تؤمن ايمانا أرثوذكسيا حارا ، وتتمتع بعطف ورقة غير مألوفين ، وتملك احساسا بالكرامة رفعها فوق مرتبة الخادمة ، وجعل منها عضوا فى الأسرة . وللمربيات فى روسيا مركز خاص على وجه العمـــوم . اذ كان هذا المركز يتميز ، ويعلو بمعنى ما - على كافة الطبقات الاجتماعية المعروفة . ولقد كانت المربية بالنسبة لكثير من رجال الطبقة الراقية الروسية هى الصلة الموثيقة الوحيدة بالشعب . وماتت مربيتى بعد أن طعنت فى الســن وبلغت من الكبر عتيا ، وكنت حينذاك فى الرابعة عشـــرة من عمرى ، وما برحت ذكريات طفولتى الأولى مرتبطة بها ، وأذكر أننى كنت أسير الى جانبها فى سن الرابعة أو نحو ذلك - فى أحد ممرات الحديقة بضيعة أسرة أبى فى « أوبوخوفو » Obukhovo .

الواقع أننى لا أعى أية ذكريات سابقة . وثمة هوة واسعة تمتد بعد ذلك فلا أستطيع أن أذكر شيئا آخر . والذكريات التالية ارتبطت فعلا بمنزلنا فى « كييف » ولقد بيعت ضيعة أسرة والدى عندما كنت طفلا ، واشترى والدى عوضا عنها منزلنا فى « كييف » ذلك المنزل الذى تلتف حوله الحديقة . وكان والدى يميل دائما الى الاسراف الشديد ، ويتذكر فى حسرة حياتنا فى الضيعة ويشعر بالحنين اليها طيلة حياته . أما والدتى فكانت أشد شغفا بالمدنية . وانى لأذكر المناقشات التى دارت بينهما حول هذا الموضوع ، وأنا نفسى كنت أحلم دائما بالريف ، وأتمنى أن يشترى والدى ضيعة جديدة حتى ولو كانت أصغر من الضيعة القديمة . وكثيرا ما صور خيالى المنزل الريفى الذى أحب العيش فيه : كنت أريده بالطبع أن يكون قريبا من الغابة التى كانت تثير خيالى دائما .. بيد أن حلمى هذا لم يتحقق مطلقا . وكان والدى يملك أيضا ضيعة موقوفة فى أقصى الغرب من بولندا ، كانت هدية لجدى اعترافا بخدماته ، غير

اننا لم نعش هناك قط ، بل كان يحتلها مستأجر · ولقد ذهبت هناك مرة واحدة فى حياتى فى أثناء عودتى من المانيا الى روسيا ، وكنت حينذاك صبيا · ولما كانت هذه الضيعة موقوفة ، لم يكن من المستطاع بيعها او رهنها ، وظهر بعد ذلك أن الوقت نعمة ، اذا أنقذنا من الخراب التام ·

وقد كان موقفى دائما من الملكية موقفا عجيبا ، فما استطعت دائما أن اتصور شيئا من القداسة ـ ولو من بعيد ـ حولها ، بل كنت أشعر حيالها ـ فى الواقع ـ باحساس من الخطيئة الأساسية · ومع ذلك كنت اشعر بالملكية ازاء الأشياء الخاصة بالاستعمال الشخصى المباشر مثل الكتب ومنضدة الكتابة ، وثيابى ·· الخ · وكان يبدو لى دائما أن النقود الضرورية للعيش مرسلة « من أعلى » ، وذلك حتى أستطيع أن أكرس نفسى جملة وتفصيلا لعملى الخلاق · ولقد كنت أعتمد على ذلك ـ حقا ـ بطريقة مدبرة ، وان كنت فيما عدا ذلك من الأمور غير عملى على الاطلاق · وانقضت حياتى ـ فيما عدا طفولتى وصباى ـ فى ظروف مالية ضائقة ، وعانيت أحيانا عسرا شديدا من هذه الناحية · وكنت أقضى الصيف عادة فى أثناء صباى فى ضيعة رائعة تملكها خالتى « ج·ن· جوديموف ـ لفكوفتش » J.N. Gudimov-Levkovich اذ كنا نرتبط بهذه الأسرة التى تعد مركزا من مراكز المجتمع فى كييف ـ ارتباطا وثيقا · وبينما كان ثمة شىء حزين مكدود يشيع بعمق ـ وان يكون غير ملموس ـ فى جو أسرتنا ، كان منزل أسرة جوديموف ـ لفكوفتش مليئا فى جميع الأوقات بالشباب ، والجو الذى يشيع فيه مرحا طروبا · وكنت مرتبطا أوثق ارتباط بأبناء خالتى ، وخاصة بناتاشا Natasha التى ظلت على علاقات ودية معى فى أثناء اقامتى فى باريس حتى كانت فاجعة موتها · وكانت أسرة سعيدة حقا ·· أما فى منزلنا ، فقد كان كل شىء على العكس من ذلك يبدى مختلفا : فثمة شعور بالهم وسوء التكيف مع الحياة ، وكان التوافق الحقيقى مفقودا ، وبالتالى كانت الاحساسات والمشاعر سهلة الاثارة · وكانت أسرتنا قد هجرت فعلا النظام المستقر القديم الذى يسود مجتمعا شبه اقطاعى ، ولكنها لم تنجح بعد فى التكيف مع نظام جديد أكثر « ديمقراطية » من نظم الحياة · وتعرضت معتقدات أبى لمحنة ، وبدأ يعتنق آراء تحررية ، وقطع تدريجيا الصلة بينه وبين التقاليد المقررة ، ولهذا كثيرا ما اشتبك فى صراع مع المجتمع الذى يعيش فيه · وحدث أيضا تصدع فى أسرتنا بسبب الخلافات العميقة التى نشأت بين أبى وأمى من جهة وبين أخى (وكان يكبرنى بخمسة عشر عاما) وأسرته من جهة أخرى · وكان أخى يتمتع بمواهب عظيمة ، وان تكن فى مجال آخر مختلف عن مجالى · بيد أنه كان عصبيا بعيدا عن الاستقرار ضعيف الشخصية، شقيا غاية الشقاء لأنه عاجز عن ممارسة مواهبه فى الحياة · ولا أملك نفسى

كلما نظرت خلفى من التفكير فى أن هذه الظروف جميعا تذكرنى - ان خيرا او شرا - بالأسر التى وصفها « دوستويفسكى » فى رواياته .

* * *

عشت طفلا وصبيا عن طريق صلات أسرة أمى البولندية فى الجو الذى يحيط بمجتمع ارستقراطى شبه اقطاعى . وكانت الكونتسة ماريا برانيتسكايا Maria Branitskaya وزوجها من أبناء عمومة أمى . وكانت الكونتسة صديقة حميمة لأمى . وكثيرا ما ذهبنا فى أثناء طفولتى لنبقاء مع آل «برانيتسكى» حتى لقد كان هناك جناح فى منزلهما مخصص لأسرتنا . وكانت خالتى تملك مدينة « بيلايا تسركوف » Belaya Tserkov وتبلغ مساحتها حوالى ١٥٠ ألف فدان من منطقة « كييف » ، كما كانت تملك قصورا فى وارسو وباريس ونيس وروما . وكان آل « برانيتسكى » يمتون بصلة قرابة للأسرة المالكة . وكان « للاسكندرية » الواقعة فى ضواحى « بيلايا تسركوف » حيث تقيم الأسرة صيفا - منتزه فخم على الطراز الباروكى ، ويؤلف هو والمدينة شيئا أشبه بدوقية اقطاعية ذات بلاط يؤمه عدد كبير من الناس ، وتحيط بها اصطبلات ضخمة تمتلىء بالجياد الأصيلة ، وتقام فيها حفلات صيد يجتمع فيها كافة نبلاء الجنوب الغربى . وكانت المآدب فاخرة متلألئة . وكلما حللت بآل « برانتسكى أفردت لى عربة يجرها مهران ، وقد اعتدت أن أقودها بنفسى فى الغابات لأجمع نبات عش الغراب ، وذلك بينما يجلس الحوذى مرتديا حلته الرسمية لبولندية فى مؤخرة العربة . وكان لى حمار أمتطيه عندما أريد التجوال فى الحديقة .. بيد أن زياراتى للاسكندرية استمرت فى السنوات التالية حين أصبحت طالبا يعتنق المبادىء الاشتراكية الديمقراطية . وكنت أذهب أحيانا الى مقر آل « برانتسكى » الشتوى فأمضى هناك شهرا أو نحوه فى دراسة هادئة . ومع ذلك لم أحب هذا العالم اطلاقا ، بل تمردت عليه ولما أزل طفلا ، وكنت أشعر دائما بتنافر شديد ، وهوة لا سبيل الى عبورها حقا - بينى وبين هذه الطريقة الدنيوية من الحياة ، وان كانت الكونتسة برانتسكايا قد ظلت تبدى عطفها على دائما بطريقتها الدنيوية الساحرة حتى بعد أن أصبحت ماركسيا ، وصرت أتردد عليها تملؤنى الحماسة من مناقشاتى مع « لوناتشارسكى » . ومهما يكن من أمر فقد كنت حريصا على التأنق فى ملبسى ، اذ كنت فى مثل هذه المناسبات - وفى مناسبات كثيرة غيرها ميالا الى التأنق الى حد ما ، مهتما أشد الاهتمام بمظهرى ، مغرما دائما - كطابع مميز لى - بالعطور وأنواع السيجار الفاخرة .

كنت أحب التجول بمفردى فى متنزه « الاسكندرية » البديع ، أحلم بعالم آخر يختلف تمام الاختلاف عن العالم الذى وجدت نفسى فيه . غير أنه فى غمرة

الثورة أتلفت هذه الأراضى البديعة ، وأحرق ذلك القصر ، ولم تجد الكونتسة « برانيتسكايا » – وهى امرأة ملحوظة المكانة بطريقتها الخاصة – بدا من الفرار ، ولم تلبث ان قضت نحبها بعد ذلك · وعندما كنت أجلس فى حجرة استقبال آل برانتسكى فى أثناء اعتناقى الماركسية ، لم أتنبأ بأن الماركسية سوف تحطم هذا العالم الجميل ·· الخيالى بمعنى من المعانى · وقد اعتدت فيما بعد أن التقى فى باريس بابنة الكونتسة « برانتسكايا » « الأميرة بيشيت رادزيفيل » Bichette Radzivil .

والى هذا العالم الاقطاعى الذى أتذكره – كما أتذكر شيئا مما قبل التاريخ – كانت تنتمى أيضا الأميرة « لوبوخين – ديميدوف » – وهى ابنة خالة أخرى لأمى – وكان زوجها – وهو من زملاء أبى الضباط فى الحرس – أبا روحيا لى (أشبينا) · وكانت « أولجا لوبوخين – ديميدوف » « سيدة عظيمة » شديدة الكبرياء آمرة ذات جمال خارق · وكان والدى على خلاف معها ، ولهذا كان يأبى ان ينضم الينا كلما ذهبنا لزيارتها فى ضيعتها « خورسون » Khorsun · وكانت هناك منافسة عجيبة على السيادة بين « آل برانتسكى » و « آل لوبوخين – ديميدوف » ·· أما أفراد الأسرة الأخيرة فكانوا يؤثرون العيش فى اسراف ، وكانت الأسرة المالكة تقرضهم المال من حين الى آخر · ولقد اعتدت لقاء خالتى « لوبوخين – ديميدوف » فى المنفى ببرلين قبل وفاتها بوقت قصير ، فلم تكن تكف عن التعبير عن احتقارها لدعاة الملكية الروس وللساسة اليمينيين : اذ كانت ترى فيهم افتقارا تاما الى الروح الارستقراطية الحقيقية ، وميلا الى الغوغائية · فقد كان « اتحاد الشعب الروسى »(١) مثلا ذا طابع غوغائى دائما ، ولهذا كانت الغالبية العظمى من طبقة النبلاء تعرض عنه · وأتذكر أن خالتى كانت تحيك دائما شيئا للامبراطورة « ماريا فيودوروفنا » التى كانت على علاقة وثيقة معها · غير أنها كانت تحتقر دعاة الملكية الروس وترفض استقبال زعمائهم فى دارها ·

وقد تعلمت – كما ذكرت آنفا – بالأكاديمية العسكرية ، بفرقة كييف للطلبة العسكريين ، ولكننى كنت اقيم فى المنزل وأحضر يوميا الى المدرسة ، وهى حالة استثنائية نوعا ما · وكان لابد لكى أتأهل للالتحاق بالجامعة أن أجتاز من الخارج امتحان دخول · ولم أكن أحب الفرقة أو الجيش ، بل كنت أبغض كل

---

(١) وهى حركة رجعية وملكية متطرفة ظهرت فى أثناء حكم القيصر نيقولا الثانى وتعد مسئولة الى حد كبير عن البرامج الناهضة للسامية فى روسيا (هذه الحاشية للمترجمة الروسية كاترين لامبرت وسنرمز اليها فى الحواشى القادمة بحرفين ك.ل – أما الحواشى التى سأضيفها فسأرمز اليها بالحرفين ف.ك) .

ما يمت الى الحرب بسبب ، وأتمرد منذ حداثة سنى على كل خضوع للنظام ٠ وعندما دخلت الفصل الثانى من فرقة الطلبة وكلما وجدت نفسى فى الفترات التى تفصل بين محاضرة وأخرى ، واحسست أننى تعس منبوذ . الى أقصى حد ٠ ولم أستمتع اطلاقا بصحبة الصبيان الذين هم فى مثل سنى ، وكنت أتحاشى دائما الاختلاط بمجتمعهم ٠٠ وما كنت أشعر بالغبطة الا فى صحبة البنات ، اذ كان مجتمع الصبيان يبدو لى فظا كل الفظاظة ، وحديثهم منحطا غبيا ٠ ومازلت حتى اليوم لا أجد غير أشياء قليلة تثير التقزز مثلما يثيره ذلك النوع من الحديث الذى يدور بين الصبيان ٠٠ انه مصدر للفساد ٠ وكان الطلبة العسكريون يبدون لى أجلافا مبتذلين سطحيين من الناحية العقلية ٠ وفضلا عن ذلك كان رفاقى يسخرون أحيانا من ذلك التقلص العصبى الذى عانيت منه منذ طفولتى ، ولذلك لم أنم فى نفسى أية مشاعر للزمالة ، وقد أثر ذلك على حياتى كلها ٠ وكان الصبى الوحيد الذى صادقته فى طفولتى هو « ن٠م٠ » (وهو بحار) الذى أعانه أبى ماديا على اكمال تعليمه ٠ كنت مرتبطا به ارتباطا حميما ، وظللنا أصدقاء طيلة عمرنا ، حتى صار فى مقام عضو من الأسرة ٠ ولقد خدم البحرية بامتياز فيما بعد وأرسل فى مهمات بحرية متعددة ، وكنا معا فى المنفى بـ « فولوجدا » Vologda ٠ بيد أننى كنت فى جو الأكاديمية العسكرية الجماعى فرديا عنيفا . منعزلا شديد الانعزال عن الباقين ٠ وكان الفتيان ينظرون الى باعتبارى محدث نعمة ، وابنا لطبقة النبلاء ، وضابطا من ضباط الحرس فى المستقبل ، بينما لن يكون معظم الآخرين غير ضباط عاديين ٠ غير أن افتراقى عن الطلبة ، وعن جو الفرقة كله ، كان يضرب بجذوره الى أعمق من ذلك ، اذ استيقظ فى نفسى منذ الأعوام المبكرة من حياتى اهتمام بالمشكلات الفلسفية ، وأحسست ولما أزل صبيا برسالتى الفلسفية ٠

كنت فى المدرسة طالبا متوسطا ، وكانوا يحاولون دائما اشعارى بعجزى ٠ وذات مرة أقبل مدرس كان يقوم بالتدريس لى فى المنزل ، وأخبر والدى أنه من العسير عليه أن يعمل مع تلميذ غبى مثلى ٠٠ وكنت حينذاك قد قرأت كثيرا وبدأت أتأمل معنى الحياة ، ومع ذلك لم أكن أستطيع أن أحل مسألة واحدة رياضية على الاطلاق ، أو أن أحفظ عن ظهر قلب أربعة أبيات من الشعر ، أو أن أكتب صفحة املاء واحدة دون حفنة من الأخطاء ٠ ولو لم أتعلم الفرنسية والالمانية منذ طفولتى لكان من المرجح أن أتعلمهما بمشقة عظيمة أو لا أتعلمهما على الاطلاق ٠ وهذه المعرفة باللغات جعلتنى أتفوق تفوقا معينا على الطلبه الآخرين ٠ وكنت أعرف نظرية الرياضيات معرفة لا بأس بها ، وبالتالى استطعت أن أمضى فى الدراسة على نحو ما ، ولكننى لم أكن أستطيع حل واجبات الرياضة التطبيقية ٠ وكنت أكتب موضوعات انشاء جيدة، على الرغم من عجزى عن الهجاء

وكانت الموضوعات المفضلة عندى هى التاريخ ، والتاريخ الطبيعى ، أما مقرر المدرسة الحربية فكان شبيها الى حد كبير بمقرر المدارس الثانوية ، ولهذا كان الموضوعات العلمية أفضل من مستوى زملائى ، وكانت اللغات الحديثة تلقى الهندسة التحليلية وحساب التفاضل . ركن العلم الطبيعى يتضمن علوم النبات والحيوان والمعادن والفيزياء والكيمياء وعلم الكون cosmology . وحين أصبحت طالبا والتحقت بكلية العلوم فى استطعت أن أجد مستواى فى الموضوعات العلمية أفضل من مستوى زملائى ، وكانت اللغات الحديثة تلقى أهمية ملحوظة ، غير أننى درست اللاتينية واليونانية لمدة عامين فقط فى أثناء استعدادى لامتحان الالتحاق بالجامعة . وكان التعليم فى مدرسة « كييف » الحربية جيدا ، اذ تضم هيئة التدريس عددا من المحاضرين بالجامعة ، وكان ناظر المدرسة « الجنرال ا . » شخصا لطيفا ، ودودا نحوى دائما .

ولكننى كنت عاجزا أساسا عن التكيف مع أى تعليم مدرسى ، حتى ولو كان تعليما جامعيا . وربما كان ذلك راجعا الى أننى لم أتعلم قط النجاح فى المدرسة على الرغم ـ أو بسبب ـ نموى الذهنى المبكر اكثر من المألوف ، وحبى لقراءة الكتب التى لا يحلم صبى فى مثل سنى بقراءتها . وعندما دخلت امتحان المنطق كنت قد قرأت كتاب « كانت » « نقد العقل الخالص » وكتاب « ميل » Mill « المنطق » . ولم تظهر قدراتى الا عندما اصطنعت المبادأة فى تفكيرى ، وصار عقلى ايجابيا خلاقا عن وعى وقصد .. اذ بقيت هذه القدرات محتجبة مجهولة بالنسبة الى عندما كان عقلى سلبيا لا يقوم الا باستيعاب شىء غريب عنى وحفظه . والحق أننى لا أستطيع أبدا أن « أستوعب » المعرفة ، وأحفظها عن ظهر قلب ، وأودعها ذاكرتى ، اننى لا أستطيع بتعبير آخر أن أضع نفسى فى موقف من يضع على عاتقه مهمة ما . ولهذا السبب ألفيت الامتحانات شيئا لا يطاق ، ذلك أننى عاجز عن سرعة الجواب والترديد بطريقة سلبية ، انما كنت أريد أن أختط لنفسى فورا طريقا خاصا بى فى مجال الفكر . وقد حصلت فى أحد امتحانات اللاهوت على واحد من اثنتى عشرة درجة ، وهو حادث لا نظير له فى تاريخ المدرسة الحربية .. ولم أنجح قط فى تلخيص كتاب واحد ، ولو سألونى فى أحد الامتحانات أن ألخص كتابا من كتبى لفشلت فى ذلك .

ولقد طالعت طيلة حياتى كثيرا من الكتب وعلى نطاق واسع .. وأنا أطالع فى يسر وسرعة ، وأستطيع أن أتابع الفكر الذى يتضمنه أى كتاب ، وأن أميز سريعا قيمة الكتاب ونتائجه . ولكننى لا أتخذ أبدا موقفا سلبيا فى أثناء عملية القراءة ، وانما أشرع فى أثناء القراءة فى نشاط ابداعى متصل ، مما يؤدى بى .. لا الى تذكر الموضوع الفعلى للكتاب بقدر ما أتذكر الافكار التى يثيرها فى ذهنى

مباشرة أو عن طريق غير مباشر ، وكذلك لم أستطع قط الخضوع عقلي للتوجيه الخارجي أو لما يفرضه على الآخرون من تعليم .. فقد علمت نفسي بنفسي . ومناهجي كلها تعليمية ذاتية Autodidactic ولم اكتسب شيئا بالتدريب عن طريق التلقين والتعليم على الاطلاق . بل اكتسبت كل معارفي في سبيلي ... ولهذا كنت دائما مرغما على وضع خطتي بنفسي

ولم يقترح أحد اطلاقا أن نرجع الى الجامعة ، بل اتجهت دائما الى البحث عن صميم نفسي ، كما أنني لم انتسب قط ، ولم يكن من استاذ لي ... الى أية « مدرسة » في الفكر . لقد كنت دارسا طيلة حياتي ... بيد أنني أجهل الحقيقة — التي هي شيء عام (أي معنى) ... عن طريق ممارسة حريتي ، فمعرفتي بالحقيقة هي علاقتي الشخصية بها . وكان من دواعي سروري العظيم دائما اقتناء الكتب . وكان لدى ... حانوت كبير للكتب اسمه « أجلوبلين » Ogloblin على شارع « كريشاتيك » Kreschatic ، وكنت أذهب يوميا تقريبا للنظر الى الكتب الجديدة ، ومازلت حتى اليوم أستطيع قضاء ساعات في حانوت للكتب .

قلت آنفا انني انحدرت من سلالة عسكرية ، وانني تلقيت تدريبا عسكريا ، ولكنني اشعر بنفور فطرى من رجال الحرب ومن الجندية ، وكنت طيلة حياتي أشعر باحساس من الحنق كلما التقيت بجندي عبر الطريق . انني احترم الجنود وقت الحرب ، ولكنني أمقتهم وقت السلم . ولما كنت تلميذا بالمدرسة الحربية كنت أنظر الى الطلبة بعين الحسد لأنهم بدلا من العمل في الطوابير يشتغلون بالأبحاث العقلية . وقد خدمت في الجندية حوالي ستة أشهر . وكانت المدرسة العسكرية معهد العلم الوحيد الذي تتوفر فيه فرص التدريب الجثماني والرياضة ، وان كانت تلك الفرص تستخدم طبعا وفقا للأفكار الرجعية السائدة في ذلك العصر . وكانت الالعاب الرياضية اجبارية ، وكذلك الرقص .. وقد ولد في نفسي نفوري من كل ما هو عسكري بغضا للتمرينات البدنية ، وكانت الألعاب الرياضية تبعث في نفسي السأم الى حد الشرود ، ولم اعود نفسي عادة اداء التمرينات البدنية في الصباح الا في سن متأخرة ولأسباب صحية . ولم اكن أهوى الرقص ، بل كنت راقصا سيئا ، وكانت الحفلات الراقصة تبدو لي مملة الى غير حـــد .

هناك أمران فقط ، تفوقت فيهما غير مشاغلى العقلية هما : الركوب واصابة الهدف ، اذ كنت شغوفا كل الشغف بامتطاء ظهور الجياد ، وعندما كنت في التاسعة من عمرى اعتاد قوزاقى عجوز أن يأتى الينا ليعلمنى الركوب ، وكنا نركب خارج المدينة ، وكنت أستطيع أن أركب كما يركب القوزاق ، أو كما يركب الفارس

العادى . وكان الركض السريع مصدر سرور خاص لى ، وكان ذلك من الأمور القلائل التى تفوقت فيها على زملائى بالمدرسة الحربية ، وكم كان أسفى عندما لم تسمح لى الروف فيما بعد بالانغماس فى هذا النشاط . وكذلك كنت ماهرا فى اصابة الهدف ، وقلما كنت أخطىء مركز الهدف .

وانى لأعتقد أن هناك صلة عميقة بين ما يبذل الجسم من جهد - كالعمل البدنى والتمرينات البدنية - وبين تلك الحقيقة وهى أن الانسان « عالم مصغر » microcosmos وكون « بالقوة » ، ألقيت على كاهله مهمة السيطرة على جسمه وبالتالى على جسم الكون المخلوق الذى ينتمى اليه والذى ينتمى له . ولقد كنت فى أثناء صباى شديد الاهتمام بالأشغال اليدوية ، فكنت نجارا ، وكنت أنقش وأطلى بالجبس . وتعلمت النجارة فى ورشة ، وكنت مولعا ولعا خاصا بهذه الصنعة ، وصنعت عددا من « الأطر » والمقاعد ، وكنت فخورا جداً بهذا العمل ، وما برحت ورشة النجارة تبعث فى نفسى حتى الآن احساسا بالغبطة . وفى فترة من حياتى شغفت بتنسيق الحدائق وزراعة الخضروات . بيد أن هذا العمل أثبت لى أنه الحد الأقصى لأعمالى البدنية ، وأخشى أن أقول اننى كنت فى هذا الصدد « لخمة » بصورة فريدة .

وقد أفصحت مواهبى الفنية المحدودة عن نفسها فى محاولات متعددة للتصوير . وكانت لى موهبة ملحوظة فى فن الرسم ، وكنت من أكفأ التلاميذ من حيث الفن فى المدرسة الحربية ، بل التحقت فعلا بمدرسة للفن ، وتلقيت دراسات فى الرسم لمدة ثلاثة أعوام . وبدأت ارسم بالزيت ، غير أنه من المرجح أننى لم أكن أملك أية موهبة حقيقية ، وان كنت أتمتع بشىء من السهولة فى هذا الباب . ومهما يكن من أمر ، فاننى ما كدت أهتم اهتماما جديا بالفلسفة - وقد حدث ذلك فى فترة مبكرة من حياتى - حتى هجرت التصوير كلية وشرعت عوضا عن ذلك فى كتابة الروايات الفلسفية .

وأحب أن أسهب فى الحديث عن تجاربى فى المدرسة الحربية . عندما أراقب شبان هذه الأيام مدفوعين بالمثل العليا فى الحرب وبالنزعة العسكرية الصارمة ، يستولى على شعور بالغيظ . فأنا على معرفة جيدة بآثار الانتماء الى منظمة عسكرية وبالأضرار الناجمة عن شدة الخضوع للنظام . وللفترة التى قضيتها فى المدرسة الحربية تأثير عظيم على بمعنى أنها أحدثت فى نفسى رد فعل قوى ضد الروح العسكرية والوسط العسكرى milieu . فثمة أناس يميلون الى وضع أنفسهم ضد بيئتهم ،والى الافتراق عن الظروف المحيطة بهم ومقاومتها ، وأنا واحد من هؤلاء ، وهذه بلا شك طريقة من طرق الاعتماد على البيئة المحيطة

بالانسان ، والاستقلال عنها فى الوقت نفسه ·· انها نوع من العجز عن أن أظل منعزلا متباعدا ·· ولقد قطعت صلتى دائما بكل جماعة انتميت اليها · ولم أستطع قط التكيف مع أى تجمع ، كما لم أتمكن اطلاقا من مجاراة التيار السائد حولى ، أو الخضوع لأى انسان أو لأى شىء · وعلمتنى حياتى أن الأمر لا يمكن أن يكون خلاف ذلك · فعندما كنت طفلا وحتى قبل انضمامى الى المدرسة الحربية ، اعتدت أن أجد متعة فى ارتداء حلة الفرسان التى يرتديها والدى ، وأن أتزين بأشرطة جدى وأوسمته · وكنت أهتم بوضع الخطط الاستراتيجية ، وأتخيل نفسى منتعلا حذاء « سوفوروف » Suvorov الذى شغلت به كثيرا · ومع ذلك فان ميولى للعراك لم تذهب الى أبعد من ذلك ، ويبدو أنها قد انتقلت الى مجال الافكار حيث لم أنقطع عن شن المعارك الحقيقية والوهمية · وتصدر كراهيتى للجندية عن غريزة فطرية للمقاومة . وابطال قوة المجموع ، بل لقد بذلت مجهودا خاصا لأتحاشى على قدر الامكان الظهور بمظهر الطالب العسكرى. فلم أقص شعرى ، كما كان مفروضا علينا ، وكنت أحاول أن أبتعد عن طريق القواد حتى لا أحيى أحدا ، فألفت الأنظار الى مظهرى · وقد سبق أن ذكرت أننى لم أصادق أحدا من زملائى الطلبة اطلاقا ، ولعل ذلك راجع ــ الى حد ما ــ الى حيائى وتحفظى ، كما أن مزاجى الحاد السريع الانفعال جعل الارتباط معى بعلاقات الصداقة أمرا عسيرا غاية العسر · ولم يكن من الممتع أن يلاعبنى أحد الورق مثلا لأننى كنت آخذ اللعب مأخذ الجد ، وكنت عرضــــة لأن أثور على شريكى فى اللعب ثورة شعواء · وبهذه المناسبة أقول ان ولعى بلعب الورق والقمار انتهى تماما ولما أزل صبيا ، ولم انغمس اطلاقا فى مثل هذه الأشياء فى الاعوام التالية · ويبدو أن الفلسفة « وحب الحكمة » والبحث عن الحقيقة والمعنى اكتسح أمامه كل شىء · وربما احتفظت بشىء من « روح الحارس » فى نفسى ــ ولعلها غريزة أو رواسب فى نفسى ــ غير أنه من العسير التعرف عليها باعتبارها كذلك · وكان لابد لى من الجهاد لاخماد هذه الميول والسيطرة عليها ، ولا شك أن ذلك قد مزج طبيعتى بشىء من التعقيد ، وسأعود الى هذا الموضوع فى مرحلة تالية · وقد عانيت ــ قبل أن يطرأ على التغيير ــ عددا من العادات المؤلمة والطباع المميزة التى لم أستطع التخلص منها الا بعد ذلك بزمن طويل ·

وبمضى الوقت انتقلت الى مدرسة الياروان ، وكان من المفروض أن أرحل الى «بطرسبورج» لأقيم عند ابن عم لوالدى كان يشغل منصبا رفيعا فى العاصمة · بيد أن أحلاما ومشروعات أخرى كانت تراودنى ، فتركت الفصل السادس من المدرسة العسكرية وبدأت أستعد لامتحان الدخول الى الجامعة · ولا مناص من الاعتراف ــ وأنا أتذكر الماضى ــ بأن طريقة الحياة الوحيدة التى خلقت لها هى

حياة الجنتلمان الروسى الريفى . فمازلت — بمعنى من المعانى — أعتز بهذه الحياة وأشعر بالحنين اليها حتى اليوم .

***

ولقد لعب المرض دورا ملحوظا فى حياتى ، ذلك أننى كنت منذ طفولتى فريسة لنوع من « تقلص الوجه » المؤلم tic douleureux . وانى لأعتقد أننى شجاع غير هياب من الناحية المعنوية والمادية على السواء ، مما قد تكون له علاقة بحياتى العسكرية السابقة . غير أن شجاعتى تخوننى فى حالة واحدة ، فأنا جبان ازاء كل ما يتعلق بالمرض . والعلل والأمراض تملأ نفسى بضرب من الفزع الذى يكاد يكون خارقا للطبيعة supernatural . ولا يرجع هذا بحال من الاحوال الى خوف فطرى من الموت ، وهو خوف لم أعرفه قط حقيقة .. أو على الأقل لا أعتقد أنه شىء مميز لى . واذا كان الموت يوحى الى بالخوف ، فان وقوعه لى لا يخيفنى بقدر ما يخيفنى وقوعه لأشخاص أعزاء على . ولكننى أفزع من المرض والعلة والعدوى وأرهبها ، وتمثل دائما لنفسى حادثة مخيفة ، أو نوبة ما ، أو كارثة تحيق بى ، وأنا عصبى خائف بالنسبة لصحتى وصحة الآخرين ، وأتخيل دائما أسوأ الأمور . ولا أعتقد أننى خشيت اطلاقا من فكرة اصابتى بقنبلة أو رصاصة ، وقد سنحت لى الفرصة لاظهار ذلك خلال ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ فى موسكو عندما كانت القنابل تتطاير حول منزلنا ، وقد انفجرت واحدة منها فى الفناء بينما كنت أكتب طيلة الوقت ، كما أننى لم أجزع من الغارات التى تعرضت لها باريس فى أثناء الحرب الأخيرة . ولكننى يعتادنى دائما خوف من الاصابة بالتيفوس أو الدفتريا أو حتى بالانفلونزا البسيطة . وربما كان ذلك بتأثير سلسلة من الأمراض لا تنتهى أصيبت بها أسرتنا ... وعلى الرغم من أننى لست سريع الاستهواء من الخارج الا أننى كنت متأثرا تأثرا عميقا فى أثناء طفولتى بهذه الحقيقة وهى أن الحياة تبدو مرضا متصلا .

وكان جميع أنواع الاخصائيين الطبيين يقومون بزيارات دورية لمنزلنا لفحص كافة أعضاء الأسرة . وكانت أمى تعانى طيلة أربعة عشر عاما من مرض خطير بالكبد ، وتصاب بنوبات فى أثناء الليل ، فكنت أسمع صرخات عذابها ، وكان من المعتقد أنها ستموت فى كل نوبة من هذه النوبات . مثل هذه التجارب أثرت فى نفسى تأثيرا عميقا . وكان والدى يعالج باستمرار صنوفا مختلفة من العلاج ، وأنا نفسى كنت أعالج من مرض أو آخر . وقد كان بعض أعضاء الأسرة يعانون من أمراض عصبية ، وورثت أنا نفسى تلك العصبية التى كانت تعبر عن نفسها فى حركات تشنجية . كانت أسرتى عرضة على الأخص للاضطرابات العصبية ، واعتادت والدتى أن تقول ان آل برديائف ليسوا عاديين ، وهم يختلفون فى ذلك عن آل « كوداشيف » Kudashev . وكان أخى

عصابيا بشكل واضح ، وكان كثير من الناس يعتبرونه شاذا تمام الشذوذ . واظن أن هذا كله قد ترك آثره على عقلي الباطن .

وكان من نصيبي دائما أن أقوم بدور حمامة السلام فى حالات التوتر التى تصاحب حياتنا الأسرية . وكانت أسرة أخى تزودنى باتصالات مع العالم خارج الدوائر المحدودة لطبقة الأعيان المحلية ، وكان أخى مبذرا متلافا الى أبعد الحدود ، وكان يبعثر أمواله ذات اليمين وذات اليسار ، ولهذا كان يعانى دائما مصاعب مالية . وكان وسيما جدا ، وله وجه يتحلى بجمال اغريقى . ومع ذلك كان من الحين الى الحين يبدو عدة أيام دون أن يحلق ذقنه ودون أن يغتسل مرتديا ثياب المتشردين ، ثم يعود فجأة الى مظهره الأنيق الرشيق المتألق . وكانت له قدرات لم تتح لى ، فهو يملك ذاكرة مدهشة وملكة للرياضيات واللغات وكان يقرض الشعر بالروسية والالمانية ، ولكنه لم يكن يتذوق الفلسفة على الاطلاق . وعن طريقه وطريق أسرته تعرفت على العلوم الغيبية occultism التى كانت تثير معارضتى دائما . وكان شقيقى وسيطا بارعا ، وكان يتلاعب أحيانا بهذه القدرة فينطق شعرا ، أو يتحدث بلغة غير مفهومة ، وكا يدعى أنه على اتصال بأحد الكهنة الهندوسيين . وفى نوبة غير مفهومة ، وكان يدعى أنه أنها صادرة عن هندوسى قال فيها « ان اخاك (أى أنا) سيكون شهيرا فى أوروبا المنحدرة الى الشيخوخة ! » . وكنت من جانبى أمقت هذه الشعوذة الغامضة وان لم أكن عديم المبالاة بالجو الذى تشيعه حولها .

ولم تكن فى أسرتنا أنماط تقليدية دينية من الحياة .. أنماط تميل الى توليد ظروف خانقة ثقيلة الوطأة .. بل كان يبدو أن أسرتنا مستأصلة مكشوفة .. ولم تكن ذات طابع واحد . فلها صلات بالعالم التولستووى .. وتمتاز فى الوقت نفسه بالشدة والتعقيد اللذين عرف بهما « دستويفسكى » . فهى تمثل انتقالا من عصر الاستقرار والتوازن الثابت الى عصر القلق وعدم الاستقرار .

ولم أرغم أو أحمل على القيام بأى عمل فى أثناء طفولتى ، ولا أتذكر أننى عوقبت اطلاقا . وربما سلكت سلوكا ـ بدافع من الكبرياء ـ يجعلنى بمنأى عن العقاب . ولم أكن طفلا شقيا صاحب نزوات ، كما لم أكن شريرا كأغلب الاطفال وكانت رذيلتى الظاهرة هى نوبات الغضب التى تعترينى .. كنت أعتز باستقلالى فوق كل شىء آخر كما هى حالى الآن . واحساسى بالحياة ناشىء عن حب شديد للحرية . وهكذا تكون فى باطنى عن طريق الحرية عالم آخر مقابل العالم الخارجى . وكنت مولعا بتأكيد انفصالى بطرق متعددة ، ولكنها ساذجة فى أغلب الظن . فكنت أحب ترتيب حجرتى والاحتفاظ بها منفصلة عن بقية المنزل .

ولم أكن أحتمل اقتحام أحد لعالمي أو المساس بالأشياء التى تنتمي اليه ، وليس من شك اننى كنت أنانيا . وان تكن هذه الأنانية فى مبدئها أنانية دفاعية ، ولكننى لم أكن متمركزا حول ذاتى egocentric أعنى أننى لم أكن مشغولا بنفسى وحدها ، ولم أكن أحيا بأن أربط الأشياء جميعا بذاتى وحدها .

ولقد كنت دائما منتظما انتظاما يكاد يكون تزمتا - فى عاداتى ، اذ كنت أحب أن أنظم يومى وأرتبه وفقا لخطة موضوعة ، ولم أكن أحتمل أقل اضطراب فى الأشياء الموضوعة على مكتبى . وهذا هو الوجه الآخر لفوضويتى الفطرية ، وارتيابى فى كل سلطة .. سواء كانت اجتماعية أم غير اجتماعية .

ولست أنسى أبدا محادثة مشهودة دارت بينى وبين أبى .. شرع خلالها فى البكاء . هذه التجربة حركت نفسى فى عمق ، وكانت ذات دلالة عظيمة بالنسبة الى ، اذ تغيرت أشياء كثيرة فى نفسى ، وكنت أحملها دائما بين طيات أفكارى مع الاعتراف بالجميل .. كان والدى مولعا بى ولعا يمازجه حب ينمو مع مضى الايام . أما علاقاتى بأمى فكانت أشد عسرا وأقل ثباتا ، كانت ثمة صفة « فرنسية » فيها ، ولم تكن هذه الصفة مجانسة لى ، كما كانت أمى أكثر « دنيوية » من أبى ، ولكنها كانت طيبة كريمة الى أبعد حد .

ولم أكن أحب المجتمع الدنيوى الذى تعيش فيه الطبقة الراقية ، وتحول هذا البغض فى يوم من الأيام الى نفور ايجابى عميق ، فأخذت أحن الى قطيعة كاملة . وربما كان نفورى الذى أشعر به فى شدة خاصة ازاء محدثى النعمة .. أولئك الناس الذين يرتفعون من القاع الى القمة - ربما كان هذا النفور ينم على سجية ارستقراطية حقيقية مستقرة فى نفسى . وهذا نفسه ينطبق على اشمئزازى من « التنفج » snobbishness والتمييز الاجتماعى ، والانتقاء الطبقى . والارستقراطية ظاهرة وراثية قبل كل شيء ، فهى ليست صفة انسانية ، كما أنها ليست نتيجة تبلغها الروح الانسانية . وليس من شك أننى كنت أعتنق فى أثناء طفولتى بعض الأحكام الارستقراطية المتحيزة ، ولكننى تغلبت على هذه الأحكام سريعا نتيجة لرد الفعل العاصف أو التمرد الذى أعقب ذلك ضد بيئتى . فلم أكن قادرا على العثور على الارستقراطية الحقيقة - وأعنى بها أرستقراطية الروح - فى المجتمع الارستقراطى الذى أنتمى اليه ، كل ما شاهدته كان معظمه وقاحة وعجرفة وازدراء لمن هم « تحت » ، ممتزجا باستسرار وارتياب غير طبيعين .. لم تكن ثمة تقاليد ارستقراطية حقيقية فى روسيا .

وأنا نفسى لم أفلت بالطبع من سيكولوجية « الطبقة الحاكمة » ، فقد كان أسلافى جميعا ينتسبون اليها .. ولكنها كانت مختلطة فى نفسى بباعث ثورى

عنيف جعلنى أتطلع الى العدالة والرحمة · وأنا ــ فى هذا المجال ــ واحد من « هؤلاء النبلاء النادمين الذين يوخزهم ضـــميرهم » ، وان كنت فى وقت من الأوقات قد عارضت تأثيرهم فى الثقافة الروسية وحاربته حربا ايجابية · وقد اعتاد والدى أن يسخر فيما بعد من اشتراكيتى ، وأن يزعم أننى أنا «الجنتلمان» الذى يرفل فى الترف وليس هو · والواقع أن هذا الحكم لم يكن عادلا · فلم أهدف اطلاقا الى تلك المساواة المزعومة أو الى سيطرة طبقة على طبقة أخرى ، بل الى خلق عالم خاص بى ·

وكنت أحيا فى أثناء طوفلتى فى ذلك العالم الخاص دون أن أختلط بالعالم الذى يحيط بى ، اذ لم يكن يبدو أن هذا العالم الأخير ملكا لى · وكنت على وعى حاد بأننى شخص غريب ، يختلف تمام الاختلاف عن الآخرين ·· أو مغترب بحيا بمشاعر المغتربين · ويتحدث « أندريه جيد » فى يومياته عن تجربة مماثلة وان يكن ذلك فى سياق آخر · وكنت من الظاهر أبعد من أن أعمل على توكيد غرابتى · بل كنت أبذل قصارى جهدى كى أبدو كالآخرين ، وينبغى ألا يخلط احساسى بالغرابة أو العزلة بالغرور ، فالشخص المغرور يمكن أن يشعر بالانسجام مع العالم المحيط به ، ويستطيع فى الواقع أن يندمج فى مشاغل المجتمع ، وأن يكون واثقا من مكانه ومركزه وأهميته فى هذا المجتمع ، أما أنا فلم أكن أتمتع بمثل هذه الثقة ، ولم تكن لدى مثل هذه المشاغل ، وكنت سيىء التكيف مع المجتمع ، نافرا من احتلال أى مركز فيه · وكان من دواعى أسفى فيما بعد ، أنه على الرغم من افتقارى الى التكيف ، فقد أصبحت شهيرا فى أوربا ، ووجدت نفسى شاغلا «لمركز فى العالم » ·· بل لقد صرت « محترما » ــ وهى صـــفة غريبة توصف بها طبيعتى المتمردة التى لا تخضع لقانون ·

ولا ينبغى أن يقع الخلط بين غرائزى المعادية للاجتماع وبين ما يعـــرف « بمركب النقص » فهذا شىء لا وجود له على الاطلاق فى نفسى · فلست خجولا أبدا ، بل لقد تكلمت وتصرفت دائما فى صراحة وثقة ما دمت بعيدا عن المسائل العملية ووسائل الحياة اليومية ·· فهذا ميدان كنت أشعر فيه بأننى لا حول لى ولا قوة · بالنسبة للحياة اليومية كنت خجولا مرتبكا فاقدا للثقة : ولم تكن شجاعتى وثقتى تظهران الا فى صراع الأفكار ، فى مواقف الخطر الحقيقى ·

وأستطيع أن أقول ــ كوسيلة لوصف الموقف الذى أريد التعبير عنه ــ ان احساسى بالحياة كان يصاحبه دائما رفض للعالم كما أعطى لى ، وعجزى عن الاندماج فيه ــ انه ابتعاد عميق الجذور عن الحالة المألوفة وعن مجرى الأشياء، ويكاد يكون ذلك ضجرا مرضيا من كل ما هو مبتذل · وقد أطلق البعض على

هذه النزعة اسم « الترنية » ، وهي تسمية تنقصها الدقة في نظرى ، ذلك أن رغبتي في الانطواء على نفسي لا تتصارع مع رغبة أو قابلية لاقتحام عالم من عوالم الفكر لا ينتسب الى ، أو مع الشعور باشتباكي بمشكلات المجتمع وصراعاته اشتباكا عميقا • والانسان كائن معقد محير • فأنا أدرك نفسي باعتباري نقطة يتقاطع عندها عالمان . فبينما أعرف « هذا العالم » — عالم حياتي الفعلية — باعتباره عالما كاذبا غير حقيقي خاليا من الأولية والنهـــائية ، يوجد « عالم آخر » أكثر صدقا وحقيقة تنتسب اليه ذاتي العميقة • وهذا مافعله « ليوتولستوى» اذ ينبذ العالم التقليدي الزائف في تعارض مستمر مع الطبيعة الالهية الصادقة : فنديه الأمير آندريه(١) في صـــالون بطرســـبورج ، والأمير آندريه فوق أرض المعركة يصوب نظره الى السماء المرصعة بالنجوم •

وأعتقد أن هذا كله يتصل اتصـــالا ما بطغيان الخيال والرؤية على مادة الحياة الغفل الخام ، وان لم يتصل أى اتصـــال بالاستسلام للأوهام والتفكير المصطبغ بالتمني •

والحق أنني انحرفت أحيانا الى شيء من المبالغة في التبرم بكل شيء ، وكان ذلك يبدو لى شيئا خاطئا ظل يزعجني كثيرا • وكنت رقيقا اكثر مما يلزم • حساسا مفرط الحساسية من الناحيتين الجسمية والعقلية على السواء • وقد حاولت التغلب على هذا ، ولكنني لم أصادف نجاحا كبيرا • ولست أشـــعر بأنني أحتقر أحدا أو شيئا ••• ولكنني متبرم بكل شيء ، وقد لاحظت ذلك حتى بالنسبة للطعام وللجانب الفسيولوجي من الحياة عامة ، وهكذا مضيت في الحياة بأعين نصف مغمضة ، ممسكا أنفي بيدي • وأنا شديد الحســـاسية للروائح على وجه الخصوص . ومن هنا كان ولعي بالعطور • ولعلني كنت أوثر أن يتحول العالم الى سيمفونية من العطور • وانى لرهف الحس الى درجة الألم بالنسبة « للرائحة الكريهة » في العالم ، والرائحة الاخلاقية الكريهة تؤلمني كما تؤلمني الرائحة الفيزيقية الكريهة • وأنا شديد التبرم عندما اصطدم بمؤامرات الحياة ودسائسها وأكاذيبها ، وبالمظاهر الخادعة والنفاق في السياسة • ومع ذلك فان موقفي الأساسي من الحياة ليس موقف من ينشد المشاعر الجمالية ، بل انني لأنفر من « النزعة الجمالية » aestheticism فنزعتي المسيطرة اخلاقية، وفكري يهتم قبل كل شيء بالخلق ethos ، وبالصفة والطابع الأخلاقي للحيـــاة •

---

(١) أحد أبطال رواية الحرب والسلام لتولستوى (ف.ك) .

ومع ذلك فانا أتذوق الجمال المادى تذوقا عميقا ، كما أتذوق ألاشكال الجمالية وملاحة الوجوه • ولقد كنت مولعا دائما بالوجوه الانسانية الجميلة ، وبالاشياء الجميلة من ثياب وأثاث ومنازل وحدائق • ولم تكن رؤية الأشياء الجميلة وحدها هى التى تجلب السرور الى نفسى ، بل كنت أشتهى أيضا الجمال الشخصى • فكنت أعانى من أى تشويه طفيف فى الوجه الانسانى أو أى تنافر فى الملبس ، وأنا أتمتع بنظر حاد غير عادى ، فاذا دخلت حجرة ما أدركت على الفور كل ما يمكن أن يلفت النظر فيها من نقص أو عيب جمالى • وهذه ليست فضيلة ، على كل حال ، ولم أعتبرها فضيلة قط ، بل على العكس أعتقد أنها نكبة •• ففى هذا العالم وبين الكائنات الانسانية العادية القبح أكثر من الجمال ، وعلى المرء أن يوطن نفسه على ذلك • ولاشك ان احساسى فى هذا المجال يرجع الى أننى لست مشاركا متحمسا غير متحفظ لتقلبات هذا العالم وحركاته ومنافساته • اننى عاجز تمام العجز عن الشعور بالغيرة ، ولست ممن يضمرون الحسد ، كما أننى بعيد كل البعد عن كل دافع الى الانتقام •• وليس عندى أدنى ميل لكى أشغل منصبا فى النظام التصاعدى للمجتمع ، ولا تثير ارادة القوة والسيطرة فى نفسى غير شعور بالغثيان والنفور لا سبيل الى التعبير عنه • وهناك عواطف كثيرة تتحكم فى حياة الناس ولكنها غريبة تمام الغرابة ، وغير مفهومة بالنسبة الى • ولست أزعم ان هذا نتيجة لأى كمال اخلاقى من جانبى ، بل الواقع أنه قد يكون ناشئا عن نقائص معينة فى طبيعتى مثل عدم الاكتراث وافتقارى الى الطموح • وقد خضت معارك مع العالم لا بوصفى انسانا يريد أو يستطيع ان يغزو هذا العالم ويخضعه لنفسه ، بل باعتبارى شخصا يريد أن يحرر نفسه من هذا العالم ، ويرفض تسلط هذا العالم على حياة الناس •

ولست أملك أية مواهب ادبية وصفية ، وأعتقد أن قدرتى على التعبير ضئيلة كل الضآلة ، اذ اننى لا أستطيع أن أجد مطلقا الألفاظ والصور المناسبة التى أجسم بها فكرى • ولم أقدر قط على كتابة رواية ، وان كان لذهنى بعض الصفات الجوهرية المعينة لكاتب القصة • وانى لأشعر حيانا فى نفسى بصنعة الروائى فى مجال الأفكار أكثر من شعورى بأى قدرة أخرى للتعبير عن سطح الحياة ووصفه • فالروائى يتطلب فوق كل شىء قدرة على أن يحيط خياله بمشكلات الحياة وأحداثها ، وأنا أدرك أننى وهبت خيالا من هذا النوع • وقد لعب الخيال دورا عظيما ـ وان يكن تعسا فى بعض الاحيان ـ فى حياتى •• وعانيت فى الخيال بين حين وآخر ، وكانت آلامى أشد وطأة على نفسى لأننى لم أجربها فى الحياة الواقعية • ولقد كنت قادرا على أن أجد القوة الروحية لاحتمال موت أولئك الذين احبهم بعد أن أكون قد وهنت تماما نتيجة لانتظار هذا الموت

والتنبؤ بوقوعه • وقد دهشت عندما قرأت « ذكريات عبر القبر » لشاتوبريان — اذ وجدت أننى أماثله على الرغم من اختلافنا فى مجالات كثيرة هامة • فكل منا لا يجد هدوء نفسه — بسبب خياله المفرط — ولا يرضى بالواقع • أما فيما يتعلق بى فليست قوة الخيال راجعة الى اية مواهب بصرية وصفية فنية ، كما هى الحال بالنسبة لشاتوبريان • وقد كان موقف « شاتوبريان » من النساء خياليا فى جوهره ، بل ربما كان موقفا وهميا ، اذ كان طيلة حياته فريسة لخيبة الأمل والكآبة العميقة على الرغم من نجاحه الفذ وشهرته ولمعان شخصيته الأدبية • والخيال بالنسبة لى أيضا ، ميزة من مزايا الانسان ، وهو يمنعنى من قبول الواقع أيا كان أو الرضا به • انسحبت داخل نفسى كما فعل « شاتوبريان » رافضا أن أكون أسيرا لأية لحظة من لحظات الحياة • وأنه ليبدو لى أن كل لحظة ناقصة مشوهة لا سبيل الى الرضا عنها • وما قيل عن « نيتشه » ينطبق أيضا على ، اذ يقال انه كان فى حاجة الى النشوة لكى يستطيع مواصلة الحياة • وأنه كان مدفوعا باحساس من السخط وخيبة الأمل علىَ واقعية الوجود • وأنا أيضا قد أحسست بالنشوة وتشوقت اليها وعرفتها حقا •• لقد عرفت غبطة النشوة الخلاقة ، غير أن شدة تدقيقى ، وكذلك شيطان الصحو وعجزى الغريب عن تسليم نفسى لخيالات الالهام •• قد قطع هذا كله السـبيل على تجربتى للنشـوة •

والواقع ان موقفى من الحياة كان دائما واقعيا ممعنا فى الواقعية ، وبعيدا كل البعد عن الرومانسـية ، أما موقفى مما يعلو على الحياة ومما لا يمكن بلوغه الا عن طريق « الرؤية » فقد كان رومانسـيا • ويقول موريس باريس Maurice Barrès — الذى لا يشابهنى الا قليلا — قولا يمكن أن ينطبق بلوغه الا عن طريق « الرؤية » فقد كان رومانسيا • ويقول موريس باريس على : « لم يكن تطورى سيرا صـوب شىء ما ، وانما كان هروبا الى عالم آخر • » كنت أشعر دائما بأننى على مسافة مما يدعونه عادة بالحياة • والحق أننى أبغض تلك « الحياة » المزعومة بغضا ايجابيا ، وربما كان هذا البغض فى شبابى أشد منه فى الوقت الحاضر • ومهما يكن من أمر فلابد أن أحدد هذه العبارة ، ذلك أننى اذا لم أكن أحب الحياة ، فاننى أحب فى الحياة تلك الصفة التى تعلو على الحياة ، وأعنى بها الحياة التى تتجاوز فى حالة الوجد حدودها الخاصـة •

وهذا يفضى بى الى شىء متناقض تناقضا أساسيا عميقا فى طبيعتى • فانا لم أعان مطلقا نقصا فى الحيوية ، بل لقد عشت حياة حادة زاخرة . وكانت حيويتى فى بعض الأحيان مسرفة متطرفة • ومع ذلك فاننى أمقت تلك « الحياة » المزعومة ، وليست كراهيتى فسيولوجية ، أو حتى نفسية ، وانما هى فى أصلها روحية •• وأنا أتمتع بجسد قوى ، حسن البناء ، ولكننى أشعر

بنفور من وظائفه الفسيولوجية ، اذ انسحبت شدة تدقيقى على الأشياء جميعا : المادية والروحية على حد سواء · وانه لمتجذبنى الصورة الفردية ، والفكرة وشكل الجسم أكثر من الجسم نفسه · ولقد أبغضت دائما القصص التى تروى على الجانب الجنسى لمغـــامرات الناس الرومانسية ، ولا ستطيع أن تجنب احساسا بالتقزز منها : ويبدو أنها لا تهمنى حتى ولو كانت ذات تأثير على حيوات اصـــدقائى المقربين · وثورتى أشد على شىء يحمل طابع التكالب والتنافس والطموح الى المركز الاجتماعى والصراع من أجل القوة ، فترانى أحاول عدم الاصـــغاء الى هذه الأمور اذا عرضت على ، واشعر بالارتياح عندما ينتهى أمرها وذلك حتى أستطيع العودة الى الأشياء التى تهمنى حقيقة · والآن أصبح مما لا يقبل الشك أن الحب الجنسى والصراع فى سبيل القوة هما اللذان يؤلفان ما يعرف بالحياة · ولقد كان يبدو لى دائما فى الواقع انه لا مكان لى فى « الحياة » ، اذ كان يتردد صـــداها فى نفسى وكأننى منها على مسافة بعيدة ، دون أن تمسنى الا نادرا · ومع ذلك ، اشتبكت اشتباكا عميقا فى الوقت نفسه مع كثير من الأشياء المنتسبة الى « الحياة » ، واعتمد الآخرون على فى الصراع من أجلها · ولكننى فى نهاية الأمر ظللت خارج الحياة ، وعلى مستوى مختلف كل الاختلاف · كنت متشبعا بدافع أخروى (اسكاتولوجى) لا يقهر ، ولا يمكن ارضاؤه بأى عالم موجود · وكان حبى للحياة حبا لمعنى الحياة ، وحبى للعالم حبا لعالم أنكر طابعه الدنيوى · ولست من الوقاحة بحيث أزعم أننى كنت فوق مغريات «الحياة» ، بل كنت ضحيتها كغيرى من الناس · غير أننى لم أجد ما يغرينى اطلاقا بأن أضفى عليها طابع الضمان الأخلاقى أو أن أبررها تبريرا روحيا · ولم تكن مشكلة « الجسد » ذات أهمية خاصـــة بالنسبة الى ، كما كانت بالنسبة لروزانوف Rozanov أو ميرزكوفسكى Merezhkovsky أو د · هـ · لورنس D.H. Lawrence · أما المشكلة التى كانت تشغلنى فوق كل مشكلة أخرى ، فهى مشكلة الحرية · وما كنت أستطيع أن افكر قط فى « الجسد » من حيث « خطيئته » أو « قداسته » ، كل ماكنت أستطيع أن افعله هو أن أتساءل هل ينكر الجسد الحرية أو يسىء اليها أم لا ·

ويرتبط حبى المبكر للفلسفة والميتافيزيقا ــ بمعنى ما ــ بنفورى من الحياة باعتبارها شيئا قبيحا سوقيا ينتهك حرمة الحياة الحقة ، وأعنى بها الحرية · ومجرد الحياة باعتبارها متميزة عن الحياة الخـــلاقة ، لم تمنحنى غير قدر ضئيل من الارتياح · وأعتقد أننى ظفرت بمتعة من ذكريات الماضى وأحلام الحياة المقبلة أكثر مما ظفرت من نسيج الحياة الفعلية ·

ومن المحتمل أن أعظم آثامى هو عدم قدرتى ورفضى لاحتمال وطأة ما هو مبتذل ·· ذلك المبتذل الذى يؤلف نسيج الحياة ذاته ، وكذلك عدم قدرتى على

رؤية النور خلال الظلام المتكاثف الذى يحيط بما هو مبتذل • ومع ذلك فان فلسفتى فلسفة الوجود ، وقد وصفها الآخرون بهذا الوصف ، أى أنها تعبر عن مشكلات الانسان ومجاهداته ، وهى بهذا المعنى قريبة كل القرب من الحياة ؛ الحياة بغير ذلك المعنى الذى أضعه بين الأقواس •

وأحب أن أتوسع فى موضوع موقفى من « الحياة » من ناحية أخرى ، ألا وهى ناحية الزهد • ان احتياجات الجسد لم تبد لى ذات أهمية على الاطلاق ، بل كنت انظر اليها على أنها تتوقف فى المحل الاول على حالة العقل ، وعلى دوافع الروح • وقد اتهمنى أولئك الذين يعرفوننى جيدا بميل الى الزهد ، والواقع اننى لا اشعر بمثل تلك الميول ، كما أن طريقة الزهد فى الحياة لم تجتذبنى على الاطلاق • وكنت فى أثناء طفولتى مدللا محاطا بكل الوان الترف ، ومع ذلك لم أستطع أن افهم اطلاقا لماذا يكون من العسير أن يحرم المرء نفسه من الترف أو أن يعيش حياة الزهد • وتبدو المزايا المزعومة ومصاعب الحياة الزاهدة فى نظرى مجرد شكل من اشـــكال خداع الذات وتمجيدها من جانب هؤلاء الذين يمارسونها • وقد دهشت عندما سمعت شخصا يقول لى ان الامتناع عن أكل اللحم عمل بطولى ، ذلك أننى لم أحب اللحم اطلاقا ، وكنت أحمل نفسى على أكله • وليس هناك بالطبع أية مزية فى ذلك • كما أننى لم أعرف قط معنى التعب ، اذ أستطيع أن أجادل الى الساعات الأولى من الصباح دون أن يرهقنى ذلك ، ولقد كنت عداء سريعا جدا •• غير أن الشيخوخة والمرض علمانى أخيرا معنى التعب ، ولكن حتى المرض لم يكن يمنعنى فى الماضى من أن يكون لى جسم رياضى • وكنت أنظر دائما الى الفكرة الشائعة القديمة بأنه ينبغى على الروح أن تجاهد الجسد وغواياته باعتبارها فكرة ضارة من أفكار الذهن الانسانى •• فالأحرى أن تجاهد الروح ضد الروح ، وضد غوايات الروح التى توجه الجسد لا العكس •

ومهما يكن من أمر ، فقد كانت تكمن فى نفسى روح شريرة ، مادام لكل انسان « شخصه الآخر » الايجابى والسلبى المستقر فى أعماق نفسه • وكانت روحى الشريرة تتمثل فى « ستافروجين »(١) •

وعندما كنت شابا أطلق الناس على اسم « ستافروجين » Stavrogin وهى تسمية كنت أعتز بها سرا • وكنت أحب أن أكون « أرستقراطى الثورة »

---

(١)بطل رواية « دوستويفسكى » المعروفة باسم « الممسوسون » The possessed (ف.ك) •

او « النبيل ذا الشعر الفاحم الذى يتألق بالحياة ويضع قناع الترفع البارد » · وربما كان ذلك من السذاجة بمكان ، ولكنه لم يكن يخلو من اغراء بسبب ذلك · والواقع أن نفسى كانت تنطوى على شىء من هذا « الستافروجين » وان كنت أعتقد أننى استطعت التغلب على هذا العنصر · وقد كتبت فيما بعد مقالا عن « ستافروجين » يعكس شيئا من الارتباط الحميم بينى وبينه ، فأثار هذا المقال عاصفة من السخط ·

ومن علامات الجهل وضيق الأفق أن يدهش المرء لصراعات الانسان ومتناقضاته ·· فالانسان فى أساسه كائن متناقض ، وهذا يشير الى شىء أعمق وأهم من أى خلو ظاهرى من التناقض فيه · وأستطيع أن أحدد سلسلة من المتناقضات داخل نفسى لا يمكن أن ترجع الى تناقض واحد منها ، كما لا يمكن أن تفسر عن طريق التبسيط · ومن أمثلة ذلك الكبرياء والتواضع ، فكلاهما موجود فى نفسى ، بل انهما يتعايشان بطريقة ما فى حالة توتر ·

ولقد كنت أدرك دائما أننى أحيا فى عدة أبعاد وعلى عدة مستويات ··· فكنت أضيق أحيانا باطراء الناس لى ، وأحيانا أخرى كان هذا الاطراء يسلينى · ولم يخطر لى قط أن أكون أعلى من الآخرين أو أن أحتقرهم ، بل كنت أجد متعة حقيقية فى مصادقة «البسطاء» من الناس والانغماس معهم فى أتفه المناقشات · وانى لأحب الهروب من الملاحظة والاختفاء على قدر الامكان ·· وأنفر خاصة من اظهار أى تفوق عقلى على غيرى من الناس ·

ولعل هذه السمات جميعا نتيجة لتحفظى المفرط ، ولرغبتى فى المحافظة على سلاحى الباطنى ، وقدرتى الناقصة على تبادل الحديث مع الناس ·· ولكنها تخفى أيضا نوعا من الكبرياء لم أكن أستطيع اظهارها للغير · وعندما كان الناس ينظرون الى فى شيخوختى باعتبارى رجلا مشهورا ، لم تكن هذه النظرة تبعث فى نفسى غير قليل من الرضا . ولم تكن تنمى تقديرى لنفسى على الاطلاق، بل انها كانت تسبب لى فى واقع الأمر ارتباكا ملحوظا ، بل كانت تصدمنى · أما فكرة « الشخص المجهول » incognito فكانت ذات جاذبية عظيمة بالنسبة الى · كانت متكبرا ومؤكدا لذاتى حقا ، غير أن كبريائى كانت مختفية تحت السطح ، ولم تؤثر اطلاقا على علاقاتى بالناس ، ومع ذلك كنت فى مستوى أعمق من طبيعتى متواضعا تواضعا حقيقيا ، وان كنت لا أرى فى ذلك أية فضيلة ، فهى سمة طبيعية أكثر من أن تكون تحصيلا روحيا · واقول بوجه عام اننى لا أعرف لنفسى غير القليل من الفضائل الأخلاقية التى يمكن أن تنسب الى · والواقع أننى متمرد ومتواضع فى الوقت نفسه ، صعب المراس ولين

العريكة فى وقت معا . فاذا امعنت النظر فى نفسى ، رأيت من واجبى الاعتراف بأننى لا أنظر الى نفسى نظرة تقدير . ولم أحقد على شىء مطلقا ، ولو حاولت لما نجحت قط . ولم أستطيع أن أفهم معنى الكبرياء الجريحة ، ولم أستطع أن أتعاطف مطلقا مع مظاهرها لدى الآخرين . ولست أشعر فى نفسى بأية ميول غامضة « تحت الأرض » كتلك الميول التى كان يشعر بها « الرجل من عالم تحت الأرض » الذى صوره « دوستويفسكى » ، وان يكن قولى ذاك لا يعنى أننى خال من الشر .. كما أننى لا أهوى الاستبطان اللهم الا فى كتابة ترجمتى الذاتية ، ولا أميل الى أن أكون فى حرب مستمرة مع نفسى . ولست أعبر فى كتاباتى — كما يفعل بعض الناس — عن عكس ما أنا عليه فى الواقع . ومن المحتمل أن أتحفظ وأكشف عن نفسى فى وقت واحد .. بيد أن « التعويضات » و « أنواع الكبت » و « التسامى » التى يعلق عليها التحليل النفسى الحديث أهمية كبيرة لا تنطبق على ، كما لا تنطبق على كثير من الناس .

وربما كان انعدام الغرور أو الطموح من نفسى شكلا خاصا من أشـــكال الكبرياء الروحية .. ومهما يكن من أمر فاننى لم أسع قط للشــــهرة وذيوع الصيت ، وهما أمران كانا يجتذبان « تولسـتوى » وبطله الأمير « أندريه فولكونسكى » Andrey Volkonsky . كما أن «عدم الاكتراث» لا يلعب دورا ضئيلا : فأنا لا أعبأ الا قليلا بما يكتبه الناس عنى ، وكثيرا ما تركت المقالات المكتوبة عنى دون أن أطالعها . وكان يخيل لى أحيانا أن أولئك الناس الذين يمتدحوننى ، يضغطون على ، ويحرموننى من حريتى . وكنت أتوجس خوفا من هؤلاء الذين يزعمون أنهم يشبهوننى فى العقلية ، كما كنت أخشى « التلاميذ » الذين يظهرون لى على هيئة عقبات تعترض ممارستى لحريتى الخلاقة وممارستهم لحريتهم أيضا . وانى لأشعر بأننى فى أفضل حالاتى عندما أكون فى صراع ، ففى هذه الحالة فقط يكتسب تفكيرى أقوى ما له من شدة . وكان يبدو لى أن روح الحرية الحقة ترتبط ارتباطا وثيقا بالانسان وهو مجهول الاسم . وعندما كان بعض الناس يعجبون بى فى أحد الاجتماعات باعتبارى شخصا بارزا ، أو رجلا مشهورا ، كنت أتمنى أن تنشق الأرض لتبتلعنى .. وما من أحد يمكن أن يسمى ذلك تواضعا ، بل أنه بالأحرى دليل على انعدام الرغبة للاختلاط المباشر بالرجال والنساء ، وعلى شىء قليل من الكبرياء وعدم الاكتراث والتحفظ .. فأنا فى الواقع جواد لسرج واحد ، ولم أخلق « للمجتمع » .

ثمة تناقض آخر كنت أشعر به دائما فى نفسى .. فعلى الرغم مما قلته آنفا ، فأنا مرهف الحساسية بدرجة استثنائية فى تجاوبى مع الأشياء المحيطة بى . فما من ألم — مثلا — أيا كانت قلة ظهوره للناس — الا سبب لى عذابا

لاسبيل الى التعبير عنه سواء أصاب هذا الألم الأقربين الى ، أو غير الأقربين ٠ وأنا الاحظ أقل الظلال والتغييرات التى تطرأ على أمزجة الآخرين ، بيد أن هذه الحساسية المفرطة يصاحبها فى الوقت نفسه جفاف عاطفى أو جدب ٠٠ وحساسيتى نفسها قاحلة ، وهذا أمر لم يفلت من ملاحظة كثير من الناس الذين عرفونى ٠ وعالمى الداخلى شبيه بالصحراء ٠٠ بأرض يباب مجردة من كل شىء اللهم الا بعض الصخور الصلبة المنعزلة ٠٠ ولحظات الابتهاج العظمى فى حياتى خالية من كل تزويق أو تنميق أو زخرفة ، وأقرب رمز لها هو الشعلة المجردة ٠ وانى لأشعر أننى قريب كل القرابة من عنصر النار ، وأننى غريب عن عناصر التراب والماء ٠٠ ولهذا لم أشعر الا نادرا فى حياتى كلها بأننى مستقر آمن مطمئن فى معيشتى ، ومع ذلك فأنا أبعد ما أكون عن العبوس والصرامة ٠ والغريب بالنسبة لحساسيتى أننى لم أجرب قط تلك العواطف الرقيقة المحركة للروح ، كما أننى لم أحب أبدا مثل تلك التجارب ٠٠ فأنا فى جملتى غير عاطفى ، ولم أجد فى نفسى اطلاقا أى عنصر « غنائى » أو « مشاعر رفيعة » ، ولكننى من جهة أخرى على احساس عميق بكل ما هو فاجع فى الحياة ، وهذا الاحساس صادر عن وعيى الشديد بما فى العالم والوجود الانسانى من شقاء ٠ وأقرب العناصر رحما الى نفسى هو العنصر الدرامى ٠

ولم يكن فى استطاعتى قط تحقيق أى انسجام أو توازن بين حياتى الروحية وحياتى العاطفية ، اذ كانت الحياة الروحية تسيطر دائما على الحياة العاطفية . وأفضى ذلك الى اضعاف قواى العاطفية والانفعالية واستجاباتى من هذه الناحية ٠ كانت روحى كلا واحدا ، أما نفسى فكانت مريضة ٠ ولم أفطن قط الى شىء من عدم الاستقرار أو التردد فى فكرى أو الانقسام فى ارادتى ، ولكننى كثيرا ما كنت أشعر بالاضطرابات العاطفية وعدم القدرة على الفصل فيما يتعلق بها ٠ ولم أفشل قط فى توكيد استقلالى الروحى ، ولم يسبب لى شىء قط أعظم العذاب أكثر من علاقاتى مع الناس واخفاقى فى هذا المجال ٠٠ ولم تكن سرعة انفعالى غير علامة من العلامات الكثيرة على هذا النقص ، كما لم تكن أسباب غضبى ظاهرية دائما ، بل كنت أحيانا أتصور عدوى أمامى فأشتعل غضبا دون أن يكون فى الحجرة سواى ٠

قلت من قبل اننى لم أحب الجنود قط ، اذ كنت أشمئز من كل ما يتعلق بالحرب وأنفر من القوة ، ومع ذلك فأنا بطبيعتى محارب ، وأميل بغريزتى الى التجارب فى عنف مع بيئتى ٠٠ بل بلغ بى الأمر أن كنت أحمل مسدسا أينما حللت ٠ وهذا يوحى بتماثل بينى وبين « تولستوى » الذى كان يمتلىء بهذا النفور عينه من القوة ممتزجا بنفس موقفه من الحياة موقف المحارب ٠ وقد وجدت من اليسير

على التعبير عن عواطفى ازاء الحيوانات وحدها : فصببت رقتى التى لا أستطيع الافصاح عنها على الحيوانات ، ويبدو أننى ألفيت معها تخفيفا من عزلتى ، فأنا مولع كل الولع بالكلاب والقطط والطيور والجياد وغيرها من الحيوانات ، ولاسيما الكلاب والقطط التى أشعر نحوها بعاطفة خاصة ، وصحبة الحيوانات ـ وخاصة تلك التى تعاشرنى ـ تمنحنى متعة عظمى ، وانى لأحب أن تستمر هذه الصحبة بعد الموت · ولقد كنت شديد الارتباط بكلبين : كلب زوجتى الصغير « تومكا » Tomka ، وكلب آخر عرفته فيما بعد يدعى «شولكا » Shulka . وكان فقدانهما (مات أحدهما بعد أن طعن فى السن ، والآخر تركته فى أثناء نفيى من روسيا السوفيتية) سببا فى أن أعانى أحلك ساعات حياتى ، كما أنه ترك فراغا كبيرا فى قلبى · وقد بكيت كما لم أبك من قبل ·· بيد أن الحيوان الذى أحببته أكثر من غيره هو قطتى « مورا » ، اذ كانت عيناها الجميلتان تكشفان لى عن أعماق مجهولة من التجربة ، وقد عانيت عذابات أليمة عندما مرضت وماتت ·

وقد أتيحت لى الفرصة من قبل لكى أذكر أن فى موقفى من الحياة عناصر من الخيال والرؤية والواقع معا ، وهذه العناصر لا تستلزم الصراع بالضرورة لأن هذه المجالات تتعلق بموضوعات مختلفة ، وبالتالى تستطيع أن تتعايش فى اتساق · وليس من طبيعتى أن أحيل واقع الحياة اليومية الى المثل العليا ، ولست ممن يستسلمون للأوهام ، أو يطئون أرضا سحرية ، أو ممن تتبدد أوهامهم فى يسر · وأنا غريب عما يعرف بالموقف الرومانسى من الواقع · ولا يمكن أن أسمى رومانسيا الا بمعنى واحد ، اذا صح أن هذا المعنى رومانسى ، فقد جاهدت بلا مهادنة نحو « المتعالى » فى محاولة قوية لعبور حدود هذا العالم والسمو عليها · ونتج عن هذا ادراك للواقع النهائى أو بالأحرى للزيف أو « السقوط » لعالمنا هذا ـ وهو ادراك أجل شأنا عندى من أى نظرية أو ادعاء فلسفى · وليست لدى أوهام أيا كانت عن هذا العالم ، ولكننى أعتقد أن العالم نفسه وهمى الى حد كبير ، وان يكن ذلك بمعنى مختلف عن المعنى الذى يوحى به المفكر الهندى أو الفلسفات المشتقة منه · ان ضغط التاريخ ووطأة العالم المادى لا يؤثران على ، ولا تستطيع المحاولات الخاصة باضفاء طابع مقدس على الظاهرة التاريخية وعلى النظام التصاعدى للمجتمع أى اقناع كان · كما لم أستطع أن أرضى اطلاقا بالأشياء العابرة الفانية التى تتحقق فى الزمان ، أو التى تعيش لحظة فقط · وكانت اللحظات السعيدة فى الحياة تفلت دائما من قبضتى ، وما كنت أستطيع أن أقتنع بأن الزمان فى تدفق دائم ، وأن كل لحظة تختفى وتبتلع فى اللحظة التالية ، هذا الجانب الرهيب من الزمان قد سبب لى عذابا شديدا لا سبيل الى التعبير عنه ·· وكان الافتراق عن الناس والأشياء والأماكن مصدرا لآلام لا تقل هولا عن الموت ·

ولابد أننى انتمى الى طراز من الناس كان عدم الرضا بالواقع ، والحنين الى ماهو ابدى هما الشاغل الأسمى الحاســـم فى حياتهم · فلقد رددت طيلة حياتى كلمات زرادشت الخالدة : « أيتها الأبدية ·· انى أعشقك » · ومن المحال أن يعشق المرء شيئا غير الأبدية ، وكل حب هو حب لما هو أبدى ·· ولو لم تكن الأبدية موجودة ، لما وجد شيء · واللحظة من لحظات الزمان تملك من القيمة بمقدار ما يربطها بالأبدية ، وبمقدار ما تسمح بمخرج من الزمان المغلق ـ أى باعتبارها ذرة من الأبدية لا من الزمان ، على حد تعبير « كيركجور » · ويرجع مرضى الى انتظارى وتوقعى للحوادث قبل وقوعها الفعلى ، وهو مرض ظل يطاردنى طيلة حياتى ، وهذه الحالة العقلية لا تتفق لسوء الحظ ـ مع وصايا الحكمة ومبادىء الانجيل · لقد رغبت دائما أن يتوقف الزمان ، وأن تستوعب الأبدية الزمان ـ الماضى والمستقبل معا ـ وتقهره · ومع ذلك ، أتطلع فى الوقت نفسه قدما الى الامام ، وأنتظر المستقبل · وربما كان الزمان هو المشـــكلة الأساسية للفلسفة ، وخاصة فلسفة الوجود ·

لم يطرأ على بالى قط أن أفكر فى العالم باعتباره خـــاليا من الحـــدود والغائية ، وانما على العكس من ذلك ، كنت أفكر فيه دائما باعتباره محدودا ، بل باعتباره التحديد نفسه فى مقابل اللامحدود واللامتناهى الذى عرفته داخل نفسى · فالعالم الباطنى أشد واقعية من العالم الخارج عنى · وقد اتهمنى البعض بعجزى عن الاعتراف بالحركة التى تتم من الداخل الى الخارج ـ أى الانجاز والتحقق والنجاح والانتصار · وأحب أن أعلق على هذه النقطة فيما نحن بصدده من سياق ، وان كنت سأعود الى مناقشة هذه النقطة فيما بعد · من الحق أننى لا أحب الظافرين والناجحين ، اذ يبدو لى أنهم يتبعون دائما طريق التكيف مع عالم واقع فى الشر ، أو عالم شرير فى جملته · وأنا لا أعتقد فى امكانية التحقق الصادق على مستوى كون موضوعى منعزل ، والمأساة قد ضربت جذورها بعمق فى قلب العالم · وهذا الموقف يفســـر كراهيتى للنزعة الكلاسيكية التى تخلق وهم الكمال فيما هو فان ، بينما الواقع أن الكمال لا يمكن بلوغه الا فى اللامتناهى · ووهم الكمال الفانى يعمى بصائرنا ، ويعوق تطلعنا صوب اللامتناهى والأبدى · وكل صورة متحققة أو واقعية تعد صورة نسبية ولا يمكن أن تدعى التناهى ، وكل احالة واقعية فى الزمان والمكان ليست الا رمزا على شيء عبر هذا العالم ، ومحاولة ضعيفة لتجسيد طموحنا الى اللانهائى والأبدى ، وبالتالى اعتقاله · وهذا هو مصدر الطابع الثورى فى تفكيرى ، وأعنى به الثورة من عالم عبر هذا العالم ، من المتعالى على الكون الى الداخـــل فى صميمه ·· واننى لأعتقد خلاف ما هو شائع أن الروح ثورية بينما المادة محافظة ورجعية · والحق أن المادة ضارة بالثورة الروحية الحقيقية ، كما أنها تسخر

من انتصاراتها · المادة تتعلق بالزماني ، أما الروح فتسعى وراء الأبدية ··· والوصول في حد ذاته معناه الأبدية ·

وكلما استرجعت طفولتي ومراهقتي ، بل أعوامي الأخيرة ، أدركت الأهمية الهائلة لكل من « دوستويفسكي » و « تولستوي » بالنسبة الي ، فقد كنت أشعر دائما برابطة غريبة بيني وبين أبطال روايات « تولستوي » و « دوستويفسكي » مثل « ايفان كارامازوف ، وفرسيلوف Versilov ، واستافروجين ، والأمير اندريه ، بل بأولئك الذين يسميهم « دوستويفسكي » « حجاج الأرض الروسية » وبتشاتسكي Chatsky (١) ، وبافجيني أونيجين ، و « بتشـــورين »(٢) ، وغيرهم · وربما كان هذا الشعور هو الذي يميز أعمق روابطي بروســـيا ومصيرها · وقد تلقيت انطباعا لا يقل عن ذلك عمقا من بعض الروس أمثال « تشادايف » Chaadaev وبعض ذوي النزعة السلافية ومن « ليوتولستوي » و « فلاديمير سولوفييف » V. Solovyev ، ومن هرتزن ، بل حتى من «باكونين» والعدميين ·

وأنا أشبه كثيرين من هؤلاء الروس في أنني ولدت من طبقة الاعيان ثم انفصلت عنها · وهذه القطيعة مع المجتمع الذي أنتمي اليه والقطيعة الأخرى التي أعقبتها مع شركائي في الثورة ، تؤلفان معا الحادثين الأساسيين في تاريخ حياتي الباطني والظاهري على السواء ، وهما جزء من صراعي للحصول على حق الفكر الحر ، وحق الابداع ·

ولم يراودني شك في رسالتي على الاطلاق ، وكنت أملك القوة والتصميم الكافيين للسعي في سبيل هذه الرسالة ، كما كنت أستطيع أن أكون عنيفا في الصراع من أجل تحقيقها · ولم أكن ممن يتقنون كبح جماح أنفسهم ، بيد أنني لا أدعي أيضا أنني تغلبت على كافة التوترات والمتناقضـــات والمتنافرات التي تزخر بها نفسي · والحق أن المثابرة والثبات لم يكونا من فضائلي مطلقا ، وكان حبي الوحيد الدائم العظيم هو حبي للفلسفة ، وان لم أسلم نفسي كلية للسعي وراءها · وما أقل الفلاسفة الذين استغرقوا في الحياة مثلي ، وان أكن قد حاولت بيان كيف أنني لم أكن أحب « الحياة » ·· وكذلك قليل من الفلاسفة استغرقوا في المجتمع مثلي ، وان كنت أبغض « المجتمع بغضا لا مراء فيه ·· كان مزاجي

---

(١) بطل الملهاة التي كتبها « الكسندر جريبوبيدوف » بعنوان : « نكبة الحصافة » (ف·ك) ·

(٢) بطل رواية « لرمنتوف » المعروفة : « بطل زماننا » (ف·ك) ·

مزاج زهد ، وان تكن حياتى ابعد ما تكون عن حياة الزهد ٠٠ ولقد كنت رءوفا بصورة غير مألوفة ، ولكننى لم افعل شيئا لممارسة هذا العطف ٠ وكنت أشعر دائما بما تفعله القوى اللاعقلية فى حياتى ٠٠ ولم تكن أفعالى صادرة عن العقل وانما أميل الى أن تجتاحنى البواعث ٠ وكنت أشعر بفضيلة عظمى أو بطاقة روحية تجيش بها نفسى ، وبحرية داخلية عظيمة ، وبانطلاق من كل اعتماد على العالم المحيط بى ، ولكننى كنت فى الحياة اليومية عرضة لطغيان الاحساسات والعواطف المضـــطربة ٠ وكنت محاربا من حيث المزاج ، ولكن قلما حاربت للنهاية ، وكانت حالات مزاجى ومظاهر روحى المقاتلة تفسح مكانها للتعطش من أجل التأمل الفلسفى ٠

وكثيرا ما خطر لى أننى قد أخفقت فى نهاية الأمر فى تحقيق كل الامكانيات الكامنة فى ، وفى أن أكون صادقا دون تناقض مع نفسى ، ذلك أن نفسى كانت تنطوى ــ كما أشار الى ذلك شخص ما ذات مرة ــ على شىء لا يمكن اصلاحه من الارستقراطى والهاوى ٠ وهذه الصفة تركت طابعها الميتافيزيقى على ، ولم أستطع مطلقا التغلب عليها ٠ ولو كنت أنحدر من أصل آخر أكثر « ديمقراطية » لكان من المحتمل أن أكون أقل تناقضا مع نفسى ، وأن أحقق أكثر مما حققت ، أو استخدمت نفسى فى شىء أعظم من الاتساق لما أكون قد حققته ، على الرغم مما يمكن أن أفقده من بعض السمات التى أقدرها فى هذه الحالة ٠

ولا يمكن أن أبرىء نفسى من « الأنوية » ، غير أن أنويتى تتعلق بمجال العقل المبدع اكثر مما تتعلق بملذات الحياة أو بالسعادة فى الحياة ، وهى شىء لم ينصرف اليه قلبى على الاطلاق ٠ ولقد كنت قادرا على اصطناع القســـوة فى الدفاع عن رسالتى الخلاقة ، وعن رسالة غيرى من الناس ، بيد أننى أشك فى أن هذا الأمر ضربة لازب فى عالم يصطدم فيه العقل المبدع بالجمود والبلادة والغباء ٠٠ والمفكر ، أو الرجل المثقف ، هو بمعنى من المعانى ، شىء شاذ ، أو مخلوق عجيب ٠ ولقد كنت ممزقا بين رغبة عنيفة فى مواصلة معاركى العقلية والمضى بالقتال حتى معسكر العدو من ناحية ، وبين التعاطف الأخلاق والعقلى من ناحية أخرى ٠ واذا تحدثنا عن « الأنوية » فلا ينبغى أن نخلط بينها وبين « الأنانية » ، ذلك أن هناك شكلا مشروعا للأنوية ، وهو الشكل الذى يعترف بأولوية « أنا » الانسان باعتبارها المركز الشخصى الذى لا يمكن ارجاعه الى شىء غيره ، فى مقابل ما كان يسميه « بسكال » بالأنانية « البغيضة » ٠ وهكذا ترى أن ذات الانسان منقسمة ، وهذا ما يفسر طبيعتى المتنافرة المركبة ، والسبل المتشعبة المتباعدة التى سلكتها حياتى ٠

الفصل الثـانى

عزلـة ·· قلـق ·· حـرية ·· تمـرد ·· شـفقة
شكوك الروح ومجاهداتها ·· خواطر عن « الحب »

العزلة والاتصال الروحى فى استقطابهما وتداخلهما أساسيان للحياة · والانسحاب والاتصال فعلان من أفعال الوجود الانسانى تدور حولهما حياة الانسان الدينية كلها · ولكن كيف يمكن التغلب على البعد والإعتزال الناجمين عن الانسحاب ؟ يزودنا الدين باجابة عن هذا السؤال اذ أنه يهتم بانشاء جسر بين عالمين ، وبالتالى بتحقيق الألفة والقرابة · ولم اشعر اطلاقا بأننى جزء من العالم الموضوعى ، أو بأننى أحتل فيه مكانا محددا ، أو مركزا معينا · ذلك أن التجربة التى عانيتها عن نفسى تجربة من التجارب التى تعزلنى جانبا عن العالم الموضوعى ، ولم أتصل بهذا العـالم الا من ناحية السطح فحسب ، واحساسى بالاتصال وعدم الاستقرار فى العالم ، ذلك الاحساس الذى عبرت عنه فلسفيا بأنه « الاحالة الموضوعية » objectification كامن فى قلب نظرتى كلها الى العالم · وكنت منذ طفولتى اسكن عالما يختلف عن العالم الذى يحيط بى ، وأتظاهر فحسب بانتمائى الى عالم بيئتى ، كما كنت أتخذ موقف الدفاع ضد العالم ، وأحاذر من كل ما يمكن أن ينتهك حريتى ·

شرعت فى قراءة الروايات والمسرحيات وقدرا معينا من الشعر فى طفولتى المبكرة ، وافادت هذه القراءة فى تقوية انطباعى بأننى أعيش فى عالم عجيب مختلف خاص بى ، وكان ابطال القصص الأدبية يتمتعون فى نظرى بواقع أعظم من واقع الأشخاص الذين أعيش بين ظهرانيهم · وكانت لى فى أثناء طفولتى دمية تلبس حلة ضابط ، وكنت أخلـع على هذه الدمية جميـع الصفات التى تعجبنى : وكان لهذا العمل من الدلالة ما يشابه الأسطورة · ولقد قرأت كتاب تولستوى « الحرب والسلام » فى سن مبكرة ، وبالتدريج أصبحت هذه الدمية التى سميتها أندريه ـ تجسيدا للامير أندريه « فولكونسكى » ، وصنعت منها كائنا له من الواقع أكثر مما لزملائى فى المدرسة الحربية · ومع ذلك لم تكن

هذه الحياة فى هذا العالم الذى صنعته لنفسى - مقصورة على مجال الخيال والتوهم ، اذ أننى لم أفتقر قط الى الاحساس بالواقع ، واقع العالم المحزون الذى يحيط بى . وكانت تجربتى معاناة للطابع الغريب فى العالم الموضوعى اكثر من أن تكون معاناة للدوافع .. ولكننى لم اعش قط فى مجال وهمى ، بل كانت استجابتى للعالم من حولى استجابة متيقظة واقعية الى أقصى حد . ومع ذلك كان لدى ذلك الاحساس بابتعاد هذا العالم عنى ، ولم أستطع الاندماج فيه مطلقا . وعندما شرعت أفكر فيما بعد بالمصطلح الفلسفى تحدثت عن غربة الانسان ازاء العالم ، وعن « التخريج الظاهرى » للعالم بالنسبة للانسان ، ورأيت فى هذا الوضع الانسانى مصدرا للاستعباد . وقد جاهدت للمحافظة على ما لعالمى الخاص من طابع كلى ، وحتى لا يصبح « شيئا خارجيا » محضا . وكانت لى « رؤية » عن الانسان باعتباره كائنا لم ينشأ من « هذا العالم » ولم يتكيف معه ، وبالتالى فأنه لم يصبح أسيرا لهذا العالم ، وأخذت أنظر الى هذا الكائن باعتباره نفسى . ولكننى لم أظن أننى « أفضل » من الآخرين بأى معنى من المعانى ، أو أفضل من أولئك الذين يضربون بجذورهم ويستقرون ثابتين فى « هذا العالم » ، بل كنت أعتقد فى بعض الأحيان أننى أسوأ ، وأسوأ منهم كثيرا .

وامتد شعورى المعذب بالغربة الى موقفى من جماعات الناس كلها ، ومن جميع الحركات والأحزاب والطبقات . ولم أرض مطلقا بأن أندرج فى فئة ، كما لا أستطيع أن أتصور نفسى جزءا من وضع انسانى « عام » أو « عادى » ، وكان هذا الشعور بالغربة - الذى سبب لى أحيانا عذابا حقيقيا - ينشأ أحيانا من أى تجمع للناس ، أو من أية حادثة يومية من حوادث الحياة .. بل اننى اضم داخل نفسى كثيرا من الأشياء الغريبة عليها .. كنت غائبا فى أثناء حضورى حضورا ايجابيا فى الحياة .. ولا أستطيع ان اقول - أيا كان الأمر - ان احساس الاعتزال عندى كان علامة على عدم الاكتراث .. ذلك أننى أبعد ما أكون عن عدم الاكتراث هذا ، بل كنت أجد نفسى ملتزما التزاما ايجابيا عميقا فى الحياة ، غير أن هذا كان يمتزج ، فى صورة مقارنة ، بميل لما يمكن أن يسمى بالموقف اللااجتماعى non-social attitude ، وكثيرا ما فكرت فى هذا الصدد بالسيد الاقطاعى المتحصن فى قلعته ذات الجسر المرفوع ، والمتاهب لاطلاق النار على كل من يهاجمه .

ومع هذا كله فأنا اجتماعى ، ولقد أنفقت حياتى متحدثا مع غيرى من الناس ، ومستمتعا بهذا الحديث .. كما اشتركت أيضا اشتراكا ايجابيا فى الشئون الاجتماعية ، والحركات السياسية . وليس تفكيرى - فضلا عن ذلك -

« مناجاة متوحدة » وانما كان للحوار والاحتكاك بفكر الآخرين أثر منعش مقو لتفكيرى الخاص · ولقد كنت أميل دائما لأن أكون « مناظرا » controversialist ، وهذا دليل على أحد المتناقضات فى طبيعتى ، وهو تناقض ضلل بعض النقاد الذين تعرضوا له ، بيد أننى قلما كشفت عن نفسى فى الخارج عن طريق الألفاظ كما أنا حقيقة ·· بل لقد اتخذت درعا للدفاع عن عالمى الخاص · وانى لأتعجب ، هل أدرك أحد ، حينما أبدو مشتبكا فى محادثة ما اشتباكا فعليا ، كم أبقى متباعدا غريبا فى حقيقة الأمر · اننى أشعر بالوحدة فى أشد حالاتها عندما أكون بصحبة الآخرين ، والشعور بالوحدة بين الناس هى الوحدة وقد اشتدت وزادت حدتها ·

ويقال ان الأشخاص المتوحدين يتميزون باطار عقلى تأملى يغلب عليه الاحجام عن الفعل ، ولكننى كنت وحيدا نشطا فى الوقت نفسه ، وان كنت لا اقصد بالنشاط هنا النشاط الذى يبذله رجال الأعمال مثلا · ولقد كت أشعر دائما ، وساظل أشعر شعورا قويا ازاء المسائل الاجتماعية ، ومع ذلك فان كل نظام أو حركة اجتماعية غريبة على · وكنت فى شبابى أنتمى الى عدد من الجماعات الماركسية ، التى بذلت فيها نشاطا كبيرا ، فكنت أخطب فى الاجتماعات وأجادل ، وأروج لمبادئها · بيد أن شعورى بالبعد ، ومعرفتى بأننى قادم من عالم آخر ساعود اليه ـ لم يفارقانى على الاطلاق · وهكذا لم أستطع قط أن أجسد فى الخارج ما يعتمل فى نفسى ، ولم تتوج محاولاتى لتشكيل البيئة المحيطة بى كما يهوى قلبى ـ بالنجاح العظيم · وليس ثمة شىء مشترك بينى وبين « أعمدة المجتمع » أولئك الأشخاص الموطدى الأكناف الذين يحرسون مبادىء الحياة والمدنية سواء أكانت هذه المبادىء محافظة ، أم حرة ، أم اشتراكية ·

ثمة نمطان من الناس يختلفان فيما بينهما اختلافا أساسيا : هؤلاء الذين تكون علاقتهم مع العالم مريحة منسجمة ، وأولئك الذين على خلاف دائم معه · أما أنا فمن النمط الثانى ·· ولقد سبب عدم الانسجام بين « ذاتى » وما ليس بذاتى وعدم التكيف العميق الجذور الذى تميزت به ، سببا لى دائما الألم وعدم الاستقرار · وبفضل تحفظى وميلى الى الظهور أمام الناس على غير ما أنا عليه فى الواقع كان الناس يكونون رأيا خاطئا عنى فى أغلب الأحيان ، سواء بالخير أو بالشر ، حتى أصبح ذلك قاعدة · واعتادت بعض النفوس العاطفة على ، أن تدعونى ابان شبابى « بأننى حبيب النساء والآلهة » ، وهذا ولا شك اطراء كبير ، ولكننى قلما كنت أتعرف على نفسى فى هذه المرآة ، التى تليق ـ كما يبدو ـ بانسان سهل سعيد لا تعقيد فيه ، وهذا نمط أبعد

ما أكون عنه فى الواقع • ومن الصعب أن تفضى تجربة العزلة والقلق الى المرح والجذل • وأن يكون المرء وحيدا معناه الا يستطيع مطاوعة أو مصالحة العالم كما يقوم أمامه • وربما كان « عدم القبول » هذا للعالم هو أول صرخة ميتافيزيقية أطلقها لأننى ولدت فيه ، وعندما استيقظ وعيى أدركت أن ثمة صداما بينى وبين الأشياء والعادات المألوفة ، والوجود اليومى • والواقع أن حياة العالم والناس خاضعة الى حد كبير لسيطرة « الابتذال » أو للناس das Man على حد تعبير « هيدجر Heidegger » وأنها منغمة وفقا لوعى ذلك التجريد المعروف وأعنى به « الانسان العادى » The ordinary man وكل طريقة مستقرة للحياة بين الناس كانت تبعث النفور الى نفسى ، والحنين للانفصال عن عالم الوجود اليومى •

ونشأ عن ادراكى للطابع المنفصل للعالم عجزى عن اكتساب مكان وطيد فيه ، ولعله يفسر أيضا اعراضى عن أى مطامح فى الحياة • ولقد كنت دائما عديم المبالاة بالنسبة للاشياء التى تخصنى ، وللثناء الذى يغدقه الآخرون على عملى ، اذ كان التقدير الانسانى يمس – فى نظرى دائما – المستوى السطحى أو القشرة الخارجية لأفكارى دون أن يصل مطلقا الى جوهرها الحقيقى • وكان بعض الناس يظهرون الاعجاب بى ، بل والحماسة أحيانا ، ومع ذلك كنت أشعر دائما بأننى مكروه من « الرأى العام » ومن المجتمع : كان الماركسيون يمقتوننى ، وكذلك دوائر واسعة من المثقفين الروس ، والسياسيون ، وممثلو العلم والفلسفة الرسمية والأكاديمية ، والأوساط الأدبية والكهنوتية • ولم أظهر مطلقا قدرة كبيرة على العمل المشترك والتعاون الجماعى ، ولهذا كنت أجد نفسى دائما فى صراع وتعارض مع الآخرين • ولقد تمردت على مجتمع طبقة الأعيان ، وطبقة المثقفين الثوريين ، وعلى المحافظين ، وعلى الأحرار ، وعلى الشيوعيين ، وعلى المهاجرين الروس ، والمجتمع الفرنسى • وكان النساء يبدين نحوى من الاهتمام اكثر مما يبديه الرجال •• بيد أن حبهن يلقى ظلا على أعوام شبابى ، اذ كنت أؤكد حريتى بقوة مما خيب آمالهن ، وبهذه الطريقة نفسها خيبت آمال جميع الحركات المذهبية التى كانت تعتمد اعتمادا لا تحفظ فيه على ولائى لها • والحق أننى لم أومن بشىء خلاف نفسى : وكانت لى « فكرتى » الخاصة ، ورسالتى الخاصة ، وبحثى الخاص عن الحقيقة •• ولم أجرب قط غبطة الاتحاد الكامل ونشوته سواء أكانت دينية أم قومية أم إجتماعية أم غرامية ، ولكننى جربت نشوة التحرر والتمرد •

ومن الخطأ البين استنتاج أننى « انعزالى » solipsist ، أى شخص ينكر واقع الآخر والآخرين بالنسبة اليه ، وانما الأمر على العكس من ذلك

اذ ان حركة العلو الذاتى self-transcendence هى بالنسبة الى مسالة ذات اهمية عظمى ، فانا دائما وحيثما توجهت أغرانى المتعالى وجذبنى اليه ٠٠ ذلك « الآخر » الذى يتجاوز الحدود والسدود جميعا وينطوى فى ذاته على سر الحياة ٠ ولست مستغرقا استغراقا تاما فى نفسى او مشغولا بالتحليل الذاتى والتأمل الذاتى حتى حين أكون شاعرا بعزلتى واغترابى الأليم عن العالم ٠ وكنت أتغلب أحيانا على وحدتى ، وفى أحيان أخرى كنت أشعر بفرح لا سبيل الى التعبير عنه عند عودتى اليهـا ، وكأننى عدت الى وطنى قادما من بلاد غريبة على هذا الوطن ٠٠ وما برح الوطن الأصلى مختلفا عن نفسى ، وان يكن مستقرا فى أعماقى ٠ وعلى الرغم مما فى ذلك من مفارقة فاننى أدرك فى نفسى شيئا مختلفا غريبا عن نفسى ، والعكس صحيح ، أى اننى أدرك فى نفسى شيئا أقرب الى نفسى من نفسى ، بيد أننى لا أستطيع أن آمل الاعراب عن هذا بطريقة واضحة وضوحا كافيـا الا بالرجوع الى القديس « أغسطين » و « بسكال » اللذين يتحدثان عن تجربة مماثلة ٠

وكنت منذ طفولتى أشعر شعورا قويا بالرسالة ، ولم أتساءل مطلقا عما ينبغى أن أختاره ، وعن السبيل الذى يجب أن أسلكه ، اذ كنت على ثقة ــ ولما أزل صبيا ــ أن رسالتى هى الفلسفة ٠٠ وليس معنى هذا أن أتخصص فى موضوع معين هو الفلسفة ، فأنشىء الأبحاث ، وأصبح أستاذا ٠٠ ذلك اننى لم أتطلع اطلاقا ــ وبصفة عامة ــ الى أية مهنة ، ولم أكن أميل قط الى الحياة الأكاديمية ٠ وكنت أبغض المدرسين باعتبارهم طبقة ، ولا أستطيع أن أحتمل العقلية المدرسية فى أية صورة من الصور ٠ وفى رأيى أن مجرد تصور التعليم التقليدى انحراف وتشويه ٠ ولم أكن أتصور نفسى قائما بدور الأستاذ بنفس الدرجة التى لا استطيع أن أتصور فيها نفسى ضابطا أو موظفا مدنيا أو رب أسرة ، أو أى دور فى « الحياة » حقا ٠ وعندما أحسست برسالتى كفيلسوف ، صرت شاعرا بنفسى بوصفى قد وهبت حياتى للبحث عن الحقيقة ، وللكشف عن المعنى فى الحياة ٠

وقد كان نموى ابان طفولتى نمــوا مبكرا ، وان لم تكن لدى غير قدرة ضئيلة على الدراسة المنتظمة ، كما لم أظهر غير مثابرة ضئيلة على العمـل ٠ وكنت أطالع « شوبنهور » و « كانت » و « هيجل » وأنا فى سن الرابعة عشرة ، وقد اكتشفت حينذاك كتاب شوبنهور « العالم كارادة وتمثل » ، وكتاب كانت : « نقد العقل الخالص » ، وكتاب هيجل « ظاهريات العقل » والجزء الأول من « دائرة المعارف » فى مكتبة والدى ٠ وكنت أراقب تكوين عالم ذاتى وهو يتحدد تدريجيا داخل نفسى ، عالم أعارض به العالم الموضوعى من حولى ٠ بيــد

اننى كنت حائرا فى الأعوام الناضجة من حياتى - حين تصديت للتعبير عن كل ما ينطوى عليه ادراكى لهذا العالم من شدة · وكان العالم الآخر - العالم الموضوعى - يبدو لى دائما أقل أهمية الى حد ما · وكنت أستطيع حقا أن أتعرف العالم الخارجى وأفهمه وأصبح واياه شيئا واحدا على شرط ادراجه فى نفسى كعنصر داخلى من عالم « الذات » ·· وكنت أستطيع أن أفهم « شوبنهور » أو « هيجل » أو « كانت » حين اكتشفت عالمهم الفكرى universe of discourse داخل نفسى · أما جميع الأشياء التى تواجهنى باعتبارها موضوعا يجب النفاذ اليه من الخارج ، فلم أكن أفهمها ·· لم أكن أفهم اذن الا بالعودة الى الذات ، من الداخل · وربما كان ذلك هو سبب سوء الفهم الذى يثيره تفكيرى فى عقول الآخرين ·· وليس من الممكن أبدا التعبير تعبيرا معادلا عن المعرفة التى ينتزعها الانسان من الداخل · ولعلنى قد نجحت الى حد ما فى نقل « أفكارى » ، ولكننى لم أنجح فى نقل استبصاراتى النهائية ultimate insights ·· كما كنت عاجزا أيضا عن التعبير عن مشاعرى · ومن المحتمل أن يكون ذلك حالة من حالات الدفاع عن النفس ، أو رغبة فى الاحتفاظ بعالمى الخاص حيا ، أكثر من أن تكون اخفاقا وكبتا ·

ولقد كنت أجد دائما المحادثة الودية مع شخص آخر أمرا شاقا ، والغريب أنه من الأيسر أن أتحدث فى مجتمـــع أو الى جمهور من المستمعين · فاذا وجدت نفسى وجها لوجه مع شخص ما ، احسست احساسا حادا بانفصالى ، وكان للتحفظ اليد العليا ·· وعلى هذا الأساس كان الانطباع الذى أتركه فى الغير هو افتقارى الى العاطفة والى كافة المشاعر الرقيقة lyrical qualities ولو عرف الناس الحق لاكتشفوا فى حساسية مفرطة ، ومشاركة وجدانية ، ورقة فى الشعور · فاذا اتصلت بالناس لم أستطع مطلقا التعبير عن هـــذه الأشياء · ويقول «آندريه جيد » فى « يومياته » انه لا يطيق اقل استعراض للعاطفة ، كما أن اظهار الآخرين لها يجعل نخاعه يتجمد ·· واستجاباتى أنا مماثلة لذلك ، اذ لا أحتمل أى رقة مفرطة أو نعومة أو مداهنة عاطفية ، وكان يبدو لى أحيانا أننى لست فى حاجة اطلاقاً الى الناس · وهذا ولا شك موقف خليق بالاعتراض سواء من الناحية الأخلاقية و من الناحية الميتافيزيقية ، غير أن هذا كان مزاجى ·

ومن السمات المميزة لموقفى من العالم الخارجى ، ومن بيئتى الاجتماعية، ومن الناس الذين صادفتهم فى مجرى حياتى ، أننى لم أحاول قط اقتناص أى شىء ، أو البحث عن النجاح والرفاهية بأى معنى من المعانى ، ولكننى قدأقبلت على مهنتى غير ناظر الى الامتيازات والمؤهلات التى يمكن أن يقدمها العالم

الخارجي ، ومما يبعث على دهشتي حقـا أنني كنت أتلقى عرضا مثل تلك الامتيازات دون أن أحرك اصبعا لاكتساب أي شيء · ولقد كنت متسامحا الى حد معقول فيما يتعلق بعلاقاتي الشخصية ، ولم أكن أشعر بميل اطلاقا للحكم على الآخرين ·· بيد أنني كنت أستطيع أن أكون متعنتا ، اذ أصبحت خاليا من كل رغبة للتوفيق في مواجهة الأشياء التي كنت أحاربها حربا فعلية حينذاك· وكنت أشعر في أغلب الأحيان أن « الجوانية » inwardness التي أعلق عليها كل تلك الأهمية ، لا تكفي قبل كل شيء ·· فهناك حاجة الى « البرانية» outwardness والى الاحالة الخارجيــة exteriorization والى العمل من الخارج ·: واذا استخدمنا مصطلـــح « يونج Jung فاني أعترف بشرعية الانبساطية والانطوائية معا ، بالنسبة لي وللآخرين · ومع ذلك لم يكن يسعني في الوقت نفسه الا أن أعترف بالاخفاق الفاجع لكل فعل خارجي · لم يكن ثمة شيء يرضيني ، ما من كتاب كتبته أو كلمة تفوهت بها كانت ترضيني ، بل كنت أحس بدافع مستبد لتحقيق رسالتي في العالم ·· أن أخلق ، وأكتب ، وأترك طابع تفكيري على العالم · ولو لم أستطع التعبير عن نفسي في الكتابة لكان من المحتمل أن أصير شخصا خائبا منهزما · ولم تراودني الشكوك مطلقا عن صحة الفعل الخلاق ، بيـــد أنني لم أفكر قط في الانطباع الذي أتركه على الآخرين في أثناء انشغالي بالفعل الخلاق · ومهما يكن من أمر فسوف أتحدث عن ذلك باسهاب في مرحلة قادمة ·

ومن الخطأ البين أن يفهم أحـــد ما كتبته عن العـــزلة انه لم يكن لي أصدقاء مقربون ، أو انني لم أحب أحدا ، أو انني لا أدين لأحد بالشكر وعرفان الجميل الدائم ·· ذلك ان حياتي لم تنقض ـ فعلا ـ في العزلة ، والمكاسب التي يمكن أن تعزى الى ترجع في أغلبها الى الآخرين ·· بيد أن هذا لا يخفف عني عبء ما يمكن أن أسميه بالعزلة الميتافيزيقية ·· فقد كنت عاجزا عن الافصاح عن نتائج هذه العزلة الأليمة ، بل لم أكن راغبا في ذلك · ولهذا السبب لم أستطع تجربة السعادة ، وبحثت عن مخرج لي في التوقع الأخروي (الاسكاتولوجي) eschatological expectation .

* * *

والعنصر الأساسي الآخر في الوجود الانساني الذي أود الحديث عنه هو « القلق » · والقلق لم يفارقني طيلة حياتي على رغم من أن شعوري به كان متفاوتا ، فيشتد أو يخف في مراحل مختلفة من تطـــوري الداخلي · ومن الضروري التمييز بين القلق والخوف والضجر ·· القلق يشير الى العالم الأعلى ، ويرتبط بتجربة التفاهة وانعدام الأمان والوثبات في هذا العالم ، والقلق يشهد

على المتعالى ، وعلى المسافة ، وعلى الهوة الفاغرة فاها بين الانسان والمتعالى في وقت نفسه · والقلق شوق الى عالم آخر ·· الى ما هو عبر حدود عالمنا المتناهى · انه يدعو الى العزلة فى مواجهة المتعالى ·· انه نقطة الصراع الأعظم بين وجودى فى هذا العالم وبين المتعالى · ويستطيع القلق أن ينبه وعيى بالله ، ولكنه يمكن أن يعنى أيضا هجران الله لى · انه يتدخل بين المتعالى وبين هوة اللاوجود ·· هوة العدم ·

أما الخوف والضجر فيقصران أمرى ـ من ناحية أخرى ـ على الوجود الأرضى · الخوف دليل على الخطر الآتى من العالم الأدنى ·· والضجر يشير الى تفاهة هذا العالم وخوائه · وما شىء أدعى الى الخوف والقنوط من الخواء المتعب الممل للحياة · قلق يسمح بالأمل ·· أما الضجر فيخلو من كل أمل ·· ولا مخرج هناك من الضجر الا بممارسة الابداع · والخوف يرتبط دائما بالخطر الخارجى ، ويجب تمييزه عن الجزع الذى هو تجربة فى أعماق الروح تتعلق بالوقائع المتعالية للوجود والعدم · ويميز « كيركجور » بين « القلق » Angst و « الخوف » Furcht · والقلق بالنسبة اليه ظاهرة دينية أولية · والقلق والجزع تجربتان ترتبط احداهما بالأخرى ·· غير أن تجربة الجزع أكثر حدة وشدة وطغيانا ·· بينما القلق أخف وأهدأ وأقل ازعاجا · والجزع قد يخلص الانسان من الضجر ، أما اذا تحول الى قلق فان حالة الانسان المرضية تشتد حدة ، وتصبح مزمنة ·

وأيسر على المرء أن يحتمل القلق والجزع من أن يحتمل الحزن والأسى·· ولهذا كنت أسعى للفرار منهما بأسرع ما يمكن ·· اذ كنت أشعر أننى عاجز ازاء كل ما يحرك عواطفى ·· كنت مرهف الحساسية ، عميق التأثر ·· أما الحزن الذى يستقر فى القلب ·· فانه ينظر دائما الى الماضى ·· بينما يتطلع الجزع ـ وهو الذى يصيب الروح ـ الى الأبدى · و « تورجنيف » وهو فنان الحزن لا ينازعه فى ذلك منازع ، أما « دوستويفسكى » فهو فنان الجزع · وبينما يتصف الحزن بالشاعرية ، نرى الجزع دراميا بفطرته · ولقد عرفت القلق والجزع واحتملتهما فى صلابة ، بيد أنه كان يبدو لى أننى لو أسلمت قيادى للحزن ، لكان فى ذلك هلاكى · الحزن يرتبط غالبا باحساس الشفقة الذى كنت أخشاه دائما لأننى أعرف القوة التى يمكن أن يتسلط بها على روحى · ولقد كنت مدفوعا الى اقامة الحواجز ضد الحزن والشفقة ، وهذا ما فعلته حقا ضد كل ما يثير عواطفى · بيد اننى كنت عاجزا عن مقاومة القلق ، ولم تكن له تلك الآثار المدمرة على نفسى ·· واذا استخدمت تمييزا قديما تنقصه الدقة الى حد ما قلت : اننى أجمع فى نفسى بين نمطين من

المزاج يتنافران في رأى الناس عـادة : فأنا دموى مكتئب في وقت واحـد sanguine and melancholic .. وربما كان العنصر الدموى أكثر وضوحا من عنصر الكآبة .. فقد كان من اليسير أن أنفعـل ، وقد أفضت استجابتى السريعة ـ الى جانب أشياء أخرى ـ الى سرعة الغضب التى أسلفت عنها الحديث . أما الكآبة فلها فى نفسى جذور أعمق . وكنت أعانى أحيانا آلام الحنين الى الوطن ، وتستبد بى نوبات من التشاؤم رغم ما قد يبدو على مظهرى الخارجى من المرح والرضا .

وربما كان من الطريف أن فلسفة « شوبنهور » كانت أشد تأثيرا على ابان يقظتى الروحية من الكتاب المقدس .. وهى حقيقة ربما كانت لها نتائج بعيدة المدى فى حياتى التالية . وقد وجدت من العسير الاعتراف « بالخير » المزعوم فى « الخلق » .. ومن الغريب اننى كنت أعانى أشد أنواع القلق حـدة فى أثناء لحظات السعادة فى حياتى ، هذا اذا كان من الممكن الحديث عن مثـل هذه اللحظات على الاطلاق . لقد كنت أخاف دائما من التجارب السعيدة المرحة اذ كانت تجلب الى أشد الذكريات حدة عن عذاب الحيـاة . وكنت فى أيام الأعياد الكبرى أشعر دائما بالقلق ، وربما كان ذلك لأننى كنت أنتظر تحولا معجزا للحياة العادية اليومية .. غير أن هذا التحول المعجز لم يحدث . والمأساة هى اننى لم أكن قادرا على الاحالة المثالية أو الرومانسية لوضع الانسـان الأليم ـ كما نجح البعض فى ذلك ـ هذا الوضع الذى يكتنفه القلق واليأس والشكوك والآلام وألوان الصراع . وكنت أفكر دائما فى هذا الوضع باعتباره خيانة مخيفة للحياة .

وهناك القلق الذى تتسم به المراهقة . وقد عرفت فى صبـاى من القلق أضعاف ما عرفته فى أعوامى التالية الأكثر نضجا : وينشأ هذا القلق عن فائض من القوى غير المتحققة ، ومن الشكوك وعدم التأكد من امكان تحقيقها . والشباب يعيش على الأمل فى حياة ثرية ملونة مثيرة حافلة بالأحداث ، بيد أن هناك تفاوتا وتعارضا بين الحياة كما تتمثل للامل ، والحياة كمـا هى بالفعل ، الحياة المشوهة التى تميط لثامها خيبات الأمل ، والمظالم ، والعذاب والألم . ومن الخطأ التفكير فى أن القلق يتولد عن الضعف ، بل على العكس ، انه ينشأ عن القوة الفائضة . وتنطوى شـدة الحيـاة نفسها على عنصر من القلق . وأعتقد أن الشباب يحتملون من القلق والحنين الى الحياة أكثر مما يظن الناس عادة . غير أن الأشخاص المختلفين يعانون هذا بطرق متباينة .. وأنا نفسى كنت عرضة لليأس فى اللحظات التى يقال عنها عادة انها لحظات مرحة ، ذلك أن العذاب يكمن فى السرور الذى تحمله لحظة معينة لأننا نشعر

بهذا السرور ومن ورائه الحياة باعتبارها كلا واحداً ، وهى فى هذه الحالة حافلة بالمأساة والعذاب ٠

والقلق دليل على الشوق الى الأبدية دائما ، والى عدم القــدرة على مصالحة الزمان ، ونحن عندما نواجه المستقبل لا يحركنا الأمل وحده ، بل القلق أيضا ، ذلك لأن المستقبل يحمل الموت بين طياته فى نهاية الأمر ، وهذا ما يؤدى الى القلق ٠ والمستقبل والماضى كلاهما معاد للأبدية ٠ ولقد عانيت دائما قلقا محرقا تحت سماء رائعة مرصعة بالنجوم أو يضيئها القمر ، أو فى يوم مشمس بديع ، فى الهدوء الذى يسود حديقة مزدهرة ، أو فى الاتســاع الصامت الذى تتبدى عليه الســهوب ، وعند النظر الى وجه امرأة جميلة ، أو فى لحظة استيقاظ الحب ٠ هذه اللحظات تستحضر « رؤية » للتناقض القائم بينهما وبين الظلام والانحلال والقبح الذى يملأ العالم حتى ليفيض عن حافته ٠

وكنت أصدم دائما بما ينطوى عليه الزمان من ألم وتدمير لا سبيــل الى التعبير عنهما ٠ وكنت أشاهد النهاية دائما بعين خيالى ، ولا أجد من نفسى أية قوة أو رغبة فى التكيف مع العملية التى تؤدى الى تلك النهاية ٠ كنت نافد الصبر ، وكان يبدو لى خاصة أن الحب يحمل فى ثناياه بذرة القلق ، وكنت أعجب فى كثير من الأحيان من أن يجرب الناس نشوة الحب باعتبارها سروراً وسعادة خالصين ٠ « الحب » يحيا فى القلق لأنه يعنى بسر الزمان والأبدية ويضرب بجذوره الى أعمق أعماقه ٠٠ انه يتعلق بتعطش الزمان الى التحقق الأبدى الذى لا يستطيع الحصول عليه ٠ وبالمثل ثمة قلق فى الجنس الذى لا يشير الى الرغبة فى اشباع الشهوة فحسب ، بل يحمل طابع الطبيعة الساقطة للانسان ٠ ومن المحال ارواء ظمأ الجنس فى ظروف هذه الحياة الساقطة ، لأن هذا الظمأ يفضى الى أوهام تجعل من الانسان أداة لعملية بيولوجيــة لا انسانية ٠ ان « ديونيزوس » Dionysos ـ اله الموت والحياة ـ قد أنجب المأساة التى لا يمكن أن يتحــرر منها الجنس ، ذلك أن « ديونيزوس » و « بلوتو » شىء واحد ٠ والجنس يعرض الانسان مجروحا ، ساقطا ،عاجزا عن بلوغ الاكتمال الحقيقى عن طريق الاتحاد ٠ انه يدعو الانسان للخروج من نفسه للاتحاد بالآخر ، ولكنه يعود مرة أخرى الى ذاته ، ويستمر قلق اشتياقه الى الاتحاد دون أن تخف حدته ٠ ان شهوة الانسان الى الاكتمال التى جبل عليها لا يمكن اشباعها ، وعلى الاخص لا تستطيع الشهوة الجنسية اشباعها، بل انها تعمق حقاً من جروح الانفصال ٠ والجنس فى طبيعة ذاته غير صحى، وغير نقى ٠٠ فهو شاهد على طبيعة الانسان المنقسمة ، والحب الحقيقى هو الذى يتغلب على الانفصال ، ويصل الى الاكتمال والطهارة ٠ وهذه مشكلة فاجعة عميقة ، سأقف عندها فى مرحلة مقبلة ٠

ولقد عرفت القلق فى أوقات غير مألوفة وظروف غير عادية ·· ان غسق الصيف فى شوارع مدينة كبيرة — وخاصة فى بطرسبورج وباريس — بصوره العابرة التى لم تتكون بعد — كان غالبا ما يثير القلق فى نفسى ·· وكنت أجد دائما مشقة فى احتمال ساعة الغسق ، فهى ساعة الانتقال من الحياة الى الظلمة ·· الساعة التى ينضب فيها ضياء النهار ، والتى لا يضىء فيها الوجود الانسانى ذلك النور الآخر الذى ينبثق من سر الليل المرصع بالنجوم، أو الذى يشع من الأنوار الصناعية التى نحاول أن نحمى بها أنفسنا من قوة الظلام ·· ان الغسق يقوى من شعور الحنين الى الأبدية ·· الى الحياة الأبدية ·· وفى ساعة الغسق أيضا ، وفى ذلك الجو الشبحى الذى يشيع فى مدينة كبيرة ، يرفع النقاب عن كوابيس الحياة الانسانية وشرهاً · بيد أن القلق الذى يوحى به الغسق غير القلق الذى يثيره الليل : اذ يتميز قلق الليل بعمق وعلو لا يعرفهما قلق الغسق ، أما أنا فقد عرفت كليهما : عرفت قلق الغسق المغلف بالضباب ، وقلق الليل الذى يتحول الى جزع لا تستطيع أية لغة انسانية أن تنقله أو تعبر عنه ·

بيد أن هذه التجربة تلاشت مع الزمان ·· وكنت فى فترات من حياتى لا أستطيع اليقظة أو النوم فى الظلام ، تطاردنى الاحلام المفزعة والكوابيس· وكانت الاحلام مصدر عذاب لى ، وان كانت تزورنى أحيانا أحلام عجيبة ذات تأثير مثير على نفسى ·· وكان الليل ينقل الى طيفا غريبا يفزعنى ويتعقبنى فى ضوء النهار ·· وهكذا كنا نستطيع أن يسير أربعة منا فى الريف ، فى الغابات أو الحقول ·· وفجأة أشعر بحضور شخص آخر لا أعرف من أين أتى ، فأنسى عددنا ·· ولا أستطيع أن أرى مصدرا آخر لهذه التجارب غير ذلك القلق الغامض الذى لا سبيل الى تعليله ·

ويفسر التحليل النفسى الحديث هذه الظواهر بأن لها أصلا فى العقل الباطن ، غير أن هذا لا يفسر شيئا ولا يوضح شيئا · وانى لمقتنع اقتناعا عميقا بأن المتعالى حاضر فى الحياة الانسانية ، وهذا المتعالى يفتن الانسان ويفعل فعله فى الوجود الانسانى ·· ولقد عرفت عمق العقل الباطن واللاشعور وقوتهما ، ولكننى عرفت أيضا ما هو أعمق ، وعرفت العلو transcendence . والقلق حاضر فى الحياة اليومية العادية (وقد يجهله أولئك الذين يأخذون هذه الحياة على علاتها دون أن يوجهوا أية أسئلة) ، والكائنات الحية جميعا مشبعة بسمومه المهلكة ·

ويقال « ان الأخضر هو شجرة الحياة ، والرمادى هو نظريتها · » ،

ولكننى أعتقد العكس ، على ما قد يبدو فى ذلك من مفارقة «فالرمادى هو شجرة الحياة ، والأخضر نظريتها · » بيد انه ينبغى على أن أقدم تفسيرا ، والا تعرض هذا القول لسوء الفهم ·· الم اكن دائمـا عدوا صريحا للنزعة التصورية المدرسية scholastic conceptualism ونظريات العقل النظرى الجامدة ؟ الم أكن « فاوست » أكثر من أن أكون « فاجنر » ؟ ان ما يعرف « بالحياة » — على كل حال — هو فى أغلب الأحيان تجسيد لما هو مبتذل ، ولا يتضمن شيئا أكثر من هموم الوجود اليومى · ومن الممكن أن تفهم « النظرية » من جهة أخرى ، على أنها رؤية خالقة ، كما هى الحال بالنسبة لكلمة theoria اليونانية التى تسمو بنـا فوق عادات الحيـاة اليومية · والفلسفة — وهى « نظرية الحياة الخضراء » — خالية من القلق والضجر · ولقد أصبحت فيلسوفا وخادما « للنظرية » لكى أطرح عنى هذا القلق الأليم وأتخلص منه · والتفكير الفلسفى يحررنى دائما من قبح الحياة وفسادها · وكنت أضع دائما « الوجود » فى مقابل « النشاط الابداعى » ، ولا أضع « الحياة » ، واعنى بالنشاط الابداعى اختراق « الحياة » والانطلاق منها الى « الوجود » existence·· الانطلاق من المتناهى الى اللامتناهى والمتعالى ·

ينشأ القلق اذن فى « الحياة » ، فى غسق الحياة وضبابها ، ثم لا يلبث أن يدفع الانسان نحو المتعالى ، والنشاط الابداعى هو هذه الحركة نفسها نحو المتعالى ، وهى استحضار صورة « الكل » الآخر فى علاقته بهذه الحياة ·· وتكتسب الأشياء جميعا فى ملكوت الابداع عمقا ومعنى وطابعا وأهمية ، مما يتعارض مع الضحالة والتفاهة والعرضية والغثاثة التى يتصف بها ملكوت الواقع الخارجى الرتيب · وقد كشف عن نفسه أمامى وأهاب بروحى الخلاقة عالم مفعم بالجمال يجهله هذا العالم الموضوعى الذى يسود فيه القبح ·

هل ملأ الضجر — الذى ينشأ عن المناطق الخربة الخاوية من الوجود — قلبى يوما ما ؟ اننى لم أشعر بالسأمة قط ، ولم يكن يبدو لى قط أن الزمن يكفى لانجاز عمل حياتى وتحقيق رسالتى ، كما اننى لم أبدد الوقت مطلقا ·· ومع ذلك فان كثيرا من الأشياء ·· كثيرا جدا من الأشياء قد بعثت السأمة الى نفسى ·· مللت آراء الأغلبية العظمى من الناس ووجهات نظرهم ، مللت السياسة والمذاهب السياسية ، وشئون الدولة والأمة ، وترك فى نفسى الابتذال فى الحياة والتكرارات التقليدية والقيود وألوان الكبت احساسا بالضجر ، وجرتنى هذه الأمور كلها الى فراغ العدم · وعندما يخضع الانسان نتيجة لضعفه أو جهله لضغط هذه الأشياء ، فان العالم يصبح مسطحا flat خاويا ، خاليا من العمق والمعنى ، ويستقر الضجر فى مكانه منتظرا مملكة الخواء التام

التى هم الجحيم ٠٠ ويصل الانسان الى الحد النهائى الجهنمى للضجر عندما يقول لنفسه : لا شىء موجود ٠٠ وليس من شك أن الألم تخفيف وخلاص ف مثل هذا الوضع الانسانى ، لأنه طريقة لاسترجاع مافى الحياة من عمق ٠ وقد يجلب القلق الخلاص أيضا ، وهناك من الناس من يشعرون بالسعادة وسط فراغهم وفراغ العالم ، وربما كانت هذه الحالة هى المثل الأعلى على التفاهة والابتذال ٠

وكثير من الناس يحبون الحيــاة ، أو يقولون انهم يحبونها ٠ ولكننى لم أتمكن قط من الشعور بهذا أو فهمه ٠٠ فأنا لا يمكن أن أحب غير القدرة على الابداع ، وغير نشوة الفعــل الخلاق ٠ وما كنت أستطيع الافلات من شعور القلق عندما تواجهنى الحياة بنهائيتها التى لا ترحم ، وكنت أعتقد دائما أن قيمة الانسان ودلالته تقدران بما ينطلق منه الى اللانهائية ٠ ونشأ عن ذلك عجزى عن اتقان فن العيش والانتفاع بالحياة ٠ ويقول كارلايل فى كتابه « سارتور ريسارتوس » Sartor Resartus أو فلسفة الملابس : « ان شقاء الانسان مصدره عظمته ، اذ أنه يتضمن شيئا لا متناهيا ، ولا يستطيع أن ينجح فى دفن نفسه تماما فى المتناهى ٠٠ » ٠ والحق أن العالم « الموضوعى » والحياة « الموضوعية » مدفونان فى المتناهى ، والدفن هو أكثر الأشياء ملاءمة فى العالم المتناهى ٠ « والحياة » اذن هى موت اللامتناهى فى المتناهى ، وموت الأبدى فى الزمانى ٠ وان نفسى لتنطوى على غريزة فوضوية قوية ، فأنا أتمرد على سلطان المتناهى المتحدد المحاصر من جميع أقطاره ٠ وكان المبتذل الذى هو رمز التناهى فى حياة الانسان والعالم ــ اما أن يصدمنى بتفاهته المطلقة ، أو يدفعنى الى التمرد ، وكانت كل محاولة لاضفاء طابع مقدس على الأشياء تثير نفورى ٠

ومن الممكن أن يشير القلق الى تجربة دينية ، والقلق الدينى يتضمن شوقا الى الخلود والحياة الأبدية ، والى استنقاذ ما ينطوى عليه الوجود من تناه ٠ وكان يبدو لى أن الفن مشحون بالقلق أيضا ، وبالتالى يعد دليلا على الحنين المتعالى ٠ وسحر الفن كامن فى قدرته على اجتثاث جذور التناهى ، وتحويل نظرة الانســان الى ما هو أبدى والى أشــكال الوجود النموذجية وصوره ٠

وقد أضعف القلق فى الحاح من نشاطى فى هذا العالم ، وفكــرت فى الانسحاب بينما كانت الحياة تنتظر اعادة التشكيل والتحويل ٠ ولعل هذا هو السبب فى أننى حرمت من السعادة والشعور بالرضا ٠ وكان يلوح لى من

حين الى آخر أنه من الممكن أن أعرف الفرح والسعادة لو أزيل سبب ألم معين فى لحظة معينة بالذات ٠٠ ولكن عندما حدث ذلك ٠٠ ألح على احساس القلق ، وعمل على تقوية عذاب جديد ، لم أكن أعرفه حتى ذلك الحين ٠ ما من شيء منحنى شعورا بالرضا التام والقناعة الكاملة ٠٠ وهذه الحالات نفسها أفشت لى طابعها الآثم الأساسى ٠

* * *

أطلق على بعض الناس اسم فيلسوف الحرية ، وقال عنى أسقف رجعى روسى ذات مرة أننى « أسير الحرية » ٠ والحق أننى أعشق الحرية فوق كل شيء آخر ٠٠ ومنشأ الانسان من الحرية ومرجعه اليها ٠٠ الحرية هى المصدر الأولى للوجود وشرطه ، ولقد وضعت « الحرية » بدلا من « الوجود » فى أساس فلسفتى ٠٠ ولا أعتقد أن فيلسوفا آخر قد فعـل هذا بنفس الطريقة الأساسية المفصلة ٠ ان سر العالم يكمن فى الحرية ، وقد أراد الله الحرية ، والحرية هى منشأ المأساة فى العالم ٠ الحرية فى البدء والنهاية ٠٠ وأستطيع أن أقول اننى عكفت طيلة حياتى على صياغة فلسفة من الحرية ٠٠ وكان يحركنى اعتقاد أساسى الا وهو أن الله حاضر حضورا حقيقيا ، وفاعلا فى الحرية وحدها ٠ ويجب أن نعترف بأن الحرية هى التى تملك وحدها صفة مقدسة بينما ينبغى أن تلغى جميع الأشياء التى أضفى عليها الانسان منذ فجر التاريخ طابقا مقدسا ٠

وأنا أنظر الى نفسى باعتبارى محررا ، ولهذا فانى أعطف على كل تحرر ٠٠ وهكذا قدمت الى المسيحية نفسها وطالبت بولائى لها باعتبارها تحريرا ٠٠ ولقد تزوجت الحرية منذ طفولتى المبكرة ، فكنت فى الفصل الثانى من المدرسة الحربية أتأمل وأحلم بمعجزة الحرية ، وكان الاعتماد على الأشياء الأخرى وعلى الغير يضايقنى ، بينما تحركنى روح الاستقلال فى كل تفكيرى وأفعالى ٠٠ وكانت أضال مظاهر العبودية تثير فى نفسى عاصفة من الاحتجاج والعداء ٠ وما كنت أقبل قط التخلى عن الحرية أو الانتقاص منها ، أو أن أوافق على دفعها ثمنا لأى شيء ٠ وقد وجدت من نفسى الشجاعة فى الاعراض عن أشياء كثيرة فى الحياة ، ولكننى لم أتخل مطلقا عن أى شيء باسم الواجب أو خضوعا للأوامر والنواهى ٠٠ وكنت أتخلى عن الأشياء فى سبيل الحرية ، أو ربما من أجل المشاركة الوجدانية أيضا ٠ وما كان شيء يستطيع أن يربطنى الى الأرض ، وقد أضعف ذلك – بلا جدال – من كفاءتى الى حد ما ، وقلل من امكانياتى لتحقيق ذاتى ٠ وأيا كان الأمر ، فقد كنت أعلم دائما أن الحرية تؤدى الى الألم ، بينما يقلل التنكـر للحرية من الألم ٠ الحرية ليسـت أمرا

يسيرا كما يزعم أعداؤها والمفترون عليها ·· الحرية مطلب عسير ، وعبء ثقيل ·· والناس يتنازلون عن الحرية فى أغلب الأحيان لتخفيف أعبائهم كما أوضح « دوستويفسكى » ذلك فى قوة تبعث على الدهشة ·

وعندما كنت شابا اعتاد الناس أن يطلقوا على اسم « الابن الحر للأثير » ، وهذا حق من حيث أننى لست « ابنا للأرض » ·· ولقد كنت دائما غريبا على عنصر الأرض العنيد الساحق ، والأحرى أننى بدأت من الحرية ، وشرعت فى البحث عنها · فاذا كانت تلك التسمية « الابن الحر للأثير » تشير الى نوع من التساهل أو الخفة أو الافتقار الى الاحساس بالحزن والعذاب ، فانها لا تصدق على بحال من الأحوال ·· لقد ظفرت بالحرية فى عناء وعذاب شديدين · « وقادتنى الحرية الى مفترق الطرق فى ظلمة الليل التى لا نفاذ منها » · والأشياء جميعا التى كنت شاهدا عليها طوال حياتى تنبثق من تجربة أولية للحرية ، وتستلهم الحرية · والحرية ليست من مخلوقات الضرورة كما يعتقد « هيجل » ، بل أن الضرورة من مخلوقات الحرية ، أو بتعبير آخر من مخلوقات اتجاه معين أو توجيه للحرية · ولا أستطيع أن أوافق وأن أقبل أى حقيقة لا تكون صادرة عن الحرية ، وراجعة اليها · ومهما يكن من أمر فانى لا أستعمل كلمة الحرية هنا بالمعنى الشائع بين الفلاسفة المحترفين ، أى بمعنى « حرية الارادة » free-will ، بل بمعنى أعمق من ذلك كثيرا ، بالمعنى الميتافيزيقى · الحقيقة يمكن أن تجعلنى حرا ، ومع ذلك فانا أستطيع أن أقبل الحقيقة من خلال الحرية وحدها فقط ·· وهكذا نجد نوعين من الحرية ، ومشكلة العلاقة بينهما من المشكلات التى شغلت عقلى فى معظم كتاباتى · وقد أمكن التعبير عن طابع الحرية الأولى غير المحدد وغير المشتق من شىء غيره فى هذه القضية وهى أن « الذات » لا تستطيع أن تتقبل « غير ـ الذات » الا اذا جعلت منه (« غير ـ الذات ») مضمونا لها ، والا اذا أخذته داخل حريتها الخاصة ·

كانت الحرب من أجل الحرية التى أشعلت نيرانها طيلة حياتى أعظم الأشياء قيمة وأهمية بالنسبة الى · ولكن كان لهذه الحرب أيضا جانبها العكسى المنكود ، اذ جرت فى أذيالها المعارضة والاغتراب والانفصال ·· بل العداء ·· وكانت الحرية تدفعنى أحيانا الى صراع مع الحب · وكنت أعتقد دائما ـ على عكس الرأى الشائع بالنسبة لهذه الأمور ـ أن الحرية ذات طابع ارستقراطى أكثر منه ديموقراطى ·· والغالبية العظمى من الناس لا يحبون الحرية ولا يجدون فى البحث عنها ، ولم تظهر ثورات الجماهير أى حب عظيم للحرية ·· وربما أكون قد اكتسبت تجارب كثيرة فى الحياة ، ولكننى لا أستطيع أن أقول

اننى « اكتسبت » الحرية أو تجربة الحرية ، اذ كانت الحرية تبدو لى واقعا أوليا مبدئيا ، باعتبارها الشىء القبلى فى الوجود a priori of existence .
وفكرة الحرية تشير عندى الى شىء أكثر أساسية من الكمال نفسه ، ما دامت الحرية هى مفتاح الكمال ، وفى غيابها ينقلب الكمال الى قهر وعبودية ، وبالتالى يناقض طبيعته ذاتها ·

وينبغى أن يتولد كل ما فى الحياة الانسانية عن الحرية ، وأن يمر خلال الحرية ، وأن يرفض حالما يخون الحرية · ومن الممكن أن نرى المعنى الحقيقى والأصل فى الوضع الساقط للانسان فى الرفض الأولى للحرية · وعندما أتذكر حياتى كلها ابتداء مـ نخطوتى الأولى فيها أرى أننى لم أعرف ولم أعترف بتاتا بأى سلطة أو قوة خارجية أيا كانت ·· وماكنت أستطيع أن أعترف بتوافقها أو تناسبها مع كرامة الانسان وحريته · لم اعرف السلطة سواء فى المنزل أو فى المدرسة ، أو فى أبحاثى الفلسفية ، أو فى حياتى الدينية خاصة · وقد قررت وأنا ما ازال طفلا الا أخضع لأية اوامر أو اذعن لمن هو أعلى منى · ولم أكن اتصور ان أصبح مدرساً جامعيا ، اذ يستلزم ذلك التكيف مع كبار سدنة الحكمة الأكاديمية ·· والقيمة التى أعلقها على الحرية ترجع الى حد ما الىهذه الحقيقة وهى أن فكرى لم يستطع أن يبلور نفسه اطلاقا وفقا لأى نموزج تقليدى محدد· ولا اقصد بالطبع أن اقول اننى كنت ارفض التعلم من الآخرين ، من كبار رجال الفكر ، أو اننى لم اخضع لأية مؤثرات ، وانى لست مدينا لأحد ، بل على العكس ، كانت دائما تبعث نشاطى عقول جميع اولئك الذين أتيحت لى فرصة لقائهم وقراءتهم وعلى الأخص أولئك الذين يمت مجال عالم تفكيرهم بصلة القرابة الى ·· بيد أن تلك المؤثرات والمنبهات جميعا تلقيتها فى حرية ، بـل كانت أكثر من ذلك اذ هى وليدة ممارستى لحريتى الخاصة · ولااستطيع أن افكر فى اى تأثير عقلى لم استوعبه فى أعماق حريتى وتقرير مصيرى ، كما اننى لم أخضع لأى تقليد فلسفى ، فأنا واحد من اكثر الفلاسفة اللاتقليديين · ولم أكن فى حاجة للخروج على السلطات لأننى لم أعترف بها اطلاقا ·· وهناك على أية حال عدد من المفكرين والكتاب الذين غذوا حبى لحرية الروح ، وأكدوا هذا الحب ، وشهدوا ثماره فى نفسى ، وأهم هؤلاء « دوستويفسكى » وخاصة فى كتابه « أسطورة المفتش العام » ، وكنت أنظر الى « كانت » بين المفكرين على أنه فيلسوف الحرية بلا منازع par excellence على الرغم من أن فلسفته عن الحرية ليست فى رأيى أساسية متسقة بما فيه الكفاية · وقد اكتشفت أهمية « ابسن » Ibsen العظمى فى مرحلة متأخرة ، وطالعته كما أطالع نبيا ·· نبيا يحركه الحنين الى تحرير الانسان ·

وترجع خلافاتى ومنازعاتى جميعا مع الأفـــراد أو الحركـــات الدينية والاجتماعية والسياسية الى مسألة الحرية ·· ولم يكن الصراع من أجل الحرية صراعا اجتماعيا فى مبدئه ، بل صراعا يتعلق بالانسان ازاء المجتمع · ويقول روجيه سكريتان Roger Secrétain فى واحد من أقيم كتبه عن بيجى Peguy (« بيجى : جندى الحقيقة ») ان غرام بيجى المستـــــر للحياة كان نزعتـه الفوضوية وانكاره لكل سلطة ، وهو يتحدث أيضا عن توحد « بيجى » الذى جعل من المحال أن يكون له أتباع ، أما هؤلاء الذين اتبعوه ، فقد كان « بيجى » يشجعهم على الافتراق عنه ·· ومما لا دلالته أن نزعته الفوضوية تلك هى التى أحضرته وجها لوجه أمام الله ، على شرط « أن يكون الاله نفسه حرا ، محررا ، فوضويا » على حد تعبير « سكريتان » ·

ولعل من الأشياء المميزة لى أننى لم أعان ما يعرف بالتحول conversion كما لا أعرف المقصود من أن يكون المرء كافرا تماما ، ولا يسعنى الا أن أثور على الأفكار الزائفة المهينة عن الله باسم فكرة أخرى أكثر تحررا ، وأشد نبلا · وسأحاول أن أشرح ذلك عندما أتحدث عن معتقداتى الدينية ·

أظهرت عنفا وحماسة عظيمين فى قتالى من أجل الحرية حتى عندمـــا كنت شابا فى مقتبل العمر · وقد قلت آنفا ان اسرتنا لم تكن تتمسك بمبادىء السلطة ، ولهذا نجحت دائما فى المحافظة على استقلالى والذود عنه · ومع ذلك فقد خرجت على الوسط الاجتماعى الذى ولدت فيـــه · وكان كل شىء لا يصدر مباشرة عن روح الحرية يثير نفورى ، وأدركت أن جميع الأشـياء التى تنتمى الى الجنس والى الطبقة والأسرة تناقض الحرية · وينبغى أن يكون النظر الى كراهيتى للجنس ولكل ما يتعلق بالميلاد باعتباره متميزا عن الخلق – فى ضوء حبى العنيد للحرية · وكانت الأسرة تبدو لى دائما بوصفها العدو المستبعد للحرية الشخصية · والأسرة أدخل فى باب « الضرورة » منها فى باب « الحرية » ، والصراع فى سبيل الحرية صـــراع ضد سلطان « الجنس » · والتقابل القائم بين المولد والخلق كامن فى مركز تفكيرى ، ولقد بدأت بوضع الحرية والشخصية والابداع فى أساس نظرتى كلها ، غير أن اهتمامى بالحرية اشتد فيما بعد مع مضى الزمن · وعندما قطعت صلتى بحياة الأعيان وتقاليدهم وانضممت الى الحركة الثورية شرعت أكافح من أجل الحرية داخل تلك الحركة وبين الطبقة المثقفة الثورية ، ووسط العالم الماركسى · ولم ألبث أن تحققت من أن الطبقة المثقفة الثورية لا تعتز حقا بالحرية · وأنه يجب البحث عن الهامها الحقيقى فى مكان آخر ·

وحينما كنت ماركسيا رأيت عناصر فى الماركسية خليقة بأن تقود الى

الاستبداد وخيانة الحرية · وهنا شاهدت ـ كماهى الحال فكل مكان ـ الصدام بين الشخص والجماعة ، بين الشخص والمجتمع ، بين الشخص والرأى العام ، ولكننى انضممت دائما الى جانب الشخص ، وكرست أعواما عديدة من حياتى لمحاربة الرأى العام بين المثقفين ، وبهذا العمل أخفقت فى السعى من أجل عملى الأكثر ابداعا وبناء للفلسفة ·· وظللت فترة طويلة مستغرقا تماما فى حل مشكلة العلاقة بين الاشتراكية والشخصية ، واحتملت آلام الصراع الداخلى والقلق فى سبيل ذلك · وكنت أعتبر الحجج المألوفة التى تسوقها النزعة التحررية والنزعة الفردية ضد الاشتراكية حججا منافقة غير مقنعة ، وأن الدفاع عن الحرية الذى تقدمه هاتان النزعتان مزيف الى أبعد حد ، غير انه كان من الواضح لى أن الاشتراكية تستطيع أن تنمو فى اتجاهات مختلفة ، فقد تؤدى الى تحرير الانسان ، ولكنها قد تؤدى أيضا الى تحطيم الحرية الانسانية ، أو الى الطغيان ، أو الى نظام شبيه بذلك النظام الذى صوره « دوستويفسكى » سلفا فى كتابه « اسطورة المفتش العام » · وفى الأيام المبكرة ، عندما كنت أزاول نشاطى فى الدوائر الماركسية ، كانت تراودنى المخاوف عن امكان قيام شيوعية استبدادية ، فحاولت أن أحاربها وامنعها · بيد أننى كنت أحارب أشياء مماثلة فى كل حركة أو دائرة مذهبية اتصلت بها · ومن المعروف أن كافة الجماعات المذهبية ، وكل تجمع من الناس يسعى الى « المثل العليا » فانما يجور ويغدر بالحرية والاستقلال والابداعية لدى الانسان·· وعندما ارتبطت بالأرثوذكسية الكنسية عانيت القلق نفسه الذى أحسست به بين طبقة النبلاء ، وبين الثوريين ، وراقبت الارتداد ذاته عن الحرية ، والعداء ذاته لاستقلال الشخص الانسانى ، ومصادرة قوة الانسان الابداعية كانت ظاهرة واحدة تعرض نفسها على مستوى أعمق : لأن الدين يمس أعمق أعماق الروح الانسانى ·

وقد ثبت فى صراعى من أجل حرية الانسان وكرامته خلال الثورة الشيوعية ، وأدى ذلك الى نفيى من روسيا · وحين أصبحت مهاجرا émigré وعشت بين المهاجرين ، ألفيت نفسى ـ على انتظار منى ـ وجها لوجه ازاء المشكلة نفسها ، اذ أدركت أن « الهجرة » الروسية تنكر الحرية وتبغضها وينكرها الشيوعيون الروس ، بل وأكثر ، مع اختلاف واحد وهو أن الشيوعيين أحق بمثل هذا العداء لأنهم رأوا أن أبشع الجرائم ضد الحرية قد ارتكبت باسم الحرية · وقد نشأ فى أعقاب الحرب العالمية الأولى جيل اعتزم محاربة الحرية ، وأخذ نفسه بحب السلطة والقوة · غير أن هذا لم يكن مفاجئا لى على كل حال ، اذ كنت اشعر بأننى وحيد فى البحث عن الحرية وفى الولاء للشخص الانسانى كما كان ذلك ديدنى طوال حياتى · ولم أستطع أن أكتشف مثل هذا البحث أو الولاء بين الطبقات الحاكمة فى النظام القديم ، أو بين الطبقة المثقفة

الثورية القديمة ، أو بين الأرثوذكسية التاريخية ، أو بين الشيوعيين ، أو على الأقل بين الجيل الجديد من الناس الذى نذروا أنفسهم لخدمة المثل والغرائز الفاشية • كل جماعة من الناس يتكتلون معا فهم أعداء للحرية •• وأستطيع أن أعبر عن ذلك تعبيرا أقوى فأقول ان كل مجتمع منظم أو فى سبيله الى التنظيم فهو معاد للحرية ، ميال الى انكار الشخصية الانسانية • وهذا ناجم عن تزييف قاتل للوعى الانسانى ، تزييف يضلله اختلاط فى سلم القيم • وليس ثمة دليل فى الجيل الذى أعقب الحرب العالمية الأولى (نستطيع أن نسميه الجيل السابق على الحرب العالمية الثانية) على فكر واحد أصيل ، اذ يعيش هذا الجيل على غرائب وانحرافات عقلية القرن التاسع عشر • ان تحقيق قيمة الحرية والشخصية وأوليتهما تضع الانسان وحده وبمعزل فوق المجتمع وعمليات التاريخ الجماهيرية ، والعصر الديمقراطى هو عصر البورجوازية ، وهو بالأحرى لا يكشف عن انحلال الانسان كما يكشف عن املاق النمط والشخصية الانسانية •

كرست شطرا كبيرا من فكرى لمشكلة الحرية طيلة حياتى ، ووصفت نتائجى فى كتابين يعبران عن معالجتى لهذه المشكلة فى مراحل مختلفة من تطور فلسفتى • وكلا الكتابين شاهد على المصاعب والتعقيدات الصريحة التى لاقيتها فى محاولتى لتقديم النتيجة • والحرية مصدر لكثير من سوء الفهم ، كما أنها تشير الى أشياء كثيرة مختلفة ، بل متناقضة • وليست الحرية تصورا استاتيكيا (ثابتا) ، بل هى واقع حى يمكن معرفته ديناميكيا من خلال ممارسته ومعاناته • وهناك منطق جدلى للحرية يتكشف فى مصير الانسان ومصير العالم ، ومن الممكن أن تنقلب الحرية الى ضدها ، وتؤدى الى الطغيان المقيت •

وتتحدث المراجع الفلسفية عامة عن الحرية باعتبارها شيئا واحدا وحرية الارادة Free-will أى باعتبارها امكانية الاختيار، امكانية السير يمينا أو يسارا• وأيا كان الأمر فان مثل هذا الاختيار يفترض مجابهة الانسان بمعيار يحدد التمييز بين الخير والشر •• وهذا يصير تصور « حرية الارادة » نافعا خاصة كأساس للقانون الجنائى من حيث ضمان محاسبة الانسان وبالتالى عقابه أو تبرئته كيفما اقتضى الحال • وكانت الحرية عندى شيئا يختلف عن ذلك كل الاختلاف • الحرية أولا وقبل كل شىء هى استقلالى ، هى تحديدى من الداخل ، وهى مباداتى الخلاقة • وواقعها لا يعتمد على أى معيار ، وممارستها ليست مجرد اختيار بين الخير والشر باعتبارهما شيئين يقفان ازائى •• الأحرى أن الحرية هى معيارى الخاص ، وأنها خلقى الخاص للخير والشر • وقد يؤدى شرط الاختيار نفسه الى احساسى بالكبت وعدم الحسم أو الى اختفاء تام للحرية من جانب الانسان •• والتحرر يأتى عندما يتم الاختيار ، وعندما

اكون قد شرعت في عملية الخلق • ان مشكلة الانسان والابداع الانسـانى يرتبطان ارتباطا وثيقا بمشكلة الحرية ، ولقد كنت اعتقد دائما أن الحياة فى الله هى الحرية ، هى الانطلاق الذى لا يكبله عائق ، هى التوضـى بالمعنـى الحقيقى لهذه الكلمة •• ولا ينبغى التفكير فى الحاجة الحقيقية للحرية فى حدود أخلاقية أو نفسية ، بل فى حدود ميتافيزيقية : فالله والحرية ، والشر والحرية والجدة الابداعية والحرية ، هذه هى المشكلات التى ينبغى اعتبارها فى المقام الأول فى أى مناقشة للحرية •

ويطيب لأعداء الحرية أن يضعوها فى مقابل الحق الذى يفرض الولاء له على الانسان ويجبره على الاعتراف به • غير ان الحق باعتباره موضوعا يقحم نفسه ويفرض سلطته على ••• موضوعا يطالبنى بأن اتخلى عن حريتى – هذا الحق ليس غير اختلاق •• الحق ليس شيئا خارجيا ، انه الطريق والحياة • الحق غزو روحى ، وهو يعرف خلال الحرية وبها •• أما الحق الذى يفرض نفسه على ، ويقتضينى أن أتنازل عن الحرية فليس حقا على الاطلاق •• بل غواية من غوايات الشيطان • وهذا القول الذى يذهب الى « أن معرفة الحق ستجعلك حرا » تنطوى فى وضوح – ومفارقة – على نوعين من الحرية : حرية نهائية وحرية مبدئية •• فانا توصلت بمحض حريتى الى معرفة الحق الذى يعمل بدوره على تحريرى • وما من سلطة فى العالم تملك من القوة ما يكرهنى على الحق ، وليس من الممكن تحريرى بالقوة •

ولم اسمح مطلقا ، ولا اقبل الآن أى نوع من الأرثوذكسية يقحم نفسه على ، ويؤكد امتلاكه للحق بمعزل عن بحثى الحر الخاص ، وتساؤلى الخاص ، ومطالبتى الخاصة • ولقد وجدت نفسى دائمـا اقاوم أى أرثوذكسية تحاول تحديد حريتى أو تحطيمها سواء أكانت سياسية أم دينية • وليس من الممكن كما إننى لا استطيع أن اكون خلاف ذلك • بل اننى اميل الى الاعتقاد بأن الأرثوذكسية المفروضة لا تمت بأية صلة الى الحق ، وبأنها تنظر الى الحق نظرة ازدراء • والأرثوذكسية هى التى اتت باكبر التزييفات للحق ، كما أن لها طابعا وأصلا اجتماعيين ، وهى تشير إلى سلطة الجماعة المنظمـة التى تتسلط على الشخصية الحرة ، وروح الانسان الحرة • وانى لأومن بفضيلة الحرية وعقبتها • والحرية نفسها عنصر مكون وأساسى للحق الذى يكشف تدريجيا عن نفسه امامى ، وداخل نفسى • وحرية وعيى عقيدة مطلقة لا تقبل اية مصالحة أو توفيق • وكل القيمة التى يتمتع بها تفكير « خومياكوف »

هى كشفه للـ sobornost (١) (الاتحاد المسيحى الحر) Khomiakov باعتباره واقعا ينتمى الى ملكوت الحرية .. ومع ذلك فانه لم يصل بكشفه الى نتيجته المنطقية .. فليس من الممكن بأى حال من الأحوال النظر الى الاتحاد المسيحى الحر sobornost على أنه يتضمن سلطة خارجية ، اذ أن الأولوية المطلقة تنتمى هنا أيضا وفى كل لحظة الى الحرية . ولم يضع « خومياكوف » فى اعتباره امكانية نشوب الصراع بين الحرية والاتحاد المسيحى الحر sobornost ، وحيث ينبغى أن يكون القرار النهائى مع الحرية .. وأنا لا أستطيع أن أقبل شيئا يقذف فى حلقى على أنه الحق ، ولا أستطيع أن أقبل الحق الا على أنه شىء منبثق من أعماق نفسى ، كما لا أستطيع أن أعترف بأن ما أراه حقا شيئا مزيفا ، أو أن أعترف بما أراه زيفا على أنه حق مجرد أننى مرغم على الاعتراف بذلك . والواقع أن أحدا لم يقبل حقيقة عملا كهذا . واذا كانت الكنيسة تمارس سلطتها بأن تدفعنى الى التكيف مع الوعى الجماعى للمجتمع الكنسى ، فاننى أجد نفسى ازاء ذلك النوع نفسه من الظاهرة الشبيه بمحاكمات موسكو للمخضرمين من الشيوعيين ، التى وان تكن قبيحة كل القبح ، الا أنها تعلم المرء أمورا كثيرة .

والـ sobornost يدل على صفة من صفات الحياة تؤكد واقع الحرية بتوسيع مجالها والكشف عما فيها من بعد متعال كلى univrsal . والاعتراف بالأولوية المطلقة للحرية لا يشير اذن ـ كما يطيب للمرء أن يفعل ـ الى التوكيد الفردى للذات . والواقع أن حرية الروح لا تمت بصلة الى النزعة الفردية .. وأن يكون المرء حرا ليس معناه أن يكون معزولا ، وليس معناه أن يغلق الأبواب على نفسه ، بل على العكس من ذلك معناه أن ينطلق من خلال الفعل الخلاق الى تمام الوجود وكليته .

ومهما يكن من أمر ، فأننى عندما أعرض جهادى فى سبيل الحرية ، لا أجد بدا من الاعتراف بأن محاولاتى فى هذا الصدد ضاعفت من احساسى بالعزلة ، وزادت من شدة صراعى مع العالم من حولى ،كما أن نداء الحرية أثار فى نفسى توترات باطنية وخاصة ذلك التوتر بين الحرية والمشاركة الوجدانية ، وسأعود الى هذا الموضوع فى هذا الفصل من الكتاب .

---

(١) انظر صفحتى ١٥٦ ـ ١٥٧ اذا أردت مزيدا من التفسير لهذه الكلمة (المترجم الانجليزى) ومعناها هو الاتحاد الحر بين أعضاء الكنيسة الناشىء عن فهمهم المشترك للحق وبحثهم المشترك عن الخلاص وهذا الاتحاد قائم على حبهم الاجماعى للمسيح والحق الالهى . (انظر كتاب « تاريخ الفلسفة الروسية » تأليف ن. أو. لوسكى ص ٣٥ ، لندن ، ١٩٥٢) وترجمة هذه الكلمة بالانجليزية هى commonalty ونقترح لترجمتها الى العربية لفظة « الاجماعية » أو « الاتحاد المسيحى الحر » (ف.ك) .

كنت طيلة حياتى متمردا ٠٠ بل كنت متمردا حتى اثناء ما أبذله من جهود عظيمة لتصفير شأنى ٠ وليس التمرد مرحلة من مراحل تطورى العقلى ، بل صفة فطرية اتصف بها تفكيرى وطريقتى فى الحياة ٠٠ ولقد كان من السهل استفزازى للثورة ، وكان اى ظلم أو عنف يقع لكرامة الانسان وحريته يثيران احتجاجات ساخطة فى نفسى ٠٠ وفى حداثتى تلقيت كتابا يحمل هذه العبارة : « الى المحتج العزيز » ، ولقد اعترضت فى مراحل مختلفة من حياتى على أنواع متباينة من الأفكار والسلوك ، ولكننى عطفت دائما على جميع المتمردين العظام الذين ذكرتهم سجلات التاريخ ٠٠ عطفت على تمرد « لوثر » على الطغيان الكنسى ، وعلى « الاستنارة » Enlightenment ضد السلطة ، وعلى تمرد « الطبيعة » عند « روسو » ضد « المدنية » ، وعلى تمرد « الثورة الفرنسية » على الاضطهاد ، وعلى تمرد المثالية على سلطان « الموضوعى » ، وعلى تمرد « ماركس » على الراسمالية ، وعلى تمرد « بلنسكى » ضد الروح العالمية والانسجام العالمى الذى دعا اليهما « هيجل » ، وعلى تمرد « باكونين » الفوضوى ، وعلى تمرد « ليو تولستوى » على التاريخ والمدنية ، وعلى تمرد « ابسن » على المجتمع ٠ وما المسيحية فى نظرى غير تجسيد للتمرد على العالم وقوانينه وتقاليده ٠

وانى لمدرك أن هذا الميل الى التمرد والمعارضة والمخالفة يعرضنى لاغراء الاكتفاء الذاتى والغرور ٠ ومع ذلك ، فانا مرغم ـ بسبب طبيعة هذا الكتاب ـ على الحديث عن كل ما تقتضيه المعرفة بالذات ، ولكننى حين افعل ذلك أود أن اتجنب الضرب على نغمة الادعاء ٠ وفضلا عن ذلك ، اعلم أن ما من أحد يستطيع أن يحيا بالتمرد وحده ، لأنه ليس اكثر من حكم جزئى ، وتقويم جزئى ٠

فهل تمردت على الله يوما ؟ أليس فى مجرد هذا التعبير « التمرد على الله » ، ما هو عرضة لسوء الفهم ؟ من المحال أن يتمرد المرء الا بالرجوع الى قيمة نهائية يحكم بها على ما اعتزم معارضته ، وباسم هذه القيمة يتمرد ٠٠ أعنى باسم الله ، الحاكم الأعلى ، والمنقذ الأكبر ٠ ولهذا نجد أن الملحدين المجاهدين يتمردون ـ فى نهاية التحليل ـ باسم الله وان لم يشعروا بذلك ٠٠ غير أننى تمردت غالباً على الأفكار والمعتقدات التى يصوغها الناس عن الله ، أى على الآلهة المزيفين ، لا على الله نفسه ٠

والمسألة الأخرى التى شغلت ذهنى هى : هل الوضع المسيحى متفق مع موقف الثورة والتمرد ؟ أن التعليم المسيحى ، أو شبه المسيحى ، الخاص

بالتواضع مفهوما على انه المذلة يستبعد بالطبع أى امكانية للثورة ، ويقتضى الطاعة والخنوع لكل من يطلبهما . وكان ذلك بالفعل هو الذى أثار فى نفسى الثورة والتمرد .. فليس معنى ان يكون المرء مسيحيا أنه عبد خنوع .

كنت متمردا ، بيد أن تمردى لم يكن مما يسمح اطلاقا بالارهاب الثورى .. تمردت على العالم ، وعلى نظامه المذل ، ولكن الارهاب الثورى ارتداد الى العالم ، وخضوع لمعايير العالم ومطالبه . أما تمردى فهو تمرد الروح والشخصية على العنصر الجماعى الذى يتحدى الروح والشخصية .

الروح هى الحرية ، والحرية هى الروح ، ومسألة التمرد مرتبطة ارتباطا وثيقا بمسألة الحرية . التمرد ينطوى على ميل شديد للحرية ، وهو يستغل عنصره العنيف فى تحطيم العبودية والاضطهاد . وكانت هذه العاطفة تطغى أحيانا على نفسى ، وتثيرنى ، وتلهبنى بسيآطها غضبا . وانى لأوافق على أن التمرد لا يسوى أية قضية ، ولكنه يستطيع أن يلعب دورا عظيما فى تحرير الانسان . ومن المؤسف أن المسيحيين قد عبروا عن تقواهم بالانحناءات والتزلفات والسجود – وهى حركات ترمز الى المذلة والخنوع ، وليس من الممكن انكار أن أخطر عقبة فى سبيل الاعتقاد بالله ليست فى الموضوع ، وانما فى اعتقادات المعتقدين أنفسهم : أعنى فى العقائد والمظاهر التى يصطنعها هؤلاء المعتقدون .. فهى دائما شائنة غير محتملة . وأن يكون الانسان عاجزا أو غير قابل أحيانا للاعتراف بالله قد يعنى أنه لا يستطيع أن يقبل عقيدة ايمان الناس بالله ، أو أفكار الناس عن الله ، لا الله نفسه ، وأنه يتحدى استبدال العبودية وحركات التقوى بعبادة صورة الله الحية التى يعجز عنها التعبير . وأساس المعرفة بالله والايمان به هو ادراك سر الله الذى يختبر ويطهر أفكارنا كلها عنه . وينبغى على كل انسان أن يكون متمردا ، أى أن يكف عن احتمال العبودية فى أية صورة من صورها . ولست عرضة للشك عامة ، ولكن فكرة رهيبة كانت تجتاز عقلى بين الحين والحين ، وهى ماذا لو أن الارثوذكسية الذليلة كانت على صواب ، وكنت أنا على خطأ ؟ فى هذه الحالة .. أكون ضائعا . ولكننى كنت أسارع دائما بابعاد هذه الفكرة عنى .

وسأشير – خلال هذه الترجمة الذاتية – أكثر من مرة الى قيام ثنائية غريبة فى نفسى ، الى صفة جانوسية « نسبة الى جانوس » (١) ، الى وجهين

---

(١) دجانوس اله رومانى قديم كان الرومان يتمثلونه برأسين لأنه يعرف الماضى ويتنبأ بالمستقبل ، وكان له فى روما معبد تفتح أبوابه فى أثناء الحرب وتغلق وقت السلم (ف.ك) .

وعناصر متضاربة تترك فى الناس انطباعا بالتناقض والتنافر · بيد أنه يمكن ارجاع هذه العناصر المتنازعة الى مصدر واحد · فالانسان ليس مخلوقا يعانى العزلة والقلق ، وكائنا منفيا فى هذا العالم يمتلىء قلبه ويتمزق بالشفقة على ما يعانيه الخلق من عذاب وآلام ، بل انه عنيف فى تمرده ، وقادر على الاستماتة بجسارة عظيمة فى حرب الأفكار ·

ويثير هذا العالم الغريب المغاير فى نفسى استجابة ذات وجهين : وجه ينبعث من الداخل الى الخارج ، والآخر يتقدم من الخارج الى الداخل · وهذا هو السبب فى أننى لم أحقق الاكتمال فى حياتى ·· فاذا ما أطلقت التحدى أحسست بحاجة شديدة الى الانسحاب الى عالمى الداخلى · ولم يكن موقف التمرد غير لحظة فى حياتى الباطنية وفى الصراع الروحى الذى ينشب داخل نفسى · ولقد كانت محاولاتى الخلاقة التى انظر اليها دائما على أنها صاحبة الأهمية الأولى فى حياتى ـ مسألة تتعلق بوضعى الذاتى الخاص ـ أما الافصاح عنها وتجسيدها فى العالم الموضوعى ، فكان يأتى دائما من جهة أخرى مفتقرا الى الكمال · وكان التمرد يميز انفصالى الفطرى وعدم تكيفى مع العالم الموضوعى ، كما كان يتضمن عنصرا أخروياً قويا ·· وكنت طيلة حياتى أشعر بالنفور من النماذج الثابتة ومن العادات والعلامات التقليدية فى الحياة الانسانية · ولم يكن ذلك مجرد شعور بعدم الارتياح ، بل علامة على مقاومتى للاحالة الموضوعية objectification للوجود الانسانى ، ورغبة فى أن تفسح المعاذير التقليدية للحق مكانا آخر الأمر للكشف عن الحق نفسه ·· وهذا بدوره يفسر القيمة العليا التى كنت أخلعها على الاخلاص والصدق ·

ويمكن أن تكون الحرية خالية من الشفقة · والمفتش العام عند « دوستويفسكى » يتهم المسيح بأنه يلقى عبء الحرية الذى لا يحتمل على كاهل الناس ، وبذلك لا يظهر أية شفقة نحوهم · فالحرية تجلب فى أعقابها الشقاء والمأساة ، والمأساة الحقيقية ليست هى مأساة القدر ـ كما يعتقد اليونان ـ بل مأساة الحرية · ولقد كنت أعانى ابان حياتى تجربة عنيفة للصراع القائم بين الحرية والشفقة ، وأنا بغريزتى أتأثر بالشفقة وبالمشاركة الوجدانية ، ولا أستطيع تجاهل ما يلاقيه الناس والحيوانات من آلام ، ولا أحتمل القسوة · وأحيانا تطغى على نفسى المشاركة الوجدانية للخليقة جميعا ·· تلك الخليقة التى تئن وتتأوه فى انتظار فداء العالم كله · وانى لأشعر بأننى و « ايفان كارامازوف » شىء واحد ، وقد جن بسبب دموع طفل واحد صغير · ولقد كانت مشكلة تبرير الله بازاء ما فى العالم من عذاب لا حد له مصدرا

لعذاب لا نهائي بالنسبة الى ، فانا لا استطيع أن اقبل تصور الوهية شاملة عالمة بكل شيء تتوعد بالعقاب ذلك العالم المنكوب الذى هو عالمنا ٠٠ ولا أستطيع أن اقبل أو أفهم غير صورة الاله المحب المعذب المصلوب ، اعنى أننى لا اقبل الله الا عن طريق ابنه فحسب ٠ فمن المحال أن يستجيب المرء لله الا اذا أخذ على عاتقه آلام البشر وأحزانهم واحتملها ، والا اذا كان الكاهن الأكبر والضحية فى وقت واحد ٠ ولهذا كنت أميل دائما الى « مرقيون » Marcion وأن يكن عطفى هذا عاطفيا اكثر منه عقليا ٠

ولم أستطع قط التسليم بقسوة الدولة الباردة التى لا ترحم ، والعقوبات والجزاءات التى تفرضها على الناس ٠ وقد رفضت فى اصرار وحماسة عقوبة الاعدام الى حد اننى قسمت الناس قسمين : أولئك الذين يدافعون عنها ، وأولئك الذين يستنكرونها ٠ وأحسست أحيانا بعداء شديد نحو الفريق الأول ، واعتبرتهم أعدائى شخصيا ٠ ومثل هذا الرد فعل ضد تلك الوحشية الخاصة التى تقترفها الدولة هو على الأرجح سمة روسية مميزة ٠ كنت أجد من العسير احتمال ادانة الانسان ، وعلى الأخص ادانته النهائية ٠ وكلمات الانجيل التى كان لها أعمق التاثير فى نفسى تلك التى تقول : « لا تحكم حتى لا يحكم عليك » و « من كان منكم بلا خطيئة ، فليمها بحجر » ٠٠ ومهما يكن من أمر فان نهاية ذلك المثل الآخر الذى يلقى فيه الأشرار فى نار جهنم ، كان يسبب لى الما وحيرة ٠٠ فالانتقام ، ولا سيما ذلك الانتقام المنظم المنتظم الذى تمارسه الدولة يثيرنى أكثر من أى شيء آخر ٠٠ وربما كانت هذه الثورة هى الفضيلة المسيحية الوحيدة التى أستطيع أن أدعى امتلاكها ٠ وقد خطر ببالى عرضا اننى لو دخلت الجنة ، فلن يكن ذلك الا بفضل احجامى وامتناعى عن الحكم على الآخرين ٠٠ أما ما خلا ذلك فى نفسى ، فليس جديرا بالجنة على الاطلاق ٠

ومن الواضح أن ثمة صلة بين احجامى عن الحكم وبين الدافع الى الشفقة والمشاركة الوجدانية ٠ والواقع اننى كنت اكثر وعيا للشقاء الانسانى منى للخطيئة الانسانية ٠ والدين الذى ينظر الى الحياة الانسانية فى المحاكم يدعو الى نفورى ٠ وأنا مخلوق عنيد صلب الرأى ٠٠ ولكنه من اليسير جدا التأثير على باثارة شعور الشفقة فى نفسى ، وليس من شك أن كثيرا من الناس قد استغلوا ذلك ٠ وقد جاهدت هذا الباعث ، بل ذهبت الى حد أننى شننت حربا مذهبية على الشفقة ، واعتنقت فكرة « نيتشه » فى هذا الصدد ٠ كنت أخشى الا أستطيع احتمال شعور الشفقة ، أو أن أذوب فى هذا الاحساس تماما ٠ ويكمن ضعفى وسوء حظى فى أن مشاركتى الوجدانية كانت سلبية وليست ايجابية ٠ ولقد عانيت من احساس الشفقة معاناة شديدة لأننى عانيته

بصورة سلبية ٠٠ كنت ايجابيا فيما يتعلق بالحرية لا فيما يتعلق بالشفقة : فلم تكن شفقتى تشع حبا ، أو تشيع الدفء فى الآخرين ، ولم أفعل غير القليل لاستخدام مشاركتى الوجدانية فى الحياة ، كما اننى لم اصنع الكثير لمساعدة الآخرين أو تخفيف آلام غيرى من الناس ، وبقيت مشاعرى الخاصة محبوسة فى نفسى ، وكان من الممكن أن تكون أقل ايلاماً لو أننى استطعت التفريج عنها فى نشاط خارجى ٠ ان الطبيب الذى يجرى عملية جراحية لمريض يعانى أقل مما يعانيه شخص لا يفعل أكثر من الشفقة عليه ، والذى لا يستطيع مساعدته بأية طريقة من الطرق ٠ ولقد قاومت احيانا سلبيتى وجمودى فى هذا المجال ، ولكننى لم أستطع التغلب على نقائصى وتجسيد بواعثى ٠٠ ولابد أننى أوحيت الى الآخرين بأننى غير مكترث أكثر من ايحائى بأننى مشارك لهم ، على الرغم من أننى كنت أميل الى الآخرين ، ولكن بطريقة سلبية ٠

ولقد كانت حساسيتى ممتزجة بالجفاف ، كما أتيحت لى الفرصة لبيان ذلك فيما سبق : كان العقل يتحكم فى القلب ، والخيال فى الشعور ، ومع ذلك فقد كان نشــاطى العقلى وتفكيرى نفســاهمآ عاطفيين وجدانيين ٠ أما عن مشاركتى الوجدانية وعطفى على الآخرين فقد كانا يسيران جنبا الى جنب مع رغبة انانية للمحافظة على الذات ٠ وكنت أتجنب أو احاول أن أهرب مرة بعد أخرى من كل ما من شانه أن يثير عاطفة المشاركة الوجدانية فى نفسى ، ولهذا السبب احتقرت نفسى ٠ والواقع أننى أننى أخفقت اخفاقا لا أمل فيه فى تحقيق وصايا الانجيل ، وثبت لى أن مشاركتى الوجدانية ليست فضيلة ، بل ضعفا ٠ غير أن هذا الضعف جعلنى أعجب اعجابا عظيمــا على كل حال بالمشاركة الايجابية الفياضة عند الآخرين ، وكنت أقدرها تقديرا رفيعا ٠

وكانت تجربة الشــفقة مرتبطة فى نفسى دائمــا بتجربة القلق ٠ وأنا بطبيعتى أتوقع الشر دائما ٠ وكانت تطاردنى الهواجس والمخاوف على من حولى دائما ، ولم أكن أستطيع مطلقا التغلب على فكرة موتهم ٠٠ بل كنت أميل الى تضخيم الأخطار التى تتهددهم ، مهتماً كل الاهتمام بسعادتهم ، وخاصة أبوى ٠ وأحيانا كان قلقى غير محتمل ، وكنت أشعر أنه يسحقنى سحقا تاما ، وان حاولت اخفاء ذلك عن الآخرين الذين كانوا نادرا ما يعرفون الى أى مدى أعانى تحت وطأة تلك الأحاسيس ٠ وكان يبدو لى أن هلاك الانسان أو بقاءه متوقف على ، وأنه من شئونى الخاصة ٠

ان كل أمل انسانى أصيب بالخيبة أو الفشل يثير فى النفس شفقة حادة كما يفعل الفراق ٠ بيد أن هذا الفراق يمتزج أيضا بذكريات الماضى ، وبجميع

الأشياء التى لا سبيل الى استحضارها ، وبادراك الأخطاء والآلام التى سببناها للآخرين ، وبخاصة لأقرب الناس الينا ، ولم يعد فى الامكان اصلاحها · ولقد كنت اشعر فى اغلب الأحيان باحساس محرق ثاقب من الشفقة حين أنظر فى عينى اى حيوان ، ذلك أن تعبير الحيوانات عن الألم مؤثر الى حد لا يحتمل ولا يمكن التعبير عنه ، وكأنه يكشف عن حزن العالم كله ، فلا يلبث هذا الحزن أن يكتنفك من جميع أقطارك ويستولى عليك · وكثيرا ما تخيلت أناسا يتهددهم الموت ، أو يموتون فعلا ، كما تمثلت الشباب الغض المرح مريضا عجوزا يائسا · ويبدو لى أن ما يثير أعظم أنواع العطف هو خيبة الآمال التى جاء بها الانسان والحيوان الى العالم · ولست أعتقد أن هذا دليل على العاطفية ، لأن العاطفية لا تتفق مع جفاف القلب أو طغيان العقل على العواطف الذى أشرت اليه من قبل · ويتميز احساس الشفقة عندى بأنه ذو طبيعة ميتافيزيقية أكثر من أن يكون ذا طبيعة نفسية ·· وربما كان مشابها للعطف « الميتافيزيقي » الذى يخلو من العاطفة فى البوذية ، أى صادرا عن ادراك لحالة العالم الساقطة المنكوبة فى اعمق مستوى لوجوده ·

وأنا أميل الى التشاؤم ، وان لم يستطع هذا التشاؤم ان يستولى على استيلاء تاما · ولم استطع اطلاقا ان أعتقد فى امكانية السعادة الدائمة ، وان يكن ذلك دليلا على الواقعية اكثر منه على التشاؤم · وقد خيل الى أحيانا أننى لا أريد السعادة ، بل لعلنى كنت أخشاها · وكان كل شعور بالفرح فى حياتى يواكبه احساس بالذنب والخطأ · وكنت أخاف اللحظات السعيدة فى الحياة ، ولا أستطيع أن أسلم لها نفسى ، بل كنت أدير لها ظهرى ·· وكنت أتأرجح دائما بين انكار زاهد للعالم ــ انكار دينى « ثورى » أو « تولستووى » ــ وبين التأكيد الخلاق لعالم الجمال والحب والفن وانتصار الفكر فى الحياة · كنت أسعى وأنتظر تحول العالم ، وأقاوم العالم فى الوقت نفسه بكل عقلى وقلبى ، وأود الانسحاب الكامل منه الى دير فى عالم آخر لا يرقى اليه الخيال ·

وفى رأيى أن فكرة السعادة نفسها خالية من اى مضمون أو معنى ، اذ لا يمكن احالة السعادة الى حالة موضوعية منعزلة عن الحالات الأخرى ، كما لا يمكن التفكير فيها على الاطلاق فى حدود الكميات التى تقارن بكميات غيرها ·· وما من أحد يعلم ماذا يسعد الانسان او يشقيه · وانى لقليل العطف على الحاح « اندريه جيد » فى كتابه « الأغذية الأرضية » اذ لا ارى فيه غير صراع شخص متطهر (بيوريتانى) ضد المحرمات والممنوعات المفروضة عليه من الخارج ، وليست أعتقد أن الانسان ولد للسعادة وللهناءة كما خلق الطائر للطيران ، وكل النزعات الأخلاقية التى تبحث عن اللذة أو السعادة حتى اذا

كانت معروضة فى حدود الأمل المسيحى أو شبه المسيحى فى سعادة خالدة للانسان ، نزعات زائفة ‥ وليس ثمة حاجة لتأكيد حق كل انسان فى السعادة ، بل ما نحتاج اليه هو توكيد كرامة الانسان وقيمته العليا بحيث لا يعامل على أنه وسيلة لأى غاية كانت ٠ ومذهب السعادة خاطىء حتى عندما يصطنع شكل النزعة المسيحية الى الكمال ، بينما نجد أن « كانت » على صواب حتى ولو انحرف عن موقفه وأظهر ميلا الى النزعة الصورية فى الأخلاق ethical formalism ٠ فلابد من رفض مذهب السعادة لا على أساس من الزهد وحب الخير ، بل على أسس شخصية personalitic ٠ ويقول جون ستيوارت ميل ، على الرغم من عدم تناسق هذا القول مع نزعته النفعية العامة : « انه من الأفضل للمرء أن يكون سقراطا ساخطا ، من أن يكون خنزيرا راضيا » ٠

وكان من العسير على دائما أن أقبل أى شىء يحط من كرامة الانسان ، ولو كان ذلك بالنسبة لفرد انسانى واحد ، وكنت أحتج بكل قوتى على أية علامة على مثل هذه الحطة ‥ وكانت آلام الانسان تثير شفقتى ومشاركتى الوجدانية ، ومع ذلك كنت أدرك أن الصراع من أجل كرامة الانســان ومن أجل حالة « سقراط الساخط » يقتضى استعدادا لملاقاة الألم والحزن وقبولهما من جانب هؤلاء الذين ينضمون الى هذه القضية ٠ انها حالة من حالات التناقض الأخلاقى المؤلم الذى لا يمكن التغلب عليه داخل أبعاد هذا العالم ٠ والانسان مطالب بأن يشارك الأشياء الحية جميعا مشاركة وجدانية ، وأن يقبل الألم فى الوقت نفسه ، ذلك الألم الذى يتضمنه الاعتراف بكرامة الانسان وحريته والصراع من أجلها ‥ هذه هى مفارقة الشفقة والحرية ، مفارقة النزول الى العالم المحزون والصعود منه ، مفارقة الحب والاحسان (١) eros and agape ‥

وأشك فى أنه كان لاحساس الشفقة والمشاركة الوجدانية أى أثر على اهتمامى بالمشكلات الاجتماعية وعطفى على الاشتراكية ‥ فقد أحسست دائما بكراهية غريزية لأصحاب المناصب وللحكــام والســادة وللأشخاص المعروفين والنبلاء ، وللأثرياء والمتميزين ‥ وكنت أتجنبهم دائما وأبدا ٠ وحتى حينما كنت لا أبغضهم شخصيا ، فان شيئا ما كان يحول بينى وبينهم ٠ ومع ذلك كنت بعيدا غاية البعد عن أى حقد ٠ ولما كنت أنا نفسى من المتميزين وعضوا فى الطبقة الحاكمة ، فاننى لم أكن أعانى أى شعور بالدونية الاجتماعية ‥

(١) الـ agape وليمة كان يقيمها المسيحيون الأوائل ليجمعوا فيها الصدقات للفقراء ويتبادلون فيها قبلات السلام (ف٠ك) ٠

وكنت أفضل دائما المظلومين والمضطهدين والمساكين ، وان يكن سوء حظ مركزى المتميز يمنعنى من أن أكون واياهم شيئا واحدا تماما ·· غير أن هذه المكانة المتميزة لا ترجع الى امتلاكى للجاه والسلطان ، اذ لم يكن لى شىء منهما ·· وانما الأحرى انها مسألة طريقة معينة فى الحياة ، جعلتنى ابقى « جنتلمانا » ، حتى حينما لم يكن هناك ما يضمن ذلك · كان الناس يصرون على النظر الى على هذا النحو ، وكانوا يبالغون فى بعض الأحيان فى تصورهم عن مواردى المادية · والواقع أن هذا « الجنتلمان » كان متواضعاً الى اقصى حد ، وكانت موارده اقل كثيرا من المتوسط ·

ولقد انتابتنى الدهشة حين اكتشفت فى نفسى قدرة على الاتصال « بالشعب » ومخاطبته ، وهى قدرة لم تكن تظهر الا نادرا كما هو معروف جيدا لدى الأعضاء الآخرين فى الطبقة المثقفة الروسية · فخلال مرحلتى الماركسية التى قضيتها فى « كييف » مثلا ، كان عدد من العمال الذين يعادون المثقفين قد اتخذوا موقفا استثنائيا منى ، ورحبوا بى ، وعاملونى فى ود عظيم · وعندما كنت منفيا فى « فولوجدا » Vologda ، كنت بين المنفيين الوحيد الذى اختلط بالمجرمين Khitarovtay (مجرمون يعيشون فى أحياء موسكو القذرة) وكان الباقون ينظرون اليهم باعتبارهم حثالة المجتمع ، وكان الجميع يخشونهم ·· بل لقد وصل الحال الى أن اصبح احدهم صديقاً حميما لى · واهم من ذلك علاقاتى مع « الباحثين عن الله من الشعب » وسأتحدث عن ذلك باطناب فيما بعد · ومهما يكن من امر فانى لا أزعم اننى نجحت فى الاتحاد تماما بالشعب ، كما حاول كثير من اعضاء الطبقة المثقفة ولم يفلحوا ·· والحق اننى لم أود مطلقا ان اكون « شعبيا » فاننى كنت ماركسيا الى درجة لا تتفق مع اعتناقى للنزعة الشعبية ·· وفضلا عن ذلك ، ينبغى الاعتراف اعترافا اكيدا باننى افتقر الى القدرة على أن اقوم بأى دور فى المسائل الاجتماعية ، أو ان اقود الآخرين ، أو ان أسير خلفهم ، أو ان ابحث عن القوة والمجد ، أو أن أصنع اية مشروعات دنيوية طامعة ·

سبق أن قلت أن الصراع بين الشفقة والحرية صراع بين النزول والصعود · فالشفقة قد تفضى الى نبذ الحرية ، والحرية قد تؤدى الى الخلو من الرحمة · والحياة الانسانية تتسم بهاتين الحركتين : الصعود والنزول · والانسان يجرؤ على الصعود الى أعلى ، والعلو على نفسه وبيئته ، والارتقاء الى الله ، وفى هذا السبيل يكتسب الانسان قوة روحية ، ويعيد خلق الترتيب الطبيعى للحياة ، ويخلق حياة جديدة ، وقيما جديدة ، ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن ينسى هؤلاء الذين ما برحوا فى مرتبة ادنى ، ضعاف الروح الذين

لا يستطيعون الصعود الى ذرى المعرفة الخلاقة والى مقام الرؤية ٠٠ وهنا يرغمه باطن نفسه على البدء فى الحركة التنازلية ٠٠ على النزول حتى يتمكن من مقاسمة الناس كنوزه الروحية ، والالتفاف الى مطالب اخوانه الذين خلقوا جميعا لمهمة أسمى ٠ وعندما يحلق الانسان عاليا فانه لا يتجاهل ـ ولا ينبغى له أن يتجاهل ـ العالم والانسانية فى خارج نفسه ، أو أن يخلى نفسه من مسئوليته تجاه الآخرين ٠ الحياة الأبدية تحطم الحواجز القائمة بينى وبين الناس ، وتقتضى الخلاص للجميع والمسئولية ازاء الجميع ٠ والحرية لا تعنى اطلاقا انعدام المسئولية ، والشفقة والمشاركة الوجدانية هما اللتان تجعلان الحرية مسئولة ٠ وعندى فيما بعد المزيد من الكلام عن مشكلة الابداع والمشاركة الوجدانية ٠

وقد عانيت فى مرحلة من مراحل حيـــاتى نزاعا قويا بين ما يمكن أن أسميه دوافعى التولستوية ودوافعى النيتشوية ٠ وانقضت فترة كان العنصر النيتشوى فيها غالبا ، بيد أن العنصر التولستووى هو الذى انتصر فى نهاية الأمر ٠ فما كنت أقبل اطلاقا أن أتنازل عن الحرية فى سبيل الشفقة ، بل لقد كان قتالىمن أجل الحرية يتسم بالضراوة ، ومع ذلك لم أكن أحتمل أن تتحول الحرية الى حرية قاسية أو أن يتم تزييفها الى ارادة القوة ٠ اذ كنت أعتقد دائما فى أعماق نفسى أن المسيحية قد نزلت الى مستوى ما هو انسانى ٠٠ وانســانى جدا من الغرائز ، وتحولت الى نقطة تجميـع للافلات من حقيقة المسيح ، وأنها قد ألقيت الى أعماق النهر حتى لا تؤتى ثورتها ثمارها ٠ ولم تبق المسيحية دون أن تتحقق فى الحياة فحسب ـ وهذا أمر من اليسير تفسيره بما تنطوى عليه الطبيعة الانسانية من حب للاثم ـ بل لقد تشوهت وانحطت فى تعليمها نفسه ٠ واستطاع الناس أن يلائموا بين المسيحية وبين هذا العالم ، ثم تشبثوا فيما بعد بهذه المسيحية المكيفة حتى يدعموا أدوارهم ومراكزهم فى الحياة ٠٠ وانعدام الحياء الذى أظهره المسيحيون فى هذا المقام لا حد له ٠ هناك حقا بعض الناس الذين استطاعوا أن ينتزعوا من المسيحية عـددا من المبــادىء لا تبعد كثيرا عن النزعة السادية ، غير أن المسيحية كانت تعنى بالنسبة الى دائما ، الرحمة والمشاركة الوجدانية والمغفرة الانسانية ٠

ولكى نعود الى مسالة الصعود والهبوط ، ينبغى أن نذكر أن الصعود يدل على أولوية معينة يكتسبها الانسان فى مواجهة العالم والآخرين ٠ ويتحدث الانجيل المسيحى ـ فى لغته المفارقة المعتادة ـــ عن « الأوائل » الذين يصبحون « الأواخر » ٠٠ ومن المحتمل انه يقصد بهذا ، لا أولئك الذين يملكون الجاه والسلطان فى هذه الدنيا فحسب ، بل أولئك الذين بلغوا مرتبة روحية معينة

ايضا ·· انه تحذير لاولئك الذين « يصعدون » ، والذين قد يجدون أنفسهم من « الأواخر » اللهم الا اذا أصبحوا أولئك « الأواخر » بمحض اختيارهم ·

والمسيحية هى التوتر والاتحاد بين الصعود والهبوط ، بين الحرية والشفقة ، بين السمو والانحطاط ، بين « الكيف » و « الكم » ، بين حب الأعالى الالهية ، وحب الذين يتألمون فى المراتب الدنيا ·

ولقد برع الناس فى السعى وراء مصالحهم الخاصة ، وامتيازاتهم ، وشهواتهم حتى أضفوا طابعا من التحول والتسامى المسيحيين على غرائز الانتقام البدائية · وقد شعرت أكثر من مرة بأننى مدفوع للكشف عن مثل تلك التزييفات ، وانتهيت الى هذه النتيجة وهى أن العقيدة الوحشية عن الآلام الأبدية فى الجحيم ليست غير اسقاط للغرائز السادية فى مجال الدين · ويميل كثير من المسيحيين التقليدين الى استغلال هذه العقيدة ، ويحبونها حبا ايجابيا ، على الرغم من أنهم يظهرون ميلا أقل من ذلك الى امكانية تطبيق ذلك العذاب على أنفسهم دون الآخرين · والحق ، انهم قد وضعوا نظاما كاملا من الارهاب بواسطة تلك العقيدة · ولفكرة العقاب الأبدى دلالة اجتماعية هائلة ، لأن مجتمعات بأكملها ، وجماعات بأسرها قد خضعت للحكم والاضطهاد نتيجة لهذه الفكرة · وليس من شك انها قد أسهمت فى تنظيم المجتمع وفى السيطرة على غرائز الناس الهمجية الآثمة · بيد انها قد استعملت استعمالا خاطئا فى الوقت الذى كان فيه العالم المسيحى يعتقد فيها اعتقادا راسخا · والواقع انها استغلت لارضاء غرائز الناس السادية ، ولبسط نفوذ « الأوائل » من الحكام وأصحاب السلطان ، على « الأواخر » و « الأدنياء » · وقد خطر لى فى كثير من الأحيان أنه لو هددت السلطات الكنسية بالعقاب والطرد من الكنيسة والحرمان من الشعائر المقدسة ، هؤلاء الذين تستبد بهم ارادة القوة والسيطرة ، والذين نذروا انفسهم للطمع واستغلال اخوانهم من البشر ، فى الوقت الذى كان فيه الناس يؤمنون عامة بفكرة الجحيم ·· لو حدث ذلك لكان من المحتمل أن يتغير وجه التاريخ · وبدلا من ذلك ، كان التهديد بالعذاب المقيم موجها ضد التجديف والانحرافات الطائفية ، ومخالفة نظام الكنيسة ، والخطايا البسيطة التى اعتبرت شيئا مميتا ، وبالتالى ضد أمور كانت فى غاية من التفاهة · ولا يسعنى سوى الاعتقاد بأنه كان لهذا تأثير قاتل على مصير المسيحية ·

وعندما ينظر المرء الى فكرة العذاب الأبدى ، لا يملك سوى الاعتراف بأن هذه الفكرة فضلا عما تنطوى عليه من عناصر سادية بشعة ، فانها تمثل

مشكلة فلسفية خطيرة ·· أما من ناحيتى أنا ، فاعتقد أن نتائجها تحرم حياة الانسان الروحية والأخلاقية من كل قيمة ، وتحيل الحياة الى محاكمة فى ساحة القضاء حيث يعيش الانسان مهددا بعقوبة العبودية مدى الحياة · ومجـــرد استطاعة الانسان أن يؤلف مثل هذه الفكرة دليل على وجود أشد البواعث قتاما فى عقله الباطن ·· وأنا لا أضع وجود الجحيم موضع التساؤل ، فالحق أننى أعتقد أن الجحيم تجربة انســانية مشتركة الى أبعد حد ، عميقــة كل العمق ·· انها احتمال رهيب مخيف يعترض طريق الحياة الانسانية ·· بيد أننى أنظر الى اقامة علم للوجود ontology على الجحيم ، باعتباره شيئا بشعا ·

وترجع معارضتى « لعلم الآخرة » التقليدى الى القيمة التى أعلقها على الشفقة والمشاركة الوجدانية ، فلست مستطيعا أن أتصور أية غبطة أو هناءة فى مواجهة الشقاء والعذاب اللامحدودين فى هذا العالم ، ولا تثبط عزيمتى فى هذا المجـــال أى تثبيط بتصريحـات القديس أغسطين الســاخرة عن « الرحمانيات » (التماس الرحمة وطلب العفو والمغفرة Misericordes) ، اذ لا يمكن تصور الخلاص الا فى صحبة البشرية جمعاء ، وينبغى أن ننظر الى الـ sobornost (الاتحاد المسيحى الحر) على أن له نتائج أخروية كما أن له نتائج كنسية ، ولم أستطع أن أقبل اطلاقا أن الله أقل منى شفقة ورحمة ، أنا الانسان الناقص الخاطىء ·

والواقع أننى رفعت صوتى محتجا دائما على أية ادانة للناس ، وكنت أبغض دائما كافة المرافعات البليغة التى تدعو الى توقيع القصاص ، وكنت طيلة حياتى ـ كما ذكرت من قبل ـ أعطف على المحكوم عليهم لا على القضاة ، ويرجع هذا الى نزعتى المتمردة على القانون والانتماء أكثر من رجوعه الى أية فضيلة أتحلى بها ·وأنا لا أستطيع احتمال القسوة ، ومع ذلك فاننى فى صراعى من أجل الحرية لا أتورع عن القسوة ، وكنت أشعر أحيانا أننى مدفوع الى مخاصمة أصدقائى ، وكنت خليقا بأن أتمنى الجحيم لهؤلاء الذين يدعون اليه ويعدونه للآخرين ·· بيد أننى كنت قاسيا بمعنى آخر ، اذ تطاردنى فكـرة رهيبة بأن الأشياء التى لا ينبغى نسيانها أبدا قد أمحت من ذاكرتى : وهذه هى قسوة النسيان ، وهى ليست أقل قسوة أو تدميرا من توقيع العذاب · فاذا تذكرت ثانية ، استبد بى احساس بالذنب والندم · وجعلت من فكرة (الاتحاد المسيحى الحر) فكرتى الخاصة أولا وقبل كل شىء لأنها تقتضى الاعتراف بمسئولية الناس واثمهم بالتبادل والاشتراك ·

لست متشككا بطبيعتى ، وليس تفكيرى من النوع المستريب المتشكك ·· وأنا أكثر تعرضا للصراع الباطنى والتناقض منى للشك ·· والواقع ، أننى لا أشك ، وانما أتمرد ·· وحتى عندما أتمرد أؤكد ولا أنكر أو أضع الأشياء موضع التساؤل ·· ولا يمضى تفكيرى بطرق الحوار الداخلى الذى أواجه فيه الشكوك والاعتراضات التى يثيرها عقلى ، وأحلها · بل على العكس ، كنت أميل دائما الى ابراز الاعتراضات على تفكيرى فى الخارج لتكون فى صفوف خصوم أفكارى ومعتقداتى الذين أشن عليهم الحرب · وقد كآن تفكيرى تأكيديا مثبتا دائما حتى عندما أحتج أو أنتقد شيئا ما · ومن الخطأ على أية حال استنتاج أن لهذا التفكير طابعا قطعياً dogmatic ·· كنت أومن بالحق الذى أبحث عنه ، والله الذى أبحث عنه ، ولكننى كنت دائما باحثا أولا وأخيراً ، مرتبطا بحركة خلاقة مستمرة يستدعى فيها البحث الغاية نفسها التى يسعى اليها ·· وانى لأعتبر نفسى مختلفا عن المتشككين والقطعيين جميعا · والواقع أن المتشكك لا يبحث عن أى شىء ، ولا ينتقل من مكانه على الاطلاق · والشك المطلق اذا كان ممكنا (وهو لا يمكن أن يكون كذلك) هو حقا وضع الثبات التام ·· والموت · والمتشكك يناقض نزعته الشكية فعلا فى كل مرة يسأل سؤالا أو يعبر عن شكه ونكرانه ، وبمثل هذا التناقض لنزعته الشكية يستطيع أن يعيش وأن يفكر · والشك المتطرف هو والقطيعة الصارمة شىء واحد فى نهاية التحليل ·· اذ أن كلا منهما يتشابه فى انه يفضى الى انعدام الحركة وانهاء كل حياة خلاقة ·

ومن الخطأ أن نفكر فى أن الشك يمكن أن يكون موقفا عقليا خالصا · ويخدع الانسان نفسه حين يزعم أن شكه لا يرجع الى أسباب عاطفية وارادية ·· والشك الدائم الجامد الصلب ، أعنى الشك الذى استحال بعد تجربة عابرة ، الى عناد « دليل على افتقار الى الشخصية وعلى عجز عن الاختيار الحر » · وعندما ينكر الناس من ناحية أخرى ــ مثلا ــ وجود الله على أساس عدم اتفاق هذا الوجود مع وجود الشر والألم فى العالم ، فان هذا اللون من الشك لا يدل على وجهة نظر عقلية غير متحيزة ، بل يدل على حالة وجدانية من حالات العقل ·· على تجربة عاطفية تستحق عطفا عظيما ·

وأيا كان الأمر ، فهناك أيضا شهوات خليقة بأشد أنواع الاعتراض تمنع الانسان من الاعتراف بوجود الله ، تلك الشهوات التى تجعله يعتنق وجهة نظر الديدان بالنسبة لهذه الحياة ، وتجعله خاضعا لسلطان هذا العالم · والانسان ينكر الله لأن العالم « سيىء جدا » أو « حسن جدا » ، ولكننا فى كلتا الحالتين نواجه نوعا من الانكار أو الشك له طابع عاطفى أكثر من يكون ذا طابع عقلى ·

وكذلك اليقين عاطفى حدسى intuitive اذ يلعب العقل دورا ثانويا تماما فى تلك المواقف ، وليس ثمة شىء يمكن أن يكون حدساً عقليا خالصا ، اذ يجمع الحدس بين العنصرين العقلى والعاطفى فى صعيد واحد . ومهما يكن من أمر ، فاننى أوثر أن أخلع على العاطفة نفسها صفة متعالية .. والحق أنه من الممكن أن يتحدث الانسان عن عواطف متعالية ، وأن يفترض قبلية عاطفية للمعرفة ، وعلى الأخص ، للمعرفة الدينية .

لقد قضيت حياتى كلهآ أخوض فى مجاهدات الروح ، ولكننى لم أعبر الا نادرا عن هذه المجاهدات بأية طريقة مباشرة فى كتاباتى ، بل كنت أبرزها عادة فى العالم الخارجى ، وأظهرها فى صراعى مع الحركات الدينية والاجتماعية والسياسية المعادية لى .. وطريقتى فى التفكير والتعبير الذاتى لا تتضمن غير علامات قلائل من الشك والتردد وعدم اليقين ، فقد كنت أكتب وأتحدث دائما فى جسارة وحزم ، وكنت أفعل ذلك لأننى أدرك دائما أننى أقوم بعمل فيه اختيار وتقرير . فهل راودنى الشك قط ؟ لا أعتقد أن شكوكا نهائية حاسمة قد راودتنى فى أية فترة من فترات حياتى . ولقد كنت أدرك وأفهم وأنفذ الى الاعتراضات التى يمكن أن توجه الى عقائدى ومعتقداتى ، ولكنى كنت أحاول دائما أن أتغلب عليها من الداخل ، وعن طريق الابداع ، بينما لا أعبر فى الخارج الا عن نتائج تلك المحاولات فقط ، وقد عشت ، وما زلت أعيش ، فى شكوك ذات طابع دينى ، بيد أن هذه الشكوك أدخل فى باب الاستجابات الأخلاقية العاطفية كالنفور والغضب والاستنكار منها فى أى باب آخر . فلو أنكرت الله ، لكان من المحتمل أن يكون ذلك باسم الله . ولكننى أرفض من الوجهة العقلية البراهين التقليدية على وجود الله سواء أكانت أونطولوجية (وجودية) أم غائية أو من أى نوع آخر .

وأنا لا أستطيع أن أفكر فى الله على أنه « واجب الوجود necessary being » ، بل انى أرفض تطبيق مقولات الوجود على الله ، وأعتبرها تلفيقات اختلقها التفكير الانسانى المجرد . الله كائن ، وهو موجود ، ولا أستطيع أن أفكر فيه الا على هذا النحو ، أى وجوديا ورمزيا . ان علاقتى بالله وتفكيرى فيه فعلان وجوديان دراميان ، ومجاهدات الروح التى تشير الى هذه العلاقة تدخل ضمن يقينى عن الله . وأنا أعانى آلام الشك الدينى عندما أجد نفسى مرغما على قبول سلطان النزعة القطعية التقليدية الثابتة (الاستاتيكية) ، ذلك السلطان الذى يثيرنى ويدفعنى الى الاحتجاج . ويكفى أن أتأمل ما تنطوى عليه مثل هذه النزعة القطعية من زيف وبعد عن الحقيقة لكى يقوى ايمانى ، ويتبدد كل شك . وربما كان ذلك مخالفا لصنوف الشك المألوفة .. انه أبسط ،

ولكنه ليس اقل ايلاما بسبب هذه البساطة نفسها .. وما كنت أستطيع مطلقا مصالحة نفسى مع الهزيمة الباطنية ، بل كان عقلى متجها دائما نحو الانتصار الداخلى ، وان كنت لا أبآلى مطلقا الانتصار الخارجى ولم أبحث عنه قط .

ومن المحتمل ان شيئا من كتاباتى لم يعكس مدى المجاهدات الروحية التى اجتزتها وشدتها . والافصاح عن الايمان والاقتناع يميز حالة من حالات العقل والروح تكون فيها الاختلافات والمنازعات قد تكونت فعلا ، وتحقق للشخصية نوع من التكامل النسبى . أما الشك الدائم الملح والنزعة الشكية فيدلان من وجهة أخرى على الفساد والانحلال ، وأثرهما لا يختلف عن اثر الأحلام على الوعى الانسانى ، حيث تنطلق الصور المفككة غير المترابطة من العقل الباطن فتختل شخصية الانسان (هذا على الرغم من أن ثمة احلاما أخرى تصدر عن الوعى الأعلى لا عن الوعى الأدنى ، وهذه الأحلام لا تعرض تكامل الشخصية للخطر) . فاذا تغلب الشك تغلبا نهائيا استحالت الحياة الى حلم شاحب . والايمان وحده ، والفعل المتكامل للايمان لا الخضوع للقضايا القطعية هو الذى يمنع تحول العالم كله الى كابوس . وقد قاومت دائما ذوبان صورة الانسان ، وانتهيت الى معرفة أن الانسان بهذه المقاومة ذاتها اما أن ينهض واما أن يكبو وفقا لايمانه ، أو كفره . ونزعة الشك هى فى الحقيقة اضعاف للانسان ، وتحطيم له فى نهاية الأمر .

* * *

وقبل أن أعرض بعض آرائى عن الحب أو « الايروس » ، أحب أن أقول اننى لن أقدم للقارىء أوصافا لشئون الحب ، فمثل هذه الأوصاف جميعا تبعث على تقززى ، كما لا أنوى الحديث عن علاقاتى الحميمة بالنساء ، وخاصة أولئك القريبات منى ، واللواتى أدين لهن على وجه الخصوص . وقد ذكرت منذ البداية أن هذه الترجمة الذاتية لا تتعرض « للقصص الداخلية » . ومهما يكن من أمر فان ما سأقوله عن هذا الموضوع قائم على التجربة والملاحظة والحدس . وقد كان ينبغى أن يعتبرنى الناس فيلسوف الحب فى المقام الأول ، غير أن النزعات الأخلاقية (وأتحدث عمدا عن النزعات الأخلاقية لا المعايير الأخلاقية) كانت أقوى فى نفسى من نزعات الحب .. وربما أغرانى ما فى الزهد من حرية وجمال ، ذلك اننى أنتمى الى ذلك الصنف من الناس ، وربما الى ذلك الجيل من الروس ، الذين يعارضون بالحب مبادىء الأسرة والحياة المنزلية ، والذين ينظرون الى الحب على انه وحده الشىء الحقيقى الصحيح .

وقد أمعنت الفكر طويلا فى العلاقات التى تقوم بين الأنواع المتعددة من الحب وخاصة حب الشفقة ، وحب ـ الايروس ـ أى بين الحب باعتباره احسانا ، والحب باعتباره عاطفة •

ليس الجنس مجرد وظيفة من وظائف الجسم الانسانى ، بل انه يتخلل وجود الانسان باعتباره كلا ، وهذه الحقيقة يعترف بها علم النفس الحديث • والجنس فضلا عن ذلك دليل على الوضع الساقط للانسان ، بل حتى موقفه من الجنس يكشف عن شيء مخزٍ ومحقر لكرامته •• وهو يحاول دائما أن يسدل حجابا على هذه المسألة ، وأن ينسحب وأن يخفى • ولا يسعنى الا أن أسأل نفسى لماذا لا يخطر للانسان أن يحتفظ بشفقته فى الظلام ، ولكنه يميل الى حجب حقه للجنس والتمويه عنه • والفعل الجنسى فى حد ذاته قبيح شائن • ويقول ليوناردو دافنشى (وان كنت لا أتذكر كلماته بالضبط) ان العضو الجنسى بشع الى حد كان من الممكن معه أن ينتهى الجنس البشرى لولا أن الناس قد اختبلوا وركبتهم الحماقة • ولا مراء أن ثمة شيئا معيبا فى الحياة الجنسية • وقد كشف عصرنا ـ كما نجد ذلك معبرا عنه فى علم النفس الحديث وفى القصص ـ كشفا تاما عن انحطاط الانسان وانحلاله اللذين يجلبهما الجنس • وليس هذا ـ على أية حال ـ دليلا على فساد عصرنا فحسب ، بل دليلا على ادراكنا العميق للطبيعة البشرية وعلى اخلاصنا الشديد •

وقد الححت دائما على التمييز بين « الحب » eros والجنس ، اذ مهما يكن من تشابكهما ، الا انهما يظلان مختلفين اختلافا جوهريا • وحياة الجنس لا شخصية ونوعية ، وهى تحيل الانسان الى لعبة بين يدى العمليات البيولوجية والفسيولوجية ، ولا يتضمن الفعل الجنسى شيئا يمكن ان نعترف بأنه فردى أو فريد أو مفرد أو شخصى حتى ولو كان ذلك من بعيد ، بل على العكس انه علامة اندراج الانسان فى العالم الحيوانى • والجاذبية الجنسية لا تكشف بنفسها عن الصورة الشخصية لموضوع الجاذبية ، بل الأحرى انها تعتم تلك الصورة • الجنس أعمى لا وجه له ازاء وجه الانسان : ان فيه حقاً شيئا لا يعرف التمييز أو الرحمة ازاء الانسان ، شيئا هداما لشخصيته الانسانية الخاصة • واضفاء الفردية على الشهوة الجنسية معناه تحديد قوة الجنس • اما الحب فشخصى فردى ، وهو يميل نحو الشخص الفريد الذى لا يتكرر ولا يمكن أن يحل شخص آخر محله سواء أكان رجلا أم امرأة • الشهوة الجنسية تقبل الاستبدال فى يسر ، والاستبدال ـ فى الواقع ـ ممكن • أما « حب ـ الايروس » الشديد فانه لا يزيد من الشهوة الجنسية ، بل يضعفها • والمحب اقل حرصا على الارتواء الجنسى ، بل ربما آثر الامتناع عن ممارسته •

والحب الحقيقى يهتم دائما بالخاص لا بالعام ، يهتم بشيء ما ، أو بمعنى اصح بشخص ما ، لا باى شيء ، أو باى شخص • ونعترف بأن الحب ينشأ فى الجنس وله دلالة على الجنس ، ولكنه فى الوقت نفسه يمثل انتصارا على الجنس وفداء عنه • والحب تجربة جديدة تماما تكشف عن بعد متعال فى طابعه •

وطبيعة « الحب ـ ايروس » معقدة أشد التعقيد ، متناقضة كل التناقض ، وهى تخلق صراعات لا حصر لها فى الحياة •• وقد لاحظت أنا نفسى بعض تلك المتناقضات •• كان « الحب ـ ايروس » يغرينى ، ولكنه كان يفعل ما هو اقوى من ذلك ، كان يفزعنى• وكنت أقف دائماً الى جانب حرية الحب ، وقد دافعت عن هذه الحرية دفاعا حارا لا رحمة فيه ضد هؤلاء الذين ينكرونها ، وكنت أستشبع دائما النزعة الأخلاقية والقانونية فى هذه المسألة ، ولم أكن احتمل قط الدعوة الى الفضيلة • بيد ان هذا كان يبدو لى احيانا على انه اهتمام بالحرية أكثر منه اهتمام بالحب ، وكنت لا احفل اطلاقا عندما تروى على مسامعى علاقات الحب بين الناس • والحب الحقيقى زهرة نادرة كل الندرة • وقد أحسست باغراء التضحية بالحب من أجل الحرية ، مثلما أحسست باغراء التضحية بحرية الحب ذاتها • وربما كان هذا الاحساس الأخير أشد وأقوى • فالحب الذى نضحى به باسم الحرية أو الشفقة ونجعله خاضعا لهذين هو الحب وقد تعمق وسما • ولذلك كان الناس الذين يخضعون خضوعاً تاما لرحمة الحب يبدون فى نظرى مضحكين منفرين ، كما أن بعض مظاهر الحب كانت تغضبنى غضبا شديدا • ومع ذلك فان اعترافى بالصراع الشديد بين الحب والحرية ، والحب والشفقة لا يستبعد ادراكى للقيمة الكبرى لتجربة الحب التى نستطيع بالهامها الديونيزى أن نتعالى بالحياة الانسانية ونحررها من المعايير والقوانين الساحقة • ولا ينبغى لأحد أن يتنازل عن الحب ، عن حقه وحريته فى الحب باسم الواجب أو القانون ، أو الرأى العام ، أو المواضعات الاجتماعية ، ولكنه يستطيع ، بل ينبغى أن يتنازل عنه فى سبيل الشفقة أو الحرية •

ولا نكران فى أن الحب قد انحط وسفل وتدنس فى معناه حتى لقد أصبح من غير المحتمل أن ينطق المرء كلمة « الحب » ، ولابد من العثور على كلمات جديدة حتى تتجلى حقيقته مرة أخرى • ولا يمكن أن يكون الحب الصادق مسألة مصادفة أو ظروف ، بل انه ينشأ من التقاء كائنين انسانيين مصيرهما أن يلتقيا حتما • والواقع أن أغلب ما يسمى بالحب ، هو على ـ أية حال ـ نتيجة المصادفة التى كان من الممكن أن تصنع أى عدد من الارتباطات المختلفة

الأخرى ، التى تتحول الى ارتباطات لا رجعة فيها ·· وهذا يفسر العدد الهائل من الزيجات الفاشلة غير المناسبة ·

ولقد شعرت دائما بالسخط على تدخل المجتمع فى الحب الحقيقى بين الرجال والنساء ·· وكانت جميع القيود التى يفترضها المجتمع والمواصفات الاجتماعية على حق الحب تثير احتجاجى ·· الحب هو اكثر تجارب الحياة مساسا بالشخصية ، وينبغى الا يجرؤ المجتمع على التدخل فيه ·· وسبق أن تحدثت عن كراهيتى العميقة للمجتمع وتمردى عليه · وفى مكان آخر (فى كتاب « مصير الانسان » كتبت أنه عندما يكون ثمة حب بين كائنين انسانيين فان مجرد حضور شخص ثالث ـ حتى ولو كان هذا الحضور « لغويا » ـ أمر لا ضرورة له على الاطلاق ، وحينما كانت تروى لى قصة حب ذات طبيعة غير مشروعة ، كنت أجيب دائما بأن هذا لا يعنى أحدا ، سواء أكنت أنا أم غيرى، وخاصة هؤلاء الذين يتحدثون عنها ·· الحب بطبيعته نفسها لا شأن له بالقانون ، بل انه يتحدى القانون ، والحب الشرعى او القانونى حب قد مات · والشرعية صحيحة فقط على مستوى الحياة العادية ، ويجب أن يظل العالم جاهلا بحب كل انسان ، مادام الحب يتجاوز حدود هذا العالم · وما نسميه مؤسسة الزواج هى فى الواقع قطعة من انعدام الحياء تعرض للمجتمع ما ينبغى أن يبقى مستورا محروسا حراسة دقيقة من أعين الغرباء · واحالة الجنس والحب الى امور اجتماعية socialization من اكثر الظواهر مدعاة للتقزز فى التاريخ الانسانى · فهذه الاحالة تشوه الحياة وتسبب آلاما لا سبيل الى التعبير عنها ·· والأسرة فى جوهرها مسالة اجتماعية ، تخضع للقوانين نفسها التى تخضع لها الظواهر السياسية والاقتصادية ، وهى ترتبط حقا ارتباطا وثيقا بالنظام الاقتصادى للمجتمع ، وليست لها غير صلة ضئيلة بالحب سواء الجنسى أو الحقيقى ، وان كان من الممكن أن تكون مجالا لممارسة الصدقة أو الاحسان · وقد كانت الأسرة ـ وما زالت الى حد كبير ـ وسيلة للاستعباد ، وهى مؤسسة تخضع لتصاعد الدرجات وتقوم على السيطرة والخضوع · ونظام الزواج (لا الحب بالطبع) الذى تقوم عليه الأسرة شعار مشكوك فيه الى أبعد حد · والواقع أن الكنيسة المسيحية لا تعرف أى طقوس للزواج « خاصة بها » ، وانما هى لا تصنع اكثر من تاكيد نظام الزواج الوثنى واليهودى ، أعنى الطبيعى · بيد أن الزواج يعمل على احالة شىء ما احالة اجتماعية ، وهذا الشىء يروع بطبيعته من المجتمع بما فى ذلك الكنيســة باعتبارها مؤسسة اجتماعية خارجية · الحب هو ما ينبغى أن نعتــرف به على انه سر مقدس حقيقى mysterion ، هو سر لا يمنح نفسه لأى تثبيت او ترشيد اجتماعى ، وهذا الأمر مسئول الى حد كبير عن مأساة الحب فى سياق الحياة الاجتماعية ،

ما دمنا نرى أن المجتمع يعادى الحب دائما ، ويرفضه فى أغلب الأحيان • والمحب بالمعنى الصادق لهذه الكلمة عدو المجتمع ، ولم يدافع عن حق الحب وكرامته غير « جمهورية الآداب » غير أن دفاعها كان منصبا على الحب غير الاجتماعى • وكان أول من صنع ذلك شعراء البروفنسال المتجولون (التروبادور) ، وقد أسدى الأدب - ولا أعنى به طبعا ذلك التهريج الرخيص أو الكتب المثقلة بالجنس التى تغمر سوق الكتب - خدمة ذات دلالة دينية عميقة للبشرية • ولم يحاول اللاهوت الشرعى والأخلاق والرأى العام اخفاء عدائهم للأدب لهذا السبب ، أو على أحسن تقدير ، احتماله • وأحب أن أذكر فى هذا المقام انه على الرغم من اعجابى الشديد بتولستوى ، الا اننى استنكرت دائما الفكرة الكامنة وراء روايته « آنا كارينينا » ، واعتبرت دائما العلاقات الزوجية بين آنا وكارينين Karenin علاقة آثمة لا أخلاقية ، بينما كنت أعتقد فى نبل الحب القائم بين آنا « وفرونسكى » وسموه •

أما فيما يختص بمسألة الطلاق ، فقد اعتقدت دائما أن مجرد الطريقة التى يذكر بها عادة تفتح الأبواب للخيانة والشكليات • والمسألة الحقيقية ليست هى الحق فى الطلاق (وهو حق أعتقد أنه لا يقبل أى مناقشة) ، بل واجب الطلاق عندما ينتهى الحب • والاستمرار فى الزواج بلا حب عمل لا أخلاقى ، لأن الحب وحده - الحب الحقيقى وحب الشفقة - وهو وحده الذى يمكن أن يبرر العلاقات الانسانية • ومسألة الطلاق تتعقد تعقيدا كبيرا عندما يكون هناك أطفال يجب أن نحسب حسابهم ، ولكن حتى فى هذه الحالة يجب أن ننظر الى الحب على انه القيمة العليا ، لأن الافتقار الى الحب بين الوالدين له أصداء فاجعة على الأطفال •

ولست غير منتبه الى أن وجهات النظر هذه سوف توصم بأنها خطرة الى أبعد حد ، وانها ضد المجتمع • غير أن هذا لا يردعنى ولا يغرينى بالانصراف عن اعتقادى • وقد تكون ثمة عدالة فى احالة العلاقات الاقتصادية فى المجتمع احالة اجتماعية ، غير أن محاولة احالة الانسان نفسه الى شىء اجتماعى ، وهى عملية تميز بها فى الواقع مجرى التاريخ كله - هذه المحاولة مصدر للعبودية ومصدر لكل رجعية • وأنا فوق كل شىء ، عاجز عن الاعتراف بصحة تصور الخطر ، لا أعنى على أنه شىء جائر خليق بالملام •• اذ لا ينبغى على الانسان أن يحجم عن ركوب الخطر ، وأن يدع كلمة « لا أجرؤ » معلقة على كلمة « سأفعل » •

أن رواية « تشيرنشفسكى » (١) Chernishevsky « ماذا يجب عمله ؟ » لا قيمة لها من الوجهة الأدبية ، وأفكارها الفلسفية الأساسية مشوهة تبعث على الرثاء ، ومع ذلك فأنى أتفق معه تمام الاتفاق فيما يتعلق بالمسائل الأخلاقية والاجتماعية ،ولا أشعر نحوه فى هذا الصدد بغير الاعجاب ٠ أن « تشيرنشفسكى » على صواب عميق ، وهو يظهر انسانية صادقة فى دعوته الى حرية الروابط التى توحد بين الرجل والمرأة ، وفى استنكاره للمواصفات والنفاق والغيرة فى العلاقات الانسانية ٠ وتعرض روايته ـ التى لقيت تشنيعا واسع النطاق فى دوائر اليمين الرجعية ـ درجة ملحوظة من النقاء الأخلاقى ، ومن النزاهة والكرم ٠٠ ومما له دلالة فى هذا المقام أن « تشيرنشفسكى » نفسه كان يضمر عاطفة عميقة مؤثرة لزوجته ، ورسائله التى بعث بها اليها من السجن ، عبارة عن تسجيل لحب يندر وجوده فى سجلات التاريخ ، فقد كان هذا العدمى النفعى محبا حرا صادقا يمجد « الأنوثة الأبدية » تمجيداً لا تحفظ فيه ٠ وكان حبه يخلو تماما من كل تزمت أو بغضاء أو غيرة ٠٠ ولقد كنت أنظر أنا نفسى الى الحب المتزمت والى الغيرة على أنهما من أقبح البواعث فى الانسان التى تعمل على استعباده والحط من قيمته ٠ والحق أن الغيرة تتنافى مع الحرية ، لأنها كلها سيطرة ووقاحة وتملك ٠٠ وعلى هذا يجب الاعتراف بحق الحب دون تحفظ ، أما حق الغيرة فينبغى أن يتوقف ٠ وتكمن أهمية « تشيرنشفسكى » فى أنه أخذ على عاتقه هذه المهمة ، حتى ولو أنه قد بسط الأشياء ، وكان يفتقر الى الادراك النفسى الدقيق ٠

الغيرة هى استبداد الانسان بالانسان ٠٠ وغيرة المرأة أشد من ذلك استبدادا وأكثر مدعاة للنفور ٠ والنساء ـ على وجه الخصوص ـ أميل للشيطنة demonism ٠ فهناك نساء أبالسة ، وهى ظاهرة أشد ما تكون بشاعة ورعبا ٠٠ وثمة شىء يختلف اختلافا متميزا بين حب الرجل وحب المرأة ٠٠ حب الرجل جزئى ، بمعنى أنه لا يستوعب وجوده كله ، أما حب المرأة فيستغرق وجودها كله ، ومن ثم فانها قابلة لأن تضيع فى الحب ، وأن يستحوذ عليها ٠ ومن الممكن أن يكون حبها ساما خطرا مميتا ٠٠ انه ملىء بالقوة السحرية ، وهو طاغية لا يعرف الرحمة أو الشفقة ٠ وهو يتحول الى شىء لا يمكن احتماله بالنسبة للفارق الفاجع بين المرأة المعينة وبين صورتها المثالية التى يصنعها خيال الرجل ٠ وجمال المرأة خادع فى أغلب الأحيان ، وهى

---

(١) زعيم من زعماء الراديكالية الروسية وضع أسس النقد النفعى « المدنى » للأدب فى روسيا (ك٠ل) ٠

أميل الى الكذب من الرجل سواء فى مظهرها أو سلوكها أو كلماتها ٠٠ وكذبها على أية حال نوع من الدفاع عن النفس ، نتيجة لحرمانها من بعض الحقوق الأولية منذ سيادة النظام الأبوى على النظام الأمى ٠ وهذا حب « سولفج » عند « ابسن » ، أو حب « فيرونيك » Veronique عند « مارسل جوهاندو » Marcel Johandou وهذا هو الحب المخلص للآخرين والمخلص بهم فى الصفاء والوفاء الأبديين ٠

وقد كان يبدو لى دائما أن أصعب الأمور وأشدها تعذيبا للانسان ليس هو الحب غير المتبادل — كما يعتقد الكثيرون — بل الحب الذى تستحيل ما أسميته ٠ والغريب أننا فى معظم الحالات يستحيل علينا اقتسام الحب ٠ ومن ثم كان ذلك الشعور الغريب بالذنب الذى يملأ الناس فى مواجهة الحب ٠ وقد كانت علاقاتى الحميمة الودية مع النساء أكثر منها مع الرجال — على وجه الاجمال ، بل كان يبدو لى دائما (أو لعل هذا مجرد وهم) أن النساء يفهمننى أكثر من الرجال ٠٠ والحق أن للنساء قدرة ملحوظة على اثارة الأوهام، وعلى الظهور على غير حقيقتهن ٠ ولم أكن بأية حال محصنا ضد الفتنة الأنثوية ، ولكننى لم انغمس قط فيما يعرف بعقيدة « الأنوثة السرمدية » التى يعتز بها كثير من معاصرى فى أوائل القرن العشرين فى روسيا عندما كانت النسوة الجميلات اللواتى يصطنعن المظهر الدانتى (نسبة الى دانتى صاحب الكوميديا الالهية) أو المظهر الجوتى (نسبة الى جوته) بدعة شائعة بين الناس ، بل لقد فطنت فى نفسى الى كراهية ايجابية لما هو « أنثوى » وان لم أكن قط غير مكترث بها ٠ وكنت أشعر بأننى أميل خاصة الى رومانسية العصور الوسطى كما عبر عنها شعراء البروفانس المتجولون الذين كانوا أول من آمنوا بعظمة « الحب — ايروس » ونبله ٠ غير أن ادخال الحب فى الدين ، وفى علاقة الانسان بالله ، كان شيئا غريبا على كل الغرابة ٠٠ وكنت بالأحرى مجتذبا بتصور « يعقوب بيمه » Jacob Boehme عن الجنس الثالث androgyn الذى يمثل ارتقاء الطبيعة البشرية المتكاملة فوق التمايز الجنسى sexual differentiation،لم أكن أميل مطلقا الى نزعة « فلاديمير سولوفييف » Solovyevفى الحب ، وان كنت أعتبر مقاله عن « معنى الحب » واحدا من أهم الاسهامات فى مناقشة مشكلة الحب ٠ ولقد فطنت الى تناقض أساسى جدا بين آرائه التى عبر عنها فى مقاله القيم ، وبين تعاليمه عن « صوفيا » Sophia أو « حكمة الله » ٠ ومع ذلك ، فالأنوثة رمز للكون ، وهى بوصفها كذلك تمنح الرجل القوة للمشاركة فى الحياة الكونية للطبيعة ، انها تحقق له رجولته ما دامت الرجولة هي اتحاد الطبيعة والشخصية ٠

والجنس ينتمى الى النوع genus ، اما الحب فينتمى الى الشخصية • وقد ذكرت أكثر من مرة مقاومتى للنوع ، ولكل ماهو نوعى ، وهى مقاومة أساسية لا يمكن استئصالها من نفسى •• اننى أنفر من مجرد النظر الى المرأة الحبلى •• بيد اننى لا أفخر بذلك ، بل الواقع أن مثل هذه المقاومات تحزننى •• ذلك اننى لم ابغض الأطفال قط ، بل كنت شغوفا بأبناء أشقائى وشقيقاتى •• ولكننى لا يسعنى الا أن أرى فى انجاب الأطفال شيئا معاديا للشخصية ، شيئا يدل على تفكك الشخصية • وأنا متفق مع « كيركجور » Kierkegaard الذى أدرك ما فى الولادة من شر وإثم •• وثمة تعارض شديد بين الخلود الجنسى والخلود الشخصى ، وهذه حقيقة ناقشها « سولوفييف » ببصيرة نفاذة فى المقال المذكور آنفا•• بيد أننى كنت مدركا لشدة هذا التعارض حتى قبل قراءة مقال « سولوفييف » •• وقد يثير « الجنس » الشفقة ، ولكنه لا يستطيع أن يوحى الحب الحقيقى ، لأن الحب يتنافر مع الحياة الأسرية التى تنتسب الى الجنس • وما الحب الا انتصار الشخصية على النوع والجنس اللذين يخلوان من التفرد والفردية •• ولابد أن ينتصر الحب الحقيقى على الجنس • وعندما يكون الحب قويا فانه يتصف بعمق يمكن أن يصل الى اللانهائية ، اما الجنس فعلى العكس من ذلك يحمل فى طياته وصمة التناهى ، وهو يخفق اخفاقا فاجعا فى الوصول الى الاكتمال ، ومقدر عليه أن يبقى مجالا منعزلا منفصلا من الطبيعة الساقطة • وهذا الطابع اليائس للجنس هو المسئول الى حدما عن فزع الاحالة الذرية horror of atomization الذى يتسم به الرجل الحديث • ولكن على الانسان أن يحارب الاستقلال الذاتى للجنس •

ذكرت من قبل أن الحب طريقة تؤدى الى الخروج من الابتذال والارتفاع فوقه ، وهو حقا بالنسبة للكثيرين الطريق الوحيدة لمثل هذا التحرر ، غير أن هذه القوة المحررة للحب تنفق سريعا ، فلا يلبث أن يسقط الحب مرة أخرى تحت سطوة الابتذال • ان الحب يتضمن حافزا الى اللانهائى ، ولكنه يضع فى الوقت نفسه الحدود للانهائية • والحب صدع فى النظام الموضوعى الطبيعى الاجتماعى ، وانه لينفذ الى ما وراء الظواهر ليبلغ الجمال النموذجى فى الله ، ويعلن الانتصار على القبح الذى يسود عالمنا الساقط • ولا يستطيع الحب أن ينمو داخل حدود هذا العالم • ومن الحق ان آثاره قد تكون مدمرة مؤلمة اذا لم يتحد بالشفقة • والحب الذى يخلو من الشفقة حب مقيت منفر • غير أن العلاقة بين الحب الحقيقى وحب الشفقة agapetic علاقة معقدة جدا ، وتمثل سلسلة من المشكلات الصعبة • و « ايروس » عند أفلاطون ما زال محصورا فى مجال اللاشخصى ، وهو يشير الى تطلع الانسان الى مبدأ

الجمال الالهى الذى ينعكس فى العالم المخلوق ، أكثر من تطلعه الى التحقق العينى الشخصى . ومن ناحية أخرى يدل « الايروس » من وجهة النظر المسيحية على العلاقات الشخصية .. ومرة أخرى ، تمثل نزعة الحب الطبيعية النازعة الى وحدة الوجود عند « روزانوف » (١) Rozanov عودة الى التمجيد الوثنى للجنس الذى كان يدعو اليه معارضا بذلك آراء سولوفييف وآرائى معارضة صريحة . وقدكشف «سولوفييف» عن نزعته الشخصية personalism عندما أخذ فكرة « أفلاطون عن « الايروس » وفسرها بعبارات « الأنوثة الالهية السرمدية » التى يبدو أنها تحيل النساء المعينات الى أفكار خادعة كالظلال بالنسبة لفكرة مجردة . و « الايروس » يتيح الفرصة لظهور كل أنواع الأوهام الخلابة ، ويجعل من الصعب الفصل بين الواقعى وغير الواقعى .. ان حلم الحب الطبيعى للانسان كما بين ذلك « شاتوبريان Chateaubriand بيانا يدعو الى الاعجاب ، ومع ذلك فان « ايروس » ليس خيالا كله ، بل ان استحضاره للأبدية حقيقى تماما ، و « الذاكرة الأبدية » هى التى تحرك مياه « ليت » Lethe وتكفر عن ألم النسيان . والنسيان يفشى السر ، وهو عبء قد يزول بوساطة حلم أو رؤية .. وهناك رؤى يعيش فيها الانسان مرة أخرى اللحظات العظيمة – وان تكن منعزلة منسية – لالهام الحب ، غير أن هذه الرؤى لا سبيل الى التعبير عنها ، ولم أستطع مطلقا أن أنقل مثل هذه التجارب الى الآخرين .

يضرب الحب بجذوره عميقا فى مأساة الحياة ، وليس من قبيل المصادفة أن يرتبط الحب ارتباطا وثيقا بالموت . وهناك – بالمثل – مأساة فى الصراع بين الحب والابداع ، وهو موضوع عالجه « إبسن » بطريقة ملحوظة فى مسرحياته .. وقد كان يبدو لى من الغريب دائما أن يتحدث الناس عن ملذات الحب ، فلو وقفنا موقفا أعمق من الحياة ، لكان أكثر طبيعة أن نتحدث عما فى الحب من مأساة وقلق . وعندما أرى محبين سعيدين أعانى ألما قاتلا ، اذ أعلم أن آمال الحب لا تتحقق أبدا فى الواقع الفعلى . وقد يلتقى الانسان عرضا بحياة أسرية سعيدة نسبيا ، غير أن هذه هى سعادة الابتذال .. ولو كنت رومانسيا ، لكانت رومانسيتى خالية من الأوهام جميعا ومن الامكانيات المشرقة ، ومن الميل الى احالة الواقع الراهن الى مثل عليا ، وبالاختصار ، رومانسية تعلم أن الحياة « لارومانسية » وواقعية كلها .

---

(١) كاتب روسى وداعية ، كان يدعو الى دين طبيعى للجنس والتناسل . وكان معاصرا « لبردياتف » ، وان كان اكبر منه سنا (ك.ل) .

الفصل الثالث

الانقلاب الأول ·· البحث عن معنى الحياة

هناك صفة ايقاعية فى حياة كل انسان ، وهى صفة جربتها فى حياتى الخاصة · ويصدر تعاقب اللحظات والمراحل الزمانية كما يحياها الانسان عن عدم قدرته على احتواء الحياة بتمامها والبقاء على ذرى الالهام · وقد عرفت مراحل من الالهام العظيم كادت تصل الى حد النشوة ، ولكننى عرفت أيضا عهودا من الغباء وركود العقل والقلب عندما تخبو شعلة الابداع ، وأشعر بأننى محروم من القوة الروحية ·

وكلما أرسلت بصرى الى الطريق الروحى الذى سلكته ، لم أميز أية تجربة أستطيع أن أصفها حقا بأنها « انقلاب » ، ولست أذكر أية لحظة فى حياتى عانيت فيها أزمة حاسمة ، ربما لأن حياتى كلها كانت سلسلة من الأزمات المتصلة · ويلعب « الانقلاب » Conversion عند الأرثوذكس دورا أهم بكثير مما يلعبه عند الكاثوليك الرومان والبروتستانت، والمسيحيون الغربيون عرضة للمبالغة فى أهميته · ونحن حتى لو عانيناه ، فاننا نحجم عن سحبه الى النور ، أو اعلانه من أسطح المنازل ·· وسأتحدث عن تجربتى الدينية فى مرحلة أخرى من هذه الترجمة الذاتية ، ولكن أحب الآن أن أقف عند نقطة خاصة كانت سببا فى حادثة هامة من أحداث حياتى الباطنية ·

اننى لا أعى كثيرا من ذكريات الطفولة عن المعتقدات والشعائر الأرثوذكسية التقليدية ، كما لم تتح لى أية فرصة للخروج عن الايمان التقليدى أو العودة اليه · وهذه الحقيقة وهى الذكريات لم تبق فى ذاكرتى ، واننى لم أعش طفولتى فى بيئة دينية ارثوذكسية ، هذه الحقيقة كانت لهادلالة هائلة فى تكوينى الروحى كله · وأنا أرى دافعين أوليين فى حياة الانسان الباطنة : البحث عن المعنى ، والبحث عن الأبدى · وقد سبق بحثى عن المعنى بحثى عن الله ، وكان بحثى عن الأبدى سابق على بحثى عن الخلاص · وذات مرة ،

بينا كنت على أعتاب المراهقة هزتنى هذه الفكرة فى أعماق نفسى ، ألا وهى أنه حتى ولو لم يكن هناك مثل هذا الشيء الذى أسميه معنى الحياة ، فان مجرد البحث عن هذا المعنى كفيل بأن يجعل الحياة ذات دلالة ومعنى ، ولهذا البحث أردت متلهفا أن أكرس حياتى · وهذا التبصـــر يمثل ثورة باطنـــة حقيقية غيرت نظرتى كلها ·· وأعقب ذلك عهد من الرؤية العظيمة والالهام : بل لقد كتبت تسجيلا لهذا التغيير الباطنى الذى طرأ على نفسى ، بيد أن هذا المخطوط انتزع منى عندما ألقى القبض على لأول مرة فى روسـيا ، ولم تقع عليه عينى بعد ذلك مرة ثانية · وانى لأحب الآن أن أقرأ ما كتبت حينذاك حتى أعيش ثانية وألتقط مرة أخرى أول اقتحام لسر الحياة · كان ذلــك بلا شك ضربا من الانقلاب ـ ولعله أقوى انقلاب ، أو ربما كان الانقلاب الوحيد فى حياتى ·· كان انقلاب للبحث عن الحق ، وهو بحث يقتضى هو نفسه الايمان بوجود الحق ·· بحث عن الحق والمعنى يصطرع مع الواقع المبتذل الخالى من المعنى · بيد أن هذا التغيير لم يكن دليلا على انقلاب نحو أى مذهب دينى سواء أكان أرثوذكسيا أم حتى مسيحيا بوجه عام ·· كان قبل أى شيء آخر عودة الى التوجيه نحو الروح والروحية ·

ومنذ ذلك الحين كنت مقتنعا بأنه لا وجود لدين فوق الحق (وهى عبارة قد استعملت وأسيء استعمالها كثيرا فى الثيوصــوفية) ، وهــذا الادراك لتفوق الحق قد وضع طابعا مستديما على تطورى الروحى والعقلى · وهذه « النزعة الروحية » spiritualism اصبحت الأســاس والاطار لكــل موقفى الفلسفى ، وربما لوجودى نفسه · وعلى أية حال ، فان كلمة النزعة الروحية كما أفهمها لا تشير الى أية مدرسة فلسفية أو صوفية أو غيبية فى التفكير ، بل هى مجرد ادراك وجودى ، وانتهيت الى الاعتقاد بالواقع الأولى للروح على مستوى أعمق من مجال التفكير النظرى ويسمو عليه ، لأن هذا المجال الأخير له طبيعة ثانوية غير أصيلة وينتمى الى العالم الخارجى « الرمزى » « المنعكس » · ولم أهجر مطلقــا هــذا الموقف الأســاسى حتى فى مرحلتى الماركسية ، ولا أعتقد أن أولئك الذين يعتنقون هذا الاعتقاد « الروحــى » الأساسى يمكن أن يكــونوا ماديين تمام المادية ، أو يكــونوا قــابلين لأيــة أرثوذكسية ، دينية أو غير دينية · وكانت تصدمنى دائما هذه الحقيقة وهى أن الماديين اذا أصــبحوا « مرتدين » فانهم يتكيفون فى يســـر وطواعيه مع الأرثوذكسية الدينية · ووجهة النظر الروحية ترى أن الروح والحرية شيء واحد ، بينما ينظر المادى الى الروح على أنها حقيقة خارجية تفرض السلطة وترغم على الاعتراف بها ، وذلك لأنه لا يستطيع الاعتراف بالواقع الأولى للروح · أما صاحب النزعة الروحية ، فانه لا يجتاز مطلقا ـ بخلاف صاحب

النزعة المادية ــ أى انقلاب اعترافى عنيف ، وهو لا يتعدد ولا يتأثر ولا يهتز من الخارج بأية طريقة ، وحركته دائما حركة من الداخل الى الخارج • وتتضمن الأرثوذكسية الدينية الآن ميلا قويا الى المادية بلا مراء ، وهذا هو مصدر عنصر السلطة فى الحياة الدينية • ولهذا ينبغى على المرء أن يعزو ــ خلافا للرأى الشائع ــ دلالة ثورية للروح ، ودلالة رجعية للمادة •

ولقد كنت دائما أقل تألما بالمسائل اللاهوتية والقطعية والكنسية أو بالمسائل ذات الطابع الأكاديمى الفلسفى منى بالمشكلات التى تتعلق بمعنى الحياة والحرية ومصير الانسان والأبدية والألم والشر • وكان أبطال روايات تولستوى ودوستويفسكى أعظم أهمية عندى من مدارس الفكر اللاهوتية والفلسفية ، وعلى أيدى هؤلاء الأبطال تلقيت المسيحية •

ولقد اكتسبت بفضل اعادة توجيهى الروحى قوة باطنة جديدة وتغيرت حياتى كلها وأحسست كأنما تحملنى النشوة الروحية على أجنحتها • لقد أحسست الاستقرار الروحى ، الأساس الروحى الوطيد للحياة ، لا لأننى رضيت بحقيقة خاصة أو بحقائق خاصة ، أو باعتقاد ما ، بل بفضل قرار اتخذته وبه نذرت حياتى للبحث عن الحق والمعنى • وأن تبحث عن الحق معناه أنك قد وجدته فعلا ، وأن تصل الى اعتقاد يتعلق بمعنى الحياة معناه أنك وصلت الى حالة من الوجود مشحونة بذلك المعنى • وقد كان القديس أغسطين وبسكال ــ كل بطريقته الخاصة ــ شاهدين على هذه التجربة المتناقضة ظاهريا •

انتهيت اذن الى اعتقاد بالمعنى الأسمى للحياة ، غير أن هذا الاعتقاد لم يكن ينطوى على شىء قطعى (دجماطيقى) • لقد أقدمت على فعل من أفعال الايمان بقوة الروح ، وهذا الايمان لم يتخل عنى مطلقا • وكانت الأشكال الخارجية « الرمزية » التى يصطنعها الروح فى أفعاله الخاصة بتحديد المصير ، هى وحدها عرضة للتغير والتحول والانقلاب ، وكانت تواكبها رغبة فى الاصلاح الأخلاقى والتطهير ، بل واتجاه الى الزهد ، وانتهيت الى الشعور باستقلال الروح عن جميع الأشياء التى قد تجد فيها تعبيرا عنها ، وصرت افهم معنى التضحية وتسليم الذات من أجل حرية الروح التى لا يشوبها دنس • ومنذ ذلك الحين اردت مرارا أن أعيد اقتناص هذه التجربة الأولى ، لأن الانسان هنا ، وهنا فحسب ، يستطيع أن يبلغ قمة الاخلاص والنفاذ الى معنى الوجود المتجدد دائما وادراكه •

ولقد اتيحت لى الفرصة من قبل لأذكر أننى لم أعرف قط التدرج

والاستمرار فى الحياة الروحية وفى التطور ، وكان الحق يبدو لى واقعا يتدخل دائما فى عملية الحياة وينفذ منها ، وكان كل كشف عن الحق فى حياتى تجديدا ، وحدثا فريدا لا يتكرر . وقد يلفت نظرى أحيانا كتاب قديم معروف عند مطالعته للمرة الثانية فيبدو لى كأنه شىء جديد ، وأستجيب له فى كل مرة بطريقة جديدة . وكانت التجربة الخلاقة الأولى وحدها هى التى تثير اهتمامى ، وربما أحالتنا العاطفة الخلاقة الى هشيم ، بيد أن كلمات الحق تنتج من بئر الحياة الخلاق ، فتحطم بما فيها من طابع مباشر قوانين التطور والنمو المزعوم وأشكالهما جميعا ، وتشير لا الى نظام الضرورة ، بل الى نظام الحرية .

وربما ترك هذا طابعه على أسلوبى فى التفكير ، وهو أسلوب حدسى intuitive يضرب الأمثال aphoristic أكثر من أن يكون عقليا منظما ، فلست أستطيع أن أعرض شيئا أو أبرهن عليه بطريقة القياس ، ولست أومن بالحاجة الى أن أفعل ذلك . وأنا ـ مثلا ـ أعجب بـ « كانت » اعجابا عظيما وأعتبره أعظم الفلاسفة جميعا . بيد أن تفكيره كان يصدمنى باعتباره مثقلا بحواشى المناقشات الأكاديمية المدرسية ، وبالبراهين العويصة المبهمة التى لا تفيد الا فى تصفيد عبقريته واخفائها . ومن الأمور التى تكاد تكون مضحكة تصور أن اسبنوزا قد ادعى بلوغ المعرفة « بطريقة هندسية » modo geometrico . والواقع أن الأصل الحقيقى لفلسفة اسبينوزا ـ أو أية فلسفة أخرى ـ أصل حدسى .. أما الادعاءات الخاصة بوضع فلسفة « خالصة » ، محايدة و « علمية » ، فمجرد أحبولة وضلال . وليس الاثبات العقلى صفة أصيلة من صفات الادراك الفلسفى ، بل انه فى نهاية الأمر خارج عن الموضوع ، وحيلة انتهازية يصطنعها الفيلسوف ازاء من يأمل اقناعهم ببصيرته . أما ما يحمل الاقتناع ، فليس هو الجدل النظرى على كل حال ، بل البصيرة الأصلية .. والاثبات العقلى ظاهرة اجتماعية يحاول بها الانسان أن يسقط رؤيته فى مجال ما هو شائع اجتماعيا .

أما من جانبى ، فلم أجد وسيلة لنقل تفكيرى الى الآخرين الا بدعوتهم لمشاطرة حدسى ، أى دون محاولة لارغامهم على الاعتراف بقضاياى الفلسفية عن طريق البرهان العقلى . ولكن ، على الرغم من أن أسلوبى وطريقتى فى الكتابة قد يكونان متقطعين مفككين ، فأن تفكيرى ليس ذلك ، بل على العكس ينبع من رؤية فريدة شاملة ، ويرمى الى الكشف عن المعنى المتكامل المكمل ، وأعتقد حقا أن أسلوب الأمثال والحكم أكثر تعبيرا عن فلسفة الكل من المذاهب العقلية . فالمثل أو الحكمة عبارة عن عالم أصغر يعكس العالم الأكبر . ولست

أعبأ بلطآئف الفلسفة الأكاديمية التى ينظر اليها على أنها مشكلات ، وهى ليست فى الواقع غير مجرد مماحكات • ولا أعترف ـ بمعنى ما ـ بأى تعدد فى المشكلات ، بل أعرف مشكلة واحدةتضم تلك المشكلات جميعا • والنقص الكبير الذى أعانيه باعتبارى كاتبا هو أننى لست ضاربا للأمثال والحكم بما فيه الكفاية ، وبالتالى فان طريقتى ليست متسقة متجانسة •

لقد اعترفت من قبل بأننى لا أعبأ بانتاجى الفكرى المكتوب ، أو بكماله الأدبى ، ذلك أن رغبتى الوحيدة هى أن أعبر عن نفسى ، مهما يكن فى هذا التعبير من نقص ، وأن أشهد العالم على الحقيقة كما رأيتها • وبين الوقت الذى حدثت فيه يقظتى الروحية والوقت الحالى لا أستطيع أن أتتبع شيئا يمكن أن يوصف بأنه نمو منظم يسير على مراحل متميزة من النماء وينتج عنه تقدم ما : كل ما أستطيع أن أميزه هو سلسلة من التنويرات والأزمات التى اتضحت لى فى حدسيات لا أستطيع ـ ولا أود حقا ـ أن أصوغها فى تصـــور معادل لها على الاطلاق • وما انكشف لى ذات مرة فى الماضى ما زال باقيا معى ، حاضرا هنا والآن بكل ما فى التجربة الأصلية من نضارة • والماضى بوصفه مجرد ماض شىء لا واقعى ، ولا يكون واقعيا الا باعتباره حاضرا •

شرعت ـ بعد ذلك التغيير الباطنى الذى تحدثت عنه آنفا ـ فى الاهتمام بالفلسفة اهتماما شديدا ، فكنت ألتهم الكتب الفلسفية ، وكان كل كتاب منها يحملنى الى حالات من الوجد لا سبيل الى التعبير عنها • وكنت قد قرأت كثيرا من الكتب قبل ذلك ، بيد أن قراءتى لم تكن قط بمثل هذه الشدة وهذا التركيز • وأيا كان الأمر ، فان هذه الكتب نبهتنى فحسب ، اذ كان لتفكيرى منبع آخر ، وكان يصدر عن تجربة أولية ليس من الممكن اكتسابها عن طريق الدراسة والمطالعة • ان قراءة الكتب تثير التفكير ، غير أن استجاباتى لما أقرأ كانت سلبية فى أغلب الأحيان ، ومختلفة عن الاستجابات التى يهدف اليها الكاتب • وكان المفتاح الى تفكير الآخرين هو بصيرتى الذاتية ، وهكذا صار ما وجدته وقدرته فى تفكيرهم تجربة فى طريقى الروحى والعقلى الخاص • ومن الناس من يوهم نفسه فيعتقد أن المعرفة معناها أن ينسلخ الانسان من جلده • والحق أن المعرفة اقتراب من الحق يتم عن طريق التجربة الشخصية ، انها عملية من الداخل الى الخارج ، من الذات الى « غير الذات » non-self والانسان لا يقدر على المعرفة والفهم الا لأنه كون أصغر microcosmos ونقطة يتلاقى عندها العالم بأسره ، وعلى الرغم من أنه لا يزيد عن ذرة فى المكان والزمان ، فان لمصيره دلالة وقيمة شاملتين •

ومن الخطر ودواعي الضجر معا أن يطبق الانسان على نفسه نظام البطاقات ، ولكنني أحب أن أؤكد سيادة « الرجل المتصوف » homo mysticus في نفسي على « الرجل الديني » homo religiosus ، وهذا على ما أعتقد قد ترك طابعه على نظرتي الفلسفية كلها . اذ كان يرافقني اقتناع صوفي أصيل منذ لحظة «انقلابي» ، بينما لم يلعب العنصر الديني والاعتقادي خاصة غير دور ثانوي .. واكهارت ، ويعقوب بيمه ، وأنجيلوس سيلزيوس أقرب رحما لي من كثير من علماء الكنيسة . وكان التصوف مفهوما على أنه طريقة من المعرفة أكثر من أن يكون نتاجا كاملا يثير خيالي دائما . وأنا أومن بوجود تجربة صوفية شاملة ، وروحية كلية لايمكن وصفها في حدود الاختلافات الطائفية في الأنماط المتعددة للتصوف الذي وان كان يسعى الى الهدف نفسه ، الا أنه يتطور وفقا لخطوط مختلفة . وهناك عمق أكبر ، وبصيرة أنفذ في الأنماط الأدرية (الغنوصية) و « السرية » esoteric من التصوف أكثر مما هو موجود في ذلك النوع الذي اعتمدته الكنيسة رسميا ، ولا تعتريه أية شبهة من الكفر ، أما التصوف الأرثوذكسي فقد خلط بينه وبين الزهد في كثير من الأحيان ، ومن ثم فقد طابعه الصوفي الأصيل .

لقد تحدثت آنفا عن الدين العظيم الذي أدين به لكتاب من أمثال « تولستوي » و « دوستويفسكي » ، فقد أفاد أثرهما علي في تفتيح عيني باعادة كشف الحقيقة التي تخص الانسان ، واستطاع « تولستوي » ـ على الرغم من عمليات البتر الذاتية التي قام بها أخيرا في هذا المجال ـ أن يغرس في نفسي ابان صباي المبكر وعيا عميقا بوطني الأم . وبين الفلاسفة ، أدين بالكثير لـ « شوبنهاور » الذي أقنعني وأكد لي احساسي بآلام الوجود الانساني التي لا سبيل الى تخفيفها . وكان اعتقاده بأن عالم الظواهر ، وبيئة الانسان التجريبية ليسا من الواقع في شيء ، كان هذا الاعتقاد قريبا من اعتقادي الى حد ما . وعلى الرغم من أنني لم أستطع الاتفاق مع تصوره عن العملية التطورية باعتبارها التعبير الذاتي عن ارادة عمياء ، فقد اتفقت معه في نزعته الارادية العامة voluntarism . ولقد كانت مؤلفات هرمان أولندبرج Hermann Oldenberg وماكس موللر Max Müller الكلاسيكية عن البوذية وكذلك كتاب الأمير س. تروبتسكوي Trubetsskoy عن المذاهب الميتافيزيقية التي ظهرت في اليونان القديمة ، من أولى مؤلفات هذا النوع التي أثرت علي . وكذلك أنعشني « كارلايل Carlyle ـ النبي لا الواعظ ـ انتعاشا كبيرا ، وأذكر أنني كنت منتشيا تمام النشوة أثناء قراءتي لكتابه « الأبطال ، وعبادة الأبطال » . ولقد كان « عظماء الرجال » موضع اعجابي دائما ، وان لم أجد أبطالي في صفوف الغزاة والساسة . ولم ينقطع اعجابي بالعباقرة

بعد أن أصبحت معاديا لهم من الناحية المذهبية (الايديولوجية) ، وهذه هى حالتى مثلا مع « ماركس » · وقد اشتريت كتاب بافلنكوف Pavlenkov « حياة العظماء » وطالعته في حماسة ، وكان ظهور هذا الكتاب فى أواخر العقد الثامن من القرن التاسع عشر كجزء من سلسلة أنيقة غير منتظمة ، ولم يكن اهتمامى منصبا على الحيل والطرائف التى يحفل بها سلوك العظماء ، قدر انصبابه على المصير الانسانى ، وعلى كفاحهم للتحرر من قيود البيئة · وقلت لنفسى أن من يكن على وعى بمصيره وبما ينطوى عليه من المأساة هو وحده الذى تتجسد فيه الانسانية الحقة · وما زلت مولعا حتى الآن بقراءة السير ، وان كنت أقل ميلا عما اعتدت أن أكون من قبل ، للنظر الى التاريخ باعتباره موكبا من الشخصيات المتالقة الفريدة · والواقع اننى أشعر ببغض ايجابى لرجال الدولة والسياسيين الذين يعرفهم التاريخ على انهم عظماء ، وعظمتهم فى الواقع موضع شك · واذا كانت ثمة عظمة فيهم ، فانها تتحطم عادة وتنحرف نتيجة للوظائف التى ينتظر منهم المجتمع أداءها · وقد حيرنى دائما أن يتمكن الانسان من أن يخلع على القوة ، وخاصة القوة الاجتماعية ، وعلى ممارسة القوة دلالة مقدسة ، بل الهية · وكان اهتمامى الحار بالعدالة الاجتماعية والمسئولية الاجتماعية يتعارض تعارضا عجيبا مع ميلى الواضح الى الثنائية (أطلق البعض على هذا الاتجاه اسم الطائفية sectarianism) والى الفوضوية الميتافيزيقية ·

وكتابى المفضلون هم أنبياء العهد القديم وسفر أيوب ، وكتاب المأساة اليونانية ، وسرفانتس ، وشكسبير ، وجيته ، وبايرون ، وهوفمان ، وديكنز ، وبلزاك · وأحببت ايضا فيكتور هوجو ، كما أحببت فوقهم جميعا ابسن وبودلير · ولست أدعى – على أية حال – وجود أى اتساق فى هذا الاختيار · واننى لأستمتع ايضا – بطريقة عتيقة الطراز الى حد ما – بروايات وولتر سكوت واسكندر دوما · أما الكتاب الروس – خلاف دوستويفسكى وتولستوى – فان لرمنتوف Lermontov يعد أقرب الى من أى كاتب آخر ، اذ كنت أشاطره رؤيته عن « أرض بعيدة » ، واحتقاره وسخطه على الغوغاء الذين يحيطون به ، وكذلك «واقعيته » الأخيرة · وقد ساندنى الأدب الروسى

ككل ــ روحيا وعقليا ــ طيلة حياتى كلها • أما « بوشكين » فكان لسبب ما أقلهم اجتذابا لى ، ولم أســــتطع تقديره الا فى فترة متأخرة جــــدا • وانى لأضع تيوتشف Tyutchev أحد الشعراء الميتافيزيقيين المقنعين القلائل ، والذى استطاع فضلا عن ذلك أن ينجح فى الجمع بين العنصرين الكلاسيكى والرومانسى ــ وأن يعلو عليهما معا ــ أضعه فى مرتبة عالية • ومن ناحية أخرى كانت الخطابة والبلاغة الأدبية منفرة لى تماما ، ولهذا لم أستطع مثلا أن أعجب بشيشرون قط • غير أن هذه الاهتمامات والمشاغل الأدبية كانت مرتبطة جميعا بقلق أولى فى البحث عن الحق والمعنى ، وبرغبة عميقة الجذور ، أيا كان عجزها ، لتغيير العالم وفقا لتلك الحقيقة وذلك المعنى • ولم يثير حبى الحار المبكر للفلسفة أى مطامع فى نفسى نحو مستقبل أكاديمى •• فما كنت أستسيغ مطلقا أن أصبح شخصية جماهيرية أو « مدرسا » أو « أستاذا » ، كل ما كنت أشتهيه هو أن أمضى فى الحياة التى اخترتها للبحث عن الحق ، وألا أكون أكثر أو أقل من نفسى ، مبتعدا قدر الامكان عن معارك الحياة •• والواقع أن الفلسفة ألقت بى فى معمعان الحياة ، وفى مضطرب الثورة ، بعيدا عن أى برج عاجى ممكن • ومن الحق أن مشاركتى فى الحركة الثورية قرب نهاية القرن الماضى وبداية هذا القرن ، تلك الحركة التى صاحبها تجديد روحى فى روسيا ، أثبتت مشــاركتى فى هذه الحركة أنها خميرة لتطورى الروحى الخاص •

الفصـــل الرابع

مجال المعرفة الفلسفية • المنابع الفلسفية •
الوجودية والرومانسية

عندما اتخذت من الفلسفة آخر الأمر عملى فى الحياة ، دخلت ميدانا يزخر بكنوز يعجز عنها التعبير ، لا بالوان « العزاء » كما يعتقد البعض ، وانما هو ميدان يختلف كل الاختلاف عن عالم الابتذال التافه الرتيب •• انه ــ فوق كل شىء ــ عالم لا سلطان فيه لقيود الزمان والمكان وتحديداتهما • وما أن ادركت رسالتى كفيلسوف ــ كما ذكرت ذلك آنفا ــ حتى لم تعد الشكوك تراودنى مطلقا فى صحة هذه الرسالة • وكان تصورى لهذه الرسالة شبيها من بعض الوجوه بتصور « ماركس » الذى أعلنه فى « رسالته عن فويرباخ » بأن الفلسفة كانت تهتم فى الماضى بمعرفة الحياة ، أما الآن فقد حان الوقت لتغيير الحياة • كنت أتصور رسالتى اذن على أنها رسالة خلاقة أولا ، رسالة تدفعنى الى تحقيق مهمة خلاقة • وتبعاً لذلك كان همى الفلسفى الأساسى ذا طابع انثروبولوجى ، والعدد الأكبر من كتبى مخصص لمشكلات الأخلاق والتاريخ وميتافيزيقيا الحرية • وانى لأشــترك فى كثير من الجوانب مع الفيلســوف الالمانى « فرانتس بادر Franz Baader الذى وضع الحرية أساسا لكل بحث فلسفى ، والذى تصور الفيلسوف شخصا يعيش فى موضوعه ، أو بالأحرى هو من يجعل موضوعه يعيش فيه ، أو هو من يخلق هذا الموضوع فى حرية • وكان أول دخولى الى الفلسفة عن طريق المثالية الالمانية ، كما هو الحال بالنسبة لكثير من الفلاسفة المعاصرين لى فى روسيا ، ولا سيما عن طريق « نقد العقل الخالص » لكانت ، و « ظاهريايته العقل » لهيجل ، وهما الكتابان الفلســفيان الوحيدان اللذان وجدتهما فى مكتبة أبى ، تلك المكتبة التى كانت تحتل فيها كتب التاريخ مكانا طاغيا • وفى هذه المكتبة اكتشفت أيضا مؤلفات « فولتير » مجلدة تجليدا أنيقا فاهتممت اهتماما شديدا بأفكاره عن نوع جديد من التاريخ ، أطلق عليه اسم فلسفة التاريخ •• وعلى الرغم من أننى لم أكن من أتباع فولتير يوما ما ، الا أننى كنت أشاطره اهتمامه بتحرير الانسان ، بل أشاطره أيضا ثورته على

الدين · وظل موقفه الجدلي نحو الحياة ـ أيا كان عنفه وتحيزه ـ ملازما لي طيلة حياتي ··

وانى لأتذكر بمناسبة تافهة نوعا ما بصدد تعرفي لأول مرة على كتابات « هيجل» · كنت آنذاك أغازل احدى بنات عمي ، وكانت تحتفظ « بألبوم » ذي جلده من المخمل الأزرق تنسخ فيه الاشعار ، ولم أجد ما أكتبه في هذا «الالبوم» أفضل من فقرات انتزعتها من كتاب هيجل «علم الظواهر » Phenomenology والغريب أنها لم تعتبرني مخبولا ، كما كنت بلا شك حينذاك · ولقد ذكرت آنفا الى أي مدى عزلتني اهتماماتي العقلية والفلسفية عن زملائي في المدرسة الحربية وفي غـــيرها ·

وسرعان ما اســـتطعت أن أهتدي الى طريقي في مجال الاتجاهات العقلية ومدارس الفكر الفلسفية ، وان أفهم علاقة كل منهما بالأخرى ، وأن أنظر اليها نظرة سليمة تضع كل مدرســـة في مكانها تماما · وكان تفكيري الخاص يتجه اتجاها متزايدا نحو مشكلات الأخلاق ، وسيطرة فكرة « ما يجب أن يكون » على فكرة « ما هو كائن » ، وان كنت أستطيع أن أزعم في الوقت نفسه بأنني تحاشيت في سلام ـ بل وفضحت حقا ـ النزعة الاخلاقية وفلسفة الســـنن الاخلاقية ودينها ·

كان تفكيري ينبع عن وجدان ، ووجهة نظر ، وعلى هذا النحو كنت أكتب كتبي ·· كانت الارادة تتحكم في العقل وفي الخيال الفلسفي ·· ولابد أن نعلق أهمية حاسمة في مجال المعرفة على العنصر الوجداني ، أيا كانت صعوبة العثور على هذا العنصر في القضايا العقلية ـ وكذلك ينبغي أن نعلق هذه الأهمية على القبول أو الرفض العاطفيين لهذه الفكرة أو تلك ، أو هذه الواقعة أو ذاك السلوك · وأعتقد أن قيمة البصيرة العقلية تتناسب مع مدى ادراكنا للصراع والأضداد التي لا حل لها ، وبالتالي للشر واللامعقولية · وهكذا كان يبدو لي أشد مذاهب الواحدية اقناعا وقوة مجرد قطعة من البساطة والسذاجة · وفلسفة « هيجل » الواحدية تنقذها رؤية الديالكتيك وصراع الأضداد في قلب الوجود ، وتنبثق عادة أكثر النزعات العقلية تطرفا عن عاطفة حارة ، ما دامت ترجع في نهاية التحليل الى حدس أصيل ينبغي تفسيره في حدود عاطفية وعقلية على الســـواء · والأشخاص ـ وخاصة الفلاسفة ـ الذين يرتبطون بأبحاث عقلية ، أميل الى الاعتقاد بأن العالم يتألف من اختلاف عقولهم وحدها ، وأنه تجسيد لتبريراتهم العقلية rationalizations · والواقع أن العالم تمسكه العواطف وتمزقه في الوقت نفسه ، وهذه العواطف وحدها هي التي تجعله جديرا بالمعرفة ، بينما يجلب انطفاء العواطف الابتذال الى الوجود بخلوه من المعنى والواقع · وقد

أفضى بى هذا الاعتقاد الى انكار كفاية المنطق فى اصدار الاحكام ، وان كنت لم أهرب بالطبع من دراسة المنطق ، وقراءة طائفة من الكتب عن هذا الموضوع · ولا يسعنى الا الاعتقاد بأنه ينبغى على الاشخاص الذين يأملون فى الوصول الى الحقيقة أن يستغلوا مواهبهم فى الاتصال بسر الوجود ، بدلا من تحليل حقيقة القضايا المنطقية والدفاع عنها ·

ومن المألوف فى أوساط معينة تفسـير الاعتقادات العقلية بارجاعها الى عمليات معينة فى العقل الباطن ، وبذلك يجعلونها تبدو وكأن مكانها الصحيح هو مفكرة الطبيب النفسانى ، ولا أريد هنا سوى أن أوضح ، وأنا أبعد ما أكون عن محاولة تفنيد هذا الهراء من التحليل النفسى ــ أن تفكيرى كان حوارا متصلا أو محادثة ، أو معركة ــ لا مع نفسى ، بل مع صديق خارجى أو عدو · بل ان حبى للميتافيزيقا فى أغلبه نتيجة لرد فعل ضد البيئة الخارجية ، وضـد « ضرورات » الواقع التجريبى والابتذال · ولهذا كان اصرارى على الحرية ·· وكانت المعرفة الفلسفية نفسها تلوح لى على أنها طريقة للتحرر · وقد اكتشفت فى الفلسفة منبعا للحرية ، على خلاف صديقى « ليوشستوف » Leo Shestov الذى أراد أن يثبت تهافت الفلسفة كى يحرر الانسان (وقد فعل ذلك على آية حال مستعينا بالفلسفة !) ، ووجدت فى الفلسفة نقطة ذات أبعاد متعددة يستطيع الانسان أن يناضل فيها التناهى باسم اللانهائية · وكنت أشعر دائما ــ على حد تعبير نيتشه ــ أننى « سارق » أكثر منى « راعيا » · ان عملية التفكير والمعرفة الفلسفية ذاتهما هما بالنسبة الى كشف عن المعنى ، وطريقة للاتصال بسر الحياة · بيد أن هذا الموقف لا صلة له بالتفكير التحليلى الاستنباطى الذى لا أملك منه غير قدرة ضئيلة ، هذا ان كنت أملك منه شيئا على الاطلاق · ومن الخطأ الاعتقاد بأنه يجب على الفلسفة أن تتناول التجـريدات والتعميمات : القوانين المجرد والافكار العامة · ولا أستطيع من ناحيتى أن أرى اطلاقا ما يدعو أو يبرر التنصل مما هو عينى جزئى فردى فى اختيارنا لموضوع المعرفة الفلسفية ، بل على العكس ، لقد اخترت العينى والفردى · ومن المسلم به أن الفلسفة لا تهتم بالأشـياء غير المرتبطة التى يقف كل منها من الآخر موقف العلاقة الخارجية نفسها التى تقوم بين حقائق الطبيعة · واذا كان للكلى وجود على الاطلاق ، فانه يوجد فى الجزئى والعينى ، لا العكس ، ذلك أن حقيقته لا تكشف ولا تعرف على أنها ظاهرة معروضة من الخارج ، أو على أنه فكرة مجردة ، بل على أنه شىء تحياه الذات وتعانيه ، ويتناسب مع ادراك الذات ومن ثم فان كل بصيرة فلسفية خاصة تتضمن بالنسبة الى كونا بأسره من الحقيقة ·

كنت أشعر أحيانا أن مصير العالم قد يتوقف على نتيجة مقابلة واحدة ، أو محادثة ، أو نقاش ، وكان كثير من الناس تنتابهم الدهشة لأنني أعلق مثل تلك الأهمية على كلام عابر ، غير أن ذلك كان راجعا الى اعتقادى بأن لكل حدث فردى نتائج عامة تماما • وقد يكون مجرد حديث تافه فى الظاهر ، أو فيلم ، أو رواية لا أهمية لها ، مناســبة لفهم جديد نافذ • وقد حضرت فى الحضـ الكاملة لأحد كتبى أثناء وجـودى فى الســينما ، وهذا أثر من آثار التذكر anamnesis عند افلاطون ، ذلك التذكر الذى كان بالنسبة اليه أداة متعالية من أدوات المعرفة ، وكذلك فكرة « ليبنتس » عن « المونادة » باعتبارها عالما أصــــغر •

وعلى الرغم من التقليد المتبع المبجل الذى يجعل الفلسفة مقصورة على المنطق ونظرية المعرفة ، فاننى لم أستطع أن أكيف عقلى اطلاقا مع مثل هذا التحديد ، أو أن أرى أية امكانية للمعرفة الفلسفية الحقة وفقا لهذه الخطوط • بل على العكس من ذلك كانت المعرفة تبدو لى دائما على أنها فهم خلاق يتضمن حركة الروح ، واتجاها من الارادة ، وحساسية مرهفة ، وبحثا عن المعنى ، ووجودا يهتز وينتشى ، وجودا خاليا من الوهم ، مشحونا بالأمل • ومن الذى ينكر أن العذاب والفرح والصراع والنشوة مصادر للمعرفة ؟ والحق ، أن الواقع مغلق بالنسبة لأولئك الذين يتظاهرون بالمعرفة فى حالة من عدم الاكتراث ، واللامبالاة ، والحياد ، لأنهم يخمدون شهادة الواقع الذى يحاولون معرفته • والحق أيضا ، أنه ما من أحد ، حتى ولا « اسبينوزا » نفسه ، كان متسقا مع نفسه فى تطبيق مبادىء المعرفة « الخالصة » المزعومة • والفلسفة معناها حب الحكمة ، والحب يتضمن العاطفة والوجدان ، والمعرفة الفلسفية تنبثق اذن من الحياة المتكاملة للروح ، فهى أولا وقبل كل شىء تجربة روحية ، أما الباقى كله من المذاهب الفلسفية المتعددة المنتشرة فى المراجع الفلســفية التى تدرس بالجامعات ، فليس له ـ على أحسن تقدير ـ غير أهمية ثانوية •

ولكن هل تحرص الفلسفة على استبعاد السر ؟ لا أعتقد ذلك • فالســـر مستقر حتى على ذرى المعرفة : ومن الحق أنه فى المعرفة أشــد واقعية وأكثر دلالة •• غير أن المعرفة تحطم الأسرار الزائفة الناشئة عن الجهل ، والتى يحافظ عليها الجهل • وثمة سر نقف عنده لأن معرفتنا قد اكتسبت عمقا • الله هو السر ، ومعرفة الله معناها المشاركة فى السر ، ذلك السر الذى يصبح نتيجة لهذه المشاركة أشد غموضا ، ولهذا السبب فان اللاهوت النورانى apophatic اللاهوت الذى يعترف بأن الله غامض Deus absconditus هو اللاهوت الوحيد الصحيح ، أما معرفة الله التى نصل اليها عن طريق الاستدلال المنطقى ، فلا يمكن أن تسمى معرفة حقيقية بالله ، مادامت تخون « السر » وتحطمه •

المعرفة لا تجلب الفرح والتحرر فحسب ، بل تجلب المرارة أيضا ، لأنها تعرض الأوهام فى وضح النهار وتنزع عنها تعلاتها • وكم من الأشياء كانت تبدو لى أهم وأشد جاذبية قبل أن أعرفها • والمعرفة الواسعة بالحياة والناس تجلب فى أعقابها الأسى الذى لا يبلغ مداه التعبير ، وكم أكون سعيدا الآن لو أننى لم أشاهد ولم أعرف كثيرا من الأشياء بهذا الوضوح وتلك الألفة •• غير أن لذلك تأثيرا يبدد الأوهام الزائفة التى تزخر بها حياتنا ، ويحررنى منها ، اذ مهد لى الطريق الى السر الحقيقى ، وزاد من ادراكى لسر الحياة المغلق فى وجه الجهل وفى وجه الادعاءات الفارغة للوضعية العالمة بكل شىء !

وقد اخترت فى مناقشتى للمشكلات الفلسفية منهج الشهادة والوصـــف الحدسى ، والتمييز بالسمات • ولقد كنت أود دائما أن أميز خصائص الأشياء وأعبر عنها ، أو طبيعة الموضوع الذى أبحثه وصفته بدلا من أن أقدم للآخرين شذرات من الأفكار والظواهر • وهذا المنهج دليل على موقفى « الوجودى » ، وان كنت فى كثير من الجوانب الأخرى لا أنسب نفسى الى الوجودية الحديثة • والمعرفة بمعنى الاحالة الموضوعية ، أو الدراسة الموضوعية ــ رغم ماقد يكون لها من مكان صحيح فى المبحث العلمى ــ لا حقيقة لها بالنسبة لى• «وذلك الشىء» الذى يعرف ، لا يمكن أن يوضع فى نهاية الأمر ازاء الذات العارفة باعتباره موضوعا جاهزا ، مستقلا عن الذات ، ومعروفا فى موضوعيته • ومهما يكن من أمر فانى لا أحتقر العلم والمناهج العلمية ، بل لقداعترفت بقوتها النقدية الهائلة وبوظيفتها المطهرة وخاصة عندما تطبق على التاريخ ، وعلى تاريخ الدين - أما وضـــع الحدود والقيود للعلم ، ورفض دعواه لحل مشــــكلات الحيــاة جميعا ، فمسألة أخرى قد سعيت اليها بقوة ، وخاصة فى روسيا للوقوف فى وجه الطبقة المثقفة الروسية ذات العقلية الوضعية •

لقد كان طريق جولاتى الفلســـفية طريقا معقدا غير ممهد تميزه تحولات عديدة ، وكانت هذه التحولات تبدو لبعض الناس على أنها وثبات ، وأنها دليل على تناقض غير عادى • ومع ذلك أستطيع أن ازعم أننى ظللت وفيا لنفسى ، ولم أخش مطلقا رؤيتى الأصيلة • وكثير مما اكتشفته فى بداية طريقى الفلسفى قد أصبح الآن ــ عقب تجربة حياة بأكملها ــ مسألة خليقة بالاهتمام الشديد • وهكذا رأيت وحاولت أن أعرف العالم والانسان لا كما هما ، ولكن باعتبارهما فى حالة صيرورة ، أى مصيرهما وحركتهما نحو النهاية غير المقدرة ، وغير المنتظرة • ولم تكن فلسفتى « علمية » قط بل كانت « تنبؤية » « أخروية » فى طريقتها واتجاهها • وقد درست وكشفت وتعلمت الكثير فى مجرى حياتى ، غير أن ما كان فى البداية ، ظل معى طيلة الوقت • وهذا فى الحقيقـــة هو التناقض

الظاهرى paradox فى الانسان ، اذ يظل هو نفســه حتى وهو يتغير . واعـتقد من مزاياى الحقيقية أننى أرى الآن فى المدى الذى وصلت اليه معرفتى . وفى قيمة هذه المعرفة رأيا أدنى كثيرا من الرأى الذى كنت أراه منذ ثلاثين عاما . على الرغم من أن معرفتى قد زادت زيادة لاشك فيها خلال تلك الأعوام ، فقد بدأت أعرف أننى لا أعرف شيئا .

وعندما بدأت اشترك اشتراكا فعليا فى أوساط الجامعة الثورية حينما كنت طالبا ، كانت لى مزايا عظيمة أتفوق بها على الطلاب الآخرين من حيث معرفتى بالفلسفة واتساع مدى تعليمى . وكان زملائى على وعى بذلك ، ولعل ذلك يفسر لماذا قمت بدور الزعامة العقلية بينهم فى وقت من الأوقات . غير أننى لم أكن قط ماديا أو وضعيا بخلاف معظم المثقفين الروس من الجيل الذى أنتمى اليه ، على الرغم من انكارى الله فى زمن من الأزمان ، وحتى معتقداتى الالحادية كانت لها جذور أخرى غير تلك الجذور المستمدة من المادية ، والتى كان يشترك فيها رفاقى الطلاب ، لقد كانت فى الواقع عقيدة دينية مقلوبة ،«نزعة مضادة للاعتقاد بوجود الله » ، وليست الحادا ، نزعة لا تستلزم انكار الله ، وانما انكار الصورة التى صنعها الانسان لله ، وانكار ما أعتقد أنه التصورات الدينية التقليدية ، والصور المشوهة له . ولم أكن ملحدا اذا أخذ الالحاد على أنه انكار للواقع الأعلى للروح ، وللقيم المطلقة المستقلة عن العالم المادى .. كما لم أكن من المؤمنين بوحدة الوجود .. أولئك الذين يعتقدون فى مادية أولية متجانسة تنتشر فى المكان اللانهائى بحيث تصبح هى والله شيئا واحدا .. ويمكن أن يوصــف موقفى العقلى فى ذلك الحين « أى فى أثناء سنواتى الجامعية وبعدها) بأنه مثالية أخلاقية كما يمثلها فشته Fichte . وكان الاله الذى أومن به هو اله المثالية الالمانية ، اله مشتبك فى عملية الصيرورة .. بيد أننى لم ألبث أن تركت هذه المرحلة المثالية وراء ظهرى : فقد عشت خلال المثالية ، وأمعنت الفكر فى مشكلاتها وتذوقت سمومها ، وأثريت بما تنطوى عليه من استبصارات متميزة ، ولكننى لم أستقر فيها ، كما بدا أن بعض الناس يعتقدون ذلك . ويمكن أن يقال هذا القول عن موقفى من الماركسية ، فقد اعتنقت الماركسية بالقدر الذى لا يلزمنى بقبول الحتمية الاجتماعية والاقتصــادية ، ومهما تكن الحقيقة والقوة اللتان يتميز بهما نقد « ماركس » للمجتمع البورجوازى وافتراضاته ، فانه لم يستطع أن يزعزع ايمانى بالحرية النهائية للروح . وقد حاربت من أجل هذه الحرية فى قلب العالم الماركسى ، كما ناضلت من أجلها فى قلب الأرثوذكسية الروسية .. وحتى فى انكارى لله ، فان وعيى بالسر الذى يكتنف حياتى وحياة الكون بأكمله، ووعيى بقصور كل عمل انسانى جليل داخل عالمنا ذى البعدين هذا ، هذا الوعى لم يفارقنى اطلاقا .

ومع أننى جربت تأثير الفلسفة المثالية الالمانية ، الا أننى لم أصبح قط من « أتباعها » ، والواقع أننى لم أنتسب مطلقا الى أية مدرسة فكرية ، كما ذكرت آنفا · ولم أنجح قط فى التأثير على الفلاسفة الأكاديميين ، وأقول الحق أننى لم أود ذلك اطلاقا · ويبدو أننى قد أغضبتهم كثيرا ، اذ اتهمتهم مرارا بالجبن والافتقار الى الخيال · وربما تأثرت فى ذلك بشوبنهاور ، وبموقف تولستوى من فلسفة المدارس ، الى حد ما · غير أن الأمر كان أبعد من ذلك ، اذ ينهض دليلا على نزعتى « الفردية » وعلى عجزى عن الارتباط المباشر بأى انسان ، أو بأى شىء ، وبرغبتى الدائمة فى الانسحاب داخل نفسى ، وربما يرجع أيضا الى روحى « الثورية » ·. وكانت سنواتى الجامعية تبدو لى بمثابة محنة كانت تشعرنى باننى معزول فى بحر من الصغار والتفاهة · وعندما علمت فيما بعد أن سرا لا تفسير له يكمن عند جذور الحياة بكل ما فيها من تفرعات لعينة ، وأن من واجبى الشهادة لهذا السر ، اشتدت عداوتى للفلسفة الرسمية ، فلسفة الأساتذة ، ولم أستطع ان أرى كيف يمكن أن تسمى فلسفة على الاطلاق · وهذا حق أيضا بالنسبة لموقفى ازاء الماركسية الرسمية ، عندما أصبحت ماركسيا · وحين أرغمتنى الظروف فيما بعد على الارتباط الوثيق بل والتعاون مع الأوساط الأكاديمية ، لم أشعر مطلقا بالراحة ، ولابد أننى قد سببت لزملائى من ناحية أخرى « قلة الراحة » الى حد معين ·

وانى لأعتبر فلسفتى من الطراز « الوجودى » ، وان يكن من واجب المرء عند وصف هذه الفلسفة أن يذكر أن الفلسفة الوجودية الحقة يمثلها القديس « أغسطين » و « بسكال » و « كيركجور » و « نيتشه » ، أكثر مما يمثلها « هيدجر » و «يسبرز » و « سارتر » · ومهما يكن من أمر ، فان فلسفتى لا تشترك فى شىء مع ما يسمى بـ « فلسفة الحياة » أو « فلسفة الذرائع » (البرجماتية) · وأنا وجودى لأنى أومن بأولوية الذات على الموضوع ، وبهوية الشخص العارف ، والشخص الموجود ، وأنا وجودى فضلا عن ذلك لأننى أرى حياة الانسان والعالم تمزقها المتناقضات التى يجب أن تواجه وتبقى فى توترها ، والتى لا يستطيع أى مذهب عقلى ذى كلية totality مغلقة كاملة ، ولا أية نزعة باطنة immanentism أو متفائلة أن تحلها · وقد وددت دائما ألا تكون الفلسفة « عن » شىء ما أو شخص ما ، بل أن تكون هذا الشىء نفسه ، وهذا الشخص عينه ، أو بعبارة أخرى أن تكون كشفا عن الطبيعة الأصيلة وطبيعة الذات نفسها ·

وأستاذى الحقيقى فى الفلسفة هو « كانت » ، وقد كرست لفكره معظم دراساتى ، أى لكانت لا للكانتية ، أو الكانتية الجديدة neo-Kantianism

ومع ذلك لا أستطيع أن أسمي نفسي « كانتيا » ، مثلما لا أستطيع أن أسمي نفسي «تولستويا» أو «ماركسيا» أو «نيتشـــاويا» رغم فداحة الدين الذى أدين به لهؤلاء الأشخاص • وقد أمدنى « كانت » بشيء يكمن فى موقفى الفلسفى الأساسى وانا أدرك هذا الآن اكثر من اى وقت مضى ، وقد استيقظ وعيى على ادراك ذلك التمايز ، أو بالأحرى ذلك الاختلاف الأســـاسى بين عالم الظواهر ، وعـــالم «الأشياء فى ذاتها» ، بين نظام الطبيعة ، ونظام الحرية ، كما استيقظ وعيى أيضا على هذه الحقيقة وهى أن الانسان غاية فى ذاته •

وقد اجتاز موقفى من « كانت » مراحل مختلفة ، فقد كنت أحارب موجة من «الكانتية» أو على الأصح من «الكانتية الجديدة» التى كانت تهدد باغراق حياة المثقفين الروس العقلية ، وقد حملت الســـلاح خاصـــة ضـــد النزعة « الكوهينية »(١) Cohenism التى يبدو أنها اثرت تاثيرا شـــديدا على الفلاسفة الشبان الروس • وفى ذلك الوقت كنت أعيش فى موسكو حيث اكتشفت عددا من الدوائر الفلسفية الهامة ـ أو المهتمة على الأقل ـ ، وعلى الرغم من ابتعادى العام عن الحركات الفلسفية السائدة ، فقد بذلت جهدا للاشتراك فى الحياة العقلية فى موسكو على آمل العثور على شىء أكثر أهمية ، أو ربما أقرب الى التقاليد الروسية من تلك البدعة السائدة ، واعنى بها « الكانتية الجديدة » وكانت هذه المدرسة تدعى أنها أصلحت « كانت » ، وان تكن فى حقيقة الأمر قد جعلت منه أضحوكة عندما أحالت فلسفته الى نزعة أخلاقية عقلية متزمتة لا يمكن ان تلهم أحدا • وانى لأرى ـ على خلاف الرأى الشائع بين الفلاسفة الأكاديميين، أنه ينبغى اعتبار « كانت » ميتافيزيقيا أولا ، أكثر من اعتباره واضع نظرية فى المعرفة أو الاخلاق ، ميتافيزيقياحتى وان لم تكن لديه ميتافيزيقا بناءة يقدمها للناس ، فقد استطاع على الأقل أن يزيل جميع العقبات التى تعترض التفكير الميتافيزيقى الحقيقى • ويعد التطور الميتافيزيقى للمثالية الالمانية عقب « كانت » كما يمثله كل من فشته وشـــلنج وهيجل خيانة حقيقية لـــ « كانت » أيا كانت المزايا التى تتمتع بها هذه المثالية فى جوانب أخرى • وقد ثبت أن هذه الخيانة نكبة ، مادامت قدا نتهت باستبعاد الشىء فى ذاته ، واحلال المفارقة محل البطون، والضرورة مكان الحرية ، وبانتصار « اللوغوس » الدنيوى على كل شـــىء انتصارا كاملا ، بما فى ذلك الله والانســـان ، أى بظهور النزعات الواحدية ، ووحدة الوجود ، والنزعة التطورية • ومع هذا كله ، فقد وجدت حتى فى « كانت »

---

(١) نسبة الى « هـ. كوهين » H. Cohen مؤسس المدرسة الكانتية الجديدة الذى استخدم أفكار كانت لاقامة منطق الوجوب الأخلاقى (Logik des Sollens) (ك.ل) «

عناصـــر غير متجانســـة على الاطلاق : مثل نزعته الاخـلاقية الشـكلية ethical formalism وأمرها المطلق Categorical imperative واخفاقه فى بيان مطابقة « الشيء فى ذاته » لكل أنواع المعرفة ، وتبريراته العقلية rationalization للتجربة الدينية ، وثقته العظيمة جدا بالعلم الطبيعى ، (وهو علم أصبح الآن بدعة قديمة) ، كما أنفر على وجه الخصوص من نزعته الاخلاقية الشكلية بما فيها من رتابة ونثرية · وقد كتبت فى أثناء شبابى المبكر مقالا بعنوان « أخلاقية الواجب وأخلاقية الشهوة » صادره البوليس القيصرى فى أثناء احدى حملاته التفتيشية · وفى هذا المقال حاولت تحديد موقفى من نزعة « كانت » الاخلاقية ، وكان يعبر عن اهتمامى الأصيل العميق الجذور بالفلسفة الاخلاقية · وكان كتابى « مصـير الانســان » الذى كتبته فيما بعد فى أوائل الثلاثينيات مجرد تطور لهذا المقال ·

واذا كان توكيد « كانت» لأولوية الأخلاق على كافة مشكلات الفلسفة الأخرى مسئولا عن النزعة الشكلية الأخلاقية وتمجيد القوانين المجردة ، فان نزعتى الأخلاقية الخاصة أفضت بى الى تأكيد الطابع الفردى الفريد الذى لا يتكرر للافعال الاخلاقية والقيم الاخلاقية ، والى نبذ كل أخلاقية شائعة مشتركة تنتهى بالضرورة الى الاستعباد وتجريد الانسان من انسانيته dehuamnization ولابد من النظر الى الواجب والالتزام والقسم ، والعقد ، والعهد (أى عهود الزواج والرهبنة) على أنها معادية للحياة الأخلاقية لأنها تضع قواعد عامة يجب أن يخضع لها الفرد تحت تهديد العقاب الاخلاقى والاجتماعى ، ومن ثم فانها اهدار لحريته وفرديته المطلقة · وكنت فى هذا المجال دائما ثوريا أخلاقيا ، وخاصة بالنسبة لتلك الحقيقة وهى أن المجتمع هو الذى أصبح حامل القانون الاخلاقى والنواهى الاخلاقية والمعايير والمقاييس ، وحارسها · وكنت أرى من الواجب الاخلاقى أن يتحدى المرء ويدين دعاوى النزعة القانونية والاخلاقية فى علم الاخلاق · وفى هذه الناحية ، كما فى بعض النواحى الأخرى ، اتخذت موقف « كيركجور » و « ليو شستوف » ، على الرغم من أن مزاجى وطريقتى فى التفكير يختلفان كل الاختلاف عن مزاجهما وطريقتهما · ولم أفهم مطلقا لماذا ينبغى أن ننظر الى رجل انتهك قانون أخلاق شاملا مقيدا لا يعبأ بمصير الكائن العينى الحى ، لماذا ينبغى أن ننظر الى هذا الرجل على أنه فاسد منبوذ · بل أميل الى الاعتقاد الى أن العكس صحيح ، وأن حراس القانون المقيد الشامل ، أيا كانوا وأيا كان أمرهم ـ لا أخلاقيون تماما ، وأنهم المرشحون الحقيقيون لجهنم ، على حين أن المنبوذ والفاسد هو الرجل الاخلاقى ، لأنه قد حقق واجب اللاقانونية المقدس ·

وأذكر لحظة فى حياتى وقفت فيها وجها لوجه أمام مشكلة شخصية الانسان وفرديته ، وقد انبعثت هذه المشكلة فى وعيى بقوة الرؤية المباغتة وأثرها • فلم تعد منذ ذلك الحين «مسألة وجهة نظر فلسفية أو دينية ، بل مسألة حياة أو موت بالنسـبة الى • وكان لهذه التجربة كما سأشرح ذلك فى مرحلة قادمة ، تأثير ملحوظ على النتيجة النهائية لارتباطى بالماركسية ، وكذلك على الطريقة التى ينبغى أن أحل بها كثيرا من معارك حياتى الأخرى • فلم أكن أستطيع قط أن أقبل اخضاع نفسى و خضوع غيرى لسلطان ما هو عام شامل كلى ، لأن هذا الخضوع يعمل على تفكيك الوجود فى فرديته وأوحديته ولامعقوليته ، كما يجعل الانسان وسيلة أو أداة للتجريدات التصورية والاخلاقية والاجتماعية • والانسـان ، وصورته الفردية التى لا تتكرر ، استثناء دائما وأبدا ، استثناء يخون القواعد والمعايير ويهدمها • ولعل هذ الموقف راجع الى عطفى العميق على « ابسن » أيا كانت ميزاته الفنية أو نقائصه ، وكذلك الى اعجابى ببلنسكى وتمرده على الروح الكلية عند « هيجل » ، وبالمثل ، اسـتجبت لنداء كل من « كيركجور » و « شستوف » ضد الانخداع الهيجلى أو أى انخداع آخر بتسوية الاختلافات ، والعثور على كون مغلق أملس يخلو من الفردية والمخاطرة أو الابداع الجديد والواقع أن الانسان يكبت فى كل أنماط الفكر الواحدية المتفائلة العقلية ، ويصبح مرآة للواقع « الموضوعى » وضحية من ضحاياه • ويمكن أن توضع فلسـفتى كلها وضعا بارزا بالاشارة الى نقيضها الأساسى ، حيث يتم تصورها صوب الاتجاهات الواحدية من جهة ، ونزعتى الشخصية الأساسية من جهة أخرى

* * *

بدأت من « كانت » فى تصورى لنظرية المعرفة ، ولكننى لم ألبث بعد زمن قصير أن انتهيت الى رأى مختلف حاولت أن أجعله محكما ، وأن أصل به الى الكمال فى مجرى حياتى الفلسفية كلها ، دون أن أستطيع اطلاقا صياغته بطريقة مذهبية • وقد اقمت هذا الرأى ضـد كافة أنواع النزعات العقلية التى تؤمن بامكان الوصول بالتجربة الى الحالة الجدية للوجود ، والى التعبير عن الوجود بالتصور ، أو بعبارة أخرى النزعات التى تؤمن بمعقولية الوجود rationality of being •• بيد أن الوجـود لا يقبل الاحالة العقليـة والتصورية الا اذا تصورناه باعتباره تصورا يتضمن شيئا ما يميزه عن شىء آخر ، أو كما صغت ذلك فيما بعد ، الوجود الذى تعامله نظرية المعرفة العقلية وعلم الوجود العقلى على أنه فى ذاته من انتاج التفكير الاستدلالى • ونستطيع أن نتحدث على أية حال عن الوجود ، عن الوجود الحقيقى الأصيل الذى يسبق عملية الاحالة العقلية ، والذى لا يمكن معرفته عن طريق التصور • وهذا يتفق – الى حد ما – مع التمييز الكانتى بين الشىء فى ذاته والظاهرة • وأيا كان

الأمر ، فانني لم أستطع أن أفهم الاطلقا لماذا رفض « كانت » مواجهة هذه المشكلة وتفسيرها ألا وهي : كيف أتى عالم الظاهرة الى الوجود ، مع أنه ليس العالم الحقيقي ـ عالم الشيء في ذاته · وفضلا عن ذلك فقد حيرني افتراض « كانت » الخاص بعدم قابلية عالم الشيء في ذاته للمعرفة ، كما لم أستطع أن أعرف لماذا ينبغي أن ننظر الى العالم المشتق الظاهري غير الحقيقي على أنه وحده موضوع المعرفة ، وهذا دليل على اختلاف أساسي بين « كانت » و « أفلاطون » ، ولا مجال للافكار في رأيي أن أفلاطون على صواب ، و « كانت » على خطأ ، وان يكن ثمة ما يقال عن نظرية « كانت » العميقة الجديدة عن « الوهم المتعالي » trancendental illusion ، وتفسيري لكانت في هذا السياق يمكن أن يتضح بالاشارة الى التمييز المعروف في علم النفس الحديث بين الوعي والعقل الباطن ، حتى ولو كانت الوقائع التي يصفها علم النفس الحديث خالية من أي تضمين فلسفي ·

ومن أكثر فلاسفة الكانتية الجديدة اتفاقا معي ، فندلباند Windelband وريكرت Rickert ولاسك Lask ، اذ انهم ممثلو احياء الكانتية الوحيدون الذين تجاسروا على تحطيم الاطار الحديدي للنزعة العقلية · وقد بلغ بي الأمر أن ذهبت الى مدينة هايدلبرج Heidelberg فترة من الزمن كي أستمع الى « فندلباند » في أثناء القائه لمحاضراته · وكنت في ذلك الحين شابا صغيرا ، ولكنني كنت قد ابتعدت فعلا عن النزعة الكانتية ، وأصبحت معنيا بالعثور على طرق ووسائل تكفل لي الذهاب الى أبعد من « كانت » دون أن أفقد في الوقت نفسه رؤية مشكلاته ، وحاولت أن أعثر على تبرير لمعرفة الواقع الأصيل ، واقع الشيء في ذاته ، السابق على كل ضرب من ضروب الاحالة العقلية ، والموجود قبل ظهور المشكلات الخاصة ، والمناهج الخاصة المميزة للمعرفة العلمية ، وانتهيت الى افتراض شكل « أولي » و « ثانوي » للمعرفة ، وفي مقابل كل منهما وعي « أولي » وآخر « ثانوي » تنبع منهما المعرفة · وينشأ الوعي « الثانوي » في عملية الاحالة الموضوعية ، حيث يبدو الواقع مقسما بين عالم الذات وعالم الموضوع · أما الوعي « الاولي » فانه ينتمي ـ على العكس من ذلك ـ الى الذات ـ ، ويصدر عنها كما يصدر عن ينبوع من الماء الحي ، فهو يمثل الهوية identity الأساسية بين الذات والموضوع · وقد سميت عملية الاحالة الموضوعية في الأعوام الاخيرة « عملية اغتراب » estrangement تناقض الواقع كما هو ، أعني باعتباره تجـربة ذاتية وفعلا يقوم به الذي يعاني هذا الواقع · ويخرج العالم الموضوعي نتيجة لهذا الاغتراب ، وانه العالم الساقط المفكك المستعبد ، عالم تنعزل فيه الذات عن موضوع معرفتها ، وقد وصفت المعرفة الحقة وصفا متناقضا في الظاهر ، فقلت انها موضوعية الذاتي ،

وذاتية الموضوعى
objectivity of the subjective and subjectivity of th eobjective
الذات خلقها الله ، بينما الموضوع نتاج للمخلوق · الذات « نومين » أى شىء فى ذاته ، أما الموضوع فظاهرة · وليس الواقع بالنسبة الى مطابقا للوجود الخالص pure beıng بأى حال من الأحوال ، اذ اعتبر هذا الوجود تجريدا مطلقا ، أو ما يسمى حقا بالموضوعية (وفقا للقول بأن الواقعى هو الموضوعى) والحق أن الواقع الحقيقى يمكن أن يعزى الىالذاتية الشخصية فقط ·

وقد ذكرت فيما سبق ، أنه على الرغم من عدم انتظام تطورى الفلسفى ، فاننى على وعى دائما ببقائى مخلصا لبصيرتى الأصلية · وما زلت أذكر مؤتمرا دوليا للفلاسفة عقد فى جنيف ، وحضرته عام ١٫٩٠٤ ، وهناك تعرفت بالمادى الشهير بليخانوف Georgi Plekhanov الذى كان فيلسوفا بسيطا ، وان يكن مع ذلك معنيا عناية صادقة بالمشكلات الفلسفية ، وقد اعتدنا أن نجادل فى الفلسفة أثناء تسكعنا فى شوارع جنيف الواسعة ، وحاولت اقناعه « بسذاجة » النزعة العقلية ، وعلى الأخص النزعة العقلية المادية التى تقوم على افتراض قطعى سابق عن الطبيعة العقلية للوجود عامة ، والوجود المادى خاصة · وكنت أذهب الى أن العالم العقلى بقوانينه وتحديداته وارتباطاته السببية لا يمكن أن يكون له واقع أولى ، بل قلت أنه واقع مشتق ، من نتاج الاحالة العقلية ، وصحة هذا الواقع اختلاق يقوم به الوعى العقلى الانسانى · ولم يستطع « بليخانوف » ربما نظرا لقصور ثقفاته الفلسفية ــ أن يفهم ما أحاول التعبير عنه ، بينما لم انتبه أنا انتباها كافيا الى اهتمامه الابستمولوجى ذى الجانب الواحد · وهذا بلا شك ، عيب فى تفكيرى ، اذ أننى فى اهتمامى بتوكيد الحرية والذاتية ضد الاحالات الموضوعية التى تقوم بها النزعة العقلية ، لم أستطع التركيز على نظرية المعـــــرفة ·

ووصلت الى موقف أرغمنى على رفض « الأنطولوجيا » أو « علم الوجود » رفضا قاطعا · والحق ، أننى أعتقد أن هذا العلم فلسفة جالبة للكوارث ولا تعالج شيئا على الاطلاق اللهم الا بعض تلفيقات الذهن الانسانى ، فأنا اذن أخرج عنى تقليد عتيق مبجل يرجع الى « بارمنيدس » و « أفلاطون » و « أرسطو » و « توما الأكينى » ويستمر فى كثير من تيارات الفلسفة المعاصرة ، وأنا مرغم أيضـا على رفض تعاليم « فلاديمير سولوفييف » وأسلافه التى تقول بالكل ــ فى ــ الواحد، أو وحدة الوجود « الكل فى الألوهية » pan-en-theism كما وصفها البعض · وقد أحسست فى بعض الأوقات أننى قريب من بعض الفلاسفة الهندوس ولكننى وجدت فى نهاية الأمر أن قرابتى أشد « بيعقوب بيمه » و « كانت » ، ويجب على الفلسفة الوجودية أن تكون مضادة لعلم الوجود بصورة أساسية ،

وما تلك حالة الغالبية العظمى من الوجوديين المحدثين ، وخاصة ، هيدجر » الذى يذهب الى الادعاء بأنه شيد علما جديدا للوجود (Fundamentalontology) مستمدا من أسلافه الفينومينولوجيين (الظاهرياتيين) ٠

واطراحى لعلم الوجود (الأنطولوجيا) صادر عن اعترافى بأولوية الحرية على الوجود ، لأن الانسان بالنسبة للوجود – ليس حرا على الاطلاق ، وهذا معناه فى الوقت نفسه أولية الروح ، لأن الانسان – من حيث الروح – حر ، وتتألف حرية الروح فى أن الانسان لا يتحدد بشىء آخر الا نفسه ، مادام الروح هو أن يتحدد الانسان من الداخل ، وأن يكون نفسه ٠٠ والوجود هو الحرية معتقلة ومجمدة ٠ أما أولية الوجود على الحرية فتقضى من ناحية أخرى الى الحتمية وانكار الحرية ٠ واذا كانت الحرية موجودة ، فلا يمكن أن تتحدد بشىء آخر غير نفسها ٠ والشطر الأكبر من المذاهب الفلســـفية التى تتناول الحرية لا ترضينى ، وهذا ينطبق خاصة ، كما ذكرت فى الفصل السابق ، على المذهب التقليدى لحرية الارادة free-will ٠ والتصور الوحيد للحرية الذى ألفيته مرضيا هو تصور « يعقوب بيمه » الذى جعلت اقدر كتاباته أكثر فأكثر ، والذى كتبت عنه فيما بعد عددا من المقالات ٠ ولست أزعم أننى مخلص لبيمه فى كل النواحى ، ولكننى أعتبر نظريته الخاصة « باللا أساس » Ungrund (١) على أنها قابلة لتفسيرى الخاص ، وقد وحدت بين « اللا أساس » وبين الحرية الاولية » التى تسبق كل تحديد وجودى (أنطولوجى) ٠ وهذه الحرية – وفقا لبيمه – توجد فى الله ، وهى أكثر المبادىء غموضا فى الحياة الالهية ، هذا بينما تصورتها أنا خارج الله ،مؤثرا الا أتحدث عن السر النورانى – الذى يتجاوز كل حديث ، ويفوق كل وصف – لحياة الله ٠

وقد كتبت منذ حوالى خمسة وثلاثين عاما أول كتبى عن الحرية بعنوان : « فلسفة الحرية » ٠ وأعترف بأن هذا الكتاب لم يعد يرضينى على الاطلاق ، بيد أننى لا أرضى أيضا عن جميع الكتب التى ألفتها ٠ ولا أستطيع أن أحتمل مثلا قراءة أي شىء من كتاباتى السابقة أو اعادة قراءته ، كما أكره أن أرى اقتباسا منها ، لأن الشىء الوحيد الذى أعلق عليه أية قيمة هو تجربة الالهام الخالق الذى انبثقت عنها تلك الكتب ٠٠ أى الدافع لا النتيجة او التجسيد الخارجى ٠٠ وكم أود لو كتبت كل كتاب من كتبى مرة أخرى ٠

---

(١) هذه الكلمة معناها « اللا أساس » groundlessness أكثر مما تعنى « الأساس الأولى » Ungrund ، وهى توحى بفكرة الطبيعة اللامتحددة للحرية (ك.ل) ٠

وكرست كتابا آخر بعنوان : « الحرية والروح » ، لمشكلة الحرية . وقد كتب هذا الكتاب بعد ذلك بكثير ، فى المنفى ، ويبدو أنه يعبر عن آرائى فى هذا الموضوع تعبيرا أصح ، وان كنت أشعر أنه حتى هنا أيضا ، قد كان من الممكن أن يأتى التعبير عن هذه الآراء أفضل . ومهما يكن من أمر ، فمشكلة الحرية فى مركز كتاباتى جميعا ، التى سوف أشير الى بعضها فى الوقت الحاضر .

تحدثت عن ايقاع متميز من المد والجزر فى حياتى ، ايقاع يتميز بلحظات من التوهج والالهام الخلاق ، ولحظات أخرى من التعب والفتور ، وهذه التغيرات كانت أكثر حدوثا فى الأعوام المبكرة منها فى الوقت الحاضر ، والحق أننى لم أصل مطلقا الى توازن عقلى دائم ، وكان كل تفكيرى تصاحبه التوترات المستمرة والصراع الباطنى . وقد ذكرت أيضا أن بعض استبصاراتى الفلسفية أتت الى فى أشد الظروف تفاهة وتباينا فى الظاهر ، كأن أكون فى السينما ، أو فى أثناء قراءتى لرواية أو صحيفة ، أو فى أثناء محادثة تافهة ، أو خلال جولة فى المدينة . وقد كنت قادرا على العمل والقراءة والكتابة فى كل الظروف ، عندما تنزل بى الحمى ، والقنابل تتساقط حول المنزل (كما حدث فى خريف سنة ١٩١٧) وفى أوقات المحنة الشديدة . وأحيانا كنت أندفع فى التفكير نتيجة للغضب أو بروح المعارضة أو الشقاق مع هذا الشىء أو ذاك ، أو بغير ذلك من العواطف العنيفة التى تصل الى أقصى أطرافها ، دون أن أسمح لوعيى أن يصاب بالاظلام التام ، أو لرؤيتى الباطنية أن ينالها التعكير .

كان كتابى الأول « معنى الفعل الخلاق » الذى أعتبره ذا أهمية خاصة بالنسبة لى ، والذى سوف أتحدث عنه باسهاب فيما بعد ، ناشئا عن عاطفة عظيمة ، وقد كتب فى حالة من حالات « العاصفة والدفع » Sturm and Drang أشبه بانفعال الحمى العقلى ، وكان هذا الكتاب يحتوى أو يشير الى جميع الموضوعات التى كرست لها حياتى وعملى : فقد تحدثت فيه عن شخصية الانسان ، وعن الحرية والقدرة الابداعية ، وعن عظمة الانسان وكرامته ، وعن موقفه الفاجع المحزن ، وعن رغبة الله فى الانسان ، ورغبة الانسان فى الله . وليس من شك أننى كتبت أشياء كثيرة أكثر نضجا منذ ذلك الحين ، غير أن شيئا منها لم يكن ملهما الى هذا المدى نفسه أو معبرا عن تلك الشدة نفسها فى الفكر .

ولم يكن من الممكن أن أكرس طاقتى كلها للمسائل الفلسفية ، اذ كانت تشتتنى فى كثير من الأحيان المطالب الاجتماعية والثقافية للعالم المتحول من حولى ، وكنت مدفوعا الى المشاركة فى شئونه . ومع ذلك ، لم أصبح « سياسيا » قط ، وكان ارتباطى نفسه بالسياسيين والحركات السياسية يتسم بطابع روحى

لا سياسى ، طابع فلسفى أو أخلاقى • وفى السنوات الأخيرة ركزت كل اهتمامى أكثر فأكثر على المشكلات الفلسفية لكى أحقق عملى الفلسفى وأصل به على قدر الامكان الى مرتبة الكمال •

والكتب التى لها الأهمية الأولى لفهم وجهة نظرى خلاف الكتب التى ذكرتها آنفا مثل كتاب « معنى الفعل الخلاق » ، وكتاب « مصير الانسان » ، وهو أكثر كتبى تنظيما — هذه الكتب : « العزلة والمجتمع » و «والروح والواقع » و « العبودية والحرية » وهو أكثر هذه الكتب تطرفا وثورية • أما فيما يتعلق بالمؤثرات الفلسفية ، وبأسلافى من الفلاسفة الذين تركوا طابعهم على تفكيرى ، فاننى — كما ذكرت — ازداد ادراكا لقرابتى لـ « كانت » ، واختلف ، من هذه الناحية عن كثير من المفكرين الدينيين الروس الذين خضعوا لتأثير «أفلاطون» و « شلنج » ، والى حد ما لتأثير « هيجل » • وكنت أحب أن أعالج آرائى عن مشكلات الميتافيزيقا معالجة أكثر صراحة ودقة ، على الرغم من اننى لم أرغب قط فى اقامة مذهب ميتافيزيقى(١) •

وقد كان تفكيرى يلقى فى أغلب الأحيان سوء الفهم وسوء التفسير ، بيد أن معظم اللوم يقع على كاهلى : ذلك أن تفكيرى يسير بالمتناقضات ، كما أننى أميل كثيرا الى الاطراف ، وأقفز الى النتائج دون اختبارها بالمناهج المقبولة فى البحث الفلسفى الحذر ، وكذلك أعبر عن نفسى بطريقة مبالغ فيها من الحكم والأمثال • وقد أفضى هذا الطابع المتناقض المفارق الذى يتصف به تفكيرى الى نتيجة عجيبة ألا وهى فوزى أحيانا بموافقة خصومى المذهبيين • وسوء التفاهم الرئيسى ناشىء عن نزعتى الثنائية ، فهذه النزعة تفسر عادة على أنها ثنائية أنطولوجية تستلزم قيام مجالين متفاوتين غير مرتبطين من الكينونة Being • وتعزى ثنائية أنطولوجية مماثلة الى التعارض الذى أقيمه بين الذاتية والاحالة الموضوعية ، وكذلك بالنسبة لموقفى الأخروى eschatological • ومن ثم فقد وضعنى النقاد على سرير افتراضاتهم البروكروستوسى(٢) ، ويفرضون مقولات تفكيرهم التى ليس من الممكن أن تطبق على • وكنت أحزن كثيرا فى بعض الأوقات

---

(١) حاولت منذ ان كتبت هذا الكلام — صياغة لظرية ميتافيزيقية فى كتابين حديثين هما : الالهى والانسان » و « مقال فى الميتافيزيقا الأخروية »
An Essay in Eschatological Metaphysics

(٢) نسبة الى « بروكروستيس » Procrustes وهو لص كان يقطع أوصال ضحايا أو يمطها لكى تناسب سريرا حديديا خاصا (ف.ك) •

لسوء الفهم هذا الذى لا حيلة فيه ، ولكنه كان بالنسبة الى دليل على عملية الاحالة الموضوعية ذاتها التى حاربتها طوال حياتى ، والتى لها أصداء أو ترجيعات فاجعة على علاقات الناس والمحاولات التى يبذلونها ليتحدث بعضهم الى البعض الآخر ٠

وأحب الآن أن اكرس صفحات قلائل لتقدير الوجودية والرومانسية ، وان أشرح نقط اتصالهما بفكرى ، وافتراقهما عنه ٠٠ فلقد أصبحت الوجودية شيئا أشبه بالبدعة منذ ظهور مؤلفات « هيدجر » و « يسبرز » وخاصة « سارتر » فى فرنسا ٠ ومنابع الوجودية بعيدة جدا ، أبعد من « سورين كيركجور » Soeren Kierkegaard وكان حافز « كيركجور » هو رد فعل عنيف» ضد نزعة هيجل العقلية ، غير أن عقله المعذب لم يلق تقديره الصحيح الا من جيل ما بين الحربين ذلك الجيل الذى امتلأ رعبا ويأسا ٠ وقد كنت وجوديا حتى قبل أن أعرف كتابات « كيركجور » ، وهوجمت لهذا السبب قبل انتشار الوجودية ٠ وأعتقد أن الفكر الروسى كان يتسم دائما بميل وجودى ، وهذا يصدق قبل كل شىء وفى وضوح على « دوستويفسكى » ، ولكنه يصدق أيضا على « ليوشستوف » ٠ والحق أن الوجودية ليست ظاهرة جديدة ، ونستطيع أن نميز موضوعها الحى فى تاريخ الفكر بأسره ، اذ أن الالحاح على الذات فى مقابل الموضوع ، والارادة فى مقابل العقل ، والعينى والفردى فى مقابل العام والكلى ، والتقابلبين المعرفة الحدسية والمعرفة التصورية ، بين الوجود والماهية ٠٠ كل هذا كان مفهوما لدى بعض مفكرى العصر الوسيط ، بل وفى الفكر اليونانى الى حد ما ، وهو من سمات القديس أغسطين وبسكال ومين دى بيران وشوبنهور وممثلى المدرسة التاريخية فى الفكر ، على صور متعددة ٠ ومن الممكن أن نتعقب هذه السمات فى « اسبينوزا » و « لبينتس » و « هيجل و «شلنج» ٠ ومع ذلك فقد أتى الوجوديون المعاصرون بعنصر متميز من الاصالة، لأن وجوديتهم اكثر أساسية ،وان لم تكن متسقة دائما كل الاتساق ٠ وهكذا نجد « هيدجر مثلا الذى يبدأ من « كيركجور » ، قد احال الفكر الكيركجورى لسخرية الأقدار الى مذهب جامد يكاد يكون مدرسيا ٠ وقد وضع تجربة وجودية حقيقة فى السترة المخططة للمقولات العقلية ، وهى سترة لا تلائمها حقيقة ، وبهذا الفعل استخدم قائمة كاملة من المصطلحات الغامضة غير المحتملة ، ميزتها الوحيدة ، هى أصالتها التى لا مراء فيها ، وأيا كان الأمر فان المصطلح هنا أشد أصالة من الفكر ، كما أن أحدا لا يستطيع انكار أن « هيدجر » يتمتع بمواهب فلسفية غير عادية وتفكيره يكشف عن شدة وتركيز عقليين عظيمين ٠

ويبدو أن « يسبرز » أكثر وفاء ، فهو يضفى على الالها الكيركجورى الأصلى تدعيما دراميا ، كما أن فكره يحتوى فضلا عن ذلك على عناصر نيتشاوية

قوية • بيد أننا لو أردنا أن نأخذ تمييزه بين الفلسفة المتنبئة أو التنبئية prophetic والفلسفة العلمية مأخذ الجد ، فلابد من النظر الى فلسفته على أنها تنتمى الى النوع الثانى • و « يسبرز » ، باعتباره مفكرا ، أغنى وأشد حساسية من « هيدجر » ، وتفكيره زاخر بالاستبصار النفسى ، كما أن له احساسا عميقا بالتاريخ • وانى لأشترك معه أكثر من اى وجودى معاصر آخر فى كثير من الأمور ، فلابد من أن يكون الفيلسوف الوجودى مدركا للهوية بين مصيره الشخصى ومصير العالم ، اذ يتضمن هذا انتصارا ، أو على الأقل انتصارا جزئيا ، على الاحالة الموضوعية •

وليس من الممكن النظر الى الوجود على أنه « موضوع » المعرفة ، لأنه على العكس من ذلك — « ذات » المعرفة ، أو أنه — على مستوى أعمق من ذلك — يتعالى على هذا التمييز نفسه الى ذات وموضوع • وقد تحدثت عن ذلك من قبل ، وسأعود اليه غير مرة • فالموضوعات ومعرفة « الموضوعات » لم تهمنى قط ، أما ما يهمنى ويستغرقنى ويطاردنى فهو مصير الذات ، مصير العالم الأصغر microcosmos الذى يتحرك وينبض فيه عالم باكمله ، والذى يشهد بمعنى وجوده ووجود العالم •

وليس « لكيركجور » الذى لم اقرأه الا فى مرحلة متأخرة من حياتى ، والذى يعد تضخيمه المرضى للخطيئة غريبا عنى تمام الغرابة ، أو« لهيدجر » ، أو حتى « ليسبرز » اى تأثير خاص على تفكيرى ، وانما كانت تجربتى فى الحياة هى التى تمد تفكيرى الفلسفى بالغذاء قبل أى شىء آخر ، وكنت أنظر الى الفلسفة على انها وظيفة من وظائف الحياة ، أو نوع من الرمز على التجربة الروحية ، وعلى رحلة حج متوحدة للروح • وتنعكس توترات الحياة ومتناقضاتها جميعا بل ينبغى أن تنعكس — فى فلسفة المرء ، ولا ينبغى عليه أن يحاول تأليفها فى سبيل التركيبات الفلسفية المرتبة • وليس من الممكن أن تفترق الفلسفة عن مجموع تجربة الانسان الروحية أو عن مجاهداته واستبصاراته ، ونشواته ، وايمانه الدينى ، ورؤيته الصوفية • وليست الذات « الابستمولوجية » أو العقل الكلى المجرد ، بل الشخصى العينى هو الذى يدرك موضوع المعرفة ويتأمله ، سواء أكان هذا الموضوع فلسفيا ام شيئا آخر • وقد كان « افلاطون » و « ديكارت » و « اسبينوزا » و « كانت » و « هيجل » أشخاصا عينيين أحياء ، وفى فلسفاتهم انصبت انسانيتهم « الوجودية » حتى وان لم يعترفوا بذلك •• وعندما يكون الفيلسوف مسيحيا مؤمنا ، فليس مما يمكن تصوره الا تتأثر فلسفته بعقيدته الدينية • والرجل المتصوف يظل متصوفا حين يعالج مشكلات الفلسفة ، وكذلك لا يستطيع الملحد المناضل أن يتخلص فى فلسفته من عقيدته

المضادة للدين . والواقع أن الفلسفة كانت دائما دينية : اما بالسلب واما بالايجاب .

وقد كانت الفلسفة الحديثة ابتداء من « ديكارت » فصاعدا ، أكثر مسيحية من الفلسفة المدرسية فى العصر الوسيط ، لأن المسيحية لم تكن فى ذلك العصر قد غزت عقول المدرسين وغيرتها بما فيه الكفاية ، بل كانت مصطلحاتهم العقلية التى يرجعون اليها ، وعقليتهم ، تنتمى الى عالم الفكر اليونانى الرومانى القديم، السابق على المسيحية . أما الفلسفة الحديثة ، فهى من ناحية أخرى ـ نتاج للعصر المسيحى الى حد بعيد ، والشاهد الرئيسى على ذلك أن « الانسان » هو الذى يحتل مركز الصدارة فى هذه الفلسفة ، بدلا من « الكون »، كما هو الحال فى الفلسفة القديمة . وينبغى أن نعزو الانتصار على النزعة الموضوعية القطعية السائجة ، والنزعة الواقعية والطبيعية التى تمجد سلطان الأشياء والموضوعات على الوجود الانسانى وتريد أن تجعلنا نعتقد أن الفكر يعكس عالما من الموضوعات ، وأن نعترف أيضا بالدور الخلاق الذى تقوم به الذات فى الحياة ـ ينبغى أن تغزو ذلك الى تأثير المسيحية على عقل الانسان الاوروبى . و «كانت» فيلسوف مسيحى عميق ، بل أنه أعمق فى مسيحيته من « توما الأكوينى » ، ولم يكن من الممكن أن يعيش أو يفكر الا فى العصر المسيحى والفلسفة المسيحية أساسا فلسفة الذات ، لا فلسفة الموضوع ، انها فلسفة الانسان ، لافلسفة العالم بتحديداته التى لا تنتهى ، وهى فلسفة تشهد على خلاص « الذات ـ الانسان » من « الموضوع ـ الضرورة » .

وكثيرا ما تساءلت : هل يمكن أن أسمى فيلسوفا رومانسيا ، وخاصة بالنسبة لذلك الترابط الشائع بين الوجودية والرومانسية ؟ ولكن ماذا تعنى الرومانسية حقا ؟ انها اذا كانت نقيض الكلاسيكية ، فلابد أن أسمى نفسى رومانسيا بلا أدنى جدال . وقد كان كل ما يلقى معارضة أو استنكارا فى أثناء رد الفعل ضد الرومانسية فى فترة ما بين الحربين ـ يطلق عليه اسم « الرومانسية » ، وفى نهاية الأمر أصبح كل ما يبدى أبسط علاقات العمق الانسانى أو البصيرة ، متهما بالرومانسية ، سواء كان فى الفن أو الفلسفة . وليس من قبيل المصادفة أن القرن التاسع عشر قد تعرض لأشد ضروب الادانات تدميرا . وقد جاوز اى . سيير E. Seillière فى مؤلفاته العديدة عن الرومانسية والامبريالية(١) ـ حدود نفسه فى اتهامات لا حصر لها بالرومانسية

---

(١) راجع كتابيه : « فلسفة الامبريالية » Philosophie de L'Imperialisme و « الشر الرومانسى » Le Mal Romantique (ف.ك) .

ضد كل انسان وكل شيء · وقبل أن أصل وباء الرومانسية المزعوم هو «روسو» وبالتالى كل من يحمل اللعنة « الروسية » · وعندما واجهت لأول مرة هذه الحملة على الرومانسية ـ وهى حملة أعتقد أنها رجعية بعمق ـ احسست أننى رومانسى ، وأدركت أن الرومانسية تقف الى جانب كل ما هو انسانى ، وكنت مستعدا للنضال فى سبيلها · ومن ناحية أخرى ، الفيت نفسى فى تعارض مع الرومانسية من حيث وقوعها فريسة للاوهام والزيف وعدم الاخلاص ، وللعاطفية العادة الخلابة ، وللنزعة الجمالية والاستغراق فى أعماق خيالية للحياة · وعلى هذا الأساس انتقدت مظاهر معينة من النهضة الثقافية الروسية فى أوائل هذا القرن وهى النهضـــة التى ارتبطت بها ارتبــاطا وثيقا ، والتى أظهرت نزعة رومانسية روسية عجيبة ·

ويبدو لى أن مشكلة الرومانسية والكلاسيكية كما نشأت فى أذهان بعض الفرنسيين المعاصرين خاصة ، قد اسىء وضعها ، وأنها ليست حقا غير مشكلة متوهمة · فما من كاتب عظيم يمكن أن يندرج تحت احدى هاتين النزعتين ، فيكون « رومانسيا » أو « كلاسيكيا » · فهل « دانتى » و « شكسبير » و «جيته» وهل « تولستوى » و « دوستويفسكى » ، رومانسيون أم كلاســيكيون ؟ هذه البطاقات لا تنطبق خاصة على الأدب الروسى ·

وأنا على أية حال معنى بهذا الموضوع من حيث تأثيره على الفلسفة ، كما أننى على استعداد لأن أسمى نفسى رومانسيا للاسباب التالية : لاعتقادى فى أولوية الذات على الموضوع ، ولعدائى الذى أضمره نحو جبرية المتناهى وانكارى لامكانية تحقيق الكمال فى المتناهى ، ولمعارضتى التفكير الاستنباطى بالحدس ، ولنزعتى المضادة للعقل عامة ، وللاهمية التى أعلقها على العنصر الخلاق فى حياة الانسان ، ولعدائى ازاء الأخلاقية المعيارية والقانونية ، واخيرا بسبب الحاحى على تفوقى الشخصى والفردى ، على العام والكلى · غير أن التفسيرات الشائعة للرومانسية تفشل فى ارضائى ، وأنا لا أنحدر عن «روسو» بأية صورة من الصور ، كما لا أومن بالخير الأساسى فى الطبيعة البشــرية أو التجربة الانسانية ، ولا أعتبر الطبيعة « الهية » ولا أجعل قوة ـ الحياة ـ مثلا أعلى · أما فيما يتعلق بالحياة العاطفية ، فانى أنظر الى تمجيدها بشىء لا يبعد كثيرا عن التقزز ، كما لا أســتطيع أن اقبـل حكم « الجماليات » فى الحيـــاة ·

وقد وصف البعض الرومانسية على أنها ثورة الطبيعة عامة ـ والطبيعة الانسانية بانفعالاتها وعواطفها خاصة ـ ضد العقل ، وضد المعايير والقوانين ، وضد المبادىء المقيدة للمجتمع والمدنية ، بيد أن لهذه المشــكلة بالنســبة الى

تضمينا مختلفا الى حد ما • فأنا لم أحض مطلقا على أى ثورة « للطبيعة » و « للغريزة » على قوانين العقل والمجتمع ، والأصح اننى دعوت الى ثورة الروح ، وطلبت الاعتراف بأولوية الروح على الطبيعة ، وعلى المجتمع والمدنية سواء • فالطبيعة – بحالتها الساقطة – خاضعة تمام الخضوع للحتمية السببية ، وهى من هذه الناحية صورة للضرورة • أما الروح ، فعلى العكس من ذلك – معناها الحرية • وقد كنت طيلة حياتى أدعو الى مقاومة سلطان الضرورة كما يتجسد فى الطبيعة والمجتمع •

ولم أضمر قط أى ميل للرومانسية الالمانية ممثلة فى « فردريش شليجل و « نوفاليس » أو حتى فى « شلنج » و « شليرماخر » Schleiermacher ولا أشترك فى شىء مع تمجيدها لما هو عضوى organic ، أو مع فكرتهم الرجعية عن الحياة باعتبارها عملية تتحكم فيها القوانين الطبيعية ، تلك القوانين التى تطيعها الحياة طاعة عمياء • ومع ذلك ، ليس من المستطاع انكار ما يمكن أن تضعه هذه النزعة الطبيعية الرومانسية فى الفكر الفلسفى من خميرة حية ، وأنها تمثل رد فعل صحى ضد الاحالات العقلية لعصر الاستنارة • ومهما يكن من أمر فان عبادتها للطبيعة أسمى قطعا من عبادة المجتمع والمدنية التى كانت تحاربها • واذا كانت نزعتى الرومانسية نزعة للروح والحرية ، فأنا مستعد للانضمام الى الرومانسية التقليدية فى حربها من أجل تحرير الفرد من قيود الضرورة الخارجية externality •• غير أن تصورى للاهداف النهائية لمثل هذه الحرب ، ومثل هذا التحرر يختلف عن تصور الرومانسيين • ولكى يفهم المرء الاهداف الحقيقية لتحرر الانسان ، فلابد أن يتعالى على الرومانسية والكلاسيكية معا ، وعلى النزعة الطبيعية والعقلية على حد سواء : وقد حاولت أن أفعل ذلك •

واذا اقتصرت على المصطلح التقليدى ، قلت ان مزاجى أقرب الى النمط الرومانسى منه الى النمط الكلاسيكى •• بيد أن هذا القول مضلل ، فأنا باحث عن الحق والمعنى فوق كل شىء آخر ، وربما كنت رومانسيا الى هذا الحد ، غير أننى كنت مهتما فى بحثى بالاجابة عن هذا السؤال الذى يبدأ بـ « ماذا ؟ » لا بـ «كيف ؟» ، بينما لا أعترف مطلقا فى الوقت نفسه بأن الحق والمعنى معبران عن قوانين موضوعية ، أو معايير عقلية أو اخلاقية أو دينية • والرومانسيون معنيون – كقاعدة – بالتجارب والاحساسات التى تصاحب هذا البحث لا بالوصول الى الحق والمعنى • وهم يميلون الى تفخيم الحياة العاطفية بمثيراتها وملذاتها ومسراتها أو بكآبتها ومرارتها ويأسها ، كما أنهم ينحرفون فى يسر الى الميلودراما والنزعة الحسية sensationalism • أما أنا فلم أستسلم قط

للاستغراق العاطفى الذاتي ، بل كنت اقاوم العواطف ـ كما ذكرت من قبل ٠ والقيمة التى اضفيتها على الالهام والنشوة الخلاقة والحماسة والعاطفة دليل على اهتمامى بالحق كما رأيته ، اى شىء يؤثر ويتأثر بأعمق وجود للانسان ، ويحرره من تفاهة الحياة اليومية وجفافها ، ولا أستطيع أن أوافق اطلاقا ، كما يوافق كثير من الرومانسيين على استسلام الانسان ، وفنائه التام فى سـعى أعمى أولى أو حنين الى لا شىء على الاطلاق ٠ مثل هذا البحث أو هذا الحنين لا ينفـع الا فى تعـريض احسـاسه بالشـخصية والحرية للخطر ، وهو احساس أعتقد انه دليل على الصدق الأعلى ٠ ولا أستطيع أن أنظر الى «الطبيعة و « الحياة » و «الغريزة » و « فيض الفؤاد » و « العضوى » و« الجمعى » ، وبقية هذا كله على أنها بديل عن الحقيقة : الحقيقة هى الله الذى يتعالى على الأشياء جميعا ، ولكنه يكشف عن نفسه للانسان وفى الانسان ، وبوصـفه انسـانا ٠

الفصـــل الخـــامس

التحول الى الاشتراكية · مجال الثورة · الماركسية والمثـــالية

أعتقد أن المضى فى خطة هذا الكتاب ، مع التزام الترتيب الزمنى ، تكاد تكون بالنسبة الى مهمة مستحيلة التحقيق ·

فبعد أن قطعت صلتى بطبقة الأعيان ، ألفيت نفسى منفيا فى عزلة تامة · لقد انفصلت عن بيئتى ، ولم أستطع بعد العثور على شيء يحل مكانها · وكى ابدأ فى وصف هذه الحالة ، اقول أننى لم أكن التقى حتى بأى اناس يشبهوننى، أو قادرين على التاثير على ، فكان معظم اختلاطى بالنساء اللواتى أوهمننى بأننى مفهوم · وقد كانت النساء دائما هن « المعجبات » الرئيسيات دائما (لم أستعمل كلمة « اتباع » ، لأنه لم يكن لى منهم أحـــد) · أما متعة الزمالة ، فلم تكن تجتذبنى على الاطلاق، ولم يكن لى أصدقاء من هذا الطراز · وحان الوقت الذى هجرت فيه عزلتى ، وبدأت ألتمس طريقى الى المجتمع الثورى · وليس من اليسير على أن أحصى الأسباب التى دفعتنى الى الارتباط بهذا العالم الجديد ، أو أن أجيب عن السؤال :لماذا اتخذت هذه الخطوة ؟ ويبدو لى اعتناقى للافكار الثورية مسالة غاية فى التعقيد ، ولا أظن أننى تبعت الغالبية العظمى من المثقفين الروس ، أو سرت فى أعقابهم · ان ما كان يثيرنى هو امكانية الثورة الروحية: قيام الروح والحرية والمعنى ضد ذلك العبء القاتل ·· ضد العبودية وافتقار العالم الى المعنى · والحقيقة أننى لم أكن ثوريا سياسيا كما أننى لم أظهر أى نشاط فى هذا المجال ، بل لقد مـــررت بتجربة ثورة الروح « ضـــد » الثوريين السياسيين ، اذ كان يبدو لى أحيانا انهم ليسوا ثوريين بما فيه الكفاية ، وأنهم رجعيون حقا وصدقا · وقد فضحت بغضـــهم للحرية ، وخيانتهم لشـــخصية الانسان · وكان مزاجى يكشف عن عملية ازدواج مستمرة ، يتجسد فيها دافع ثورى وآخر ارستقراطى ·· وهذه الثنائية أثرت على شعورى بالحياة أكثر من تأثيرها على عقلى · وقد انبثق الدافع الثورى من عجز فطرى عن الخضوع

لنظام العالم ، والانصياع لمطالبه • فلهذا الدافع اذن دلالة شخصية فى المقام الأول ، لا دلالة اجتماعية • لقد كنت معنيا بثورة الشخص الانسانى ، لا بثورة الشـــــعب أو الجماهير •

ولقد تحدثت عن مزاجى المتمرد ، وهذا يستتبع التمرد بالنسبة للاستعباد الرجعى والثورى على حد سواء • وفى مطلع الثورة الشيوعية ، قال لى ثورى اجتماعى سابق بادر الى التكيف سريعا مع النظام الجديد : « أعترف بأننى أقل منك ثورية •• فلقد ولدت أنت ثوريا • » ومع ذلك لا ارى لعدم تكيفى هذا أية ميزة خاصة ، وعلى الرغم من أن حالتى كانت اسوأ كثيرا من حالة أولئك المسالمين ، فاننى لم اكن أدرك أى شىء غريب أو ممتاز فى موقفى • وكانت تنتابنى الدهشة فى كثير من الأحيان عندما يقال عن مقال أو خطاب لى بأنه كان جريئا وقحا متهورا ، فقد كان فى موقفى من الرأى العام المزعوم بجميع مظاهره شىء لا يفترق كثيرا عن الازدراء ، اذ لم أكن أعبأ به اطلاقا ، ولم يكن له ببساطة — فيما يختص بى — أى وجود •

ومن الواضح أن مثل هذه الحالة العقلية لا يمكن أن تؤدى الى ممارسة أية نشاط سياسى محترف أو حتى الى سياسة ثورية محترفة ، فهى تتطلب قبل كلشىء تكيفا لايقل عن التكيف المطلوبمع سياسةالوضع الراهن status quo . والسياسة عامة لا تنفصل عن مجال « الرأى العام » ، وربما كان ذلك هو سبب بغضى الشديد لها دائما ، والسياسة من اجدى الوسائل التى تعمل على توطيد دعائم الاحالة الموضوعية فى الحياة الاجتماعية ، وهى تنجح نجاحا ملحوظا فى تفريغ الوجود الانسانى ، على الرغم مما تظهره — أو بسبب ما تظهره — من نشاط محموم • بيد أن كراهيتى للسياسة لم تفض بى الى الانسحاب من العالم والاحتماء ببرج عاجى سعيد : اذ كنت أود القضاء على النظام القديم بكل ما فيه من قيم سياسية مزيفة ، وتشييد نظام جديد فوق أنقاضه ، نظام يلغى ، أو يخفف على الأقل — من سطوة السياسة التى لا ترحم على قلب الانسان وعقله • ولم تكن الثورات السياسية الخالصة منفرة لى بسبب الأساليب التى تصطنعها لبلوغ مآربها فحسب، بل لميلها المحتوم الى خيانة الروح وتزييف الواقع ، أى عكس الثورة الروحية • فثورة الروح هى الثورة الوحيدة التى يمكن أن تكون لها قوة خلاقة حتى ولو لم تكن مهتمة فى المقام الأول بالجماهير ، والجماعة ، و «الشخص المتوسط» و «مصالح الدولة العليا» raisons d'état ، والتقاليد ، والاخلاقية الموضوعية ، الثورية والمضادة للثورة ، على السواء ، أنها تهتم فى المقام الأول بالانسان ، الكائن الانسانى العينى الحى — شخصيته وحريته •

ومع هذا فان كل تحرر يشتمل على حقيقة ما ، ويتضمن وعدا بالحرية الحقيقية • وأعتقد ان الثورات أمر محتوم ، وهى تحطم فى تواتر مستمر الاشكال المتعددة التى يتخذها الاستغلال المنظم خلال التاريخ ، وهى تفرض التغير أساسا ، كما أنها تهديد لكل محاولة اجتماعية تفشل فى استيعاب قوة الروح الخلاق •

وقبل أن أشترك فى الحياة الاجتماعية اشتراكا أكثر ايجابية ، استيقظت على ادراك الزيف اللانهائى والشر اللذين يكمنان فى حياة العالم والمجتمع والمدنية ويشيعان فيها • ولم تعمل مطالعتى للتاريخ الا على تأكيد هذا الانطباع ، فقد نشر التاريخ صفحاته أمام عينى على أنه تقدم للجرائم وضروب الزيف ، وان كنت قد أدركت انه ليس مجرد مباراة عابثة ، بل عملية تتميز بمعنى غامض ، فاجع • وقد صدمنى تصور التاريخ « المقدس » (اللهم الا اذا فهمت هذه العبارة بمعنى خاص ، ضيق جدا) على أنه تصور متناقض الحدود • وبذلت مجهودا جادا للاعتراف بواقع التقاليد المقدسة المزعومة وقبولها ، غير أن هذا المجهود ضاعف من مقاومتى ، اذ كنت على وعى عميق بأننى أنتمى الى عصر ولد من عصر النهضة والاستنارة ، عصر الثورات واعادة تقويم الأشياء • وكنت أعكس فى موقفى التغيرات وتحولات الضمير التى جلبتها تلك التجارب التاريخية • ومن الممكن السيطرة aufgehoben على هذه التجارب كما يقول «هيجل»، ولكن ليس من الممكن أن نطرحها خلفنا فى بساطة ، واذا اجتازها الانسان لم يستطع أن يتصرف ويفكر كأن شيئا لم يحدث حقيقة • ولست أستطيع أن أقبل مزاعم بعض الاتجاهات الدينية التى ظهرت فى أوائل القرن العشرين فى روسيا ، أو فى مكان آخر ، لأنها تعيش فى عهد ساذج ، سابق على النقد pre-critical وتنغمس فى بدائية مصطنعة • وقد اجتازت نزعتى اللاعقلية ، أو فوق العقلية supra-rationalism التى تحدثت عنها آنفا ـ تجربة النزعة الانسانية ، والقيمة التى أعلقها على تحرير (عتق) الانسان ، وكذلك ارتيابى فى السلطة والنزعة الى السلطة authoritorianism نتيجة لهذه التجربة الى حد ما • ومن ثم كان تقديرى لتولستوى وتعاطفى معه فى ثورته على التاريخ والمدنية ، رغم أننى لم أكن « تولستويا » قط ، بل اننى أبغض أتباع « تولستوى » • وكنت أتوجس وأرتاب فى كل شكل من أشكال تمجيد التاريخ ، الماضى منه أو الحاضر ، وكنت أشعر أن الحياة الأصيلة الصادقة لا توجد داخل نطاق التاريخ والمدنية بكل ما فيها من أوامر وتقاليد وعادات ومطابقات • غير اننى على خلاف « تولتسوى » لم أستطع مطلقا أن أتخذ وضع المتفرج أو أن أحكم على العالم وجها لوجه ، وجعلنى احساسى بالتاريخ أوحد و (أطابق) نفسى مع المصير التاريخى للانسان •

يقول « أرسطو » فى كتابة « السياسة » : « الانسان حيوان سياسى بطبعه . قدرت عليه الحياة فى المجتمع ، ومن لم يكن بطبعه جزءا من الدولة فهو اما آله واما حيوان » (أى أعلى أو أدنى من الانسان) ٠

ومثل هذاالكائن فى نظر أرسطو لا يقدر على الخضوع لأى انسان أو لأى شىء ٠ ولست أعتبر نفسى أدنى أو أعلى من الانسان ، ومع ذلك فاننى أظن اننى لابد مشـــترك فى شـــىء ما مع هذا الكائن الغريب الذى يتحدث عنه « أرسطو » ، والعتقد أيضا أن هذا يشير الى اختلاف مميز بين الانسان السابق على المسيحية ٠٠ انسان العالم القديم ٠٠ وبين الانسان الذى ينتمى الى العصر المسيحى ، وهو اختلاف ينعكس فى موقف الانسان الغربى وموقف الروسيين على التوالى ٠ والحق أن الروس أقل ميلا الى قبول القيم المقررة التى تقدمها المدنية والخضوع لها من الرجل الغربى ، فموقفهم أشد تساؤلا و « ثورية » و « هدما »٠

سبق أن تحدثت عن اللحظة التى شعرت فيها بأننى مرغم على الانفصال عن مجتمع طبقة الأعيان ٠ وأحســـست ـ بغض النظر عن أية اعتبـــارات ايديولوجية ـ أننى قلق ، وبدا لى أن حياتى قد أصبحت سلسلة من الاحتجاجات المستمرة ، ونوبات الغضب والاستنكار ٠ وعند التحاقى بالجامعة ذهبت الى أبعد من ذلك فى رد الفعل ازاء بيئتى الى حد أننى لم أعد أبحث الا عن صحبة هؤلاء (أى اليهود بوجه خاص) الذين اعلم يقينا أنهم ليسوا من طبقة الأعيان وليسوا من اقاربى ٠ وعندما كان أحد أصدقائى من اليهود يسعى لزيارتى ، كانت أمى تضع دائما هذا السؤال التقليدى : « هل هذا الشخص سيد ، أم انه ليس سيدا ؟ » غير أننى كنت أشاغبها الى درجة أنها كفت عن استعمال كلمة « يهودى » فى محضرى ، وأصبحت تستخدم عوضا عنها كلمة « اسرائيلى »(١) وكان بغضى لطبقة الأعيان يسير جنبا الى جنب مع كراهيتى لكل ما يتصل بالحرب ٠ ولهذا السبب قررت مغادرة المدرسة الحربية ودخول امتحان المعادلة للالتحاق بالجامعة ، وهى مهمة عسيرة بالنسبة الى نظرا لعجزى عن النجاح فى الامتحانات ٠

وكانت استجاباتى تلك جميعا ، ومقاومتى العامة لكل سلطة أو نظام قائم ، أو تقليد اجتماعى ، أعمق فى نفسى من اية عقائد أو معتقدا تعقلية ٠ وأنكر أن منظر أى مبنى حكومى أو مؤسسة من مؤسسات الدولة كان يملؤنى فى أثناء صباى رعبا ، فكنت اتمنى انهياره على الفور ٠ وطبيعى أن قيام العلاقات الودية

---

(١) الاصـل الروسى يميز بين fi d و evrey وقد اكتسبت الكلمـة الاخيرة معنى منحطا بينما تعادل الكلمة الأولى يهودى Jew بالانجليزية (ك٠ل) ٠

بين أسرتى وبين الحكام والمديرين لم تجعل هذه المسألة أيسر احتمالا عندى · كانت الدولة تبدو لخيالى الغض أشبه بالتنين ، الذى يضم كل ما هو مشوه قاس ، متعسف ، تفتيشى ، وكان ممثلوها يبدون لى كأنهم موكلون بتعذيب الانسان، ومع ذلك ، كنت حين التقى بهؤلاء الناس فى المنزل او فى صالونات المجتمع ، أجدهم أشخاصا ظرفاء ، عطوفين · ولم يسعنى الا أن أميز بين هذا المجتمع الذى ما برح محتفظا برابطة محسوسة بالنظام الأبوى للحياة ، وبين نظام الدولة الذى ظل برانيا ، مرعبا فى برانيته · وكان يبدو أن هذا النظام الأخير يحدث تغييرا مخيفا فى الناس ، اذ يكفون عن أن يكونوا انسانيين ، ويكتسبون خصائص الحيوانات · وهكذا كان رئيس البوليس « ن » يتردد على والدى ، وكان لطيفا دائما حين ألتقى به فى المنزل ، ولكنه كان يتخذ مظهرا مختلفا عند مزاولة سلطته الرسمية ، فى مناسبات الدولة ، وعندما يحقق مع المسجونين · ولست أتذكر مناسبة واحدة تأثرت فيها تأثرا ايجابيا بأية حادثة أو مظهر يتصلان بشئون الدولة · والغريب حقا أن استجابتى كانت مختلفة تمام الاختلاف عن استجابة الآخرين ·

وقد لاحظت فيما سبق أنه حتى الثوريين النشطين كانوا يظهرون تجاه أصحاب السلطان احساسا أكبر من الاعتراف مما استطيع اظهاره · والحق أن الثوريين الذين شقوا طريقهم فى الثورة كانوا يهرعون الى قبول المناصب الكبيرة والتمتع بها · وهذه هى سخرية الثورات · وما كنت أستطيع أن أتأثر «بالمنصب الكبير » أو « الرتبة العالية » التى أمكن الوصول اليها نتيجة للتفوق العقلى ، وان يكن ذلك قبل كل شىء أشد اقناعا وتأثيرا · كنت أفتقر افتقارا لا حيلة فيه الى الاحساس بالنظام التصاعدى ، ولم أستطع أن أميز مطلقا بين الناس وفقا للمركز الذى يحتلونه فى المجتمع · وكانت كل الرموز والبطاقات والشارات والشعارات التقليدية والعلامات التى تتخذها الحياة الاجتماعية تثير فى نفسى احساسا باللاواقع ، وكنت أميل بغريزتى الى معارضة هذه الاشياء جميعا بالحياة كما هى ، وكما تصير قبل انعكاسها المزيف فى الوجود اليومى · وقد طبقت ذلك أيضا على حياة الكنيسة حيث وجدت أن أشياء كثيرة خليقة بأن يقذف بها الى الظلام الخارجى ، تلقى فى الواقع التأييد والتقديس معا ·

وثمة اعتقاد شائع ، وان لم يكن صريحا دائما ، وهو أن المرتبة أو المركز الذى يحتله الانسان هو فى ذاته صفة ايجابية أو شىء يمكن أن يعوض ضآلة شأنه ككائن بشرى · أما أنا فأعتقد أن هذه المناصب بدلا من أن تقوم له بعملية التعويض هذه ، تضاعف عادة من تعاسة وضعه · وأنا أتحدث هنا عن جميع المناصب والمراكز دون أن استثنى منها المناصب التى يعترف الثوريون بشرعيتها

فلا ينبغى أن ننظر الى المجتمع أو الى الدولة أو الى الأمة ، باعتبارها مقدسة ، بل الى الانسان وحده • وأيا كان الأمر فان غرائزى الفوضوية وعقائدى لا تشترك فى شىء مع تلك الطوباوية الرومانسية المتفائلة التى تقوم على نظريات ثورية ، وانما تنشأ هذه الغرائز والعقائد عن ادراك للصراع والتوتر بين التاريخ وغايته ، وعن ايمان بالأبدية ، وعن عجز فى الايمان بالزمان أو الخضوع له •

وقد كان للفترة الثورية التى اجتزتها فى شبابى تاثير عظيم على تطورى الاخلاقى • فالعقائد الثورية ،و « الجو » الثورى كله أفضى الى مزاج غريب ، وموقف غريب من المستقبل ، ومن عداوات الحاضر ومحنه وآلامه • ولم ألبث طويلا فى هذه الحالة العقلية ، غير أن أثرها على كان باقيا ، وهذا الأثر مزيج من المرونة والصلابة • ومن الطريف أن فترة الثورة على وجه التحديد — لا الفترة المسيحية فى حياتى — هى التى انتجت هذه الصفات فى نفسى • وربما كان هذا يتعلق بنزعة الزهد الثورية التى تميز الطبقة المثقفة الروسية ، وهى نزعة جعلت فى استطاعتهم تحمل الاضطهاد ، وان كنت لا استطيع القول باننى عانيت من الاضطهاد الى الحد الذى يمكن أن يصدق على الثوريين الروس الآخرين ، وبالتالى ، فاننى أتمتع بتلك الصفات المتقشفة بصورة أقل • وأيا كان الأمر فان الزهد الذى أتحدث عنه ليس زهدا من النوع المألوف ، وليس له أى مضمون دينى على وجه الخصوص • وكلما فكرت فى المستقبل أو حلمت به تخيلت دائما انه ينبغى على معاناة واحتمال تضحيات عظيمة فى سبيل معتقداتى وعودت نفسى على أن السجن والمنفى وحياة العذاب عامة ، تنتظرنى ، ولم يكن هذا التوقع يزعجنى على الاطلاق • والحق اننى لم اتطلع قط الى منصب ناجح ، أو مركز موطد الأكناف فى الحياة ، هذا بينما كان مركزى الفعلى ، الذى اتمتع فيه بامتيازات من جوانب عدة — يبعث فى نفسى غالبا احساسا بالذنب • وهذا يتفق تمام الاتفاق — كما أحسست — لا مع موقفى الثورى فحسب ، بل مع موقفى « الارستقراطى » كذلك • ومهما يكن من أمر فان معتقداتى لم تدفعنى اطلاقا الى أن اصبح ثوريا محترفا ، وأعترف أننى بالنسبة لهذا كنت نظريا اكثر من اللازم ، وفيلسوفا بالمعنى الضيق لهذه الكلمة ، وصاحب ايديولوجية •• وقد كانت هذه بلا ادنى جدال ، رسالتى فى الحياة •

ولم يقتصر اغترابى عن بيئتى على طبقة الأعيان فحسب ، بل امتد الى الليبراليين ، والى الراديكاليين ايضا الذين كانوا يؤلفون « المعارضة » المعترف بها ، والذين كانت جذورهم الثابتة تمتد فى المجتمع القانونى فى الوقت نفسه بحيث يتمتعون بأطايب الحياة ، ولا يتعرضون لأية مخاطر • وأذكر ايضا اننى

كنت أرتاب فى الماركسيين « القانونيين »(١) الذين خطر ببالى أنهم يهتمون أساسا بالتقعر المدرسى ٠

وعندما شرعت فى ممارسة نشاطى الأدبى ، وكنت لا أزال طالبا ، اصطحبنى الأمير « تورجان بارانوفسكى Turgan-Baranovsky » ، فى أول زيارة لى لبطرسبورج الى اجتماع أدبى يعقده الماركسيون والراديكاليون ٠ وكانت الجماعة مؤلفة فى معظمها من أشخاص يرتبطون بصورة أو بأخرى بمجلة « عالم الله » التى كانت تنشر حينذاك (أى فى أواخر القرن الماضى) مقالات ماركسية ، وكنت انا نفسى قد بدأت أسهم فيها ٠ وهناك صدمنى جو من الاستخفاف والبرود الذى يسود تلك الأوساط ، وعدت من الاجتماع باحساس عميق من خيبة الأمل ٠ بيد أننى اعترفت آنفا بأن مثل هذه الأحاسيس كانت تراودنى بصورة أخف أو أشد ازاء كافة الهيئات الاجتماعية التى اتصلت بها ٠

وقد كان لما سميته بالمرونة والصلابة اللتين صاحبتا نظرتى ونشاطى الثورى نتائج أوسع مدى من مجرد الاستعداد لخدمة الثورة ، اذ أثبتا أنهما الخميرة الأخلاقية والنفسية فى سائر استجاباتى للظواهر الاجتماعية : للمجتمع الليبرالى ـ الراديكالى ، لمجتمع رجال الأدب، ومجتمع المحامين ، والاساتذة والاكاديميين، ولعالم السياسة البرلمانية فى أثناء مقامى فى الخارج ٠ وثبت أيضا أنهما حاسمان فى موقفى من الشيوعية كما تجسدت عقب امتلاك البلاشفة لناصية الأمور ، كما حتما انفصالى عن كل مجتمع قد استقر آمنا مستمتعا بأطايب الحياة ، سواء كان فى جانب فلسفة المصلحة الذاتية المحترمة أو اعتمد عامة على أسس وطيدة لا يرقى اليها الشك ٠ ومع ذلك ،لا أظن أننى قد عانيت ذلك النقاء المتزمت الذى لا يشوبه أى اقتراب من الحياة ، أو من الزهد الذى يطمع فى عالم آخر ٠ بيد أن الثورة ، وكذلك الدين بمعنى مختلف ، قد أفضيا بى الى الشك فى القيم الانسانية جميعا ، ودفعا بى الى مواجهة الهوة المخيفة التى تتهدد الوجود الانسانى ٠ وكنت مقتنعا تماما ، اقتناعا يشوبه الغضب فى بعض الأحيان ـ أن الروح البورجوازية ليست مجرد ظاهرة اجتماعية تميز المجتمع الرأسمالى (وان تكن هذه الروح بارزة على الأخص فى هذا المجتمع) ، بل قد تتصف بها فى الواقع الاشتراكية والشيوعية والمسيحية والارثوذكسية على السواء ٠ وكنت أشعر حينذاك ، كما أحسست بذلك مرارا منذ ذلك الحين ، بكراهية غريزية للاقوياء والظافرين فى هذا العالم ٠ وأخذ وعيى بالصدام الأليم بين القوة والقيمة ينمو

---

(١) اطلق عليهم هذا الاسم لانهم كانوا يعملون فى الصحافة « القانونية » اى « صحافة الوطن » وكان من ابرز المتحدثين باسمهم بيتر ستروف Peter Struve الذى هجر الاشتراكية فيما بعد وأصبح زعيم الليبراليين القوميين (المؤلف) .

نمواً متزايداً : وأدركت أن عظمة القيمة تتناسب مع تناقص القوة ، وأن ازدياد القوة يتناسب مع تناقص القيمة ٠

* * *

وكانت ميولى ومعتقداتى الثورية والاشـــتراكية قد تبلورت قبل التحاقى بالجامعة وبدأت أتردد على الأوساط الماركسية ٠ وكانت الاعتبارات الاخلاقية هى التى أمدتنى بأسس الاشتراكية ، وحملتنى تلك الاعتبارات الى احضـــان الاشتراكية ٠ ومن بين الاشتراكيين (أو على الأصح الاشتراكيين الشعبيين) كان اعجابى شديدا « بنيقولاى ميخايلوفسكى » زعيم الراديكالية الروسية ، وربما كانت فلســفته فقيرة أشـــد الفقر ، غير أن « علم الاجتماع » عنده ، واشتراكيته قد شيدا على أسس اخلاقية ، وعلى ايمان بالشخصية الانسانية ، وكانت تجتذبنى فيه عاطفته الاخلاقية الأصيلة ، ونبذه للاخلاقية ـ الطبقية ، وايمانه الخرافى بقوانين التطور ٠ وكان « ميخايلوفسكى » ينتمى الى سبعينيات القرن التاسع عشر حيث كان الجو العقلى فى روسيا خاضعا لضغط النزعة الوضعية التى دعا اليها « أوجســـت كنت » ، و « جون ستيوارت ميل » ، و « هربرت سبنسر » ٠ بيد أن « منهجه الذاتى فى علم الاجتماع » ـ ذلك المنهج الذى يرى أنه لا ينبغى دراسة العلم الاجتماعى بروح مجردة عن الذاتية ـ كما هى الحال فى العلوم الطبيعية ، بل داخل حدود التقدم الانسانى حيث تكون فردية الانسان هى القيمة العليا والوحيدة ، ولا يضحى بها فى سبيل المجتمع ـ كان هذا المنهج بالنسبة الى حقيقة لا تقبل المناقشة ٠ ولم يشعر بالحرية الشخصية شعورا حادا كميخايلوفسكى غير قلة من الروس ، وان يكن « الكسندر هرتزن » أكثر أهمية فى هذا المجال ٠ وقد كانت مشكلة العلاقة بين الشخصية والمجتمع بؤرة صراعى من أجل الانسان ، وهذه المشكلة هى التى وضعتنى وجها لوجه ازاء الماركسية ، ودفعتنى الى اعتناقها ٠

التقيت بالماركسية عام ١٨٩٤ ، وسرعان ما ادركت أن شيئا جديدا حاسما قد اقتحم الحياة الروسية ، وأنه ينبغى على أن أواجه المســـائل التى أثارتها الحركة الماركسية ٠ ولم يكن على ألفة كافية بماركس ، فشرعت اقرأ أعماله واعمال تابعيه ٠ وتعرفت خلال عامى الأول بالجامعة على طالب بكلية العلوم الطبيعية هو « ديفيد لوجفنسكى » ، وكان هو الشخص الوحيد الذى توثقت بينى وبينه عرى صداقة حقيقية وقتذاك ، كان يتمتع بذهن متألق وقاد ، أعلى بكثير من مستوى الطلبة الآخرين ، كما كانت له اهتمامات واســـعة ، وأخذنا معا نستكشف المســـائل الاجتماعية ، ونتناقش طويلا ، ونجادل ونتفق ونختلف ، واحسست نتيجة لذلك أننى مدين له بالكثير ٠ وكان « لوجفنسكى » فارع الطول

بصورة غير عادية ، ذا صدر ضـــيق ، وهيئة هزيلة على وجه العموم ، تؤهله للاصابة بمرض السل • وقد القى القبض عليه عقب القاء القبض على لأول مرة بتهمة اختلاطه بدار اشتراكية ـ ديمقراطية غير مشروعة للنشر ، ونفى الى سيبيريا بعد فترة طويلة قضاها في السجن ، وهناك مات بداء الرئة • وكان مصيره من اشد مآسى الثوريين تأثيرا فى النفس ، وهذه المواهب العقلية غير العادية ، وتكامله الاخلاقى ، ومعتقداته الحارة ، التى كانت تميزه ، ضاعفت من مأساة مصيره ، ولم تخفف منها • وكنا قد التقينا عقب اطلاق سراحه ، وقبل نفيه الى سيبيريا • غير أننى كنت قد بدأت أتجه فعـــلا نحو المثـالية ، وأحزننى أشد الحزن انه لم يكن قادرا على تقدير التغيير الذى طرأ على ، وكان الوقت القصير الذى قضيناه معا مشوبا باحساس من الاغتراب المتبادل • وقد استطاع والدى أن يحصل على تحسين لحالته فى سيبيريا ، غير أن ذلك لم ينقذه وعن طريق « لونجفسكى » اتصلت بجماعة من الطلاب كانوا من الاشتراكيين العاملين ، ومن هؤلاء « أناطول لوناتشارسكى » الذى اصـــبح فيما بعد أول « قوميسار » Commissar للتعليم ، و « رجل الأدب » الرسمى بعد الثورة البلشفية • وبدأت أشترك فى تلك المناقشات والمحادثات التى لا تنتهى ، والتى تستمر حتى الساعات الأولى من الصباح ، وهى مناقشات ومحادثات أصبحت مضرب المثل ، وصارت من السمات المميزة للطبقة المثقفة الروسية •• وكانت المحاضرة الماركسية الأولى التى حضرتها ـ تلقى فى منزل رجل بولندى ، نفى بعد ذلك معى الى مقاطعة « فولوجدا » Vologda • واحسست بقلق شديد كما هى عادتى فى مثل هذه المناسبات ، ولم اتمالك نفسى من الشعور بالاختناق لنقص الحرية الباطنة ، وبسبب التعصب والجمود اللذين يسودان المكان • بيد أن هذا الانطباع لم يكن من القوة بحيث يمنعنى من التعاون مع تلك الأوساط •

وطالما ساءلت نفسى أكثر من مرة ، عما دفعنى الى أن أكون ماركسيا ، وان كنت ماركسيا من طراز نقدى حر غير متعصب ، ولماذا تنطوى جوانجى على « نقطة ضعف » ازاء الماركسية •• من اليسير أن أجيب عن هذا السؤال بعبارات سلبية ، فأنا لم استطع الارتباط بالشعبيين الاشتراكيين populists أو بالثوريين الاشتراكيين ، كما عرفوا بهذا الاسم فيما بعد ، لأن نظرتهم كانت واهية الغرض ، كما كان ايمانهم بالثورة الاجتماعية التى تتم عن طريق عملية باطنة داخل مجتمع الفلاحين الراهن ، مجرد هراء لا غناء فيه • وعندما اندمجوا فى « حزب الشعب » الذى اعتنق أساليب أكثر ثورية (كان هذا الحزب مسئولا عن اغتيال الاسكندر الثانى) لم يغيروا من عقليتهم الأساسية على الاطلاق ، تلك العقلية الخاضعة « لقوة الأرض » ، والمتنكرة تحت قناع النزعة الروسووية (نسبة الى روسو) ، اما الماركسية ، فكانت تشير ـ من جهة أخرى ـ الى

اعادة كاملة للتوجيه ، وتحدد الأزمة العميقة التى تجتازها الطبقة المثقفة الروسية • ولقد ولدت الحركة الماركسية فى أواخر التسعينيات من القرن التاسع عشر نتيجة لرؤية جديدة ، ولم تجلب معها التحرر من روتين النزعة الشعبية populism فحسب ، بل حملت معها ايضا غرضا وتصورا جديدا عن الانسان ، كما تتمتع فضلا عن ذلك بمستوى عقلى وثقافى أعلى كثيرا من مستوى معظم الحركات السابقة ، فالماركسية من هذه الناحية ، كانت فى الواقع اشارة على التحرر الروحى والاجتماعى للانسان • وكان أشد ما اجتذبنى فيها هو تقديرها المميز للقوى المحركة الكامنة تحت سطح التاريخ ، ووعيها للخطة التاريخية ، وأفقها التاريخى الرحب ، وشمولها • ولهذا كانت الاشتراكية الروسية القديمة تبدو بالقياس اليها محلية ضيقة الأفق • وكانت هذه الحقيقة وهى أن الماركسية قد امتدت بجذورها بين الطبقة المثقفة الروسية دليلا على مزيد من تغلب الطابع الأوروبى على روسيا ، وعلى استعدادها لمقاسمة اوربا مصيرها حتى النهاية • وأنا نفسى كنت اشعر أننى معاد للقومية anti-antionalist ولم أحاول قط توكيد روسيا ضد الغرب •

وانى لأذكر فى وضوح الانطباع الهائل الذى تركته عبقرية ماركس فى نفسى عندما قرأته لأول مرة ، وقد تقبلت نقده للرأسمالية دون تحفظ ، وأدركت أن بصيرته النافذة الى الصراع الهادف باعتباره جزءا من تركيب الأشياء ، أدركت أن هذا التبصر حافل بالامكانيات الثورية الهائلة ، بحيث بدت النظريات الاشتراكية القديمة ، بالقياس اليها ، ضعيفة لا مفعول لها ولا اتجاه • وأدركت أيضا أن ها هنا بؤرة تضم رؤية عن الحياة بطريقة قد تعكس شيئا من الدفاع الخلاق الأصلى • هذا الثقل المتراكم لتلك الاعتبارات ، ولاعتبارات أخرى أقل من ذلك تحديدا ألقى بى تجاه الماركسية • وبدات ألقى المحاضرات ، واقرأ الابحاث أمام اعضاء لجنة « كييف » من الديمقراطيين الاشتراكيين الذين لم يلبثوا أن اعتبرونى واحدا من زعمائهم المذهبيين • وحين عودتى من احدى رحلاتى الى الخارج ، أحضرت معى طائفة كبيرة من مطبوعات الديمقراطيين الاشتراكيين فى حقيبة ذات قعر خادع •

ولم ينجح نشاط اللجنة حينذاك - فى كل الاحوال - للظفر بتعاون العمال العاديين وثقتهم ، بل كان هؤلاء العمال يظهرون عداء ايجابيا نحو الطبقة المثقفة كلما سنحت الفرصة لذلك • وكانوا ينشدون زعماء من صفوفهم ، ويطالبون بحق التصرف المستقل • وكان « ل » وهو شخص يهودى طويل القامة ، أحمر الشعر ، يشتغل عاملا باحدى المطابع - من المتحدثين المتحمسين باسم هذه الجماعة ، وكان معاديا على وجه الخصوص للطبقة المثقفة من الديمقراطيين

الاشتراكيين • ومع ذلك ، كان كلفا بى لسبب ما ، فكان يحضر لرؤيتى ويأمل فى أن أوافق على تزعم حركتهم •• وهذا أمر غريب ، لأننى كنت أكثر بعدا عن وسط ، الطبقة العاملة من أصدقائى الديمقراطيين ـ الاشتراكيين ، اذا بنينا هذا الحكم على مظهرى الخراجى ، وطريقتى فى السلوك • وذهب « ل » الى حد أنه غفر لى انحرافاتى الفلسفية ، بل وكان مهتما بهذه الانحرافات اهتماما ايجابيا • وقد أتيحت لى الفرصة من قبل لألاحظ هذا اليسر النسبى الذى أتعامل به مع أعضاء الطبقة العاملة ، وربما كانت كراهيتى الفطرية للزعامة ، وعزوفى عن اتخاذ هذا الموقف الذى يسعى اليه أعضاء آخرون ، لم أكن أعانى قط من « عقدة الذنب » المشهورة ازاء الناس ، تلك العقدة المميزة للمثقفين الروس ، والتى وسعت الهوة بينهم وبين الشعب ، أو جعلت كلا منهما ـ على أقل تقدير ـ لا يشعر بالراحة فى حضرة الآخر •

ولم أكن أتوقع ـ فعلا ـ أن أصير موضوعا لأية اضطهادات محددة بسبب أفكارى أو نشاطى •• بيد أن ما حدث هو أننى سجنت ، وشردت ، وحوكمت ونفيت من وطنى ، وهذه فى الحقيقة حياة حافلة بالأحداث بالنسبة لفيلسوف الفكرة الشائعة عنه أنه يتخذ من عقله عذرا لكيلا يصنع شيئا • وليس من شك أن الثوريين المحترفين قد قاسوا أكثر مما قاســـيت ، ولكن قد يكون للثوريين والفلاسفة على حد سواء تلك الشدة المتقدة النازعة الى هدف ما ، وان اختلفت أساليبهم ووسائلهم ، وكان نصيب الفيلسوف ، ســـواء أكان ذلك للأسوأ أم الأفضل ـ أن يحيا حياة أهدأ نوعا ما •

وينبغى أن أقول ، بالرجوع الى خبرتى الشخصية أن سجون النظام القديم كانت « أبوية » (بطريركية) الى حد ما ، وأقل صرامة بالتأكيد من السجون الأكثر كمالا فى العهد الذى أعقب الثورة • كانت هناك بالطبع قلعة بطـــرس وبولص الكئيبة ، وسجن « الكسيفسكى » الحربى ، بيد أننى لم أعرف هذه السجون عن طريق التجربة • أما حالة السجون المتوسطة فمسألة تحتاج الى مزيد من الحياء • كان حراس السجن عامة من الجنود الروس الطيبين ، الذين لم يكونوا ينظرون الى المساجين على أنهم « أعداء الشعب » ، بل أنهم « أعداء الحكومة » ، فى الوقت الذى يسيطر فيه محافظ السجن على مملكته ســـيطرة أبوية ، هذا اذا كان بطبيعتـــه ليس فظا ، وان كان ذلك هو الغـــالب فى أكثر الحالات • أما فى ظل الحكم الثورى السوفييتى فقد كان الحراس ينظرون الى المساجين (وأعنى بهم المساجين السياسيين) على أنهم أعداء الشعب والثورة كما كانت حكومة السجن قوية العزم فظة ، لا تعرف الرحمة بدلا من أن تكون أبوية • وقد ألقى القبض على لأول مرة فى « كييف » ، وقضيت فى السجن بضعة

أيام لاشتراكى فى مظاهرة ضخمة قام بها الطلبة ، الذين تم القبض عليهم جميعا فنزلنا السجن معا • وكنا قد أقمنا هذه المظاهرة ونحن نتوقع أن تطلق علينا النيران ، وألا نعود جميعا سالمين، وقد حاصرنا جنود القوزاق ، ووقعت بيننا عدة اشتباكات ، غير أن الأمر لم يسفر فى النهاية عن حادث جلل ، وأنا نفسى اشتركت فى هذه المظاهرة مدفوعا بشعور الواجب ، ولم اشترك عمليا فى حركة الطلبة التى وجدتها منظمة تنظيما صـــارما الى الحد الذى لا يروقنى • ولم ينظر الديمقراطيون الاشتراكيون الى حركة الطلبة على انها من أمورهم ، وكان موقفهم نحوها موقف التعضيد والمؤازرة الى حد ما ، اذ كانوا يعتقدون أن العمل الثورى الفعال الحقيقى هو تهييج العمال ، ونشر الدعاية بينهم •

والقى القبض على عام ١٨٩٨ بتهمة اشتراكى فى أول مسألة ديمقراطية اشتراكية ضخمة وطردت من الجامعة ، كما ألقى القبض على خمسين شخصا آخرين ، وظل الرجال فى الأيام القلائل الاولى موضوعين فى سجن «لوكانوفسكى» الكبير بضـــواحى المدينة • وكانت « كييف » من المراكز الرئيسية للحـركة الاشتراكية حينذاك : اذ كان فيها مطبعة سرية ، والأدب الثورى يصدر فيها بكميات وفيرة • كما كانت الحركة فى « كييف » على اتصال أيضا بالمهاجرين ، أى بالجماعة التى يتزعمها « بيخانوف » ، و «اكسلرود» ، و «فيرازاسوليتش» • وعندما ذهبت الى سويسرا ، كنت التقى دائما بمؤسسى الحركة وزعمائها • وكان « لينين » منفيا فى سيبيريا حينذاك ، ولم يكن فى استطاعته أن يلعب ذلك الدور الحاسم الذى قام به بعد عام ١٩٠٠ عندما انتهت مدة نفيه ، ولهذا لم أتصل به مطلقا اتصالا مباشرا •

وان ذكرياتى عن هذه المناسبة الخطيرة التى القى فيها ألقبض على تعد ذكريات عهد شديد الانفعال ، فأنا لم أعرف فى أى عهد آخر مثل هذا الاحساس بالاشتراك فى مصير واحد مع رفاقى من الناس • وعندما ألقى القبض على ، واجرى التحقيق معى ، لم اشعر أننى منبوذ ، خائر العزم ، بل على العكس كان مزاجى ، منتشيا متحديا مقتحما • وصاحبت اعتقالاتى التالية تجارب مماثلة • بيد أنه ينبغى أن أعترف ، على أية حال ، أن حالتى العقلية ، وحالة الكثيرين فى ذلك الوقت كانت غريبة نوعا ما ، بل كان فيها ،عندما أستعرضها الآن ، شىء يكاد يكون مضحكا ، اذ لم يكن لدينا أى احساس بالفشل على الاطلاق ، بل على العكس كنا نشعر بأننا منتصرون ، وكان يبدو لنا أن عهدا جديدا قد بدأ فى حركة التحرير ، وأن انباء اعتقالنا سيتردد صداها فى كل مكان حتى فى أوربا الغربية •

وكانت لحياتى فى السجن جوانبها المشرقة ، بل المتعة أيضاً • فخلال الايام القلائل الأول التى قضيناها معا فى القاعة الكبيرة ، قرأت عددا من الصحف وفى اليوم الثانى ، أتى حاكم « كييف » جنرال « دراجوميروف » ، وهو صديق والدى ـ لرؤيتنا ، ودخل فى صحبة رئيس الشرطة والمدعى العام ، وقال : « ان خطأكم ، هو انكم لا ترون أن عملية التطور الاجتماعى عملية عضوية ، وأنها لا تمت الى المنطق (!) بأية صلة : والطفل لا يمكن ان يولد قبل تسعة أشهر » . وهنا نظر رئيس الشرطة الى « دراجوميروف » نظرة شك صريحة ، وكان لا يحتمل « دراجوميروف » ، وأبلغ ضده اكثر من مرة • وقد نقلت بعد ذلك الى زنزانة منفصلة ، ذات باب غير موصد ، مفتوح على الدهليز • ولم يكن نظام السجن دقيقا كل الدقة ، ولذلك نجحت فى التسلل الى الدهليز العلوى من مبنى السجن نفسه حيث كانت زنزانات بعض السيدات اللواتى أعرفهن • وعندما كنا نخرج للمشى ، كنا نحتشد فى فناء السجن ونعقد الاجتماعات التى كنت أترأسها عادة • ولم ألبث ان وضعت فى زنزانة انفرادية منعزلة انعزالا حقيقيا خلف باب موصد • وبذلك انقطع اتصالى بالآخرين ، وكنت أستطيع القراءة •

وأخلى سراحى بعد فترة وجيزة نسبياً بفضل صداقة ابى للحاكم العام • وكنت قد قضيت فى السجن أقل من شهرين ، فلما خرجت من السجن ، لم يسمح لى بمغادرة « كييف » ، وظللت تحت رقابة الشرطة حتى تم اتخاذ قرار بشأنى وكان رئيس الشرطة قد أخبرنى فى أثناء التحقيق معى أنه من الممكن بالرجوع الى ملفى اثبات اننى اهدف الى الغاء الدولة والكنيسة والملكية الخاصة والأسرة• وتمخضت هذه الجرائم البغيضة جميعا عن نفيى عامين الى مقاطعة « فولوجدا » حيث واصلت انا وأصدقائى الاستمتاع بتبادل الحديث الحر بعضنا مع البعض الآخر • غير أن هذه المسألة كلها ـ كما هى العادة فى مثل هذه القضايا ـ بدأت فى المحاكم وانتهت الى ان تلقفتها الاجهزة الادارية ، وظلت تجرر اذيالها فى الواقع اكثر من عامين • وقد رأتنى صديقة من صديقاتى ، وكانت امرأة فاتنة ممتازة ـ فى أثناء ذهابى الى المنفى فقالت لى : « ليس فى الحياة أجمل من أن نحب ، وأحق من أن نتألم » • ولست متأكدا هل هذه الكلمات المنسوبة الى « موسيه » تنطبق على ، وكيف • ومازلت اذكر احساسى الأول حين غادرت « يأروسلافل » وركبت العربة ميمما شطر « فولوجدا » : فبينا انظر الى المشهد الذى يشابه الربيع ، وان يكن كئيبا كل الكآبة ، استولت على فجأة موجة من الكآبة ، وادراك المصير المسلط فوق حياتى •• غير أن هذه الحالة لم تلبث ان تلاشت •

وشـــــرعت اكتب خلال هذه الفترة ، فكتبت مقالتى الأولى وكتابى الأول (الذاتية والفردية فى الفلسفة الاجتماعية) • ومن الغريب أن مرحلتى الماركسية

كانت تتسم بيسر وكفاءة أعظم كثيرا من حيث الكتابة والتعبير الذاتى عن المرحلة المسيحية المتأخرة · كنت أقل ادراكا لوطأة وضغط الوسط الذى أحاول أن أجسد فيه تفكيرى ورؤيتى ، اذ كانت الماركسية فى تلك الأيام أقل تزمتا pedantic من الماركسية الشائعة فهى لم تمنعنى بأية وسيلة من الرجوع إلى حدسى الأصيل كما كانت تبرز عاطفتى الاخلاقية لتحديد الانسان ·

نشرت مقالتى الاولى : « ف · ا · لانج والفلســـفة النقدية فى علاقتها بالاشتراكية · » فى المانيا فى الصحيفة الماركسية « العهد الجديد » التى كان يحررها « كاوتسكى » · وارتبطت فى مراسلة مع « كاوتسكى » عن موضوع هذه المقالة ، وكتب الى فى احدى رسائله عن آماله العظيمة فى أن يسهم الماركسيون الروس فى التطور النظرى المقبل للماركسية · وشكا (فى سخرية كافية) من ان الماركسيين الالمان مستغرقون فى السياسة العملية الى حد لا يســـتطيعون معه تطوير نظرية الماركسية · ومهما يكن من أمر ، فانه من أبعد الاحتمالات أن يتعاطف « كاوتســـكى » مع الطريقة التى ينتهجها تفكيرى · أما فيما يتعلق بالماركسيين الروس ، فقد أحسوا منذ البداية أننى لست اتباعيا (أرثوذكسيا) بما فيه الكفاية ، وأنه ليس فى الامكان اعتبارى واحدا منهم دون تحفظ ، ومن ثم أصبح من المحتم نشوب صراع ايديولوجى ، كان كامنا حقا منذ البداية ·

وكان كتابى يتضمن مقدمة طويلة كتبها « بيتر ســـتروفى » الذى اعتنق الماركسية « المثالية » أو « الروحية » هو أيضا · وكنا نتخذ وقتذاك مواقف ايديولوجية مماثلة وان تكن أمزجتنا ــ وكذلك دوافعنا ــ مختلفة كل الاختلاف · وقد حاولت أن أبين امكانية قيام مركب من الماركسية النقدية وفلسفة « كانت المثالية» وفلسفة «فخته » الى حد ما · ولم أكن أضمر أية ميول ، أو حتى تعاطف مع الهيجلية ، على خلاف معظم الماركسيين ، ان لم يكن كلهم · وقد انبثقت فكرة الكتاب من اعتقادى الأساسى الخاص بالاستقلال النهائى للحق والخير والجمال عن البيئة الاجتماعية ، أو الصراع الطبقى الثورى ، وعن اعتقاد « بوعى متعال » هو بمثابة المصدر أو الأصل لهما · وكنت اتشبث بالـ « قبلى » a priori الكانتى الذى يشير الى واقع من طراز منطقى وأخلاقى ، وكنت أعتقد من ناحية أخرى أن الوعى ــ على المستوى النفسى ــ متوقف على بيئة الانسان والمكان الذى يحتله باعتباره عضوا فى طبقة معينة ومحدد بها · وكتبت أقول أنه قد توجد ظروف مناسبة أو غير مناسبة لتمثل الحق ، والاقتراب من العدالة ، بينما تمتد جذور الحق والعدالة ــ فى ذاتهما ــ فى الوعى المتعالى · وكانت « الحقيقة ــ الطبقية » فى رأيى تعبيرا متناقضا كل التناقض ، خاليا من المعنى ، ومن الممكن أن يكون هناك على أية حال « لا حق ــ طبقى » مثل اللاحق

الذى يشكل الطبقات البورجوازية ، تلك الطبقات التى تتورط فى اثم استغلال البشر . هذه الفكرة كانت بمثابة الأساس لنظريتى عن رسالة البروليتاريا المسيحية .... ذلك لأن البروليتاريا بريئة من خطيئة الاستغلال ، ووضعها الاجتماعى والنفسى يؤهلها لتلقى الحق وحمله . وكنت أرى الطبقة العاملة باعتبارها تجسد تقارب ، بل حتى اندماج الوضع النفسى للانسان بالوعى المتعالى ، وهذا يسمح فى رأيى باقامة أساس أكثر ملاءمة للماركسية الثورية الراديكالية من آراء دعاة الماركسية النقدية الآخرين . وقد قبلت التفسير المادى للتاريخ عوضا من الوهم البورجوازى الذى يرى الأشياء فى الفردوس مجرد وسائل للراحة مخصصة لحياة أخرى لأن العمال لا يستطيعون الحصول عليها ، بعد أن اغتصبها منهم ممثلو مجتمع فردى لا رحمة فيه ، ولكننى رفضت النتائج الميتافيزيقية للنزعة المادية . وكنت أعتقد أن الحق لا يمكن أن يحصر فى أى شبكة اجتماعية سواء أكانت اشتراكية او رأسمالية ، وأن هؤلاء الذين يتعقبون معرفة الحق يخرجون من السجون الضيقة فى جراة ومشقة الى عوالم تتضمن بالنسبة اليهم أكثر مما يمكن أن يتضمنه علم الاجتماع أو العلم على الاطلاق . وهكذا تركت فكرى حرا يتحرك فى أى اتجاه يختاره ، وبالتالى دافعت عن حرية المعرفة الفلسفية فى سياق الأرثوذكسية الدينية .

وكان « بليخانوف » الذى التقيت به فى زيورخ حينذاك على وعى تام بموقفى، بل تنبأ بأننى بفلسفة مثل فلسفتى لا يمكن أن أظل ماركسيا . وخلال هذه السنوات وجدت نفسى باستمرار حاملا أسلحتى ضد « لوناتشارسكى » الذى التقيت به مرار فى أوساطنا الماركسية بمدينة « كييف » « وكان هو أيضا مثلى مواطنا من « كييف ») ، وكان معظم خلافنا حول مسألة استقلال الحق ، ومعرفة الحق . وكان يتهمنى « بنزعة فردية خطرة » ، بينما اتهمته أنا بأشياء أخرى عديدة أشد خطرا . وكان صراعنا يشتد فى بعض الاحيان اشتدادا عنيفا ، خاصة وأننى كنت مجادلا شرسا نوعا ما ، ولم يكن من السهل مجادلتى . واحسست نتيجة لهذا الجدال أن « لوناتشارسكى » يمتعض من مشاحناتنا ، ولكنه هو نفسه لم يكن ماركسيا « تماما» بأية حال من الاحوال ، اذ كان يمزج « ماركس » بعناصر مستمدة من « أفيناريوس » الوضعى ، ومن « نيتشه » . وكان مهتما بالحركات الجديدة فى مجال الفن . ولكن على الرغم من مواهبه المتعددة ، وثقافته العالية نسبيا ، واهتماماته الأدبية فقد كان فيه شىء من نظار المدارس الريفيين ، مع اندفاع الرجل الصحفى . وكان يبدو فعلا أنه مهيأ لأن يكون قوميسار الشعب للتعليم فى حكومة ديكتاتورية ، وان تكن سلطته التى تمتع بها فيما بعد لم تستطع ارغام الصحافة الرسمية السوفيتية على الاعجاب بانتاجه الأدبى ،و أيا كان الأمر ، فانه كان يخلو شخصيا من كل نزعة ديكتاتورية ،

ولاشك أنه صدم بالنشاط الذى كانت تمارسه « التشيكا » Cheka · وكانت فكرته أن يكون راعياً للفنون والعلوم ، غير أن رعايته لم تتوج بأى نجـــاح خاص ·

وعلى الرغم مما فى كتابى « الذاتية والفردية فى الفلسفة الاجتماعية » من فجاجة ، فاننى مع ذلك نجحت فى وضع مشكلة أزعجتنى زمنا طويلا ، وحاولت أن أعبر عنها فيما بعد ، فى صورة أكثر استيفاء · وهذه المشكلة هى كما يلى : تعتمد المعرفة بمعنى ما على مدى الاتصال بين الناس وعلى شدته · وطبيعة المعرفة ليســـت مسألة منطق فحسب ، بل مسألة مجتمع أيضا ، لأن الذات فى أثناء فعل المعرفة ليست « مطلق الوعى » Bewusstsein ueberhaupt فى المثالية الالمانية ، أو العقل الكلى ، بل الانسان العينى الذى يتمتع بخصائص عقلية وعاطفية معينة ، والموضـــوع داخل علاقات اجتماعية معينة بغيره من الناس · ولا يمكن أن يعتبر أى شىء « قبلى » ضمانا فى ذاته للمعرفة الحقيقية لأنه خال من أية سمات خاصة ، كما أنه ينتمى الى مجال التجريدات ·· والمسألة التى تستحق الوضع هى المشكلة بين ما هو « قبلى » (اذا افترضنا وجود مثل هذا الشىء) وبين الانسان العينى ، وهذه هى العلاقة التى ينبغى أن نحددها أولا · وهذا الاتجاه فى التفكير هو الذى أفضى بى الى الفلســـفة الوجودية التى ضمنتها فيما بعد كتابى « العزلة والمجتمع » وكان من الممكن أن أجعل عنوانه « علم الاجتماع الخاص بالمعرفة «Sociology of Knowledge»

وكانت الفترة التى سبقت نفيى الى « فولوجدا » مباشـــرة ، من أكثر الفترات حماسة وبهجة وابداعا فى حياتى · وعلى الرغم من ارتباطها بحدث درامى ألقى ظلا على شبابى كله ، فاننى أذكرها مغتبطا فى معظم الاحيان · لم يكن عهدا من المرح والجذل اللذين لا أعرف عنهما شيئا كثيرا ، بقدر ما كان عهد تجربة الحيـــاة فى عالم ينصـــهر ، ويكاد يتفجر باللهب ·· عهد يتميز بالاستبصارات التى تنفذ الى عوالم جديدة ، وبالتجارب الجديدة ، والمعـــرفة الجديدة · ولم أستطع قط الافصاح عن هذه الأشياء بالكلمات ، وبالتالى فقد دفعتها الى داخل نفسى ، وأصبحت على وعى متزايد بالابعاد المتعالية للحياة · ورأيت نفسى وقد قذف بى الى هذا العالم ، وحولى فى كل مكان تعصف قوى التعالى المجهولة الخفية · ولم أكن أستطيع البقاء محصورا فى دائرة الوجود الدنيوى المغلقة المسطحة ذات البعد الواحد · وكنت أقرأ « ابسن » كثيرا فى ذلك العهد ، فوجدت عنده الكثير مما يعبر عن موقفى المتحول وشعورى بالحياة ؛ بل لقد أصبح واحدا من كتابى المفضلين · وكان ما يسميه الآخرون « نزعتى الفردية الخطرة » ، ووعيى الشديد للمصير الشخصى ، يتردد صداه فى «ابسن»

كما كنت مهتما اهتماما شديدا أيضا بالنزعة الرمزية الروسية التى كانت حركة جمالية وصوفية فى وقت واحد ، وأصبحت جزءا من النهضة الروحية التى غيرت وجه الثقافة اروسية على أعتاب القرن الجديد • وساعد ذلك كله على انعزالى أكثر فأكثر عن الدوائر الماركسية الثورية •

ومن الخطأ التفكير فى أننى انضممت تمام الانضمام فى فترة من الفترات الى« الرفاق » وحدهم : فقد كنت حريصا على أن أحافظ على اتصالى بالأوساط الأخرى أيضا • وكنت خلال عامى الاول بالجامعة أشاهد الاستاذ « جورجى تشلبانوف » كثيرا ، وكان يمثل الفلسفة الأكاديمية كما كان مدرسا محبوبا ، وأحدث أثرا كبيرا حينذاك بسلسلة محاضراته ، وكانت نقدا مشحوذا ضد النزعة المادية • وقد اعتاد أن يعقد اجتماعات منتظمة أيام السبت فى منزله ، كنت احضرها فى أغلب الاحيان ، حيث أتبادل معه أحاديث فلسفية طويلة ، وكنت أستمتع بهذه الاحاديث وأجدها نافعة جدا ، اذ كانت تتيح فرصة تخليص نفسى من الجو العقلى الخاص الذى يشيع فى الأوساط الماركسية • وبالطبع ، لم أكن أتفق معه فى المسائل السياسية • وقد كان « تشلبانوف » بنظرته الفلسفية وطريقته كلها ، مدرسا فى المحل الاول ، ولكنه كان أيضا شخصا ذا اهتمامات واسعة حية ، فهو فى الواقعطراز استثنائى جديد لاستاذ الجامعة •

والتقيت فيما بعد بشخص آخر ، ربطت بينى وبينه صداقة عمر بأكمله ، صداقة كنت أعتز بها اعتزازا شديدا ، وكان هذا الشخص هو « ليوشستوف » كنت أنظر اليه فى ذلك الوقت ، ومازلت أنظر اليه الآن ، على أنه واحد من أعظم الاشخاص الذين أتيح لى حظ التعرف اليهم • وكانت كتبه قد بدأت تظهر توا ، فأوليت كتابه عن « نيتشه » و « دوستويفسكى » اهتماما خاصا • وكنا نختلف حول كثير من المسائل ، بيد أننا كنا مشغولين مؤرقين بمشكلات مماثلة • وكلما التقيت به أحسست بزمالة حقيقية فى صحبته ، بنوع من الاتصال الوجودى existential communion وباهتمام مشترك • واستمرت علاقتنا الوثيقة الحميمة بعد ذلك فى باريس حيث مات قبل الحرب العالمية الاخيرة بوقت وجيز •

وعلى الرغم من التغيير العظيم الذى بدأ فى نفسى ، وعلى الرغم من اهتماماتى المتزايدة خارج أسوار العالم الماركسى ، فقد كانت الفترة السابقة على نفيى هى أيضا الفترة التى تمتعت فيها بأكبر شعبية • وعندما ألقيت أول محاضرة عامة كانت الحفاوة بى بالغة • وربما كان ذلك راجعا الى نفيى الى الشمال الذى كان قد اقترب ، وهى مسألة شاع أمرها بين الناس • بيد أننى قاسيت بعد ذلك فترة طويلة من عداء الجماهير الشديد ، وأصبحت هدفا لطوفان من الهجمات والمقالات البذيئة • وكانت الفترة التى سبقت نفيى تتميز — كما

ذكرت أنفا ـ بتجربة من النشـــوة العظيمة ، وهذه الحالة التى شكلت اعادة توجيهى الروحى فيمـا بعد ، ظلت باقية فى المرحـلة الاولى من منفـاى الى «فولوجدا» ، وغامرت حينذاك بكتابة مقال بعنوان «الصراع من أجل المثالية» نشرته صحيفة Mir Bojü ، وعبرت فيه عن شىء من هذه الحالة ، فأثارت هذه المقالة ـ كما كنت أتوقع ـ ثائرة الجناح اليسارى من المثقفين ، وخاصة أولئك الذين ينتمون الى المدرسة القديمة ، واتخذت شـعار المقال من احـدى مسرحيات « ابسن » المفضلة عندى وهى « البناء العظيم The Master-builder ولاشك أن هذا الشعار وحده قد صدمهم باعتباره « مسخا » . (شيئا بشعا) . وكانت هذه المقالة علامة على افتراقى عن وجهـة النظر التقليدية للمثقفين ، ونظرتهم الدودية للعالم . فقد ناديت بأولوية القيم الروحية والجمـالية التى أخمدوها وكتموا أنفاسها . وكنت أحس احساسا غريبا بالنهضة الروحيـة المقتربة من روسيا والتى ميزت العقد الاول من القرن العشرين . كما كانت تلك المقالة تحتوى أيضا على تجربة عن الصراع بين الشخصية والمجتمع ـ وهى تجربة أكثر تمييزا لى عن ممثلى تلك النهضة الآخرين . وكنت أشعر بدافع ، مألوف لدى من قبل ، للانسحاب الى داخلى نفسى ، وكان يبدو أننى فقدت الرغبة مؤقتا فى التبادل الاجتماعى ، وفى الاتصـال بجمـاهير كبيرة من الناس ، وفى الاتصال الوثيق بالمسرح السياسى والتنظيم السياسى . وسواء فى المجتمع أو فى العزلة ، فى الصراع أو التعاون فقد كان اهتمامى الذى لا يتغير هو اهتمام بالانسان ، ودعوته الى الحرية ، وتحقيق مصيره الشخصى .

والروح التى لا تعمل فى نظام محدد متفق عليه للاشياء ، تصنع نظامها الخاص من نوع فوضاها الخاصة . وقد كانت لى فوضاى الخاصة التى كانت فوضى العناصر «الديونيسية» ، والتى تتحدى الروح فى كثير من الاحيان. وهذا لم ينبع من أية مؤثرات « نيتشية» ، بل كان بالأحرى دليلا على دمائى الروسية. غير أن الروح (أو لعله العقل والاتزان ؟) سادت فى نهاية الأمر ، وربما كان ذلك راجعا بدوره الى أن دماء فرنسية تجرى فى عروقى . وجدير بالذكر أن الخمر لم تكن تدير رأسى على الاطلاق ، اذ كنت أستطيع أن أشرب منها كمية كبيرة دون أن أفقد صوابى ، بينما يفقد بقية الموجودين اتزانهم . وكذلك لم أكن أنحرف فى تيار العصابية الجماهيرية أو أصاب بعدواها ، أو أتأثر بالتجارب العاطفية الجماعية ، مثل المواكب أو المظاهرات العسكرية أو الوطنية . فأنا محصن تماما ضد التنويم المغناطيسى .

ومع هذا كله ، فانى قابل للانتشاء من الفكر ، أو من الرؤية الروحيـة والعقلية . وكانت مقاومتى لشعور نيتشه ازاء الحياة راجعة الى « أرضيته »

earthiness العنيدة ، والتصاقه « بهذا العالم » ، والى انحصاره فى الدائرة الضيقة لهذا العالم ، مما جعل شدته نفسها جافة خانقة · أما شعورى الخاص بالحياة فهو مرتبط اساسا « بالعالم الآخر » ، أو ان شئت الدقة ، هو شعور متعال · وقد انقلب « نيتشه » فى الشطر الأخير من حياته فيلســـوفا ذا نزعة وضعية تكاد تكون تامة ، وان تكن نزعته الوضعية من نوع أعمق من المعنى الشائع الذى توحى به هذه الكلمة ، أما انا فميتافيزيقى فى المحل الأول ، وربما كان ذلك سبب ميلى الى الثنائية التى لا تميز «نيتشه» بأية حال من الاحوال ، على خلاف مزاعمه ·

ولم أكن مهتما اهتماما شديدا بالسعادة ، بل كنت افتقر الى « الاستمتاع بالحياة » joie de vivre ذلك الشعور الخاص الذى يصاحب الايمان العميق أو الرؤية والكشف الروحى الجديد · ومع هذا ، ورغم ما فى ذلك من مفارقة ، فقد كان يبدو على أننى وهبت حيوية شديدة ، والشــاهد على ذلك خيالى ، وتقلبى المزاجى العابر ، واستعدادى لقبول التغيير · وهذه الحيوية هى علة تلك المرحلة من حياتى التى استسلمت فيها استسلاما يكاد يكون كاملا للعنصر الديونيزى ، اذ أصبحت فترة ما فريسة للانحلال الروحى والثقافى الذى يشمل الشطر الأخير من منفاى ـ واستمر على وجه التقريب عاما أو نحوه بعد ذلك ، وهو اتجاه تتسم به الى حد ما الحركة التى بدأت فى التسعينيات ، وجرت فى أذيالها استبدال الجمال بالحق ، والفردية بالمسئولية الاجتماعية ·

ومن الاشياء الدالة أن فترات الحيوية العظمى كانت يصاحبها عندى نقصان فى شدتى الخلاقة : اذ كنت أكتب قليلا ، نسبيا · وكنت أنفق قوتى على أشياء أخرى ، وأصبها فى اتجاهات أخرى · وانتهيت الى أن يقتصر اهتمامى تماما على تحرير الفردية ، وتوكيد الانسان الفرد فى مقابل المجتمع ، وقد قال لى آنذاك أحد زملائى فى المنفى وهو ممثل نموذجى للطبقة المثقفة الثورية : « لا يستطيع أحد أن يتنبأ بما سيتوج البرج الذى تريد أن تشيده فوق مساكن الناس ـ فربما توجه الجمال » · وكان من الواضح أن ذلك بالنسبة اليه امكانية من أفظع الامكانيات · وقصارى القول ، أنهم كانوا ينظرون الى باعتبارى « فرديا خطرا » ، على الرغم من تلك الحقيقة وهى أننى ظللت من الناحية السياسية ديمقراطيا ، اشتراكيا مع ميول قوية الى اليسارية المتطرفة · وكنت قد عانيت رد فعل قويا ضد زهد المثقفين الثوريين الروس وتقشفهم ، وهو زهد يبدو أنه كان يهدف الى اخماد شعلة الحياة اخمادا تاما ، والى منع الانسان من التنفس بحرية · وفضلا عن ذلك دخلت فى صراع مع ظاهرة ، لم تكن قد أعلنت عن نفسها جهارا ، هى ما يمكن أن نسميه النزعة الشمولية totalitarianism

للمثقفين الروس ، والتى تطالب بخضـــوع الوعى الشخصى لوعى الجماعة أو المجموع (ان كان ثمة وعى من هذا النوع) خضوعا لا تحفظ فيه · ولأضرب مثلا بسيطا على ذلك · حدث ذات مرة عندما وصلت جماعة كبيرة من المنفيين الى « فولوجدا » أن أثير بينهم هذا السؤال ، وهو هل يحق أن نصافح مفتش ، الشـــرطة ، وكانت الغالبية العظمى تريد أن تقرر هذه المسألة « كمجموعة » واحدة ، ولكننى أصررت على أن قرارى فى هذه المسألة ، أو فى جميع المسائل ذات الصفة الاخلاقية ، من شأنى وحدى · ويبدو أن الطبقة المثقفة الثورية كانت تعيش طيلة الوقت تحت ظل النظام العسكرى ، وربما كانت هذه هى الطريقة الوحيدة للاستمرار فى البقاء ، اذا وضعنا فى اعتبارنا عقليتها الخاصة ، بيد أننى آثرت أن أحارب بطريقتى الخاصة ، ورفضت قبول اية أوامر عسكرية أو الخضوع لأخلاقية الجماعة المنظمة ·

ولم تكن « نزعتى الفردية » خالية بأى حال من حافز ثورى خاص ، وكثير مما فعلت كان تحديا مقصودا لمن يحيطلن بى فى المنفى · وقد كانت «فولوجدا» آنذاك مركزا هاما للمنفين السياسيين ، وكان عدد كبير من هؤلاء ، وأغلبهم من الديمقراطيين الاشتراكيين وبعض الثوريين الاشـــتراكيين ايضا قد حددت اقامته فى المدينة ، أو كان يمر خلالها · وكان بعضهم فى طريقه الى أماكن أخرى من مقاطعة « فولوجدا » · وفى بعض الأحيان كانوا يؤخذون الى أقصى الشمال فى «أرتشانجل» بينما كان بعضهم الآخر يعود من المنفى مارا بالمدينة · وكنت أستطيع ملاحظتهم عن كثب ، وكثيرون منهم كانوا يأتون لرؤيتى فى « المرسى الذهبى » ، وهى الحانة التى كنت أقيم فيها · وقد أحببتهم ، اذ كانوا قوما ممتازين ، كرسوا أنفسهم قلبا وقالبا لفكرتهم أو مثلهم العليا · ومع ذلك كان الجو فى صحبتهم ينقلب سقيما مرهقا ــ جو يبدو وكأنه يرغم المرء على الدخول فى سترة ضيقة بحيث يستحيل عليه التنفس · وكان من بينهم أشخاص ذوو معرفة غزيرة واطلاع واسع ، غير أن المستوى الثقافى للمنفى المتوسط ، كان منخفضا جدا ، ولهذا لم أستطع أن أتظاهر بالحماسة لهذا الجو العقلى كله ، ولا أظن أن رد فعلى ذلك كان دليلا على أى تنفج عقلى intelectual snobbery وكان المنفيون ينظرون الى بدورهم على أننى « رومانسى » ، « وأرستقراطى » و « بجعة سوداء » ·

ومع ذلك كانت ثمة « استثناءات » بين المنفيين فى ذلك الوقت : كان هناك «الكساى ميميزوف » ، و «بيتر شيجيليف » ، و « بوريس سافنكوف » (أحد زعمـــاء المنظمـــة الارهابية التابعـــة للحـــزب الاشـــتراكى الثورى) ، و « كيستياكوفسكى » (الذى أتى لمقابلة زوجته المنفية) ، والدنماركى«ماديلونج»

(الذى أصبح فيما بعد كاتبا شهيرا والذى كان فى ذلك الوقت ممثلا لشركة زيت) وأخيرا الفيلسوف الماركسى والناقد التجريبى «بوجدانوف» ، و «لوناتشارسكى» وهذا الاسمان وصــل أصحابهما بعدى بفترة وجيزة · وكان « ريميزوف » و «شيجيليف» و « سافنكوف » و « مادبرونج » وأنا معروفين بهذه التسمية « الطبقة الارستقراطية » ، بينما كان « بوجدانوف » و « لوناتشـارسكى » معروفين باسم « الطبقة الديمقراطية » · وكانت « الارستقراطية » تتخذ موقفا أكثر استقلالا ازاء القرارات والاحكام والسلوك الذى تسلكه جماعتنا ، دون أن تتحاشى الاتصال بالمجتمع المحلى ·

وكانت علاقاتى مع «بوجدانوف» غريبة نوعا ما ·· كان شخصا غاية فى الامتياز ، مخلصا الى أقصى حد ، متفانيا فى فكرته تفانيا مطلقا ، ولكنه كان ضيق الأفق نوعا ما ، عاكفا باستمرار على السفسطة العقيمة المغرمة بتقطيع الشعرة الى شعيرات · وكنت قد اشـتهرت بينهم فعـلا بميولى « المثالية » « الميتافيزيقية » المستترة والمكشوفة ، وكان «بوجدانوف» ينظر الى هذه الميول على انها أعراض الشذوذ النفسى : وبدأ يتردد كثيرا على زيارتى ، وكلما رآنى القى على جميع أنواع الأسئلة الغريبة مثل « كيف كانت حالتى فى الصباح ؟ » و « كيف نمت ؟ » وماذا كانت استجابتى لهذا الشىء أو ذاك ؟ وكان قد استقر فى ذهنه أن ميولى الفلسفية دليل على اضطراب نفسى قد أوشك حدوثه لى ولما كانت مهنته هى الطب النفسى ، فقد أراد أن يكتشف الى أى حد بلغت بى العلة ·· ومن دواعى السخرية فى الموضوع كله ، أن « بوجدانوف » أصيب هو نفسه بعد ذلك بمرض عصبى خطير ، وقضى فترة طويلة فى مصحة عقلية ، بينما استطعت أن أتجنب مثل هذه المؤسسة على الرغم من « نزعتى المثالية » ولم أكن طبيبا نفسيا ، ولكنى لم ألبث أن لاحظت أن « بوجدانوف » كان فريسة لهوس عقلى mania · وكانت حالة من حالات الجنون الأليف الهادىء نتيجة لفكرة ثابتة · وقد تصرف « بوجدانوف » تصرفا نبيلا كل النبل فى أثناء الثورة البلشفية ، وكان بلشفيا مجربا ، وظل شريكا أمينا لـ « لينين » فترة من الزمن وخاصة فى نشر المقالات الدورية والصحف · ولكن عندما استولت البلشفية على مقاليد الحكم ، طرد شر طردة على يد بعض صنائعها المحدثين (الفرعيين) فلم يحاول اخفاء مشاعره ، ومن ثم عهدوا اليه عندما استقر الحكم الشيوعى بمنصب متواضع جدا · وقد كان « بوجدانوف » أكثر راديكالية ، وأشد تطرفا من « لينين » وخاصــة فيمـا يتعلق بموقف « لينين » المتنـاقض حيـال الديمقـراطيين الذين ينتمون الى « البورجـوازية الصـغيرة » ولهذا كان بوجدانوف » يدعو الى اعادة النظر فى الماركسية ·

ومن الأشخاص العديدين الذين اتصلت بهم فى أثناء وجودى بالمنفى ، رجل أصبح فى قمة الثورة — قوميسارا لروسيا الشمالية كلها ، واشتهر بقسـوته وتعطشه للدماء · والغريب ، أنه على الرغم من أننى لم أكنْ على صلة وثيقة به ، فانه كان يترك فى نفسى الأثر الذى يتركه شخص عطوف رفيق ، بل وديع أيضا · وللأسف ، تثمر هذه الفضائل (وخاصة الفضيلة الأخيرة) فى بعض الاحيان ثمارا رهيبة · وكانت عملية الانتقاء الثورى قد بدأت فعـلا فى أثناء نفيى ، غير أن « لينين » وجد من بين هؤلاء معظم الاشخاص الذين صـنعوا الثورة فعلا · وكان أولئك الاشخاص يعتقدون أن العطف على الآلام دليل على الضعف ، ولهذا كانوا على استعداد لتلطيخ ثيابهم (وضمائرهم) بالأقذار فى التراب الذى يغطى حلبة الثورة ·

ومن زملائى فى المنفى « أ » الذى أصبح هو أيضا بلشفيا عاملا ، وكان حتى زمن قريب القنصل السوفييتى فى باريس · وقد كان طرازا مختلفا نوعا ما ، واذا ذكرته فانما أذكره بوصفه منظما لحفلات الشراب اولأمسيات المرحة · ومن السيدات المنفيات اللواتى كانت تربطنى بهن صلات شخصية ، السيدة « ف » ، وهى شخصية مرموقة ، ذات قدرة عقلية عظيمة ، وموهبة ممتازة للفلسفة ، وهذه كلها صفات نادرة لدى المرأة · وفيما عدا هذه الصحبة المتباينة المتنافرة من المنفيين ، كنت أتردد على منزل رئيس « الزمستفو »(١) المحلى حيث كنت ألتقى أحيانا بموظفى الحكومة المتحررين عقليا ، وببعض ممثلى المسرح المحلى وممثلاته ·

وينبغى أن أقول اننى كنت أتمتع بمركز ممتاز نوعا ما فى المنفى ، اذ كان حاكم « الفولوجدا » حينذاك من أقربائى الأبعدين ، وصديقا حميما لعمى · وقد تلقيت عقب وصولى بستة أسابيع ورقة تقول أن لى الحق فى الاقامة بأية مدينة أختارها على شرط الا تكون مدينة جامعية · وقد دهشت غاية الدهشة ، ولكننى قررت أن أرفض هذا العرض وأن أبقى فى « فولوجدا » · واضح فيما بعد أن عمى واشبينى الأمير لوبوخين — ديميدوف قد أعرب عن استيائه الى الدوق الاعظم فلاديمير الكساندروفيتش لترحيل ابن أخيه العزيز وابنه فى العماد الى مقاطعة «فولوجدا» ، وطالببنقلى الى الجنوب · وفى الحال أصدر الدوق الأعظم التعليمات اللازمة الى وزير الداخلية ورئيس البوليس الحربى ، وتمخض هذا

---

(١) Zemstva (والجمع Zemstvo) — وهى عبارة عن المجالس الاقليمية والمركزية المنتخبة التى تتمتع بالحكم الذاتى والتى أنشأها الاسكندر الثانى وهـذه المجالس سبقت المجالس البلدية فى بريطانيا بحوالى خمسة عشر عاما ، كما انها مسئولة عن عدد كبير من الاجراءات الاجتماعية التقدمية (ك٠ل) ·

التدخل عن العرض المذكور الذى لم أستطع رغم هذا كله ، أن أقبله • وفضلا عن ذلك فان الحياة فى « فولوجدا » لم تكن تسبب لى أية متاعب خطيرة ، بل بدأت اغرم بهذه المدينة القديمة الصغيرة بطابعها الخاص الذى تميز بسحر اضاف من الجدة ، اذ لم أكن أعرف اطلاقا الاجزاء الشمالية من روسيا العظمى •• واعتدت فى الصيف أن أركب الدراجة فى ضواحى « فولوجدا » متجها صوب خرائب الدير القديم ، والواقع أننى كنت أشعر هناك بتمام السعادة ، بل ربما كنت أسعد منى فى « كييف » • ولم يكن البوليس يزعجنى أدنى ازعاج ، واستطعت من أظفر باستقلالى حتى بالنسبة لديكتاتورية المنفيين أنفسهم •

* * *

ظهر كتابى الأول « الذاتية والفردية فى الفلسفة الاجتماعية » فى أثناء وجودى بالمنفى ، فأثار قدرا عظيما من النقاش حتى بين المنفيين بمقاطعة « فولوجدا » ، وظلت التعليقات على الكتاب ترد الى ، ويبدو انه جعلنى ذائع الصيت ، وان يكن أغلب المعلقين قد هاجمونى لسبب أو لآخر • (واذكر أن نقدا معاديا نشر فى احدى الصحف وكان قائما على غلطة مطبعية فى النص) • وقد نوقش هذا الكتاب على نطاق واسع فى الدوائر الماركسية ، وكانت تلك المناقشة فى صميم الموضوع • وهكذا الفيت نفسى ، مع عدد من الأشخاص الآخرين ، على رأس الحركة التى سماها « سرجى بولجاكوف » فيما بعد « من الماركسية ـ الى المثالية » ، وعندما تلقيت نسخة من كتابى ، لم اجد فيها ما يرضينى ، اذ كنت قد تحولت الآن بعيدا عن طريق « المثالية » ، وانغمست تماما فى المشكلات الميتافيزيقية •

وقد حصلت قبل نفيى على اذن خاص بالذهاب الى بطرسبورج (كنت بكفالة فى ذلك الحين) وكانت الدوائر المتباينة التى اتصلت بها حتى ذلك الحين تبدو الى حد ما دليلا على ماضى الاجتماعى والثقافى المتنافر • وفى هذه المناسبة تناولت غدائى مع ابن عمى الأمير تريبوف وأحد المديرين بوزارة الداخلية • وفى المساء رأيت « بيتر ستروف » و « تورجان ـ بارنوفسكى » • وكان «ستروف» وهو « عميد » الطبقة المثقفة فى ذلك الحين ، وشخصية من الشخصيات المركزية بالنسبة للتطور العقلى لهذه الطبقة ، والذى لم التق به قبل هذه المرة ـ كان يبدو ودودا مهتما ، وقد قال فى رسالة الى صديق « أنه يعلق على آمالا كبارا » ولكن ، على الرغم من أننا كنا جزءا من الحركة نفسها المسماة باسم الماركسية النقدية ، فقد كنت أحتل مركزا أكثر تطرفا فى اليسارية منه • وكان « ستروف » يوحى الى المرء بأنه مجتذب بنظرية « ماركس » لأنها تقدم تبريرا تاريخيا للرأسمالية الصناعية • ومن السخرية حقا أن المناسبة الأولى التى

التقيت به فيها ، كان يصاحبه « سكنورتسوف ـ ستيبانوف » البلشفى المعروف فيما بعد ، ورئيس تحرير صحيفة « ازفستيا » · ومع ذلك كان موضع كل منهما فى الوقت الذى تمت فيه هذه المقابلة أشد بعدا عن اليمين مما كنت أنا نفسى · ولم ألتق بـ « ستيبانوف » مرة أخرى بعد أن صار رئيس تحرير « الازفستيا » ·

وكونت ـ نتيجة زيارتى لبطرسبورج ـ صلة ادبية بالحركة المسماة « الماركسية النقدية » التى تميل ميلا شديدا الى المثالية ، والتى تضم أشخاصا مثل «بولجاكوف» الذى تعرفت عليه فى وقت متأخر نوعا ما فى «كييف» حيث كان استذا للاقتصاد السياسى بمعهد الهندسة الصناعية (كان مسموحا لى بالذهاب الى كييف فى زيارة قصيرة فى أثناء منفاى) · وعندما التقيت ببولجاكوف ، كان قد اتخذ فعلا موقفا دينيا محددا ، وكان مسيحيا وأرثوذكسيا يمارس شعائر مذهبه · أما « ستروف » فكان أميل الى السياسة منى ، وكان بكل تأكيد كاتبا سياسيا لامعا · بيد اننى اميل الى الاعتقاد بأنه ، وان يكن مسئولا عن وضع برنامج الحزب الديمقراطى الاشتراكى الذى تكون حديثا ، الا انه لم يكن قط اشتراكيا صادقا فى أعماق فؤاده · ومما له دلالة أنه تحول من الماركسية «القانونية» الى «الليبرالية الثورية» ثم تحول بعد عام ١٩٠٥ الى قبول الامبريالية الروسية التى أعقبت «بترين» ، وانتهى ك ى أن يكون رجعيا فى أثناء «الهجرة» · أما فيما يتعلق بالماركسية ، فقد كانت آراؤه قريبة حينذاك من آراء ادوار برنشاتين(١) الذى سبب كتابه هزة شديدة وكشف عن أزمة فى الماركسية الالمانية وكنت أشاطر «ستروف» نقده للماركسية، ولكننى أشاطر « ماركس » أيضا فى نبوءته الخاصة بعالم جديد ، حتى ولو لم يتحقق عالمى عن طريق عملية اجتماعية محتومة تمر بصورة جدلية (ديالكتيكية) خلال مراحل ثورية ، بل هو عالم ينهى سيطرة القدر سواء أكان تاريخيا أم سياسيا أم اقتصاديا ، وينبع من فعل الانسان الحر الخلاق · ومن ثم كانت عقيدتى الثورية ذات صفة اخلاقية فى المحل الأول ، وكانت تمضى سريعا فى هذا الاتجاه ·

والى جانب كتابى ذاك ، كانت هناك مقالات أخرى أقصر من ذلك ، أسهمت فى الاساءة الى سمعتى بين الدوائر الماركسية وبين طبقة المثقفين التقليدية التى تنتمى الى اليسار عامة · ومن تلك المقالات التى لاقت أشد معارضة ، مقالتان « الصراع من أجل المثالية » و « المشكلة الاخلاقية فى حياة المثالية الفلسفية » وهما اللتان كتبتهما فى « فولوجدا » ، ونشرتا فى كتاب يضم مجموعة مقالات

---

(١) مؤلف كتاب Die Voraussetzungen des Sozialismus الذى ظهر عام ١٨٨٩ ، والذى بدأت به حركة داخل نطاق الماركسية ، تبتعد عن الحتمية الاقتصادية الشاملة (ك·ل) ·

لكتاب مختلفين بعنوان « مشكلات المثالية » . وكان هذا الكتاب يضم مقالات كتبها ماركسيون سابقون ، ومثاليون جدد neo-idialists ، وكذلك بعض ممثلي الفلسفة الاكاديمية الليبرالية من أمثال نوفجورودسف ، والشقيقين « تروبتسكوى » . وكانت مقالتى التى صدرتها بأبيات من الشعر لبوشكين تقول هذه الأبيات) « أنت ملك ، فعش وحيدا ، وأسلك فى حرية الطريق الفسيح ، أينما يقودك عقلك الملكى ») محاولة أولى لصياغة فكرة « النزعة الشخصية » personalism التى أصبحت فيما بعد « فكرتى السائدة » idée maîtresse والتى طورتها ودعمتها فى كتاباتى التالية ، ولكنها كانت تحتوى أيضا على قدر كبير من « كانت » و « نيتشه » .

وقال الأمير « سرجى تروبتسكوى » عن مقالتى انه ما كان ليوافق اطلاقا على الاسهام فى هذا الكتاب لو عرف أنه سيضم مثل هذه « النزعة النيتشية » المشبوبة . وكان من الواضح ان هذا كله يقلل من شعبتى لدى أصدقائى : الماركسيين أو غيرهم . اذ بدءوا يعتبروننى خائنا للماركسية ، على الرغم من هذه الحقيقة وهى أننى لم أتغير فى قليل أو كثير فيما يتعلق بآرائى حول المسائل السياسية والاقتصادية . والفيت نفسى أنفق نصيبا كبيرا من طاقتى على الصراع ضد النظرة التقليدية وأساليب تفكير الطبقة المثقفة الروسية ونقدها . وكان هذا بالنسبة الى صراعا لتحرير الروح التى طالانسحاقها واستعبادها غير أن هذا الصراع كان يعوق عملى الفلسفى الانشائى ، كما ذكرت من قبل بل بالاضافة الى ذلك كان يفضى بى أحيانا الى المغالاة ، وهى مغالاة كان من الممكن أن أتجنبها فى ظروف أخرى ، كما كان يؤدى بى فى أحيان أخرى الى التعسف الجدلى .

أحسست فى الفترة التى أعقبت نفيى مباشرة ، بالاجهاد والتعب ، وبدا لى أن كل طاقة خلاقة قد هجرتنى .. كنت أكتب قليلا ، على الرغم من أننى كاتب غزير الانتاج عامة ، ولا أجد أية مشقة فى الكتابة . كنت فى حالة من حالات المزاج الحرجة التى لا تؤدى الى انتاج ايجابى . وكنت أبحث عن سر الحياة وجمالها ، ولكن عقلى كان مكدودا من هذا البحث وسط التفاهة السائدة ، والقبح الذى يشيع فى كل مكان ، وكان يبدو أن جنيا ما يطأ تحت أقدامه صورة الجمال التى تلوح لى فى لحظات الحب والنشوة . وأحسست أيضا بالألم الحاد من تلك القطيعة النامية بينى وبين دائرة أصدقائى الذين ارتبطت بهم حياتى ارتباطا حميما ، دون أن أجد بعد عوضا عنهم .

ومهما يكن من أمر فان عداوة الديمقراطيين الاشتراكيين باعتبارهم كلا واحدا لم تمنعنى من الاحتفاظ ببعض الصلات الشخصية معهم ، بيد أننى لم

أحتفظ بأى من هذه الصلات مع الليبراليين الذين كانوا غير متلائمين معى فى كل الأوقات · وكان الديمقراطيون ـ الاشـــتراكيون يمقتوننى بسبب « نزعتى المثالية» · وانحرافاتى « الميتافيزيقية » ، فحملوا على حملة شعواء فى الصحف · أما الليبراليون ، فقد اكتفوا ـ من ناحية أخرى ـ بالتهكم على ، والســـخرية بى · وكانت عداوتهم تنبع من ايمانهم بالعقيدة ، وهم باعتبارهم مؤمنين ، كانوا على استعداد « لاحراق الكفرة » أما الاشتراكيون ـ الديمقراطيون فكانت عداوتهم نابعة من أنهم هم أنفسهم لم يكونوا يعلمون ما يدور بعقولهم ، ولأنهم كانوا مستغرقين فى ادعاء مبالغ فيه بالانفصال والتسامح والموضوعية والخصـــال الحميدة (كانت أبحاث الورح تعتبر عندهم بالطبع خصالا سيئة ـ أو فى الواقع على أنها هراء ، حتى ولو كان هراء لا ضرر فيه) ، وكانوا متشككين ، بيد أنهم لم يكونوا متشككين فى نزعتهم الشكية ·

وقد جاء اتصالى بالليبراليين عندما قررت أن أشترك فى «حركة التحرير» · ولهذا السبب انضممت الى « رابطة التحرير » League of Liberation . وكنت أعرف زعيم الرابطة شخصيا ، وأعطف على أفكاره عطفا مبهما · وذهبت لحضور مؤتمرين عام١٩٠٣ وعام١٩٠٤ عندما ظهرت «الرابطة» الى الوجود · وقد عقد هذان المؤتمران على التوالى فى « شفارتسفالد » و « شافهاوزن » بالقرب من شلالات الراين · وأقول الصراحة ان جمال المناظر الريفية كان أقرب الى نفسى من المؤتمرات · وهناك تعرفت لأول مرة بالدوائر الليبرالية المتجمعة حول الزمستفا» · وقد لعب كثير منها دورا ايجابيا كأعضاء للمعارضة فى «الدوما» (البرلمان) ، وانضم بعضها الى حكومة الائتلاف المؤقتة سنة ١٩١٧ · وهذه الدوائر تضم عددا من الأشخاص البارزين ، غير أن استعدادهم للمصالحة وتمسكهم الفج « بالشكليات السليمة » ، وتملقهم للعمال(١) جعلنى أشعر بينهم بعدم الارتياح · ولن أذكر هنا ذكريات مفصلة عن « رابطة التحرير » ، ولكننى أريد أن أضيف على أية حال انه حتى بعد أن أصبحت بعض عناصرها العمود الفقرى لحزب طلبة الكلية الحربية ، وهو الحزب الذى ظل فترة من الزمن أشد الأحزاب راديكالية ، فاننى لم أنضم اليها ، لأننى لم أكن سياسيا من ناحية (وان لم أكن قط غير مكترث بالســـياسة) ، ولأنها كانت فى صميم روحها « بورجوازية » الى الحد الذى لا يناسبنى · وظللت أعتبر نفسى اشتراكيا حتى فى أثناء عضويتى بلجنة « رابطة التحرير » فى « كييف » أولا ، ثم فى بطرسبورج بعد ذلك · وكنت على وعى دائما بأن ثمة هوة تفصلنى عن الليبراليين ، هوة

(١) قال عنهم « بليخانوف » بطريقته المثالية « انهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا اللهم الا أن يتأملوا مؤخرة الطبقة العاملة » (المؤلف) ·

أعمق من تلك الهوة التى تفصلنى عن الثوريين الاشتراكيين والديموقراطيين الاشتراكيين ، ومع ذلك فان موقفى هذا لم يمنعنى من اجراء المفاوضات نيابة عن الرابطة مع الديمقراطيين الاشتراكيين ، وعلى سبيل المثال مع « س » ، وكان من الناشفة حينذاك ، ثم قوميسارا للشعب فى الحكومة السوفيتية ، وسفيرا بعد ذلك . ومع « مارتوف »(١) أيضا ، ومع المتحدث باسم « الرابطة اليهودية » .

أما بالنسبة لنواحى نشاطى العام الأخرى ، فقد بدأت عندما حضرت لأول مرة الى بطرسبورج . وقد ألقيت الخطب فى الاجتماعات السياسية ، ورأست تلك الاجتماعات . وكلما نظرت الى تلك الايام لا يسعنى الا أن أتذكر شعورا بأن صوتى لم يكن صادق الرنين أينما ظهرت فى ذلك الاطار ، واننى كنت أخدع نفسى بمعنى من المعانى ، عندما أخذت على عاتقى القيام بدور لا يلائمنى . ولم تزدنى هذه الحقيقة الا وهى ابتعادى بسرعة فائقة عن وجهة نظر الطبقة المثقفة كلها (وعن المثالية أيضا) الا شعورا بالقلق وعدم التناسق . وكانت أقل حركة تدل على اعادة التوجيه الروحى فى عقول أعضاء قلائل من الطبقة المثقفة تعد رجعية من الوجهة السياسية . بيد أن ما ينطوى عليه هذا النوع من التقويم من سخف وتعسف قد برهنت عليه هذه الحقيقة ، وهى أنه عندما أنشأت الجماعة المثالية صحيفة أطلقت عليها اسم « مسائل الحياة » Voprosy Zhigni بعد أن قطعت صلتها بالنزعة الوضعية للطبقة المثقفة ، هرع أولئك الذين يتهمون هذه الجماعة بالرجعية الى الاسهام فى تحرير تلك الصحيفة . وهكذا ظفرت الحركة المثالية لنفسها بحق المواطن فى أعين الرأى العام اليسارى . ولم يكن من اليسير اختلاق الاكاذيب وتوجيه السباب فى الصحافة الى اولئك الاشخاص أنفسهم الذين تنفذ معهم الخطط الخاصة بتحرير روسيا .

ولم يختبر الجيل الذى أعقب ثورة سنة ١٠٩٥ هذه الصراعات والمنازعات . اذ تم حتى ذلك الحين اكتساب مواقع عديدة للحقوق الخاصة بالقيم الروحية والثقافية ، كما تزعزعت النزعة المحافظة الملحة لدى الطبقة المثقفة بكل ما تنطوى عليه من نزعات أرثوذكسية وضعية ومادية صارمة ، ولا ادرية ، وأخذت تبدو ساذجة عتيقة . والتحمت دوائر أوسع وأوسع من الطبقة المثقفة بالأزمة التى أحدثت تحولا كاملا فى طريقة الوعى . وكان من الممكن الشعور بذلك خاصة فى الادراك المتزايد بالقيم الجمالية ، وفى الاستعاضة تدريجيا عن المنفعة العامة

---

(١) وهو ديموقراطى — اشتراكى رفيق قديم ، ثم انقلب فيما بعد عدوا لـ « لينين » ، وأصبح زعيما للمناشفة الدوليين فى المجلس السوفييتى الأول (ك.ل) .

بالنزعة الجمالية ، وفى البحث الدائب عن قوالب جديدة للفن · أما بالنسبة لثورة سنة ١٩٠٥ نفسها ـ وهى حدث أثبت أنه نقطة تحول فى التطور الثقافى لروسيا ـ فقد صارت مصدرا لعذاب حقيقى بالنسبة لى · كانت الثورة فى رأيى أمرا محتوما ، وقد رحبت بها ، واختلفت مع الناشفة الذين أيدوها تأييدا فاترا بارد الهمة ، واشتكوا من أنها قد تمت ، واتهموا المشتركين فيها بأنهم أقدموا على « مغامرات » · وأيا كان الأمر ، فان تلك الأيام لم تكن « أيام الحرية » ، بل لقد حملت الى حقا احساسا بالاختناق الاخلاقى والروحى · وكان يبدو أن جو المذبحة الدموية يحوم فوق عقل الانسان ، وأن المجزرة التى ذهبت ضحيتها الآلاف العديدة من الثوريين والعمال قد قتلت آخر بقايا الأمل لا فى النظام القيصرى وحده ، بل فى الثورة نفسها ، وفى امكان أى تغيير يقوم على هذا الأساس ·

وبنهاية الثورة انتهت الفترة البطولية فى تاريخ الطبقة المثقفة الروسية · فقد اهتز موقفها التقليدى حيال الحياة والعالم من جذوره ، اهتز تقشفها وضيق أفقها ، وتزمتها الأخلاقى ، وتدينها السياسى الخانق ، وطرأ على أقسام معينة من الطبقة المثقفة تفكك أخلاقى لا شك فيه ، نتيجة لخيبة أملها فى الثورة ، وكان ذلك دليلا يؤكد عقيدتى العميقة فى أن كل ثورة سياسية تنهار بسبب انتصارها نفسه · فلابد أن يكون موضوع الثورة الحقيقية هو الانسان ، لا الجماهير أو السلطة السياسية ، والثورة الشخصية personalistic هى وحدها التى يمكن أن تسمى « ثورة » · والحق أن راديكالية أية ثورة تتناسب مع طابعها الشخصى « الارستقراطى » ، ومحاولة الحصول على الحرية بانكار حرية الذات أو حرية الآخرين محاولة مآلها الفشل · ولم يفدنى اخفاق ثورة ١٩٠٥ الا فى مضاعفة حنينى الى ثورة الروح ·

ولقد تنبأت فى المقالة التى كتبتها عام ١٩٠٧ ، والتى أعدت نشرها كجزء من كتابى « الأزمة الروحية للطبقة المثقفة » ، فى دقة بالغة ، بأنه عندما تحين الساعة الحقيقية للثورة فى روسيا ، فان البلاشفة سيكسبون المعركة · ولم أتصور ـ كما تصور كثيرون غيرى ـ أن الثورة الروسية الناجحة سيصاحبها انتصار الحرية والنزعة الانسانية ، بل كتبت قبل عام ١٩١٧ بزمن طويل عن اعتقادى فى أن هذه الثورة ستقتضى فى الواقع تضحية عظمى رهيبة بحرية الانسان · هذا ما سوف تكون عليه مأساة المصير التاريخى لروسيا ·· وقد انسحبت تماما من السياسة ، وكرست نفسى كلية للجهاد من أجل الروح فى وجه البلادة السائدة والعمى الذى أصاب الطبقة المثقفة · بيد أن المشكلات الاجتماعية لم تنقطع عن اثارة ضميرى وخيالى ، فكنت أقذف بنفسى من حين الى آخر فى

خضم المعترك الاجتماعى · وعندما أصبحت مماجرا الى الخارج بعد ذلك بزمن طويل ، ارتددت الى بعض أفكار شبابى الاجتماعية والسياسية المتطرفة غير أنها كانت قد استقرت بعدئذ على أساس روحى جديد ، أشد ثباتا · وسأتحدث عن ذلك باسهاب فى مرحلة تالية · وأيا كان الأمر ، فأنا على وعى بأننى كنت دائما ، وما زلت شخصا ثوريا ، وأن الأسباب التى جعلت منى ثوريا هى نفسها التى جعلتنى أقف ضد الثورات الزائفة والثوريين الزائفين الذين ظهورا فى روسيا فى أوائل القرن العشرين · وقد فهمت أن الروح معناها الحرية والثورة، بينما « المادة » معناها الضرورة والرجعية ، وأنها تنتشر الرجعية فى عقول الثوريين أنفسهم وأفئدتهم · وهذه فى الحقيقة هى المشكلة الحاسمة التى تكمن وراء المنطق الشيطانى « للمفتش الأكبر Grand Inquisitor فالناس على أتم استعداد للتنازل عن الروح فى سبيل الخبز (وان لم يكن من شأن هؤلاء الذين يملكون الخبز أن يعلنوا هذا المنطق فى وجه الذين لا يملكونه) ،· وهى مشكلة كانت تعد ملائمة بشدة على مسرح تاريخ روسيا الثورى والسابق على الثورة ، كما تعد الآن أشد ملاءمة على مسرح التاريخ العالمى ·

وأحب أن أضيف هنا بضع كلمات عن مسألة أجد نفسى مدفوعا فى كثير من الأحيان الى وضعها بالنسبة لبعض الأمور التى وضعتها فى هذا الفصل ، مثل مسألة التسامح وعدم التسامح · وأعتقد أن هذه المسألة فى معظمها مسألة مزاج ، ويبدو أن مزاجى قد اتسع لهاتين الخصلتين ، وأظهرهما معا · فلست أنتمى الى ذلك الطراز الأرثوذكسى القطعى (أيا كانت الصورة التى تتخذها الأرثوذكسية) الذى يعرف عادة بأنه متعصب عنيد صلب غير متسامح · ولست من هؤلاء المحافظين المتشبثين برأيهم ، ولا يقبلون أى انكار لآرائهم ويتحدون الحياة · بل لقد كان لدى دائما شعور تلقائى متين بالطابع المقدس لضمير الانسان ، وبحريته المطلقة لعقائده الدينية والعقلية · ومع ذلك ، فانى عندما أصطدم بما قد يصيب حرية الانسان وروحه أو أى قيم أخرى أعتبرها ثمينة مقدسة ــ من انتهاك ، فاننى أصبح فى هذه الحالة غير متسامح الى أبعد حد ، بل أذهب الى قطع علاقاتى بالاصدقاء الذين يرتكبون مثل هذه الجرائم ·

وقد كان الجمع بين هاتين الخصلتين سببا فى أن يرى الناس آراء خاطئة

ومتناقضة عن شخصى • والحق ، أن الانسان مخلوق تحيط به المتناقضات حتى ليبدو ملغزا • وقد اعتدت أن أستجيب فى عنف وغضب ضد بعض الاتجاهات المذهبية ، كما أن هناك مسائل معينة تكاد تكون مناقشتها معى أمراً محالا • وقد كنت أنا نفسى ضحية مزاجى العنيف المتناقض ، كما جعلت من غيرى ضحاياه • ومهما يكن من أمر فان عنادى ذو طابع أخلاقى ، أكثر من أن يكون قطعيا ، وان يكن من الممكن أن يصوب فى المناسبات ضد الأخلاقيين والمشرعين الذين لم أستطع احتمالهم اطلاقا • ومن جهة أخرى ، لم أشعر قط بأى ميل لادانة الناس شخصيا ، أى لأسباب تتعلق بحياتهم الفردية • والواقع أننى كنت شديد العطف ، متساهلا أشد التساهل من هذه الناحية ، الى حد أن أصبحت لهذا السبب هدفا سهلا لهجمات الاشخاص الذين يتميزون بأنهم أكثر منى تدقيقا وصرامة ، وفضيلة •

الفصل السادس

النهضة الثقافية الروسية فى أوائل القرن العشرين – مقابلات

فى خريف عام ١٩٠٤ انتقلت الى سانت بطرسبورج لأتولى تحرير مجلة دورية جديدة · وقد وقعت قبل رحيلى حادثة أحدثت تغييرا عظيما فى حياتى ، اذ التقيت بصديقة العمر « ليديا » · وكانت قد اجتازت تجربة نافعة من الحماسة الثورية ، وتحولت الى مسيحية مؤمنة · والحق أنها كانت تبدو بطبيعتها مهيأة للعقيدة الدينية ، وأثبت ايمانها فى أكثر من مناسبة أنه برج من القوة والتأييد لى · وكانت تتمتع بمواهب روحية ملحوظة ، وأوشكت فى أخريات حياتها أن تكون قديسة · وقد انقلبت الى الدين الكاثوليكى الرومانى ، والثورة الشيوعية فى أوجها ، ومرت خلال مرحلة من القطيعة الدينية المتعصبة المتزمتة · غير أن مزاجها الدينى تغير فيما بعد ، وصار موقفها أقرب الى نفسى ، فكانت على استعداد لقبول عضويتها فى الكنيسة على أساس أن الكنيسة تعلو على حدود الطائفية الضيقة · وكانت « ليديا » قد وهبت خيالا شاعريا وقادا ، وتمتلك مواهب شعرية لا شك فيها · وقد نظمت عددا من القصائد ، نشرت منها شيئا قليلا ، غير أنها كانت تخلو من أية مطامح أدبية · وكان ميخائيل جرشنزون (١) وفياتشسلاف ايفانوف يقدران شعرها تقديرا كبيرا ·

وكانت صديقة عمرى الثانية « جينيا » ، شقيقة ليديا ، التى أقبلت للحياة معنا عام ١٤١٤ ، وظلت رفيقتنا منذ ذلك الحين · وكانت تحمل على كتفيها مسئولياتى العملية جميعا ، وظلت طيبتها اللامتناهية وصبرها وفهمها تساندنى طيلة حياتى ·· وكان لها عقل طلعة حساس ، وروح شديدة التمييز · ولم يستطع المرض المستمر أن يعوق شدة حياتها الروحية ، واهتمامها العقلى ·

(١) كاتب وناقد أدبى أحيت دراساته التاريخية ودراساته لحياة الأدباء ، اهتماما لدى المثاليين الروس الذين عاشوا فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى (ك.ل) .

وكانت صداقتها تنطوى على دلالة عظيمة بالنسبة لى · ونظرا لطبيعة هذه الترجمة الذاتية فساكتفى بتلك الملاحظات الموجزة عن حياتى الخاصة فى هذه الفترة ، لأنتقل الى مسائل ذات أهمية أعم ·

فى ذلك الوقت ، أى عند وصولى الى « بطرسبورج » ، تم اجتماع بين المثاليين الماركسيين السابقين والمتحدث باسم الحركة الدينية الجديدة التى عرفت بذلك الاسم المفخم نوعا ما « الوعى الدينى الجد Novoye Religyoznoye Soznanye تتمركز حول أسرة « مرزهكوفسكى » (وهى تضم الى جانب ديمترى مرزهكوفسكى نفسه ، زوجته الشاعرة زنيدا جيبيوس ، وصديقهما ديمتـرى فيلوسوفوف) ، وكان هؤلاء هم المحـرين الرئيسيين لصحيفة « الطريقة الجديدة » Novy Put ، وكنت أنا وسرجى بولجانوف قد وضعنا خطة المجلة الدورية الجديدة التى أشرت اليها آنفا ، وقلت اننى سوف أحررها ، واستقر عزمنا على أن نستغل مجلة « الطريقة الجديدة » ، الموجودة فعلا ، بأن ندخل عليها بعض التعديلات والعناصر الجديدة · وكانت الجماعة الأصلية المسئولة عن « الطريقة الجديدة » ، والمثاليون يشتركون معا فى أشياء عديدة ، وأن تكن هذه المجلة مهتمة أصلا بالمسائل الأدبية ، بينما كنا ننوى أن تكون الصحيفة لسانا للفكر الفلسفى والسياسى · واستطعنا أن نجد حلا وسطا بأن نعهد بالقسم الأدبى من الصحيفة الجديدة الى الجماعة التى كانت تشرف على المجلة الأصلية ، بينما نتولى نحن الجانب الفلسفى والسياسى منها · وتبين لنا أن هذا الحل الوسط غير مستقر ، اذ كان يخفى عناصر متباينة أشد التباين ، متضاربة غاية التضارب · وانتهى الأمر بحل هذا الائتلاف بعد صدور عدة أعداد · وحل محل الصحيفة المشتركة صحيفة جديدة أطلقنـا عليها اسم « مسائل الحياة » Voprosy Zhigni ، ولم تستطع هذه الصحيفة أن تثبت غير عام واحد ، فى الظروف العسيرة التى كانت سائدة فى الأيام الأولى من الثورة ، وكان رئيس تحرير هذه الصحيفة ديمترى زوكوفسكى ، ومحررها الأدبى جورجى تشولكوف ·

كانت « مسائل الحياة » محاولة جديدة كل الجـدة لعرض التيـارات الشائعة دون الوقوع فريسة لاهتماماتها الطائفية ، فكانت بذلك ظاهرة جديدة فى تاريخ المطبوعات الدورية الروسية · ونظرا لميل الروس الفطرى للمشاحنة بسبب الاختلافات العقلية ، فقد كانت هذه المهمة مشحونة بمصاعب هائلة · أخذت الصحيفة على عاتقها مهمة هائلة هى التعبير عن أزمة الطبقة المثقفة فى نظرتها الى العالم ، وعن الأبحاث الروحية فى ذلك العهد ، وعن الاتجاه نحو المسيحية ، وعن التغيير الذى طرأ على جو الرأى الدينى · كما أفسحت

مجالا للتيارات الجديدة فى الأدب التى لم تكن تجد لها مكانا فى الصحف القديمة ، وكذلك للأمانى السياسية التى يتطلـع اليها الجناح اليسارى من « رابطة التحرير » ، ومن الاشتراكيين ذوى التفكير الليبرالى ٠

وعند وصولى الى « بطرسبورج » دخلت عالما أدبيا لم أكن أعرفه من قبل الا عن طريق السماع ٠ وكنت أميل دائما الى أن أتوقع ـ وربما كان ذلك بسذاجة نوعا ما ـ أن يحدث شىء كالمعجزة نتيجة لالتقائى بالآخرين ٠ وقد وجدت نفسى الآن مندمجا فى الجو المشحون المتوتر الذى كان شائعا فى النهضة الثقافية الروسية فى أوائل القرن العشرين ٠ وكان الكثير مما التقيت به فى هذا الجو الجديد يذكرنى بتجربتى السابقة عن « العاصفة والدفع » الديونيزية sturm und Drang ٠ وليس من اليسير الآن استحضار جو ذلك العهد ، اذ أخاطر بمحاولتى تلك أن ألجأ الى المبالغة ٠ وكثير من هذا الالهام الخلاق والحماسة قد دخل الثقافة الروسية وأصبح عنصرا دائما فيها ، ومن ثم فانه يمثل تراث الروس جميعا أيا كانت استجاباتهم الخاصة نحوه ٠ بيد أننا كنا فى ذلك الوقت محمولين على موجة من التجارب الخلاقة التى تبلغ حد النشوة ، ومن المشكلات الجديدة ، وضروب التحدى الجديدة التى يبدو أنها كانت تضغط علينا من كل جانب ٠ كان عهد يقظة الفكر الفلسفى المستقل الأصيل ، عهد الخيال الشاعرى الحاد ، والحساسية الجمالية ،٠كان عهدا يتميز بالقلق الروحى العميق والبحث الدينى ، وبالاهتمـام الواسـع الانتشار بالتصوف وبالعلوم الغيبية أيضا ٠ لقد شاهدنا توهج فجر جديد ، وبدا أن نهاية العصر القديم قد تلاقت مع عهد جديد يحمل بين طياته تغييرا تاما للحياة ٠

بيد أن هذه الحالات لم تكن سائدة الا فى دوائر محدودة نسبيا ، ومنعزلة عن التغييرات الاجتماعية الواسعة بعيدة المدى التى كانت تتحقق فى ذلك الوقت ٠ وكانت ثمة علاقات لا شك فيها على ابتداء الانحلال فى الحركة كلها ، بل كان يبدو أحيانا أنها تتنفس جو منزل مغلق لا أبواب فيه ولا نوافذ مفتوحة للهواء النقى ٠ والحق أننا لم نكن نشاهد بداية عصر جديد ، بل نهاية عصر قديم ، وكان يزعجنا احساس بانهيار روسيا القديمة المقبل ٠ ومن الأشياء الدالة أننا لم نكن نشعر بأية غبطة حقيقيـة فى الوقت الذى كانت تحركنا وتلهمنا فيه رؤى عظيمة ٠ وفضـلا عن ذلك كانت بوادر الابداع الحقيقى مصحوبة بتقليدات وبدع ٠ وكان الأمر بالنسبة للكثيرين لا يعدو أن يكون مسألة « ما ينبغى » comme il faut لكى يكون فنانا أو متصوفا أو « باحثا عن الله »٠وفشلت القيم الأخلاقية فى التأثير على أى انسان ، وكان العلم موضع

احتقار . وما كان صاحب النزعة العقلية المتخلف أو الوضعي يكاد يأمل فى أن ينجح فى أموره الغرامية ، تماما كما كان المثالى أو الرومانسى هو وحده الذى يثق بالنجـاح فى مثل هذه الأمور فى الأربعينيات من القـرن الماضى ، ومثله المادى أو صاحب النزعة العقلية فى الستينيات و « الشعبى » populist الذى قدم نفسه قربانا فى سبيل تحرير الشعب فى السبعينيات ، والماركسى فى التسعينيات .

وكانت الاتجاهات الثقافية والروحية الرئيسـيـة ذا تطبيعة رومانسـية متميزة ، وان تكن حالة خاصة مـ نالرومانسية الروسية . وقد وجدت النزعة الجمالية الرومانسية تعبيرا عن التصوير الرمزى ، وفى الشعر ، ونقد الفن ، وكان الأدب الروسى فى أوائل القرن العشرين قد خرج على العرف الأخلاقى السائد فى العصر السابق . فالنقاد الروس من الجيل القديم كانوا يتمسكون بمثل أخلاقية سامية ، ولكنهم كانوا يفتقرون الى الثقافة الفنية الحقيقية ، والى الاحساس الجمالى . وحمل احياء القيم الجمالية والاهتمام الميتافيزيقى بين طياته فهما جديدا للتراث الروسى الأدبى ، وأسهم فى تقدير أعمق لكتاب من أمثال « تولستوى » و « دوستويفسكى » . ومن الممكن أن نتبين ذلك فى وضوح فى كتـــاب من أقيـــم كتب « مرزكوفسكى » بعنـوان « تولستوى ودوستويفسكى » الذى قرأته باهتمام عظيم قبل أن أحضر الى بطرسبورج . وقد كان « الكسندر فولينسكى » من رواد الاتجاه الجديد فى النقد الأدبى ، اذ هاجم « الراديكالية الاجتماعية » السائدة فى التذوق الفنى ، وقطع صلته « بالاستنارة » الأدبية باسم النزعة المثالية الفلسفية ، والنزعة الجمالية ، وتحدى سلطة « دوبروليوبوف » و « تشيرنيشفسكى » و « بيساريف » الذين كانوا يمارسون نفوذا ملحوظا على الطبقة المثقفة . ومع ذلك ، فان عمله لا يمكن أن يعد ذا قيمة أدبية عظيمة ، كما كان موقفه الفلسفى غامضا ، وكان يفتقر الى احساس بالمنظور التاريخى . بيد أنه كان يملك من الشجاعة ما جعله يعارض النظم الأدبية القائمة ، مما كلفه غاليا ، اذ « طرد من الأدب » بتحريض من « ميخايلوفسكى » .

أما « ديمترى مرزكوفسكى » فكان أعظـــم نفـوذا ، وترك كتابه عن « تولستوى » و « دوستويفسكى » أثرا كبيرا ، وكان هذا الكتاب أهم ما ألفه من الكتب المقروءة . وكان ـ كمؤلفاته جميعا ـ محاولة مشيدة تشييدا بارعا ـ بل ربما كان بارعا أكثر من اللازم ـ للكشف عن معنى دينى فى العمـل الخلاق لهاتين العبقريتين الروسيتين العظيمتين . ولقد نبه الأذهان للبحث عن القيم الجديدة أو المنسية فى الأدب . أما الشخصية الأخرى التى ترتبط عادة

بالحركة الجديدة فهو « فاسيلى روزانوف » ، الذى بدأ فى الكتابة فى التسعينيات ، ولم تظهر دلالته الحقيقية الا فيما بعد كنتيجة لمساهماته فى « الاجتماعات الدينية ـ الفلسفية » ولصحيفة « الطريقة الجديدة » ، وكان أقل نشاطا أو بروزا من « مرزكوفسكى » ، ولكنه كان أهم منه باعتباره شخصية فى تاريخ روسيا الأدبى ٠

وأصول الحركة الجديدة ، متباينة ، وهى ليست أقل تباينا من التيارات التى كونتها ٠ أما المنابع الروسية فترجع الى اسمى « تولستوى » و « دوستويفسكى » ، وكذلك « سولوفييف » الى حد ما ، وجاء تأثير الغرب عن طريق « نيتشه » و « الرمزيين الفرنسيين » ٠ وكانت الاتجاهات الجديدة فى الفلسفة خاضعة أيضا لنفوذ « تولستوى » و « دوستويفسكى » ، وخاصة الأخير منهما ، وكثيرا ما تأخذ الأعمال الفلسفية شكل التعليقات على « دوستويفسكى » ، وتتميز الحركة الفلسفية بالبحث والعودة الى التقاليد الأصلية للفكر الروسى ، كما تم التعبير عنها فى أعمال هذين الروائيين ، وكذلك فى أعمال السلافوفيل (أصحاب النزعة السلافية) وفلاديمير سولوفييف ٠ وهذا يصدق على تفكيرى الفلسفى الخاص على الرغم من طابعه الثورى الصريح ، وسوابقه الماركسية ٠ ولقد انفصلت عن الجناح اليسارى للطبقة المثقفة ، كما ذكرت من قبل ، بيد أننى احتفظت بنزعته الراديكالية الاجتماعية والعقلية الصريحة ٠ واذا كان تأثير « نيتشه » قد تمخض عند الكتاب الروس الآخرين عن النزعات الحيوية واللاأخلاقية ، أو عن نظريات « فياتشسلاف ايفانوف » الأسطورية ، فقد دفعنى أنا الى مزيد من الاهتمام بالمشكلات الأخلاقية ٠ وقد قرأت «نيتشه» على ضوء «ابسن» ، و «ابسن» على ضوء « نيتشه » ، كما أثرى عقلى ثراء عظيما بارتباطى مع « ليوشستوف و « سرجى بولجاكوف » ٠ والحق أننى واجهت عند وصولى الى «بطرسبورج» آفاقا عقلية كانت مجهولة بالنسبة الى ، وكان أشد ما أثر فى ذلك الامتداد العقلى والثقافى العام ، أكثر من قيمة هذا أو ذاك من الأعمال الفلسفية أو الأدبية ٠

ومهما يكن من أمر ، فقد فطنت سريعا الى شىء غير صحى فى الجو السائد ٠ فما من مشترك فعلى أو ملاحظ مفكر ، يستطيع أن يتصور أن مثل هذا التحول الثقافى يمكن أن يتم فى يسر فى أى مكان ٠ بيد أن أخطر علل هذا التحول كان غموضا عميق الجذور ، أعنى عقلا منقسما ووعيا منقسما ٠ وكان يبدو أن الناس قد فقدوا القدرة على الاختيار الحر ، وأن عيونهم قد عميت من جراء تجاربهم القوية نفسها ٠ كانوا ممزقين ، بدلا من أن يهتدوا ـ

بتلك القوى الغامضة التى ادركوها فجاة ، والتى تحيط بالحيـاة وبالجهد الانسانيين وتكتنفهما ·

وكان المحررون الرئيسيون لصحيفة « مسـائل الحياة » التى اصبحت لسان الحركة الجديدة بكـل تفرعاتها المتنوعة ، الى جانب رئيسى التحرير « بولجاكوف وانا » هم الكتـاب التاليـة أسـماؤهم : « مرزكوفسكى » و « روزانوف » و « انطـون كارتاشـوف » و « ايفانوف » و « فيودور سولوجوب » و « الكسندر بلوك » و « أندريه بيلى » و « فاليرى بريوسوف » و « ألكسى ريميزوف » و « تشولكوف » و « جرشنزون » و « سيميون فرانك » و « ستروف » و « الأمير افجينى تروبتسكوى » و « بافل نوفجورودسف » و « فيودور زيلنسكى » و « فولينسكى » و « فلاديمير ارن » · وكان قسمها السياسى يمثله الليبراليون الراديكاليون ، والديموقراطيون الاشتراكيون الأقل منهم تعلقا بالمذهب · ومن المحزن حقا اننى كلما تذكرت هؤلاء الزملاء الذين عملوا معى فى « مسائل الحياة » ، ادركت أن عددا قليلا جدا منهم هو الذى ظل من أصدقائى ، اذ اعتبر معظم الآخرين من خصومى فى الوقت الحاضر ، بل ان بعضهم ـ مثل مرزكوفسكى وستروف ـ يعـادوننى عداء صريحا ، ويعتبروننى « بلشفيا » أيا كان معنى هـذه الكلمـة · وليس من شك أن الاختلافات كانت كامنة فعلا فى التكوين الأصلى للجماعة ، إذ كان هناك مثلا عدد من المحررين الذين يكتبون فى الشئون السياسية والاقتصادية ، ولكنهم كانوا منعزلين ، ولا يشتركون فى شىء مع الأهـداف الأساسية للصحيفة وأمانيها ·

وأيا كان العنف الذى تميـز به افتـراقى عن آل « مرزكوفسكى » ، بل وصراعى معهم ، فان اجتماعى بهم كان ذا اهمية ملحوظة بالنسبة الى ، كما استمتعت بفترة من الاتصال القوى بهم ـ وان كانت قصيرة ـ (كانت علاقتى بزنيدا جيبيوس ، علاقة صداقة حقيقية) · ولست افهم كيف حدث أن وصلنا الى مرحلة أصبح من المحال فيها أن نتبادل الحديث ، او حتى أن يرى أحدنا الآخر ·· كنا بلا شك مختلفين أشد الاختلاف فى المزاج والعقيدة ، بيد أن معظم هذا الأمر كان راجعا على ما أعتقد الى الموقف العدوانى الذى يتخذه هذا الجانب أو ذاك · وكان « آل مرزكوفسكى » يميلون الى تكوين جماعتهم الخاصة ، أو عصبتهم من الأصدقاء الذين يثقون بأنهم يشاطرونهم آراءهم ويدعون اليها ، فاذا حدث أن تركهم واحد من هؤلاء الذين علقوا عليه آمالهم أو حتى غامر بنقد افكارهم بالكلمة المطبوعة ، فقد كانوا يتبرءون منه · وكان

يدفعهم حب خفى للقوة ، ويفكرون ويعيشون فى جو غير صحى من الصوفية الطائفية المؤكدة للذات ·

وكنت اقضى خلال شتاء ١٩٠٥ أمسيات طويلة فى الحديث مع « زنيدا جيبيوس » ، ثم اتصلت بيننا فيما بعد مراسلة منعشة · وما زلت أضمر لها حتى الآن عاطفة واعجابا صادقين ، رغم اننا لا نتلاقى مطلقا · ومن سماتها العجيبة فهمها العميق للآخرين ، ذلك الفهم الذى كان يمتزج بالقدرة على تعذيبهم · وكان فيها شىء من خصال الأفعى ، اذ كانت هشة ، رقيقة ، متألقة ، خالية تماما من الدفء الانسانى ، وكانت تحتوى على مزيج غير مريح من العنصرين الذكر والأنثى ، بحيث كان من العسير أن يحدد المرء أيهما الأقوى عندها · أما أنوثتها فكأنت تعبر عن نفسها فى عنادها وبديهتها النزقة · وكانت بطبيعتها شخصية غير سعيدة ، قادرة على تحمل العذاب الشديد ، وتعذيب الآخرين · وكان الشعر هو الأداة الفكرية الملائمة لها ، بصرف النظر عن النقد الأدبى ، غير أن نظرتها وموقفها من الحياة كانا خاليين من الشعر قطعا ، وينطبق هذا على العهد كله ، فهو عهد الشعراء بلا منازع ، ومع ذلك فقد كان ـ وهذا ما يدعو الى العجب ـ خاليا من الروح الشعرية ، وثمة صفة « شـاعرية » كانت تفرض نفسـا حينذاك هى التمركز المطلق حول الذات egocentricity ونوع من النرجسية ، وكلاهما اذا شئت الصراحة ، كان بغيضا الى نفسى كل البغض · ولم تكن بينى وبين «مرزكوفسكى» نفسه صلة شخصية، بل انى أشك هل من الممكن على الاطلاق عقد مثل هذه الصلات معه · اذ انه لم يكن يستمع قط الى أحد ، أو حتى ينتبه الى الآخرين · ولم تكن حجرة الاستقبال لدى آل مرزكوفسكى مكانا تستطيع أن تلتقى فيه بشخص حقيقى ، وان غشيها حشد من الناس ، وانما كان المرء يشعر انه مستغرق فى مجموع لا شخصى · كان هناك ضرب من السحر تخيم ظلاله على حياتهما ، شىء شبيه بالجو الذى يسود اجتماعات الطرق الصوفية · وقد صادفت هذه الظاهرة نفسها فيما بعد بين الـ anthroposophists الأنثروبوصوفيين (السوفسطائيين البشريين) ·

وكانت جماعة المرزكوفسكيين يزعمون دائما أنهم يتحدثون باسم « نحن » افتراضية غامضة ، يطمعون فى اجتذاب أصدقائهم الى المشاركة فيها · وكان «فيلوسوفوف» واحدا من هؤلاء ، وكان «أندريه بيلى» أن يصبح واحدا آخر · وكانو يطلقون على هذه الـ « نحن » اسم « الثلاثة السريين » التى قدر لها فى خيالهم أن تكون نواة كنيسة جديدة للروح القدس حيث ينتظر « سر الجسد » تحققه الأخير · ولم يكن ثمةمفر ، من أن يصطدم الاطار الشخصى لعقلى ،

أو ما كان يسمى خطأ فى بعض الأحيان بنزعتى الفردية ، بهذه الأسطورية الغريبة ، ولم أكن مهيئا بأية حال من الأحوال للمشاركة فى هذه الـ « نحن » السرية • ومع ذلك ، فقد كنت أشاطرهم بعض مشاغلهم الدينية ، ووجدت نفسى مسوقا بالضرورة الى أن أكون المتحدث باسم الوعى الدينى الجديد ، وما زلت هذا المتحدث الى حد ما حتى الآن •

وأسرعت بى مقاومتى لتأثير جو « مرزكوفسكى » فى طريقى الى الكنيسة الارثوذكسية ، وساعدت فى هذه العمليـة ظواهر أخرى صادفتنى وكان لزاما على أن أعارضها فى « بطرسبورج » حينذاك • بل لقد كان اهتمامى قبـل الحضور الى موسكو ، قد أثير فعلا بتلك الاجتماعات الدينية الفلسفية التى كان يشترك فيها ممثلون عن الكنيسة الروسية الارثوذكسية • وكتبت مقالا عن هذه الاجتماعات فى صحيفة « التحرير » Osvobozhdenye وان لم أوقعها باسمى • وقد كانت هذه الاجتماعات هامة جدا من حيث أنها المحاولة الأولى للتعاون بين المتحدثين باسم الفكر والأدب الروسى من ناحية ، وأعضاء النظام التصـاعدى الذين يمثلون العناصر التقليدية ، بل والتقدمية فى الكنيسـة الأرثوذكسية من ناحية أخـرى • وكان سرجيوس مطران العاصمة ، الذى أصبح فيما بعد بطريركا بالنيابة ، ثم بطريرك الكنيسة الروسية ، يرأس تلك الاجتماعات ، وكان الموضـوع الرئيسى للمناقشة هو العلاقة بين المسيحية والثقافة ، وهو موضوع أثاره كتاب « ترنافتسف » عن سفر الرؤيا الذى نشر لتوه • ويتبع هذا الموضوع ، موضوع آخر يرتبط باسمى « مرزكوفسكى » و « روزانوف » (الذى كان اهتمامه بالموضوع أكثر صدقا من مرزكوفسكى) وأعنى به مشكلة الجسد والجنس • وكنت أعلق أهمية هائلة ، لا على تلك المشكلات فى حد ذاتها ، بل على الحاجة الى مواجهة المسائل الجديدة التى تثيرها تلك المشكلات من وجة النظر المسيحية فى صراحة ، وكنت أشعر أن اقترابى من المسيحية يعتمد الى حد ما على مثل تلك المواجهـة • بيد أننى كفيلسوف ، لم يسعنى الا أن ألمس خلطا فى الأفكار من الطريقة التى تعالج بها المشكلات موضوع البحث • وكان « مرزكوفسكى » مسئولا على الأخص عن هذا الخلط نتيجة للتقابل المرسوم فى مهارة ، وان يكن زائفا ، بين « الجسد » و « الروح » • وقد تحديته عدة مرات حول هذه النقطة ، بيد أنه كان جهدا لا غناء فيه من ناحيتى ، اذ كان « مرزكوفسكى » كلفا الى حد النشوة بتركيباته اللفظية • وفى رأيى أن هذا الخلط ناشىء عن هذه الحقيقة وهى أن تاريخ المسيحية ، فى الواقع وعلى الرغم من احتجاجات « مرزكوفسكى » ، يتميز لا بنقص الجسد ، بل بفيضه على حساب الروح • وقد فتح « الوعى الدينى الجديد » ـ بالنسبة الى ـ امكانية اعادة تأكيد أولوية الروح ـ والواقع

الفعلى هو أن التقابل بين الروح والجسد تقابل خاطىء · أما المشكلة الحقيقية فتكمن فى مكان آخر ، أعنى فى التعارض بين الحرية والضرورة · وما الحاح « مرزكوفسكى » المتضخم على « قداسة الجسد » غير موقف رجعى ، معاد للحرية والشخصية ، فى نهاية الأمر · وقد تعرضت لهذه المشكلة فى سياق مختلف فى مقابلتى مع « بافل فلورنسكى » فى موسكو ·

وعلى الرغم من نفورى الغريزى من ذلك الجو السحرى الذى يكتنف « جماعة مرزكوفسكى » فقد كنت مع ذلك متأثرا تأثرا عميقا ، ومنجذبا بادراكهم الشديد للافكار ، وبخلوهم خلوا كاملا من كل ابتذال · وظللت محصنا تمام التحصين فى وجه سفسطتهم السحرية ، وأصررت ـ فى هذا الجو الكثيف ـ على سعيى الأصيل فى سبيل قيم الحرية والشخصية التى تعرضت للخطر بسبب النزعة الطبيعية الهستيرية لدى « مرزكوفسكى » · وفى النهاية أفلحت أيام بطرسبورج فى تقوية موقفى السلبى من القوى التى تطمع فى اغراق الشخصية أو اخضاعها ، وتجعل من الانسان ضحية للتجريدات اللاشخصية ·

ولم تمسنى حركة العصر تلك المتعددة الاتجاهات والألوان الا من السطح فحسب ، فذهبت أبحث عن الاتصال بأشخاص جدد ، وكنت أريد أن أكتسب استبصارات جديدة ، وأن أوسع من معرفتى ، وأن أعيش من جديد تجربة عصرى التاريخية والثقافية · بيد أننى على ذلك المستوى العميق لم أفقد مطلقا احساسى بالوحدة وسط هذه الحركات الغادية والرائحة لذلك الاحياء الروحى العنيف · فليس غريبا اذن أن أثير النقد ، بل والسخط فى نفوس هؤلاء الذين تبنوا تلك الحركات ، وأن أدفعهم الى اصدار أحكام خاطئة عن موقفى · كنت أريد أن أفهم من الداخل التيارات الروحية والثقافية فى هذا العصر ، وأن أحيط بدلالتها ، ولكننى لم أستسلم تماما لهذه التيارات ، وما كنت أستطيع الاستسلام · وهذا القول يصدق أيضا على موقفى من الماركسية والأرثوذكسية · فقد كنت مدفوعا على الدوام الى الرجوع الى نفسى ، وبالتالى كنت أخيب آمال أولئك الذين يتوقعون الخضوع وعدم المقاومة من جانبى · وربما كان ذلك علامة ضعف أو علامة قوة من ناحيتى ، بيد أن هذا الضعف ـ ان كان ضعفا حقيقة ـ لم يكن عن نزعة شكية منفرة · والحق أن الحركة الأدبية الخلاقة التى ظهرت فى مستهل القرن قد نبهتنى تنبيها شديدا ، اذ أمدتنى بموضوعات سائغة ، ووضعت مشكلات جديدة ، وعمقت من ادراكى ، وانى لمدين بالشىء الكثير للاشخاص الذين اتصلت بهم اتصالا وثيقا خلال تلك الأعوام · ومهما يكن من أمر ، فقد أفلحت فى أن أظل صاحيا وسط المخمورين ، ومن ثم كنت بمثابة استفزاز لهؤلاء الذين حرمتهم حالتهم

المضطربة تلك من ملكاتهم النقدية · ولم يكن ضغط المؤثرات الغيبية فى صباى الباكر ، أو الحماسة المستبدة التى تميز بها الثوريون من الديموقراطيين الاشتراكيين ، أو « الوعى الدينى الجديد » الذى نادى به جماعة مرزكوفسكى ، أو الطائفية الغنوصية لدى الانثروبوصوفيين (السوفسطائيين البشريين) أو أرثوذكسية «بافل فلورنسكى» المنسوبة الى الأحاجى ، أو سطوة البلشفية الثورية المقوية ، لم تكن هذه النزعات جميعا قادرة على امتلاكى امتلاكا كاملا وارغامى على التنازل عن الضمير وحرية الروح · ومن المفارقة الى حد ما فى مثل هذه الظروف ، أن اصدقائى وأعدائى على السواء ، كانوا يرتابون فى أننى عضو فى جمعية غيبية أو سرية ، أو أننى من الماسونيين الأحرار المتخفيين ، أو ما شاكل ذلك ·

ولم يدفعنى تمردى على أن أتحدى جهارا المطالب التى تفرضها على الدوائر التى أتحرك فيها ، والتى تفترض أن أنضم اليها فحسب اذا اقتضت المناسبة ، بل كان يدفعنى هذا التمرد الى أن أقطع كل علاقاتى ، وأنتقل الى مدينة أخرى حتى أستطيع أن أظل حرا طليقا · ولم يكن أبعث على نفورى من ذلك الجو الخانق الكثيف الذى يحيط بالدوائر الأدبية حيث كان الدور المقسوم للمرء هو تغذية شهية الشعراء العاكفين على أنفسهم والذين يعيشون على اطراء الناس لأشعارهم · كما لم أكن أطيق المبالغة فى تلك الحماسة الغيبية الشائعة فى تلك الآفاق المغلقة الموصدة لكنيسة الروح القدس ذات الأسلوب الخاص · وأيا كان الأمر ، فقد خضعت فى مجال واحد لاغراء الحركات العقلية والروحية فى ذلك العصر ، وهو أننى لم أعد أهتم اهتماما شديدا بالمشكلات الاجتماعية · وربما كان ذلك راجعا الى حد ما الى حالتى التى أعقبت نضالى مع الدوائر الماركسية التى بذلت أقصى جهدها لاعاقة بحثى عن مسائل الروح · بيد أن هذه الحقيقة كانت تتمشى مع غياب كل احساس حقيقى بالمسئولية الاجتماعية لدى الصفوة المختارة من رجال النهضة الثقافية ·

ولا سبيل الى انكار أن عمل « مرزكوفسكى » كان ذا أهمية عظيمة فى مجال واحد على الأقل ، وهو أنه قدم الى الناس ، وكان هو نفسه تعبيرا عن عالم مجهول أو منسى من القيم الثقافية : العصور اليونانية والرومانية القديمة ، وعصر النهضة الايطالى ، والأدب الفرنسى ، «نيتشه» و «ابسن» ، حتى ولو كان يفتقر الى تلك الجدية الروحية التى يتمتع بها بعض الأعضاء الآخرين من الصفوة الثقافية الجديدة · وهو ينطوى فى الوقت نفسه على ذلك الاستقطاب العنيف الذى يميز العقل الروسى ، والذى أعتمته أجيال من

ألروس ذوى العقلية الوضعية · وهذا الاستقطاب وجد تعبيرا عن نفسه فى غرام « مرزكوفسكى » بالتقابل : « المسيح وعــدو المسيح » ·· « الروح والجسد » ·· « الهوة العليا والهوة السفلى » ·· « الشرق والغرب » وهلم جرا · ولسوء الحظ اتخذت هذه الاستقطابات صورة نوع من المواقف المضادة المدرسية ، وكانت شاهدا على وعى مفكك منقسم من أساسه ، وعى فقد القدرة على الاختيار والفعل · وربما دعا « مرزكوفسكى » ــ بصوته المألوف ذى النبرة الحادة ــ غيره الى العمل ، غير أن أفكاره لا تقدم أساسا للعمل أيا كان · ولا مكان فى مؤلفات « مرزكوفسكى » الضخمة لذلك الاهتمام التقليدى بالعدالة والحقيقة الأخلاقية فى الأدب الروسى ، ونحن نجــد فى كتابه عن « تولستوى ودوستويفسكى » مثلا بضع صفحات شائقة عن قدرة « تولستوى » الفنيــة الخلاقة ·· ولكنهــا فى الجزء الرئيسى منها ، هجــوم منحــل على « تولستوى » ، اذ لا يفطن « مرزكوفسكى » الى عدالة قضية « تولستوى » ضد الأكاذيب والزيف المستقر فى قلب المدينة والتاريخ الانسانى ، وانمــا ينصب اهتمامه كله على تبرير « جسد » التاريخ وتقديسه ، كما حاول آخرون من بعــده ، وخاصــة « فلورنسكى » وأرثوذكس المدرســة الجديدة · كان « مرزكوفسكى » خاليــا من صفات الشفقة والعطف التى تميز الروس كل التمييز ، بل كان ينبذ هذه الصفات باعتبارها صفات بوذية ·

ولقد كان « مرزكوفسكى » يؤمن ــ على وجه العموم ــ بضرب من المسيحية النيتشية ، ولكن بدون نزعة « نيتشه » الارستقراطية ، وادراكه الشديد لآلام الوجد الانسانى · وكانت نزعته النيتشية دين يمجد « الجسد والجنس » ، ولكنه هو نفســه كان يعانى من انعــدام « الجســد » ، فلقــد كان مخلوقا « لا جنسيا » sexless أساسا ، وكانت مزاعمه وادعاءاته عن قداسة الجنس مجادلات عقلية وجمالية للتعويض الذاتى · وكان يستخدم كلمة « الحرية » فى كثير من الأحيان ، بيد أننا لا نعثر على شىء من الحرية فى عبادته للجسد · وكان ذلك أشق الأمور على نفسى قبولا، ذلك ان الحرية هى الروح ، لا الجسد الذى يستعبد الانسان فى أغلب الأحيان · ونحن نبلغ الحرية لا عن طريق الانكار الزاهد أو عن التمجيد الطبيعى للجسدية ، ولكن عن طريق «الجوانية» Inwardness حيث لا يكون أى جزء من طبيعة الانسان خارجيا بالنسبة اليه · ولقد كان « مرزكوفسكى » على حق حين تحدث عن حقيقة الحب بين « آنا كارنينا » و « فرونسكى » وصدقه فى مقابل قانونية كارينين الزائفة ونفاقه · بيد أنه ينبغى النظر الى هذه المشكلة ــ فى رأيى ــ على ضوء الصراع من أجل حرية الانسان وكرامته ضد نظام القانون والسلطة ، ذلك النظام الذى يزيف العلاقات الانسانية ، ويحط من قدرة الانسان ، هذا بينمــا ســحق

« مرزكوفسكى » هـذه المشـكلة فى بناءاته المدرسية التى اصطنعتها نزعته الطبيعية الصوفية ٠

وكان « فاسيلى روزانوف » (واسمه يرتبط عادة باسم « مرزكوفسكى » ، وان تكن شـخصيته أكثـر دلالة فى تاريخ الفكـر الروسى من شـخصية مرزكوفسكى ») يؤمن هو أيضا بالنزعة الطبيعية ، وان لم يحاول أن يعرض أفكاره باعتبارها نسخة جديدة من المسيحية ٠ وأيا كان الأمر فقد كانت عودته الى الدين اليهودى والوثنى السابق على المسيحية ، دين الجنس ، معادية هى أيضا للحرية ، وخيانة للشخص الانسانى ٠ والجنس الذى لا يتكامل ويسمو عن طريق الروح يكون شـاهدا دائما على خضوع الانسـان للنوع ٠ وكان « روزانوف » يتجاهل فى بساطة الشخصية الانسانية على الرغم من انه كان يمتلك موهبة لا نظير لها فى وصف الكائنات الانسانية الحية ٠ والحياة فى نظره لا تنتصر عن طريق بعث الانسـان فى الأبدية ، بل عن طريق انجـاب الأطفال ، أو بعبارة أخرى من خلال عملية تفكك يختفى فيها الشخص الانسانى فى تعاقب الأجيـال الجديدة ، وفى اسـتمرار الجنس الانســانى ٠ وكان « روزانوف » يؤمن بدين الميلاد الأبدى ، والمسيحية بالنسبة اليه هى دين الموت لأنها تقتضى ــ فى رأيه ــ استبعادا أساسيا ، أو على الأقل قبولا فاترا ، للجنس والتناسل ٠ أما « مرزكوفسكى » فلم يكن معنيا ــ من ناحية أخرى ــ بالتناسل أو بالطبيعة لهذا السبب ، فلم يكن ابنا للطبيعة مثل « روزانوف » ، بل مثقفا ضعيفا سوفسطائيا من مثقفى « نهاية القرن » fin-de-siècle ، بحيث اصبحت نظرياته الجنسية مستودعا للامانى الغرامية التى لم تجد لها متنفسا ٠ بيد أننى أحب عند هذه النقطة أن أقول المزيد عن « روزانوف » ٠

كان « فاسيلى فاسيليفتش روزانوف » شخصاً فذا من جميع النواحى ، بل انه بالتأكيد أغرب شخص عرفته فى حيـاتى ٠ كان يتصف بسجايا روسية صميمة ، ومع ذلك ، كان مختلفا عن أى شخص آخر كل الاختلاف ٠ وطالما خطر لى انه كان من الممكن أن يتصوره خيال « دوستويفسكى » ، والحق أنه كان ــ فى بعض المواضع ــ نسخة أخرى من « فيودور كارامازوف » تحول الى كاتب ورجل دعاية ٠ وكان مظهره الخارجى عبارة عن مظهر فلاح أحمر الشـعر من « كوستروما » (وقد ولد فعـلا فى مقاطعة كوستروما ، وقضى الشطر الأكبر من حياته المبكرة فى عاصمة تلك المقاطعة) ٠ وكان شـخصا مشاكسا صبيانيا ، مبتذلا ، على خيال واسع ، وذكاء حاد ٠ وكان يتلعثم حين يتحدث ، ويقذف برشـاش من لعابه من حين الى آخر ٠ وكان ينطق أحيانا بأفكار مثيرة للدهشة ، ويهمس فى أذنك وهو يجمجم طيلة الوقت ٠

وكنت أعجب اعجابا شديدا بكتبه ، فقد كان كاتبا من الطـــراز الأول ، ويتمتع بأصالة فذة • وتضم ملاحظاته فى أسفل الصفحة وتعليقاته على هامش مقالات وأبحاث الكتاب الآخرين عادة ألمع تحليقاته الأدبية • وهو على الأرجح أعظم ناشر روسى • وطريقته الأدبية تتميز بحرية الحديث الحى وثرائه ، وبما فيه من ظلال دقيقة من التنغيم ، والأنغام العالية والخافتة • ويبدو انه يسيطر سيطرة تكاد تكون سحرية على الكلمات •• بيد أنه من المحال ترجمته أو شرحه •

وكانت بيننا عاطفة صادقة ، وقد اعتاد أن يدعونى « أدونيس » ، وأحيانا « الجنتلمان» ، ويخاطبنى دائما بضمير المخاطب الجمع • وقد كتب ما لا يقل عن أربعة عشر مقالا عن كتابى « معنى الفعل الخلاق » كان أغلبها هجوما على ما سماه « الروح الغربية » ، التى كان من المفترض أننى أصبت بعدواها • وكانت آراؤنا ومواقفنا من الحياة على طرفى نقيض ، غير أننى كنت أقدر نقد « روزانوف » للمسيحية التاريخية وفضحه للنفاق المسيحى نحو الجنس تقديرا عظيما • وأيا كان الأمر ، فانه لما كان عداء « روزانوف » للمسيحية مطابقا لدينه الطبيعى عن الجنس والتناسل والزواج والأسرة ، فقد وجدت نفسى الى جانب الشخصية ضد النوع ، والى جانب حرية الروح ضد الاحالة الموضوعية للجسد التى تخون صورة الانسان وتحطمها • و « روزانوف » لم يحارب الكنيسة ، فقد كان متأثرا تأثرا شديدا حقا بكل ما يرتبط أو يتداعى مع الكنيسة الروسية من معان ، بصورها ، ونماذج تقواها ، ودفئها ، وتراثها الشعائرى ، ولكنه كان يحارب المسيح المصلوب الذى كشف عن السر النهائى للموت • وكان « روزانوف » يردد أنه يؤثر شمعة محترقة على الله • فالشمعة يمكن أن ترى وأن تلمس ، وأنيمسكها المرء بيده ، بينما الله مجرد لا تبلغه العين الانسانية • وكانت تطيب له دعوة القساوسة الى الغداء لكى يشاطروه طبقه المعتاد من السمك • وكانت صحبته المفضلة هى صحبة الكهنة المتزوجين الذين لا يفهمون شيئا عن أفكاره ، ولكنهم لم يكونوا يضجرونه • وقد كان موقف « روزانوف » دليلا آخر (اذا كانت الأدلة ضرورية) على هذه الحقيقة الا وهى أن للجسد مكانا كبيرا جدا ، لا صغيرا جدا ، فى حياة الكنيسة • وربما ابتهج « روزانوف » بهذه النتيجة ، ولكنها كانت تثير الاشمئزاز فى نفسى •

وعندما انشئت فى « بطرسبورج » جمعية فلسفية ـ دينية على اســاس اقتراح منى ، قرأت بحثا فى اجتماعها الأول بعنوان « المسيح والعالم » كان موجها ضد مقال « روزانوف » القيم « ما يتعلق بالمسيح الأعذب ، وثمار العالم

المرة » ، غير أن هذه المبارزة لم تؤثر على علاقاتنا الطيبة · وقد كان معجبا أشد الاعجاب بـ «ليديا» · وقبل حوالى شهر من وفاته ، والثورة الشيوعية في أوجها ، حضر « روزانوف » لرؤيتنا فى موسكو ، وقضى الليل فى منزلنا · وكان الانطباع الذى تركه مؤلما ، اذ كان يتحدث دون انقطاع حديثا خاليا من المعنى ، وان يكن فى بعض الأحيان ، لامعا الى اقصى حد · وانكر انه همس فى أذنى قائلا : « اننى أصلى لله ، ولكنه ليس الهك ، انه أوزوريس ، أوزوريس »· وكان بعض رجـال الأدب الروس (ومنهم سولوفييف) يحتقرونه ويتهمونه بالانحراف الأخلاقى وبالانتهازية ، وكان هذا الاتهام الأخير راجعا الى مزاولته كتابة المقالات السياسية للاحزاب المتصارعة تحت أسماء مختلفة · ومهما يكن من الأمر فانى أظن أنه ظل فى الأساس مخلصا لنفسه · ولم يكن « روزانوف » مهتما بالسياسة فى ذاتها ، وانما كان مهتما « بالجو » و « الذوق » و « طعم » السياسة أو السياسيين اكثر من اهتمامه بالايديولوجيات السياسية · غير أن مساهمته الأساسية هى مناقشته لمشكلة الجنس ، وكانت له الهامات قيمة عن اليهودية والوثنية فيما يتعلق بهذا الموضوع ·

كتبت ذات مرة مقالا عن « روزانوف » بعنوان : « عن الأنثوية الأبدية فى الروح الروسية » · والحق أن عبقرية « روزانوف » خاليـة تماما من فضيلتى النظام والشكل الرجوليتين ، ولم يكن تفكيره منطقيا ، بل نفسيا · وكان وجوده كلـه مستغرقا فى نوع من الحسية الصوفية ، وكان يتحـدى باستمرار تهمة قلة الحياء العارية ، وكثير من الناس كانوا يجدونه مخجلا ، بل مقرفاً ، ومع هذا كله ، فانه واحد من أبرز الشخصيات الروسية ، وكاتب من أعظم كتابنا ·

وقد أخفق دعاة الأرثوذكسية ، بوجه عام ، فى مصارعة أو حتى مواجهة المشكلات التى أرقت « روزانوف » · وكان هو نفسـه منقـادا بغريزته الي المحافظين ، اذ كانت اللاأدرية العقليـة والنزعة الأخلاقية السـمجة لدى الراديكاليين تبعث على نفوره · وقد لاحظت على اى حال ان الجناح اليمينى من الأرثوذكسية يفضـل « روزانوف » على «فلاديمير سولوفييف » ، ويصفح عن الكثير مما لا يصفح عنه لدى من هم اكثر منه كبرياء ·

وقد كان من العسير أن يرتبط المرء بعلاقات ثابتة مع « روزانوف » ، اذ كانت طبيعته نفسها مختلة بشكل بعيد عن التصديق ، بيد اننى سوف اذكره دائما بعاطفة حارة ·

تكمن نكبة النهضة الروسية فى أوائل القرن العشرين فى عزلة صفوتها المثقفة عن الحركات الاجتماعية الواسعة فى ذلك العهد ، وهى حقيقة أثبتت أنها مهلكة على ضوء التطورات التالية التى حدثت فى أثناء الثورة الروسية ٠ ولقد أحسست أيضا أننى منعزل ، وان لم تنم غريزتى الاجتماعية فى يوم من الأيام نوما كاملا ، وكذلك لم اقطع علاقاتى بالديموقراطيين الاشتراكيين قطعا حاسما ٠ كان الروس يعيشون فى ذلك العهد على مستويات مختلفة ، أو - ان صح التعبير - فى عصور مختلفة ٠ ولم تلق النهضة أية أضواء على المناطق الأوسع من الحياة الاجتماعية ٠ وكان موقف المثقفين اليساريين من ناحية أخرى ، ولا أعنى بهم الثوريين الاجتماعيين فحسب ، بل الراديكاليين الأحرار أيضا ، كان موقفهم موقف الوقار الأخلاقى السمج ، والتزمت السياسى ، ولهذا أخفقوا فى أن يعكسوا التغيرات الثقافية العميقة ٠ ومن الحق أن عددا كبيرا من أنصار النهضة والمتحدثين بلسانها كانوا يعطفون على الثورة (وحتى روزانوف كتب كتاباً فى اثناء حوادث ١٩٠٥ طافحاً بالثناء على الحركة الثورية) ، ولكنهم كانوا يفتقدون احساسا بالتناسب فى اهتمامهم بالمشكلات الجديدة ذات الطابع الفلسفى والجمال والصوفى التى اهملها هؤلاء الذين ظلوا أجيالا متعاقبة مشتبكين فى الصراع الاجتماعى ٠ وهذا التقسيم بدا واضحا فى الاجتماعات العامة ، وفى كل مناسبة من تلك المناسبات كنت أشعر شعورا مؤلما بهوة مميتة تزداد اتساعا باستمرار ٠ واستبد بى شيئا فشيئا شعور الاغتراب الذى عرفته جيدا فى مناسبات سابقة ، وبدأت استجيب للصفوة المثقفة كما استجبت من قبل للجماعات الاجتماعية والسياسية فى أعوامى السابقة على بطرسبورج ٠

وكان هدف صحيفتنا « مسائل الحياة » هو أن نصل الى « التقريب » بين الحركات الثقافية والاجتماعية ، بيد أن مواردها للوصول الى مثل هذا « التقريب » كانت محدودة وناقصة ٠ ولم تظهر نتائج تلك التحديات الا بعد ذلك بزمن طويل ، عندما أصبح وجود الصحيفة نفسه مسألة من مسائل الماضى الذى عفى عليه النسيان ٠ وكانت النهضة الروسية تعانى من نقص فى الحسم الأخلاقى والاستعداد للاختيار والفعل ، فهى ضائعة فى نزعة جمالية ورومانتيكية مهوشة ٠ وكانت اكثر شبها بالحركة الرومانتيكية فى المانيا منها بالحركة المماثلة فى فرنسا حيث كانت مصحوبة بعنصر اجتماعى صريح ، بل ثورى ٠ وكان الانتشار الخلاق للافكار مقصورا على حفنة ضئيلة من الرجال والنساء الموهوبين ، ولم يصل مطلقا الى الجماهير الواسعة من الناس ، أو حتى الى دوائر واسعة من الطبقة المثقفة ٠

اما الثورة الاجتماعية ، فقد تطورت من ناحية اخرى تحت راية نظرة الى العالم كانت تبدو لنا بحق بدائية عتيقة ، نظرة أتيح لها أن تسيطر على المسرح الثقافى للبلشفية • وقد كانت الهوة فى الثورة الروسية بين الطبقات الثقافية العليا ، والطبقات الدنيا التى تؤلف الشطر الرئيسى من المثقفين والشعب ، كانت هذه الهوة أوسع الى غير حد مما كانت عليه الحال فى الثورة الفرنسية • وكان المروجون للثورة الفرنسية يستلهمون افكار روسو والفلسفة العلمية فى القرن الثامن عشر ، وكان يحملهم اكثر التيارات الفكرية تقدما فى ذلك العصر (مهما قيل عن قيمة ذلك الفكر) • أما المروجون للثورة الروسية فكانوا من ناحية أخرى يقتاتون من أفكار النزعة العدمية والوضعية الروسية المستهلكة ويعيشون عليها ، وكانوا لا يكترثون اطلاقا بمشكلات الفكر الخلاق فى عصرهم ، وكانوا لا يهتمون بـ « دوستويفسكى » أو « تولستوى » أو « فلاديمير سولوفييف » أو « نيقولاى فيودوروف » أو مفكرى أواخر القرن ، وانما كانوا قانعين بـ « هرفيج »(١) و « دولباخ »(٢) و « تشرنيشفسكى » و « بيساريف » (٣) • ولم يكن مستواهم الثقافى يرتفع عن مستوى « بليخانوف » • وكان « لينين » نفسه رجعيا من حيث الفلسفة والثقافة ، بل انه لم يكن ملما بالديالكتيك الماركسى ، ذلك انه لم يمر كما فعل « ماركس » بمدرسة المثالية الألمانية كلها ، على الرغم من انه قرأ « هيجل » •

وقد كان لهذه الحقيقة تاثير قاتل على الطابع الذى اتخذته الثورة الروسية الكبرى ، اذ بدأت بارتكاب جناية حقيقية ضد افضل ما فى الثقافة الروسية • والواقع ان الطبقة المثقفة اقترفت جريمة انتحار ثقافى • ويمكن أن يقال ان جيلين انسانيين كانا ينموان جنبا الى جنب فى روسيا قبل الثورة • ويقع اللوم فى هذه الحال على الجانبين معا ، أى على عاتق زعماء الثورة ، ومروجى النهضة الثقافية الذين لم يكترثوا بالمشكلات الأخلاقية والاجتماعية • وقد كنت أنتمى الى ذلك العصر ، وأشاطر فى ضعفه ومتناقضاته • ومع ذلك لم أندمج قط اندماجا تاما – كما أشرت الى ذلك من قبل – باية حركة من الحركات التى ارتبطت بها • وكان عدم استقرار صلتى بتلك الحركات ، ووحدتى وهواجسى سببا فى شحذ ادراكاتى الحسية •

---

(١) شاعر ثورى المانى يقترن اسمه باسم « الكسندر هرتزن » .

(٢) فيلسوف فرنسى مادى عاش فى القرن الثامن عشر وكان ينحدر من اصل المانى (ك•ل) .

(٣) زعيم العدميين وناقد أدبى لا يعترف بالفن الا من حيث انه يخدم اغراض تعليم « طبقة مثقفة علمية » (ك•ل) .

وقد افادت النهضة الثقافية فائدة عظمى فى اثراء المشاركين فيها عقلا وقلبا ، ولكنها أضعفتهم ايضا وحرمتهم من قوتهم . وقد قال « فياتشسلاف ايفانوف » ذات مرة ان الحركة تنطوى على امكانيات مجهولة لمعاناة نشـوة الالهام الديونيزى ، بغض النظر عن الوقائع التى ترتبط بها تلك التجربة . (« كيف » أكثر من « ماذا » على حد قوله) . كانت أجنحة ديونيزوس تكتسح وجه روسيا ، وتحرك حركة ثقافية بأكملها . وكان الناس يسعون الى النشوة من اجل النشوة نفسها . وأحيانا ــ وهذا هو الأدهى ــ لم يكونوا على أدنى استعداد للنشوة الحقيقية . ولم يكن يهتم بالوقائع غير نفر ضئيل منهم . سواء كانت وقائع الحواس أو العقل . وكان « الايروس » يتفوق تفوقا حاسما على « اللوغوس » . وهذا يعنى بالنسبة الى اهمـالا ــ مؤلما لى على وجه الخصوص ــ لمشكلة الشخصية والحرية . وقد اعترف لى «أندريه بيلى» ــ وهو من اكثر الرمزيين الروس أصالة وأشدهم نفوذا ــ اعترف لى فى صراحة وزهو بأنه لا « هوية » له ، ولا « نفس » . وربما لا نكون خارج الموضوع اذا تذكرنا فى هـذا السـياق التمييز بين الفردية والشخصية . فقد كان هؤلاء الناس ذوى فرديات حية راقية ، ولكنهم كانوا يفتقرون الى الشخصية ، أو كانت شخصياتهم ضعيفة لا شكل لها . فالشخصية تقتضى تحديدا ذاتيا من الوجهة الأخلاقية ، وهى تصور تقويمى أكثر منها تصورا جماليا أو نفسيا . وبالنسبة لهؤلاء الذين يهتمون بالشخصية فان أصـل النشوة ومادتها ، أو الـ « ماذا » باعتبـارها متمـيزة عن الـ « كيف » ، لا يمكن أن يكونا الا مختلفين . ولقد كانت العناصر الانحلالية فى النهضة الروسية مدمرة للشخصية بلا مراء .

ولابد أن نذكر ان بعض ممثلى النهضة قد حاولوا التغلب على الفردية واحياء فكـرة الـ sobornost ، فكـرة الوعى « السيمفونى » والثقافة « السيمفونية » . غير أن هذا الـ sobornost كان يختلف اختلافاً عظيما عن sobornost « خومياكوف » : فهو أقرب الى فكرة « فاجنر » عن الثقافة الجماعية . والاحيـاء الدينى والثقـافى عن طريق الفن . وقد كان الداعية الرئيسى للثقافة السيمفونية التى تذكر كنقيض للفردية التى عاثت فسادا فى النهضة الأوربية ، هو « فياتشسلاف ايفانوف » . وتقتضى النهضة الروسية ــ فى نظر ايفانوف ــ دينا كونيا شاملا ، وعودة الى المنابع القديمة والى التصوف الأرضى ، وكان يعارض الثقافة « العضوية » بالثقافة « النقدية » التى انتشرت فى عهد الاستنارة . ولم يكن فنانو ذلك العصر يريدون الاحتفاظ بحريتهم الشخصية ، ولكنهم كانوا يتطلعون الى الاعتماد على القوى الكونية وعلى حياة الشعب باعتباره كلا واحدا . وعلى الرغم من ان ذلك العصر قد

تميز بحرية عجيبة للعمل الخلاق ، الا أن الفنانين والكتاب لم ينتهجوا سبيل الحرية انتهاجهم لسبيل العبودية ، مما يبعث على أشد السخرية • وكان ذلك وسيلة للبحث عن تعويض عن حالة الانعزال التى وجدت فيها الصفوة المثقفة نفسها كما كانت النزعة الشعبية populism تعويضا للنبيل الروسى المعذب الضمير الذى ضحى بحياته « للشعب » تكفيرا عن أخطاء « الاسترقاق » serfdom • ولكن ، على حين كان أصحاب النزعة الشعبية مدفوعين بوعى حاد بالمسئولية الاجتماعية المباشرة ، كانت الصفوة المثقفة فى أوائل القرن العشرين تشتاق اشتياقا لا جدوى منه الى عالم من الثقافة « العضوية » المشتركة الشبيهة بالحلم •

غير أن واحدا من هؤلاء الكتاب والفنانين ما كان ليقبل أن يضحى بحريته الخلاقة باسم أية جماعة حقيقية ، أيا كانت • فما أعجب سخرية القدر التى كانت فى انتظارهم ! فقد أسفرت الثورة فى الواقع عن « خلع » الفردية ، وتنصيب ثقافة جماعية « للشعب » ، غير أن تحقيق هذا الأمر تم على حساب الانحطاط الثقافى وتجانسه • ولم تظهر الثقافة الجماعية فى روسيا التالية للثورة الا بعد سقوط الصفوة المثقفة وصرحها الثقافى الهش • وقد ثبت أن جميع الفنانين المبدعين فى النهضة الروسية كانوا زائدين على الحاجة ، وكان من الممكن أن يستغنى الزعماء الجدد فى يسر بل حتى فى احتقار بما أسهم به أولئك الفنانون • لقد تحقق الـ sobornost ، ولكن ما أبعد الشقة بينه وبين الـ sobornost المنشود الذى كان يبحث عنه رجال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين •

وانى لأعتقد أن سخرية القدر هذه تكشف عن شىء مميز بعمق لروسيا ولمصيرها الفاجع ، اذ يتصف الشعب الروسى بميل غريزى عجيب الى الجماعية ــ وهى جماعية ينبغى ألا تفهم مبدئيا على أية حال فى حدود سياسية أو اجتماعية ــ ومن الأدق أن نتحدث عن ميل الى الشيوعية ، فهى كلمة أكثر دلالة ــ لا على أساس أنها تتضمن مجرد تجمع للناس، بل اتصال بعضهم بالبعض الآخر ــ فنحن لم نعرف قط ، ولم نجرب « النزعة الفردية » بالمعنى الغربى لهذه الكلمة كما صيغت فى مدنية أوربا الانسانية • بيد أن هذا لم يمنعنا من أن نقدر فى عمق مشكلة الصلة بين الشخصية والانسجام الاجتماعى الكلى • والواقع أن أحدا لم يوضح هذه المشكلة بمثل تلك القوة والفهم كما وضحها « دوستويفسكى » و « بلنسكى » • فالنزعة الشعبية الروسية ، اليسارية واليمينية سواء ، والحركات الدينية والاجتماعية المتعددة فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وكل من « هرتزن » و « ميخايلوفسكى » ،

و « خومياكوف » وانصار النزعة السلافية ، و «فلاديمير سولوفييف » و «نيقولاى فيودوروف» ، و «روزانوف» و «فياتشسلاف ايفانوف» ، و «بيلى» و«فلورنسكى» ·· هؤلاء جميعا على الرغم مما فى مواقفهم من اختلاف ، كانوا يهتمون بالعلاقة بين الثقافة الجماعية والعضوية الـ soborny وبين ثقافة الغرب الفردية · غير ان التطبيق الروسى ـ كان مصورا فى أغلب الأحيان لهذا «السوبورنوست» مشوها ومزيفا · وهكذا نجد أن الشيوعية الروسية صورة هزلية من حيث أنها تخضع حرية الانسان الخلاقة لمطالب المجتمع الجماعى الآلى · ويمضى الروس فى حلمهم عن الـ sobornost الذى يجمع بين الوحدة المتكاملة للحرية والاتصال فى العلاقات الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية ·

ومن الحركات الطريفة التى ظهرت فى مجرى هذا العصر العاصف حركة تعرف باسم « الفوضوية الصوفية » ، وهى حركة ارتبطت بالأحداث التى أدت الى ثورة ١٩٠٥ وأعقبتها · وقد أثبتت هذه الحركة انها عابرة ، ولم تكن مقبولة قط حتى لدى الصفوة المختارة ، بل كانت مقصورة على عدد قليل من الدوائر الأدبيــة فى بطرسبورج · وكان البعض يعتبروننى مسئولا عن « الفوضوية الصوفية » ، وانى لأعترف باننى كنت مهتما اهتماما عميقا بهذه الحركة ، وان لم أنتسب اليها فعلا ، على الاطلاق ، بل لقد عارضتها فى تطورها الأخير · وكان المتحدثان الرئيسيان باســمها الشــاعر الشــاب والثورى « جورجى تشولكوف » و « فياتشسلاف ايفانوف » · ولم يكن اهتمامى بهذه الحركة أمرا غير طبيعى بالنسبة لمـاضى المتمــرد وصراعى الأخير مع زميلى الســابق « بيتر ستروف » الذى تحول فى ذلك الوقت الى سياسى متين محترم · وكان الشعار الذى يعتنقه الفوضويون الصوفيون هو « عدم ـ قبول العالم » (١) ، وكانوا يزعمون انهـم انصــار تحــرر الروح تحــررا كاملا من كل الشروط الخارجية · ولست بحاجة الى القول بأن قضية الفوضوية الصوفية كانت قريبة من نفسى قربا عميقا ، على الرغم من تخوفى من نزعتها التوفيقية الدينية التى تمارسها · فلقــد كانت الحرية ـ الحرية المطلقــة غير المشروطة ـ هى المصدر الأصلى والمحرك الأول لتفكيرى كله · واليوم ، وأنا أقترب من نهاية المطاف فى رحلتى الروحية ، فاننى أشــد وعيا عن ذى قبل بأننى فوضــوى صوفى ، حتى وان كنت أخشــى نوعا ما تلك النعوت ، وخاصــة لأنها تؤدى الى القضاء على هؤلاء الذين يعتنقونها ·

---

(١) تشير هذه العبارة الى كلمات « دوستويفسكى » على لسان « ايفان كارامازوف »: انى أقبل الله ولكننى لا أقبل هذا العالم » (المؤلف) .

وعيب الفوضوية الصوفية كما يمثلها « تشولكوف » و « ايفانوف » ، هو أنها فى نظرى تتجاهل الحقيقة فى نهاية الأمر ، وتؤكد الحرية بغض النظر عن حقيقة الانسان أو الله على السواء · وقد كان لهذه الحركة طابع أدبى خالص · وبينما افادت فى اثبات تفوق ايفانوف على الدوائر الأدبية فى « بطرسبورج » ، فان تاثيرها فى جملته كان يعمل على التفكيك · وثبت أن مقاومتى لبعض الجوانب من الفوضوية الصوفية كانت منبها آخر نحو قبول المسيحية الارثوذكسية · ومهما يكن من أمر فقد كنت وما زلت فوضويا صوفيا ما دام الله بالنسبة الى هو الحرية ، فهو محررى من اسر العالم واستعباده ، وملكوته هو بالنسبة لى ملكوت الحرية والفوضى · ولا أستطيع أن أعتبر المقولات الاجتماعية كالقوة والسيطرة مما يمكن تطبيقه على الله أو على علاقة الله بالانسان والعالم ·

أصبح مجتمع « بطرسبورج » الأدبى مصدرا للسخط المتزايد من جانبى · وقد أحسست بذلك خاصة عندما اصطدمت بتلك الطريقة اليسيرة التى كيفت بها الدوائر الأدبية نفسها مع الجو الثورى السائد عام ١٩٠٥ ــ ١٩٠٦ ، رغم أن استجابتى السلبية له كانت بعيدة كل البعد عن استجابة السياسيين المحافظين · وكنت أنفر قبل كل شىء من نزعتهم التى تخفى انعداما عميقا للشعور بالمسئولية الاجتماعية ، تماما كما كنت انفر فيما بعد فى أثناء منفاى من موقف « المتأدبين » فى فرنسا · ولم تكن الكلمة هى التى تحولت الى « جسد » هنا ، بل على العكس ، « الجسد » هو الذى تحول الى « كلمة » ، وأخذت التركيبات اللفظية السهلة والهذر الأدبى بديلا عن الأشياء الحقيقية والعلاقات الانسانية الحقيقية · ومهما يكن من أمر فانى أحب أن أضيف كلمات قلائل عن « فياتشسلاف ايفانوف » التى ارتبطت به وبزوجته « ليديا زينوفييفا ــ أنبيال » ارتباطا وثيقا ابان مرحلتى فى بطرسبورج ·

كان « ايفانوف » واحدا من أبرز رجال عصره ، وكان غنيا بالمواهب ، غير أن فى ماضيه شيئا يجعل من غير المنتظر أن يصبح تلك الشخصية العقلية القوية التى أحاطت بالثقافة احاطة شاملة فى جيله الذى عاش فيه · وكان يعرف بيننا بهذا الاسم « فياتشسلاف الفخم » ، فما عرفت روسيا له شبيها · كان ابن موظف مدنى صغير ، وكان أغلب أسلافه من الكهنة الروس الذين يضربون بجذورهم عميقا فى التربة الروسية · ومع ذلك كان « ايفانوف » رجل الثقافة الغربية بلا منازع · وقد عاش طويلا فى الخارج ، وهناك قام بتحصيل ثقافته الواسعة فى الكلاسيكيات والتاريخ القديم ، وكانت احاطته المدرسية اللامعة تسيطر على المسرح حيثما ظهر فى بطرسبورج ، فهو بلا جدال

أعظم فقيه كلاسيكى روسى · وقد نجح فى أن يجمع الى خياله الشاعرى القوى معرفة مدهشة بعلم اللغة القديم وبالدين اليونانى · وكان فيلسوفا ولاهوتيا ، ومتصوفا وداعيا سياسيا · ولم يكن ثمة موضوع لا يستطيع أن يلقى عليه ضوءا جديدا غير متوقع · وكان يملك جاذبية شخصية نادرة ، فهو أعظم محدث التقيت به فى حياتى · ومع ذلك كانت فيه سمة واحدة كنت أجد صعوبة فى العطف عليها ، وجعلتنى أتشاجر معه فى عدة مناسبات ، اذ كان يبدو أن احساسه الجمالى يدفعه باستمرار الى نوع من التطابق أو الانسجام مع بيئته ومع الناس الذين يعيش بين ظهرانيهم · وكان يترك فى النفس انطباعا بأنه يكيف نفسه ويغير آراءه تبعا لتلك البيئة · ولم نلبث أن افترقنا عقب الثورة الكبرى وانقطع أحدنا عن رؤية الآخر · ومن المحتمل انه ظل صادقا مع نفسه فى أعماق قلبه ، وكان يميل مجرد ميل ، الى احالة الواقع كما يجده الى مثل عليا ، والى ضرب من الشعر · ومن ثم ، فانه من الصعب أن نطبق عليه المعايير الأخلاقية : فقد كان كل شىء : كان محافظا وفوضويا ، كان قوميا وشيوعيا ، وفاشيا فيما بعد فى ايطاليا ، وكان ارثوذكسيا وكاثوليكيا رومانيا ، وكان غيبيا ومن دعاة الأرثوذكسية الدينية ، وكان صوفيا ووضعيا علميا · وفى كل تلك المواقف والأوضاع كان يعرض مواهبه المتعددة اللامعة بلا انقطاع ، وكان شعره الذى ينتمى الى المدرسة الرمزية أصيلا كل الأصالة ، ولكنه شعر وعر ، وفيه أستاذية ، وزخرفة ، ولكنه يخلو من التلقائية ، وهو باعتباره شاعرا يعد فى مرتبة أدنى من الرمزى الروسى الأعظم «الكسندر بلوك» · وكان فوق هذا كله كاتب مقالات لامع · وعلى الرغم من قدرته على التكيف ، (أو ربما بسبب هذه القدرة) ، فانه كان مدفوعا دائما الى السيطرة على عقول الآخرين وأفئدتهم ·

وقد كانت « أيام الأربعاء » التى يدعو اليها « فياتشسلاف ايفانوف » من السمات المميزة للنهضة الروسية · وكانت شقته المعروفة باسم « البرج » فى الطابق السابع من منزل يشرف على نهر الدوما الذى يخترق « متنزه ثوريدا » ، مكانا يلتقى فيه أبرز رجال الأدب والشعراء والفلاسفة والمدرسين والفنانين والممثلين ، وحتى السياسيين فى ذلك العهد · وكانوا يمكثون حتى الساعات الأولى من الصباح ، وهم يتناقشون مناقشة بارعة حول كل موضوع تحت الشمس · وقد ظللت طيلة أعوام ثلاثة شبه رئيس دائم لهذه الاجتماعات · وكان « ايفانوف » يتضايق اذا تغيبت عن الحضور ولم أرأس هذه الندوة · واذا أردتم الصراحة ، فقد كنت رئيسا سيئا ، وان كان للآخرين رأى مختلف فى هذا الموضوع ، اذ لم أنجح قط فى أن أكون موضوعيا ، كما يليق برئيس ندوة ، بل كنت ايجابيا ، أتدخل فى المناقشة فى معظم الأحيان ، وأدافع بحرارة عن بعض

الأفكار ، وأهاجم بهذه الحرارة نفسها افكارا أخرى · بيد اننى كنت انسحب الى الخلف آمنا فى المناسبات العديدة التى ينشد فيها الشعراء قصائدهم ، وان كنت أشعر بالآلام والحرج فى مثل تلك المناسبات ، لأنه يبدو أن الشعراء يتوقعون الثناء والاعجاب دائما · اما « ايفانوف » فكان على العكس من ذلك ، ناقدا ذواقة متعاطفا كل التعاطف مع الشعر ، ويعرف كيف يكتشف المواهب الشاعرية الشابة وينميها · وكان يتجشم كثيرا من العناء عامة في سبيل الناس ، ويكرس الكثير من اهتمامه لهم · بيد أن موهبته التى لا يخطئها المرء للصداقة كانت ترتبط برغبة مستبدة عجيبة للسيطرة على أرواح الآخرين · وقد كنا على طرف نقيض فى هذه المسألة · أفنا لم أكن أملك موهبة للصداقة ، كما لا أستطيع أن أكرس نفسى للآخرين أو أن أقوم بتعليمهم ، وفوق هذا كله كنت أنفر دائما نفورا صادقا من قيادة الارواح أو السيطرة عليها ، والواقع أننى حتى لو أردت ان أمارس التأثير على عقول الآخرين وأفئدتهم ، أو وددت السيطرة عليهم ، فاننى سوف أبوء بالفشل الذريع · اما « ايفانوف » فكان ــ على العكس من ذلك ــ أستاذا فى فن السيطرة على نفوس الغير ، ولم تلبث جاذبيته الشخصية القوية أن جعلته زعيما · وكانت نظرته النافذة الجذابة مما لا يستطيع مقاومته الكثيرون ، ولا سيما النســاء · بيد أن الناس هجروه فى النهاية ، لأن علاقته بهم ، وان تكن زاخرة بالاهتمام والعطف عليهم ، الا انها كانت تنطوى على شىء من طباع مصاصى الدماء ·

وعندما أتذكر « أيام الأربعاء » لايسعنى الا أن أدرك أن « البرج » كان على أكمل معنى لهذه الكلمة ،برجا عاجيا حيث كانت تدور المناقشة الصوفية والقراءات الأدبية ، بينما تعصف الثورة فى شوارع روسيا ، ويشق مصير روسيا الفاجع طريقه ، وكان ممثلو الحركة الثورية يظهرون فى « البرج » من حين الى آخر ، مثل « لونا تشارسكى » الذى كان بمثابة مذكر لنا بحقيقــة المطرقة والسندان الخشنة · وذات مرة ، كان الاجتماع كبيرا على غير المألوف ، فقام رجال الشرطة بتفتيشنا ــ وهو حادث أثار ضجة كبيرة ــ وكان الجنود المدججون بالبنادق يسدون كل باب ، وأخذ الضباط يستجوبوننا طيلة الليل · ولم يكن هناك بالطبع شيئا جديدا على ، بيد أن الآخرين بوغتوا مباغتة غير متوقعة تماما · فقد كانت الرابطة الوحيدة الممكنة بين « البرج » والعالم الثورى هى « ديونيزوس » الذى اجتاح عنصره المدمر روح الصفوة وعقلها ، وروح روسيا نفسها فى تجربتها الثورية ·

وكان « ايفانوف » هو المتحدث الرئيسى باسم النزعة « الديونيزوسية » ، فقد اجتذبته الديانات اليونانية السرية فى سن مبكرة ، واصدر عام ١٩٠٣

دراسة عن دين « ديونيزوس » ، وهى على الأرجح أهم دراسة صدرت عن هذا الموضوع · وأشعاره حافلة بالعناصر الديونيزوسية ، وكان مولعا بقوله انه بينما كانت النزعة انديونيزوسية مسألة جماليات بالنسبة لنيتشه ، فانها بالنســبة اليه مسألة دين · والواقع أن احدى أفكاره المميزة له كانت فكرة التوحيد بين المسيح و « ديونيزوس » · ومع ذلك ، فقد كان أبعد ما يكون عن « الديونيزوسية » بطبيعته ، واذا استخدمنا المصطلح الشائع بين الرومانسيين قلنا انه لم يكن ينتمى الى « الطبيعة » ، وانما الى « التعليم »nurture · واكنت تختبىء فى روعته وأستاذيته رحمة النزعة العقليــة المهذبة أكثــر مما تكمن القوى الديونيزوسية ·

وأحب أن أذكر هنا حادثة فى هذا المقام كانت منبعا للشائعات والأقاويل الحمقاء · فقد دفع المزاج الديونيزى وميل معين الى الشعوذة طائفة من الكتاب الى أن يحاولوا تقليد الطقوس الديونيزية الدينية ، فالتقوا ذات مساء بتحريض من ايفانوف واشتراك «سولوجب»[١] الفعلى ، فى منزل «نيقولاى مينســكى» ، وهو شاعر وعضو فى الجماعة النيتشية ، وأخذوا يقيمون طقوسا دينية لكى تؤدى بهم فى نهاية الأمر الى حالة من حالات النشوة · ولم يسفر هذا الاجتماع الا عن بيان حدود الشعوذة والتهريج التى يمكن أن يصل اليها هؤلاء الناس · وانى أذكر هذه المناسبة بوصفها شيئا منفرا يبعث على الاشمئزاز ، حتى لو كانت بريئة كل البراءة · وشرع شخص ما ينشر فيما بعد شائعات خيالية استغلتها الصحافة الرجعية كما ينبغى ، وأقيمت أسطورة كاملة عن « وكر الشعائر الشيطانية » ·

وقد أثبتت أعوام « بطرسبورج » ، على الرغم من امتلائها بالانطباعات الجديدة ، أنها لم تكن بالنسبة لى ، أعواما مثمرة كل الاثمار ، اذ لم أستطع أن أكتشف بعد ، أو أن أحدد فى وضوح ، الدافع السائد فى حياتى وفكرى · غير أن أفقى العقلى اتسع اتساعا ملحوظا ، وتبدت لى رؤية عن أشياء جديدة ، وأثريت بتجارب عاطفية جديدة · وقد كتبت كثيرا ، ولكننى لم أنجح فى انتاج شىء ذى قيمة باقية · وحاولت أن أعبر عن آرائى حول موضوع الفوضوية الدينية فى كتاب أعتبره الآن كتابا غير واف هو : « الوعى الدينى الجــديد والمجتمع » · ومهما يكن من أمر فقد كانت ثمة عملية خفية تجرى فى أعماقى بحيث لم تعد بعد قابلة للتعبير عنها ، ولكنها تشير الى تذوق أعمق للعنصر

---

(١) شاعر وروائي رمزى (ف٠ك) ٠

الدينى • وصادفت هذه العملية ـ كما أشرت الى ذلك من قبل ـ رد فعل روحيا ضد الاتجاهات الأدبية المعاصرة ، وهو رد فعل أسفر أخيرا عن تبديد كامل للاوهام ، وقطيعة تامة مع العالم الادبى • وكانت « بطرسبورج » تبدو لى مسممة ، وكنت لا ازال أكرس وقتا كثيرا للجمعية الدينية الفلسفية التى كنت رئيسها ، ولكننى لم أكن على يقين من بقائى فى « بطرسبورج » • ولم البث أن قررت الرحيل عنها ، فغادرتها عام ١٩٠٧ ويممت وجهى شطر الريف أولا ، ثم شطر « باريس » حيث قضيت فصل الشتاء •

والتقيت فى « باريس » بآل « مرزكوفسكى » ، غير أن لقاءنا لم يكن لقاء سعيدا ، وكان يبدو أننا نتعارض باستمرار ، وكنت حانقا لجهلهم المطبق بالأحداث فى روسيا ، وكانوا يصرون على الحياة فى البرج العاجى المشيد من تركيباتهم الأدبية والدينية الخانقة دون أن يلحظوا التطورات الخطيرة التى تحدث فى روسيا • وكانت الأشهر القليلة التى قضيتها فى باريس خالية من البهجة نوعا ما ، اذ كانت المشكلات الدينية تلح على ، وأحسست أنه لابد لى من مواجهة تلك الموضوعات مواجهة جدية حتى أخلص نفسى من أنصاف الحقائق وأنصاف الوقائع التى سيطرت على مشهد حياتى فى بطرسبورج • وكان « آل مرزكوفسكى » يعتبرون حالتى العقلية نذيرا باقترابى الوشيك من الكنيسة الارثوذكسية ، والحق أننى كنت أحس فى صحبتهم بأننى ربما كنت أكثر أرثوذكسية مما أعترف به بينى وبين نفسى • وكانت طائفيتهم ـ شبه الأدبية وشبه الدينية ـ تثير معارضة شديدة فى نفسى ، فكنت أنفر من كافة محاولاتهم لانشاء كنيسة طائفية مزيفة ، وأرفض قبول تفسيرهم « للوعى الدينى الجديد » على انه دعوة لانشاء شعائر جديدة • وهكذا انقضى الشتاء كله فى جدل ونزاع عنيف ، ولم أعد الى بطرسبورج قط ، وانما ذهبت الى موسكو بدلا عنها •

ولا أحب أن أعطى للقارىء انطباعا بان النهضة الروسية كانت فسادا كلها ، فقد كانت تنطوى على أعراض صحيحة كثيرة بحيث تعد الأعراض المسيحية فيها خاصة ، أكثرها دلالة • ولم يستطع الشعراء أن يبقوا طويلا فى ذلك الجو الخانق الذى يحيط بالنزعة الجمالية البحتة ، فحاولوا أن يتعالوا على النزعة الفردية الضيقة بشتى الطرق ، وهذا يصدق الى حد ما على « مرزكوفسكى » نفسه • وكان الرمزيون البارزون هم أكثر الناس اصرارا فى دعوتهم الى الـ sobornost ضد النزعة الفردية ، والى الصوفية ضد النزعة الجمالية • وكان كل من « فياتشسلاف ايفانوف » و « أندريه بيلى » (قبل مرحلة اليأس القاتم الساخر التى استبدت بهما قبيل الثورة الكبرى)

متصوفا ، كما كان كل منهما شاعرا ، ولم يكن تصوفهما قبل كل شىء مجرد وضع من الوقار الكهنوتى غير المسئول • وكانت هناك علامات على « تقارب » ممكن وفهم بين الرمزيين والحركة التى نبعت من الماركسية والمثالية • وقد وجدت نفسى واحدا من الحلقات الرئيسية التى قامت بالوساطة فى ذلك « التقارب » • وكانت امكانية الفهم المتبادل منعكسة فى نشاط الجمعيات الدينية الفلسفية بمراكزها فى موسكو وكييف ، وبطرسبورج أيضا • ومن أهم الشخصيات فى تلك الجمعيات كان سرجى « بولجاكوف » الذى بدأ حياته ماركسيا ، ثم صار ــ بعد تطور معقد ــ أول من يعود الى الارثوذكسية التقليدية • وقد أنشئت جمعية موسكو الدينية الفلسفية تكريما لذكرى « فلاديمير سولوفييف » ، وكان أنشط وأبرز أعضائها « بولجاكوف » ، و « الأمير افجينى تروبتسكوى» ، و «فلاديمير ارن» ، و «جورجى راتشنسكى» ، ثم «فياتشسلاف ايفانوف » فيما بعد •

وعندما أتيت الى موسكو انضممت الى هذه الجماعة ، فتأثرت فورا بما يشيع فى الجو الذى يجرون فيه مداولاتهم من جدية ، وكان ذلك منعشا لى كل الانعاش بعد الفترة التى قضيتها فى بطرسبورج ، واذا لم أشعر هنا أيضا بالسعادة التامة ، فقد كان ذلك راجعا لأسباب مختلفة عن الأسباب التى دفعتنى الى مبارحة بطرسبورج • وكانت جمعية موسكو الدينية الفلسفية جمعية تقليدية متميزة ، ووجدت نفسى فيما يشبه الآلية ، فى موقف « اليسارى » ، و « المحدث » وممثلا متطرفا « للوعى الدينى الجديد » على الرغم من رغبتى المخلصة للمشاركة فى حياة الكنيسة الارثوذكسية •

وكان يبدو أن لجمعية موسكو الدينية الفلسفية جاذبية أوسع ، فأصبحت بالتدريج مركزا روحيا وعقليا حقيقيا • وكانت المحاضرات والمناقشات العامة تلقى اقبالا حسنا ، وأحيانا كان الناس يتدافعون الى الاجتماعات فى حشود ضخمة • وكانت الجمعية قد اهتدت الى طريقتها الخاصة فى وضع المشكلات ومناقشاتها ، فما من مشكلة كانت تناقش منعزلة عن الكل التى هى جزء فيه • وكان الشاغل الرئيسى هو اكتشاف المعنى الروحى النهائى للمسألة المطروحة للبحث ، سواء أكانت تتصل بالتاريخ ، أم بالثقافة ، أم بالاقتصاد ، أم بالسياسة• ولم يكن فى هذه العملية شىء مدبر أو جاهز جاف ، بل كانت المناقشات تلقائية وعلى مستوى عقلى رفيع •

وقد شاركت مشاركة ايجابية فيما بعد فى أثناء منفاى بفرنسا ، فى المناقشات مع رجال الفكر الفرنسيين فى بونتينى ، والارتباط مع « الاتحاد

من أجل الحقيقة » • وأجد لزاما على أن أقول ان المناقشات التى دارت فى روسيا كانت أكثر تنقيبا ، وأشد تأثيرا والهاما ، فلم نتجنب قط النظر فى أية مشكلة لما فيها من مزايا خاصة ، كما لم نكن نشتت تفكيرنا بالأحكام المقارنة • وأذكر ـ على سبيل المثال ـ بحثا قرىء علينا فى « بونتينى » عن العزلة ، فتحدثنا عن التأثيرات والموازنات •• وعن العزلة كما عرفها «بترارك» و «روسو» ونيتشه ، ولكننا لم نعالج مشكلة العزلة نفسها • وهذا على ما اعتقد لا يخلو من دلالة ، اذ يدل على أن الناس فى أوربا ـ وربما فى فرنسا خاصة ـ قد أصيبوا بضرب من الانهـاك الروحى ، وفقـدوا القدرة على توجيه الأسئلة الحاسمة والبحث عن الحلول الحاسمة • أما الروس ، فعلى العكس من ذلك ، يعتبرون هذه الأشياء هى وحدها ذات اهمية • فكان « بلنسكى » يقول مثلا بعد مناقشة أستغرقت الليل كله : « اننا لا نستطيع أن نئوب الى منازلنا ، فاننا لم نقرر بعد شيئا عن مسالة الله » • وكان هذا حالنا عندما يجتمع «بولجاكوف» و «جرشنزون» ، و «شستوف» ، و «ايفانوف» ، و «بيلى» ، وآخرون غيرهم •

وعلى الرغم من الاستجابة التى قوبلت بها جمعية موسكو فى كثير من الأوساط ، فقد كانت جماعتنا صغيرة ، ونظرتها تختلف عن نظرة الممثلين النموذجيين للطبقة المثقفة ، وخاصة ذلك الطراز الذى يعشق الغرب • فكانوا اذا حضروا تلك الاجتماعات جلسوا عادة فى أثناء القاء الأبحاث ، وثابروا على الاختفاء قبل أن تبدأ المناقشة الحقيقية ، أى قبل تقرير « مسألة الله » • ولا شك أننا كنا نتحدث كثيرا ، ونعمل قليلا ، أو لا نعمل على الاطلاق ، هذا هو الضعف المهلك الذى تميزت به حركة النهضة كلها • ومع ذلك فان هذا الضعف لم يمنعنا من التأثير على عقول معاصرينا ، أو من أن يكون خميرة ثقافية •

وسيكون لدى المزيد من القول فيما بعد عن علاقتى بالأرثونكسية ، ولكننى اريد أن أذكر هنا أن مرحلة موسكو اتفق وقوعها مع محاولة جدية من جانبى لدراسة التقليد اللاهوتى للكنيسة الارثوذكسية وربط تفكيرى بهذا التقليد • ولم أجد بين اللاهوتيين الروس غير واحد فقط كان يعبر عن حالتى هو « نسنيلوف » أحد أساتذة الاكاديمية اللاهوتية بقازان ، وقد ترك كتابه « علم الانسان » انطباعا عميقا فى نفسى ، ولعب دورا ملحوظا فى تطورى الدينى • وقد كان لاهوته مركزا فى صراحة حول الانسان anthropocentric ، وهذا هو اللاهوت الوحيد السائغ عندى • وشرعت ايضا فى دراسة منظمة لأنصار السلافية الذين لم أكن أعطف على أفكارهم اللاهوتية فى الماضى الا بمقدار ضئيل • وأثار « خومياكوف » أعظم اهتمامى ، وبدأت أعد كتابا عنه وعن عمله • وكانت

فكرته عن الحرية باعتبارها أســاس المسيحية والكنيسة ذات دلالة خاصة بالنسبة لى ، كما قرأت قدرا وافيا من أدب آباء الكنيسة ، ولكن ينبغى أن أعترف بأن هذا الأدب فى جملته لم يثر حماستى • وكنت أميل خاصة الى « أوريجين» ، وأخص من ذلك «جريجورى» من دكاترة الكنيسة ، أما من الكتاب الزاهدين المتصوفين فقد هزنى « اسحق السورى » وأثر فى نفسى تأثيرا شديدا •

وفى موسكو ، تعرفت عن طريق «بولجاكوف» الى «بافل فلورنسكى» ، وهو رجل ذو أصالة ومواهب عظيمة ، وواحد من أغرب شخصيات الطبقة المثقفة الذين ارتدوا حديثا الى الارتوذكسية • وأيا كان الأمر فقد أدركت من أول مقابلة لنا أنه يمثل جميع الأشياء التى أبغضها : وكان يستمتع بالسلام والهدوء ، وبيزنطية جامدة ، ضاعف منها جمود ذهنه الرياضى (كان رياضيا محترفا قبل أن يصبح قسيسا فى الكنيسة الارثوذكسية) ، وكان ساخطا على الهرطقة ، ويصرح بنوع من الجنسية الصوفية المتسامية • واستبدل بشخصية المسيح الحية شخصية « صوفيا » ، وبحرية الانسان النظام الكونى • ولكن كانت تكمن تحت هذا السطح الصارم روح زاخرة بالجهاد والكبرياء والرغبة الروحية غير المحدودة • ويمكن أن نرى هذا بوضوح فى كتابه « عمود الحق وأساسه » The Pillar and Foundation of Truth الذى تعزى اليه شهرته كاتبا وفيلسوفا • وأكثر الفقرات دلالة وقيمة فى كتابه ، تلك الفقرات التى تصف آلام الشك القاسية التى لا تفترق لديه عن عذاب الجحيم ، ويمكن أن نعتبره من هذه الناحية واحدا من المفكرين الوجوديين الأوائل ، وثمة عناصر فى تفكيره تذكرنا بهيدجر ، ولكنه كان يشترك أيضا مع «فياتشتسلاف ايفانوف» فى كثير من الأشياء ، وكان يبدو طيلة الوقت انه يحجب القبر فى نفسه تحت أكداس من الزهور •• بل كان فيه أيضا شىء غنائى ، بيد أن هذه الغنائية كانت توحى بأوراق الخريف المتساقطة ، وعندما ظهــر كتابه علقت عليه فى مقال بعنوان « الأرثوذكسية الأسلوبية » فاكتسبت بذلك عداءه وعداء المعجبين به • وكان لمجرد حضوره تأثير خانق قاتل على نفسى ، وكان يتحدث بصوت ناعم مقصود ، وقد أطرق بعينيــه الى الأرض ، دون أن ينظر مطلقا الى وجهك ، وكان يخفى دائمــا شيئا ما • وقد اعترف حقا فى لحظة من لحظات الانبساط أنه كان يجاهد عنصرا ديونيزيا لا حد له داخل نفسه •

ومهما يكن من أمر ، فان « فلورنسكى » لا ينفصل عن تاريخ الأفكار فى روسيا ، فقد كان أول مفكر روسى نظر الى علم « الصوفيولوجيا » على أنها

أساس اللاهوت · ويدين « بولجاكوف » ، وهو الشخصية المركزية فى حركة الفكر الروسى نحو الأرثوذكسية ، بالكثير من دافعه الخلاق الى « فلورنسكى » ·

وقد تميزت فلسفتى الدينية الخاصة التى عبرت عنها تعبيرا مستوعبا أو جامعا لأول مرة فى كتابى « معنى الفعل الخلاق » ، تميزت عن الاتجاهات السائدة فى ذلك العصر بأنها كانت تهتم أولا وقبل كل شىء بمشكلة الانسان ورسالته الخلاقة ، ولهذا كنت أعتبر نفسى أنثروبولوجيا أكثر من أن أكون صوفيولوجيا أو لاهوتيا · وعلى خلاف ذلك كان جميع المتحدثين الآخرين باسم النهضة الروسية أو معظمهم مشغولين بعلم الكون ، ويسألون عن علاقات المجد الالهى والحكمة الالهية فى هذا العالم · وحتى لاهوتهم كان ذا طابع كونى · وكانوا يعيشون ويفكرون تحت سيطرة الكون ، متناسين الانسان ومصيره التاريخى المعذب · أما العالم ـ فكان بالنسبة الى ـ مصدرا دائما للعذاب ، وكنت أرى الانسان محروما من الاعتراف به ، مهانا مدنسا فى هذا العالم وبواسطته ، وكنت أراه وقد نزلت به ضربة فاجعة ، ومع ذلك مطلوب منه أن يبدع ، وأن يكون قادرا على الابداع · بيد أن تجربتى عن الشر والخطيئة اللذين يلازمان الانسان كانت مختلفة تمام الاختلاف عن تجربة « كلفن » أو « لوثر » أو الينسينيين أو حتى تجربة زهد الرهبنة الارثوذكسية ، فهى أقرب الى مرقيون والغنوصيين ، والى « دوستويفسكى » و « كير كجور » · وكلما اصطدمت بأفكار « مركوفسكى » أو « ايفانوف » ، «روزانوف أو «فلورنسكى» (أيا كانت الاختلافات بين مواقفهم) شاهدت الانسان وقد رد الى الدورة الكونية ، فأصبح مشلولا منسحقا بضرورة لا محيص عنها ، وقد أحيل الى شبه « شىء » أو « موضوع » ·

ولم أشاطر الطبقة المثقفة فى تحمسها المفاجىء الذى تحولت اليه حديثا للكهنوتية والوظائف الكنسية الأخرى · وقد دخل فى سلك الرهبنة كل من «باڤل فلورنسكى» و«سرجى بولجاكوف» و«سوجى سولوفييف» (الشاعر الرمزى وابن أخ « فلاديمير سولوفييف» ـ الذى أصبح فيما بعد كاثوليكيا رومانيا) ودوريلين ، وسفنتسكى (الذى أحدث ضجة كبيرة فى ذلك الوقت بسبب طرده من الجمعيات الدينية ـ الفلسفية) · ويبدو أن نفورى القوى الفطرى ضد الكهنوتية لم يكن مما يمكن محوه ، ولم أستطع ■ أن أتغلب على سوء ظنى برجال الدين · ولقد اتهمنى البعض لهذا السبب ■زعة فولتيرية عتيقة ، ورأوا فى استجابتى تلك بقية من النزعة القديمة المضادة لرجال الدين التى اعتنقتها طبقة الأعيان الروس · وأيا كان الأمر ، فلابد أن أعترف بأن الجو السائد بين الروس ، وخاصة أولئك الذين أقاموا فى المنفى ■ الثورة ، لم يكن مقدرا

له أن يعال جابسط أنواع النزعة المعادية لرجال الدين . وقد كنت أشد اعجابا بالنساك startsy منى بكهنتنا الجدد من رجال الطبقة المثقفة ، بيد أننى سأسهب فى الحديث عن صومعة النساك فى مرحلة تالية .

وتبرز أمامنا نتيجة لما وصفته فى هذا الفصل صورة لاتجاهين رئيسيين يميزان الاهتمامات الدينية لذلك العصر . أما الاتجاه الأول فيمثله الفكر الدينى الارثوذكسى الذى لم يكن بأى حال من الأحوال ممثلا للنزعة الكنسية الرسمية ، ومتحدثوها الرئيسيون هم « بولجاكوف » و « فلورنسكى » والجماعة التى يؤلفون مركزها ، والاتجاه الثانى تمثله النزعة الصوفية الدينية والنزعة الغيبية occultism وانصارها الرئيسيون هم بيلى ، وايفانوف فى أكثر نزعاته تمييزا له ، والأنثروبوصوفيون ، و «الكسندر بلوك» الى حدما (اذ كان لا يكترث بالايديولوجيات جميعا فى جملة أمره) وكذلك مع جماعة الشبان الذين يعملون بالتعاون مع دار « موزاجيت » للنشر . وهاتان الطائفتان كانتا مسئولتين عن انتشار الموضوعات والمذاهب الصوفيولوجية . ولكن بينما كانت الأولى تعيش وتفكر داخل اطارات العقائد الأرثوذكسية ، فقد كانت الثانية لا عقلية بشكل غامض فى طريقة تفكيرها . وقد كانت الجماعة الأخيرة مسئولة عن الغاء اللغة الغاء تاما بحيث لم تعد الكلمات عـــلامات ، بل أصبحت رموزا صوتية غامضة . وفى كلتا الحالتين كان « الكون » يسيطر على « الخلق » و « الايروس » على الشفقة . وكانوا جميعا ، يستخدمون ، أو يميلون الى استخدام الصيغ الفكرية وصور المسيحية التقليدية والكتاب المقدس ، ولكنهم فى اللحظة التى يتركون العنان فيها لأفكارهم ، يصبح من الجلى أن لباب فكرهم وثنى أكثر منه مسيحيا (الاستثناء الوحيد البارز فى هذا المجال هو «بولجاكوف») . والحق أن الروس لم يفطنوا من قبل بمثل هذه القوة الى المجهول اللامحدود الذى يحيط بالحياة الانسانية ، والى السر والهوة المخيفة التى يواجه بها الانسان . بيد أن هذا كان يوشك فى بعض الحالات أن يكون اتخاذا لوضع معين ، بحيث أصبحت كلمات مثل « السر » و « الهوة » مجرد كلمات تخفى خواء داخليا آخذا فى النماء .

كانت النهضة الثقافية فى أوائل القرن العشرين ـ كما قلت من قبل ـ عهد تجديد دينى وفلسفى وشعرى هائل .. عهد روحية شديدة . وهؤلاء وحدهم الذين عاشوا فى ذلك العهد هم الذين يعرفون الالهام الخلاق الذى خبرناه ، ويعرفون كيف سيطرت أنفاس روحية جديدة على الروح الروسية . بيد أن أحدا ـ حتى أصحاب النزعة الجمالية الراضين عن أنفسهم فى الظاهر تمام الرضا ـ لم يستسلم لذلك الانحراف السلبى الذى قد يدفع اليه « عصر ذهبى »

من عصور التجديد الثقافى ، حيث يبدأ الانسان فى الحلم بأنه قد اكتسب حق الحياة فى سعادة ورفاهية روحية · بل سادت على العكس من ذلك حالة عميقة شاملة من عدم الاستقرار · وكانت الروح الروسية قد امتلأت بنذر الكارثة المقبلة وسيطرت عليها هذه النذر · وسواء أكان ذلك على صورة النزعة الرؤوية الصوفية الثورية التى نادى بها « ايفانوف ـ رازومنيك » ، أم صورة ناتشاء «بلوك» الذاتى بزوابع الثورة الحارة ، أم بفكرة «بيلى» الخاصة بتصوف الدمار ، التى تملكت نفسه وشغلت باله ·· سواء أكان ذلك أم ذاك ، فقد كان الجو جو توقع عشية حادث رهيب وشيك الوقوع سيؤثر على روسيا وأوربا على السـواء · وكان الفلاسفة الدينيون يتعرضون هم أيضـا لحالات من الرؤى apocalyptic moods ·

ومهما يكن من أمر ، فربما كانت التنبؤات الخاصة بالنهاية المقتربة مما ينبغى أن يعزى فى الواقع الى انهيار روسيا الامبريالية القديمة · وقد كانت الملابسات التاريخية المصاحبة للنهضة الثقافية مميزة تماما للعهد السابق على الثورة ، ولكنها لم تتضح تماما للعيان نتيجة للكارثة الواسعة للحرب المقبلة والصراع الاجتماعى · ولم يكن ثمة شيء مستقر ، أو أرض صلبة بقيت فى أى مكان · ومع ذلك ، فان ذلك المزاج التنبؤى لم يكن مجرد شاهد على القنوط الذى يحجب كل رؤية ، ويحطم كل أمل · والروس كاليهود لا يستطيعون الحياة دون أمل فى انتظار مخلص messianic hope ، أمل يكمن عبر آمـال الناس اليومية ، أو دون شوق الى الاكتمال عبر التحققات الجزئية والاخفاقات الجزئية جميعا · والرؤية الأخيرة هى ملكوت الله الذى يقتضى (بثورة أو فى يوم القيامة) نهاية هذا العالم المنكوب الذى يصنع هلاكه بنفسه ، ولكنه مع ذلك يضىء ، ويضفى المعنى على مسالكه الفاجعة ·

الفصـــل الســـابع

الاتجاه نحو المسيحية • دراما الدين • مقابلات جديدة

بدأت هذا الفصل فى لحظة رهيبة من لحظات العذاب التى عانتها أوربا •• فى يونيو ١٩٤٠ • كانت عوالم بأكملها تستحيل انقاضا ، وعوالم اخرى مجهولة غير متوقعة ، تظهر الى الوجود • وكان الناس يقذف بهم فى الظلام الخارجى حيث يتحولون الى ما يشـــبه الدمى المحطمة • وكنت ألقى على نفسى هذا السؤال مرة بعد أخرى ، أهذا العالم الساقط المنكوب الذى يشل الانسان ويسحقه تحت وطأة ضرورات لاترحم ، يمكن أن يمتلك واقعا صادقا أصـــيلا ؟ وأليس الانسان مدفوعا بطبيعة الأشياء نفسها للبحث عن واقع يعلو على هذا العالم ؟ هذا هو ما يؤلف السؤال الدينى الذى ظل مصدرا لقلق متصل بالنسبة الى حتى فى أكثر لحظاتى بعدا عن الدين •

ولست أعتبر نفسى ــ كما ذكرت من قبل ــ منتميا الى نمط «رجل الدين» ، ومع ذلك لم تكف مسألة الدين عن التأثير على عقلى وقلبى قط ، فمنذ طفولتى وأنا أتعذب بتلك « الاسئلة الملعينة » التى كان « دوســـتويفسكى » يعتقد أنها مميزة « للصبيان الروس » • وقد ظللت « صبيا روسيا » ، حتى الآن وبعد أن أخذت حياتى تقترب من نهايتها المحدودة • وقد وهبت بطبعى وعيا ، وان يكن معتما غامضا ، بأن الحقيقة لا تستوعب ، ولا يمكن أن يستوعبها هذا العالم الخارجى الذى يفرض نفسه علينا ، وأنه لا يمكن أن توجد الا فى التقدم نحو عالم آخر ، وأننا لسنا مثبتين فى وضع دائم داخل كون غفل ، مكتف بذاته ، بل أننا نقطن وسط السر • هذه المواجهة للعقل الانسانى بشىء أو بشخص ما نشعر به منذ البداية على أنه حضور متعال ــ أو « الآخر » كلية ، حتى عندما نشعر أيضا بأنه داخل الانسان ــ هذه المواجهة ــ اذا استخدمنا مصطلح «رودولف أوتو» ، هى تجربة «الفزع الغامض» • ان عالمنا يتبدى لى على أنه مشتق من شىء آخر ، فهو بعيد عن الواقع النهائى • والله فى مركز الاشياء جميعا ، الاشياء التى تصبح تافهة حقيرة ، ضيقة ، محصورة ، بنسبة بعدها عنه • وفى مثل هذا العالم المحروم من بعد العمق ، لا مكان للمأساة ، وهذا ما يجتذب

على الأرجح الكثيرين من الناس . وان ما تتميز به المأساة اليونانية من نبل وجلال يكمن فى أنها رفعت الناس الى ادراك المصير ، والى تصور سر الحياة الذى تصوغه العوامل الالهية . ولم أكن أشعر بالراحة قط عندما أتخذ موقفا باطنيا بحتا ازاء الحياة ، بل كنت أناضل دائما لأصل الى ما هو عبر الحياة ، ولكى أتعالى عليها باعتبارها مجرد حقيقة خارجية . وأيا كان الأمر ، فان معرفة المتعالى هى فى حد ذاتها تجربة روحية باطنية ، فهى لا تقف فوق رأسى لتفرض نفسها على . وعلى أى الحالات ، فان العلو والبطون متكاملان مادام الانسان لكى يكون باطنا فى شىء ما ، فانه لابد أن يعلو عليه بمعنى ما ، ولكى يعلو المرء على شىء ، فلابد أن يكون باطنا فيه بمعنى من المعانى . ولا أستطيع أن تكون عندى تجربة للاشياء التى ليست جزءا من طريقى الروحى ، فهذه الأشياء لا توجد بمعزل عنى ، وان كنت قد أجرب ما ليس متضمنا بنفسى ، وبذلك أجعله ملكا لى . والحياة الدينية شخصية دائما ، وكلما آزدادت عمقا ، أصبحت أشد شـــــخصية .

وحتى وأنا طفل ، كان لدى فهم مبهم للحياة الدينية على أنها مملكة الوحى الروحى الداخلى الذى ان أحيل الى الخارج ، فقد طابعه الأصيل ، ولا يصنع الوحى التاريخى أكثر من أن يجعل من سر الحياة رمزا ، وأن يعكس الحالة الناقصة لوعى الانسان وبيئته الاجتماعية . ان له وظيفة العلامة sign ، وهو يدفع الانسان بعيدا عن الدلالات الخارجية الى الشىء المدلول عليه . ولا يملك عالمنا الطبيعى بضـــروراته الاجتماعية والتاريخية اللامتناهية التى تنفع باعتبارها وســـطا للوحى .. لا يملك معنى أو قيمة فى ذاته ، بل يميل على العكس الى الهبوط بالروح ، وعزلها عن نفسها . والوحى الذى يأتى الينا عن طريق التاريخ أو التراث ، كان يبدو لى دائما خاليا من الواقع الأصيل ، ولم أكن أستطيع أن اقبل التاريخ والتقليد الا من حيث عدم الوقوع فى خطأ اعتبار طابعهما الرمزى واقعا ، والا من حيث ادراكى لتأثيرهما المحرر . ولم أنجح فى الانتساب كلية الى نقطة واحدة فى الزمان أو المكان . ولابد من العثور على مركز الحياة سواء فى الداخل أو فى الخارج ــ على مستوى آخر يحررنا من سطوة العالم . وفى الوقت نفسه لم أعتنق قط ذلك الرأى الذى يحيل العالم الى حقيقة مكتفية بذاتها عاجزة عن نفاذ الروح اليها . كما أننى لم أفقد مطلقا الاتصال المزعوم لعالمنا العنيد . واننى لأســـتطيع أن أتصـــرف وأتحدث وكأن أحداث الوجود اليومى جميعا من سياسة واقتصاد ، من حرب واضـــطهاد اجتماعى ، هى المادة التى نسجت منها الحياة . ومع ذلك لم تستطع هجمات الحرب أو الغارات أن تقنعنى بالأولوية أو الواقعية النهائية لمثل هذه الاحداث . ولست واقعيا بالمعنى الشائع لهذه الكلمة ، كما أننى لست وضعيا يعتمد على

القدرة الشاملة omnipotence لعالم الحس (أقول بهذه المناسبة أننى لاحظت ميلا قويا لمثل هذا الاعتماد فى الايمان التقليدى للمؤمنين) ٠

والفصل الحالى هو اصعب فصل أكتبه من أى فصل آخر فى هذا الكتاب ، اذ انه يتطلب منى احساسا خاصا بالمسئولية ، وأنا أود أن أكون صـــادقا مخلصا فيما أقول ٠ ومع ذلك ليس من اليسير أن يكون المرء صادقا ، لا لأننى لا اريد ، بل لأ ن من طبيعة الاشياء نفسها ألا أستطيع ٠ وليس من شك أن كثيرا من الناس لن يحبوا ما ينبغى على أن اقول ، لأسباب مختلفة ٠ فهناك كثير من زملائى فى الدين سوف يتهموننى بأننى أحللت فلسفتى الخاصة محل الدين ٠ وسيتهمنى آخرون بالخلط والعجز عن التخلص من الدين فى فلسفتى ٠ ولكننى لست هيجيليا يوحد بين الدين والفلسفة ويستغل أفضل ما فى هذين العالمين ، ولم أخدم فى حياتى سيدين مطلقا ، والحق أننى لم أخدم سيدا على الاطلاق اللهم الا الحرية التى دعانى اليها خالقى ٠ ولكن ليست لدى رغبة فى أن اقطع صلتى بالكنيسة ، أو أن أؤكد لنفسى نوعا من الاستقلال الطائفى ٠

اننى لم أشب فى الجو التقليدى للارثوذكسية «الساذجة» ، فهذه الارثوذكسية الساذجة لا يمكن أن تكون صحيحة الا فى نظر هؤلاء الذين ورثوها منذ طفولتهم كجزء من تكوينهم الطبيعى ، أما بالنسبة للآخرين ، فان الأرثوذكسية لا يمكن الا أن تكون « عاطفية » (وأنا استخدم هنا كلمة « سذاجة » و « عاطفية » بالمعنى الذى استعمله شيللر لكل منهما) ٠ ولم يكن هناك ـ كما قلت آنفا ـ جو من الأرثوذكسية التقليدية فى بيتنا ، فقد كان أبى مفكرا حرا فولتيرى النزعة ٠ وفى أخريات حياته كان يعطف على تعاليم « ليو تولستوى » الدينية ، ولكنه خلال هذا كله كان يعتنق نوعا من « النزعة الالهية » الغامضة ، وكان يبجل الســـيد المسيح ، غير أن المسيحية انكمشت لديه حتى أصبحت مجرد أن نكون ظرفاء مع أخواننا البشر ٠ وكان مولعا بقراءة الكتاب المقدس واعتاد أن يدون تعليقاته النقدية فى الهوامش ، وأغلب هذه التعليقات تذكير قوى للنزعة العقلية الفولتييرة وكان موقفه من عقائد الكنيســـة سلبيا ، بل كان يعتبر هذه العقائد تحـريفا لتعاليم المسيح ، وكثيرا ما كان يهاجم الكتاب المقدس والكنيسة فى أثناء الغداء ، وهو يصب ازدراءه على المعتقدات التقليدية ٠ وكان ذلك يثير سخط والدتى دائما ، فتهتف قائلة : «الكسندر ٠٠ اذا مضيت على هذا النحو ٠٠ فسأذهب »٠

وقد ذكرت من قبل أن جدتى لأبى كانت راهبة ، وأن أبى ، أرغم فى أثناء طفولته على ضرب من الوجود شبيه بالرهبنة ، اذ كان يصوم شطرا كبيرا من العام ، غير أن النتيجة جاءت مختلفة عما كانت تقصد اليه جدتى الراهبة ،

وهذا أمر لا يخالف الطبيعة فى شىء • ولما شب ابى عن الطوق ، انزلق الى الاستنارة الفولتيرية السائدة بين طوائف معينة من طبقة الاعيان الروسية • أما والدتى ، التى كانت نصف فرنسية بالمولد ، وفرنسية بالتعليم ، فقد اعتنقت الطرق الكاثوليكية الروومانية وان ظللت عضوا فى الكنيسة الأرثوذكسية • وكانت تبغض كل اشـارة الى الاختـلافات بين الأرثوذكسـية والكاثوليكية الرومانية ، وتغضب أشد المغضب اذا ذكرت بتلك الاختلافات •

ولم يكن فى انطباعات طفولتى عن شعائر الكنيسة الأرثوذكسية شىء جذاب، وقد تعودت أن أصحب فى أثناء طفولتى الى كنيسة الحاكم العام ، وكان الجو هناك هو جو الأرثوذكسية للدولة الامبراطورية المستقرة • وما برحت تراود نفسى ذكريات بغيضة عن الجنرالات الذين يتحلون بالاشرطة والنجوم ، ويذهبون الى الكنيسة لأن واجبهم الاجتماعى يفرض عليهم ذلك • أما فى أديرة «بتشرسك» فكان جو الأرثوذكسية أكثر صدقا ، بيد أن أسرتنا لم تكن تذهب الى «بتشرسك» بعد وفاة جدتى الا نادرا • وعلى اى الحالات ، فأننى لم أكن احب الرهبان وفى كل مرة كنت اذهب فيها الى « بتشرسك » كان يطغى على ما يحيط بذلك المكان من كآبة ، ووحشة شبيهة بوحشة المقابر • كما كنت أمقت أيضا اللغة السلافية القديمة(١) مقتا لا يصدر عن اسباب عقلية ، وأوثر عليها اللغة اللاتينية التى تقام بها الشعائر الكاثوليكية الرومانية • وكلما دخلت كنيسة قوطية استبد بى احساس غريب بأننى أعيش مرة أخرى تجربة عانيتها فى وجود سابق ، ولم يفارقنى هذا الاحساس خلال حياتى كلها « بيد أننى لم أستطع له تفسيرا قط • »

ولم اكابد على وجه العموم أى شعور خاص ازاء العنصر المرتبط بالصلاة واقامة الشعائر فى الحياة الدينية ، كما لا ترتبط فى ذاكرتى اية تجارب قوية بهذا الجانب من الكنيسة ، فقد كانت معرفتى بتلك الطقوس « صفرا » ، ولم أتغير من هذه الناحية أى تغيير منذ أن حدثت فى المدرسة الحربية تلك المناسبة التى لا تنســى عندما نلت درجة واحدة من اثنتى عشــرة درجة فى الامتحان النهائى للدين • ولكن ، كم تكون دهشة القسيس الذى امتحننى عظيمة لو عرف أنه قد قدر لى أن أكتب عددا من الكتب عن موضــوعات تنتمى الى مجال اختصاصه ! والحق أننى كنت عاجزا تماما عن حفظ أى شىء عن ظهر قلب ، بما فى ذلك شعائر الكنيسة ، كما أننى عاجز عن ربط ذلك بابحاثى المبكرة وسعيى للعثور على معنى الحياة والأدبية • وانى لأستطيع أن أذكر – الى أقصى ما تسعفنى الذاكرة – بأن ثمة شيئا متعبا ، مؤلما ، منقسما فى علاقاتى بالكنيسة الأرثوذكسية ، فقد كنت دائما باحثا حرا عن الحقيقة والمعنى •

---

(١) لغة الصلاة والشعائر الدينية فى الكنيسـة الارثوذكسية الروسية (ك.ل) •

كان الدافع الدينى الأصيل مرتبطا عندى باحساس أليم بالامتعاض والاختلاف عن العالم بما فيه من شر وفساد ، وفى ذلك اشارة أولى الى اعتقادى التالى بأن وجـــود الشـــر ليس عقبة تعترض الايمـان بالله ، وانمـــا الشـــر برهــــان على وجــــود الله ، وتحـــد للعـــودة الى من ينتصـــر فيه الحب على البغض ، والاتحاد على الانقســـاذ ، والحياة الأبدية على الموت • بيد اننى لم أكن أعتنق عقائد دينية ثابتة أستطيع الرجوع اليها ، كما لم أكن أستطيع الرجوع الى ايمان آبائى ، على حد التعبير الشائع • أما التدين التقليدى فكان دائما يثير نفورى • ولكننى عندما أتيت للعيش فى موسكو أدركت لأول مرة ما تنطوى عليه حياة الشعائر الأرثوذكسية من جمال ، وخبرت بعض الأشياء التى كانت معروفة منذ طفولتى لكثير من معاصرى • وانى لأذكر خاصة الاختلافات فى هذا المجال بين نفسى وبين صديقى الحميم « سرجى بولجاكوف » ، فقد كان أسلاف « بولجاكوف » قساوسة ، وكانت حياته الماضية كلها مفعمة بجو التقليد الأرثوذكسى ، فكانت حالته حالة العودة الى دين الآباء ، وما كان من الممكن الا أن تؤثر على عقله قبل وبعد اعادة التوجيه نحو الاعتقاد الدينى •

أما أنا ، فلا أستطيع القول ـ من ناحية أخرى ـ بأننى أملك مزاجا طبيعيا « وثنيا » دينيا ، فقد كنت أشعر شعورا قويا بالشر وبالطبيعة الساقطة للعالم بحيث لا يتاح لى مثل هذا المزاج • وليس أبعد الى نفسى من الشعور بالانسجام الكونى والقصد الكونى وتصورهما • بيد أن ذلك لا يرتبط الا قليلا بالاحساس بالخطيئة وفساد الطبيعة الانسانية ، فان حالة الانسان والعالم الساقطة المهمومة تشير الى شىء أكثر وأقل فى الوقت نفسه من مجرد طبيعتهما الآثمة sinfulness . وأعتقد أننى أكثر حساسية للشر منى للخطيئة التى اكتسبت مكانا مسيطرا ثمينا فى مذاهب اللاهوت المسيحى • ان الاعماق البعيدة التى يصل اليها الشـــقاء الانسانى والألم والعذاب الانسانيان تصدمنى أشد مما تصدمنى طبيعة الانسان الآثمة •

ولقد كنت أعارض دائما ما هو مركزى انسانى anthropocentric بما هو مركزى كونى cosmocentric ، وهو تمييز كانت أهميته ضئيلة بالنسبة لى على الأخص فى سياق الأحداث التى وصفتها فى الفصل الأخير • وكثيرا ما وجه الى اللوم فى هذا المجال على نفورى المانوى من المادة وعلى اعراضى عن الجانب الجسدى من الحياة • ومن الواضح أن هذا اللوم مبنى على خلط بين المادة والجسم • اذ لا ينبغى أن نعادل بين الجسم والمادة • فاذا اعتنقنا المصـــطلح الارسطى مؤقتا ، قلنا ان الجسم الانسانى هو الصورة التى لا تتحدد بوساطة تركيبها الكيميائى ، بل يستطيع الواحد منا أن يقول ـ فى صورة تناقض ظاهرى ـ ان الجسم هو الروح ، وروعة الجسم وجماله فى نظرى يقومان فى صورته أكثر

مما يقومان في جوهره المادى الذى هو مصدر للضرورة · وصورة الجسم تتعلق بشخصية الانسان ، وسوف تئول الى الحياة الأبدية · أما المادة (« الجســـد والدم ») فلن تئول الى الحياة الأبدية · (يعتقد كارل كاروس الفســـيولوجى الألمانى أن « روح » الانسان ليست متضمنة فى مخه ، بل فى « صورته ») ·

وقد كنت أتوجس دائما من المثل الدينية والعقائد الثابتة لأنها تتحدد فى معظمها بالضرورات المادية والضغط الخارجى وبطغيان « الجسد والدم » على التاريخ · وبدلا من أن أتأثر بهذه الضرورات وتلك الضروب من الضغط ، كنت أرى فيها دليلا على الحالة الســـاقطة لهذا العالم · وكنت أبحث غالبا وأجد تفسيرا اجتماعيا لمحاولة اضفاء طابع مقدس لهذا الموضوع أو ذاك فى التاريخ · وأحيانا ، وفى أثناء محاولاتى لفهم عمليات التاريخ ، كنت أقطن « للماركسى » فى نفسى · وكنت أشتاق الى انتزاع الذرائع الاخلاقية والدينية التى اصطنعتها المسيحية لتغطية نزعتها المادية الأساسية · وأحيانا كنت أجد نفسى مدفوعا الى الاعتقاد بأن المسيحية كما علمها المسيحيون خلال العصور قد تحولت الى ايديولوجية لجماعية دينية مسيطرة ، فى ارتقائها أو انحلالها ، وأنها قد أصبحت ظاهرة اجتماعية · ونقد مثل هذه المسيحية مهمة عاجلة ، وهذه المهمة لا يمكن انجازها الا من وجهة نظر المسيحية الأخروية التى تضع نفسها عن قصد عبر مملكة التحديدات الطبيعية والاجتماعية ·

ذكرت من قبل أننى لا أذكر حادثا فى حياتى يمكن أن أصفه بأنه « تحول » أو توبة conversion ، وهو ما يعلق عليها المسيحيون الغربيون أهمية بالغة · بيد أنه لابد من وجود لحظة أحسست فيها بنفسى مسيحيا ، وان لم أكن قادرا على أن أحدد لها يوما معينا فى حياتى · وانى لأذكر تجربة واحدة انتقلت الى فيها معرفة عجيبة ونور غريب : حدث ذلك ذات صيف فى الريف ، ففى لحظة من لحظات القلق والضيق الشديد خرجت الى الحديقة ساعة الغسق ، وكانت سحب كثيفة تخيم على الرءوس والظلال تهبط على الأرض عندما اشتعلت روحى بغتة بنور محرق · بيد أننى لا أسمى هذه التجربة تحولا مباغتا ، على الرغم من أنها حدثت فى لحظة من لحظات الصراع الروحى الحاد ، اذ لم أكن قبلها متشككا أو ماديا أو لا أدريا ، ولأن أنواع الصراع التى نشـــبت داخل نفسى لم تختف · ولم أعرف عهدا من السلام الداخلى الدائم ، بل مضيت فى الكفاح تحت ضغط المشكلات المضنية ·

وعندما أصف الطريق الروحى الذى سلكته ، أجد نفسى مدفوعا مرة بعد أخرى الى العودة الى النغمة المتكررة فى حياتى ، وأعنى بها الحرية · ومهما

يكن مرة أمر ، فان تجربتى عن الحرية لم تكن مجرد تجربة للخلاص والانطلاق ، بل كانت تجربة عناء وشدة أيضا ، فالحرية عبء أكثر من أن تكون حقا ، وهى مصدر للمأساة وللألم الذى لا سبيل الى التعبير عنه · ورفض الحرية هو الذى يجلب الراحة وهدوء البال ، ويجلب السعادة التى يشعر بها الاطفال المطيعون · ولقد جربت الحرية باعتبارها شيئا الهيا ، فالله هو الحرية ، وهو ليس «الرب»، بل « المحرر » وهو المنقذ والمحرر من عبودية هذا العالم ، دون أن يفترض الاعتراف به على الاطلاق · وها هنا يكمن سر التجربة الدينية ، ولست أرى شاهدا عليها الا امكانية الحرية وواقعها · وقد كان كل انكار للحرية نداء يهيب بى أن أتساءل عن أعمق أعماق ايمانى المسيحى وأشده أســاسية · وكلما أحسست بأنهينبغى على أن أصرخ دفاعا عن الحرية، صرخت ! الحرية متفجرة لا تعرف الاستقرار ، وهذا هو عبء الجدل الذى أثاره المفتش العام ضدها ·· وصمت المسيح فى وجه المفتش العام أشد اقلاقا من منطق المفتش الذى لايرحم · ومن الخطأ المميت الخطير أن يسأل المرء عن طرق للأمان وعن الضــمانات والمعيار المنزه عن الخطأ فى الحياة الدينية ويعتمد عليها ، ومادامت هذه الحياة تقتضى كافة الامكانيات والمجازفات والمخاطرات غير المحدودة التى تنشأ عن الحرية ·

وأنا لست لاهوتيا ، ومعالجتى لهذه المشكلات وصياغتى لها لا يمتان الى اللاهوت بصلة · والأحرى أننى أتحدث باسم الفكر الدينى الحر ، ولكننى لست متناسيا لعلم اللاهوت · وقد قرأت عددا عظيما من الاعمال اللاهوتية ، وحاولت أن أكتشف وأحدد لنفسى طبيعة الأرثوذكسية وماهيتها ، وكذلك الكاثوليكية والبروتســتانتية · وقد أفادت الاتصـــالات المتعددة المتباينة بالعالم الروحى للارثوذكسية وبممثلى الفكر الأرثوذكسى فى تعميق فهمى للتعاليم الأرثوذكسية وتوسيعه · ونتيجة لذلك ، انتهيت الى أن الأرثوذكســـية أقل قابلية للتعريف والترشيد من الكاثوليكية والبروتستانتية ، وكان معنى ذلك بالنسبة الى حرية أعظم ، وبالتالى دليلا على تفوق الأرثوذكسية ، ولكننى لا أستطيع ـ حقا ـ أن أسمى نفسى « أرثوذكسيا » نموذجيا من أى نوع ، ومع ذلك فان الأرثوذكسية أقرب الى (وأرجــو أن أكون أقرب الى الأرثوذكســـية) من الكاثوليكية والبروتستانتية · ولم أقطع صلتى قط بالكنيسة الأرثوذكسية على الرغم من أن الرضا عن ذاتى ، والانحصار فى نفسى غريبان على ·

وقد أتيحت لى الفرصة لألاحظ لاهوتيا كان يعتبر نفسه أرثوذكسيا متطرفا، أو يعتبر نفسه الأرثوذكسى الحقيقى الوحيد · وكان هذا المتعصب المتصـــيد للهرطقة يقول : « ان الأرثوذكسية هى أنا نفسى » · ولو سألنى رأيى عن موقفه

لقلت له : « ان المعيار الذى اخترته لتحديد طبيعة الأرثوذكسية صـــحيح من الناحية الشكلية · بيد أن الخطأ على كل حال يكمن فى قولك ان الأرثوذكسية هى « أنت » : فالواقع أن الأرثوذكسية ليست « أنت » بل « أنا » ·· وقد لاحظت فعلا ردحا من الزمن أن المتحدثين باسم الأرثوذكسية والسلطة الدينية لا يعترفون فوقهم بسلطة أيا كانت ، اذ يعتقدون أنهم هم السلطان ، وهم يوجهون الاتهامات فى حرية ضد مطارنة المدينة والاساقفة الذين ينبغى أن تضمن سلطتهم بواسطة أرثوذكسيتهم المذهبية ، فهم يسمحون لأنفســـهم بحرية عظيمة وينكرونها على الآخرين ·

وقد لاحظت أيضا أنه بينما يدرس دعاة الأرثوذكسية الذين تحولوا اليها حديثا تعاليم آباء الكنيسة ويعملون على نشرها فى حماسة عظيمة ، فانهم كانوا ينسبون اليهم فى كثير من الأحيان آراء ومعتقدات ليس من الممكن أن توجد لديهم ، أى يميلون الى القراءة بين السطور ، حينما لا يوجد شىء « بين » تلك السطور · أما أنا فقد كنت أقدر دائما الآباء اليونانيين أكثر من تقديرى للآباء الغربيين وخاصة المدرسين منهم · بيد أن الأرثوذكسية لا تستغنى عن الصدق والاخلاص ، ولا ينبغى أن ننغمس فى التمويه بالنسبة لهذا المجال ، كما نفعل فى المجالات الأخرى جميعا ·

وخلال تطورى الدينى شغلتنى مشكلة « العدالة الالهية » انشغالا شديدا ، وفى هذا شاهد على تراث « دوستويفسكى » · وقد قلت فى مناسبات عدة أن الحجة الخطيرة الوحيدة التى يمكن أن تساق فى صالح الالحاد هى صعوبة التوفيق بين اله رحيم خير ، وبين الشر والألم فى العالم وفى الوجود الانسانى · وقد بدت لى جميع المذاهب اللاهوتية التى تعالج هذه المشكلة على أنها احالات عقلية لا تحتمل · والعدالة الالهية تصل الى سر الحرية الذى لا يقبل أى احالة عقلية ، ولا يمكن التعبير عنه فى حدود المنطق القياسى السهل · وقد أفضت بى القضايا المتعلقة بهذه المشكلة الى الاعتراف بحرية غير مخلوقة ولا معلومة، وهذا يعادل الاعتراف بسر لا سبيل الى الكشف عنه ، سر يقبل الوصف الحدسى ولا يقبل التعريف · ويضم كتابى « فلسفة الحرية » أول محاولة أقدمت عليها لمثل هذا الوصف، وهو كتاب ألفته قبل الثورة بأعوام قلائل، وأعتبره مجملا ناقصا للموضوع الذى أبحثه · وكنت قد بدأت أشعر حينئذ بأننى مجتذب لـ «يعقوب بيمه» وفكرته عن « اللا أساس » ، وقد كونت معرفتى بهذا المتصوف الذى يعد أعظم المتصوفة جميعا، تناولى لمشكلة الحرية منذ ذلك الحين ، على الرغم من وجود اختلافات هامة فى تفسير كل منا للـ « لا أساس » · ولكى أتحاشى سوء الفهم كنت حريصا دائما على تأكيد أن فكرة « الحرية بلا أساس » لا تقتضى نوعا من

الثنائية الانطولوجية التى تؤكد وجود مجالين للكينونة هما الله والحرية ، مثل هذه التأكيدات دليل على الاحـــالة العقلية ، التى لا تقل ظهورا عن تأكيدات الواحدية التى تحيل كل شيء الى مجال واحد للكينونة ســـواء أكان الهيا أم انسانيا ·

ولعل أعنف معارضـــة أبديتها هى المعارضة التى استفزتنى اليها النظرية التقليدية عن العناية الالهية ، اذ أنها مقتنعة فى وحدة الوجود ، وأقل تسامحا من وحدة الوجود الصريحة · وقد تعرضت من قبل لهذا الموضوع · فاذا كان الله ــ الذى خلق كل شيء كما هو مقرر ــ حاضرا فى كل شر وعذاب ، فى الخراب والبؤس ، فى الطاعون والكوليرا ، فالايمان بالله يكون فى هذه الحالة مستحيلا، والتمرد على الله له ما يبرره · وهذه النتيجة صحيحة حتى فى أبسط صورها وأكثرها بدائية · غير أن الله هو الروح ، وهو يفعل داخل نظام الحرية ، لا فى نطاق الضرورة الموضوعية ، ولا يمكن أن يفهم نشاطه بالمصطلح الطبيعى · وهو ليس حاضرا فى الأشياء والحوداث الخارجية التى نلصق بها أسماء الهية ، ونصور لها غرضا الهيا ، أو فى قوة هذا العالم أو قواه ، بل فى الحقيقة والجمال والحب والحرية والابداع · وهذا يستبعد كل التصورات عن الله التى نجعل منه صاحب القوة والسلطان · والقوة ظاهرة اجتماعية ، وليست ظاهرة دينية ، واننى لأعتبر من أهم واجباتى كفيلسوف مسيحى أن أسهم فى تطهير الضمير المسيحى وتحريره من قوة النزعة الى التشبيه بالمجتمع · والله يستطيع أن يوطن الانسان على آلام الخلق ، لأنه هو نفســه يتألم ، وليس لأنه يســـود · والتوحيد الخالص لا يتفق مع التصور المسيحى لله : بل انه فى الواقع أعلى أشكال الوثنية ·

وينبغى أن نقرر هنا معارضين « شلاير ماخر » وكثيرين غيره ، أن الدين ليس «احساسا بالاعتماد» ، ولكنه على العكس من ذلك «احساس بالاستقلال» · واذا لم يكن الله موجودا ، كان الانسان معتمدا اعتمادا كليا على الطبيعة أو المجتمع ، على العالم أو الدولة · أما اذا وجد الله ، فالانسان كائن مســـتقل استقلالا روحيا، وينبغى تحديد علاقته بالله على أنها حرية · ومن سوء الحظ أن المسيحيين قد انتهى بهم الأمر الى الحديث أو الطنين بلغة الخنوع المهينة التى يسمونها « التواضع » ، وأن يتصرفوا على هذا الأساس ، لأن فى ذلك خيانة للتصور المسيحى للانسان بوصفه كائنا روحيا شبيها بالله · وهذا الموقف بما يصاحبه من وعظ عن الخطيئة ، نابع بلا شك عن نزعة التشبيه بالمجتمع ، وهو قائم على تصورات الخضوع لقوة متسلطة ، والاذعان والخضوع لسلطة أعلى · وهذا هو تراث المعتقدات البدائية · بيد أنه من الممكن أن تفهم الخطيئة

على أنها فقدان للحرية أو امتحان للحرية بدلا من أن تكون خروجا على الطاعة. وعلى هذا النحو عانيت دائما خطيئة الانسان وابتعاده عن الله ·

وعندما أدركت نفسى باعتبارى مسيحيا ، اعتنقت الألوهية ـ الانسانية ، أى اننى بعد أن أصبحت مؤمنا بالله ، لم أكف عن ايمانى بالانسان وبكرامة الانسان وحريته الخلاقة · لقد صرت مسيحيا لأننى كنت أبحث عن أساس أعمق وأصدق للايمان بالانسان · وفى هذا كنت على وعى دائما باختلاف عن الغالبية العظمى من الناس الذين يتحولون الى المسيحية ، سواء أكانت أرثوذكسية أم كاثوليكية أم بروتستانتية · ولم يكن من الممكن أن يتزعزع ايمانى بواسطة الانسان أيا كان الحضيض الذى يمكن أن ينحدر اليه ، لأن هذا الايمان لا يقوم على ما يعتقده الانسان فى الانسان ، بل على ما يعتقده الله فى الانسان · ولقد كنت ناقدا قويا للنزعة الانسانية بالصورة التى اتخذتها فى العصر الحديث ، فان اعتقادها فى اكتفاء الانسان بذاته قد أنزل بها الأزمة التى تعانيها ، تلك الأزمة التى يمكن أن يكون فيها القضاء الأخير على الانسان · وقد أوضح كل من « دوستويفسكى » و «نيتشه » على السواء ، أن هذه المحنة تدل على عكس للأوضاع تتحول فيه النزعة الانسانية الى نزعة مضادة للانسانية · غير أن هذا لم يحدث نتيجة لأى الحاح لا ضرورة له على الانسان ، بل الأحرى أن العكس هو الصحيح ، اذ لم يكن ثمة الحاح كاف على الانسان ، الحاح الى الدرجة التى تؤكده فى الله · وهكذا قام نقدى للنزعة الانسانية على نوع أشد تطرفا ، وأكثر اتساقا من النزعة الانسانية التى تقتضى اعتقادا فى انسانية الله · وفى حالة غياب هذا الاعتقاد لا مناص من أن يصبح الانسان لا انسانيا · وهذه الحقيقة الأولية تحتجب أو تفلت من الاعتراف بها على أساس حالة الانسان الساقطة التى يوجد فيها منعزلا عن الله ، بل عن نفسه أيضا · غير أن غموض هذه الحقيقة جعلنى أدرك السر المزدوج للمسيح ، ان الله فى حاجة الى الانسان ، والى استجابته الخلاقة للنداءات الالهية ، ولذلك لم أتردد فى أن أتخذ شعارا لكتابى « معنى الفعل الخلاق » العبارة التى قالها « انجيلوس سيليزيوس » : اننى أعرف أن الله لا يمكن أن يوجد لحظة واحدة بدونى ، ولو انقطعت عن الوجود لانقطع هو أيضا بالضرورة عن الوجود » ·

وأن يتحدث المرء عن علاقة الله والانسان بمثل هذه العبارات معناه أن يكون « أسطوريا » صريحا · وهذه هى الطريقة التى يتحدث بها الكتاب المقدس، وان أشد المذاهب اللاهوتية العقلية ، والميتافيزيقية جفافا تستمد سندها فى نهاية التحليل من أساطير الدين · والمعرفة التى تبحث عن أن تكون معرفة حية تحتاج الى أن تكون بالضرورة ذات طبيعة أسطورية وخيالية · وأنى لأود أن أنكر

جعل الأسطورة والاختراع والالهام شيئا واحدا وهو الاعتقاد الشائع فى هذه الأيام ، وأنكر جعلها شيئا واحدا مع أى شيء يتنافى مع الواقع • أننى أرى أن أعظم الوقائع والظواهر الأصيلة للحياة الروحية محتجبة فى أساطير البشر -- وهى وقائع أكثر واقعية وعينية من تصورات العقل النظرى وأفكاره • ومامن معرفة يمكن أن تكون خالية من الأساطير • والنزعة المادية تلجأ الى الأساطير فيما يختص بالمادة وكذلك النزعة الوصفية تلجأ الى الأساطير فيما يختص بالعلم • ومن الأمور الجوهرية على كل حال أن يحرر المرء نفسه من النفوذ الواقعى الساذج الذى تمارسه الأساطير كنتيجة لوقوف الانسان ازاءها الموقف المصدق بالخرافات • ومهما يكن من أمر ، فالمسيحية أسطورية تماما شأن غيرها من الأديان ، وهذا هو الطريق الوحيد المؤدى الى الوقائع التى تكمن وراء الوحى المسيحى • فالمسيح ليس قابلا للتفسير العقلى ، ولكننا نستطيع أن نقدم وصفا لطبيعة شخصه فى عبارات أسطورية •

واذا كان علم الأساطير يمثل محاولة للتعبير عن حقائق الدين وتوضيحها ، فان التجربة الدينية نفسها تصدر عن اتصال حى مباشر بالسر النهائى ، وهذا هو مجال التصوف • وعندما استيقظت اهتماماتى الدينية ألفيت نفسى منجذبا بغريزتى الى التصوف • ومن الأشياء الأولى التى استرعت نظرى فى دراستى للدين والتصوف العلاقات المتوترة التى بدا لى وجودها بينهما ، اذ كان الدين يخشى التصوف فى أغلب الأحيان ، كما بدا التصوف عاملا معوقا لوظيفة الدين المنظمة ، ومهددا بقلب المستويات المقررة رأسا على عقب • كما استرعت نظرى أيضا الوحدةالكامنة وراء التجربة الصوفيةبغض النظر عنالاختلافات الطائفية، وهى وحدة تغوص الى الأعماق أو تعلو على مجال الدقة القطعية والتباين المذهبى •

غير أننى أدركت أيضا أن التصوف قد يؤدى فى كثير من الحالات الى مغالطات • وثمة أنواع من التصوف معادية للانسان وللشخصية الانسانية ، وهذا هو النمط الواحدى من التصوف ، كالبوذية ورفضها « لهرطقة الفردية » أو « نظرية الروح والذات » عند « أفلوطين » و « اكهارت » ، وفى بعض أشكال التصوف المسيحى المتنسك • ولا يضعف من نزعتها اللاشخصية أن بعض المتصوفين الواحديين يسعون وراء المثل الأعلى لاصلاح نفوسهم ، مدفوعين بذلك الحافز الأنانى للحصول على مستقبل أفضل لأنفسهم • وأيا كان الأمر ، فاننى استثنى « يعقوب بيمه » بالحاح من أى تهمة للواحدية ، على الرغم من أن مراجع التصوف تميل الى تصويره باعتباره حلوليا • ولقد ظل تفكك الشخص والقضاء على الفردية فى ربوبية لا اسم لها ، أو فى دوامة القوى

الكونية ، شيئا مقيتا بالنسبة الى باعتباره خيانة لعقيدتى المسيحية الخاصة بالربوبية - الانسانية للمسيح ، وعدم قابلية الشخص الانسانى للفناء. والربوبية - الانسانية تضم وحدة طبيعتين والتفاعل بينهما ، الطبيعة الالهية والطبيعة الانسانية ، وهما شىء واحد وان يكن غير مختلط . فالانسان لا يفنى فى الله ، بل يصير الهيا ، وانسانيته تدوم فى الحياة الأبدية . ومن المؤكد أن هذا يمثل ماهية علم المسيحية الأرثوذكسى ، على الرغم من أن نتائجه قد نسى معظمها المسيحيون وغير المسيحيين، وتحتاج الى أن نستحضرها مرة بعد أخرى فى وجه ذلك الميل الملح الى القول بطبيعة واحدة للمسيح فى الفكر المسيحى .

وأنا لم اجرب قط ، او ربما جربت بصورة نادرة جدا ، ما يعرف بأفراح الحياة الدينية ومسراتها . ولم يكن العنصر الفاجع الذى لا يمكن التخلص منه مستقرا فى نفسى فحسب ، بل لقد كان للمأساة نفسها دلالة دينية بارزة فى نظرى . ولم أشعر قط بأى تعاطف نحو دين يضمن وجودا هادئا مطمئنا ويزود الطبقة البرجوازية بالراحة الروحية . وكنت أشعر بحضور ضاغط ثقيل فى كل مرة ألتقى فيها بمظاهر العاطفية الدينية . ومن المحتمل أننى افتقر تماما الى الدفء الدينى ، بل لقد أضمرت الحسد لهؤلاء الذين يملكون تلك الخاصية بطريقة طبيعية تلقائية ، فى الوقت الذى اتراجع فيه عن العاطفية التى تصاحبها. وأيا كان الأمر ، فان الجفاف العاطفى لم يمنعنى من أن تنثال على الرؤى والاحلام والزيارات ذات الطابع الدينى والصوفى . وهذه الأمور لا تبدو لى أقل واقعية ، بل أكثر واقعية من الوجود الفعلى الذى ألقيت فيه نتيجة لظروف خارجة عن ارادتى . وقد كانت أعظم لحظات الالهام مرتبطة فى حياتى بتجارب ابتعثتها الاحلام . ومن أبعد الاحتمالات أن يكون ذلك دليلا فى حالتى تلك على أنى أمتلك مواهب خاصة من الصفاء الروحى ، فأنا أخلو تماما من ذلك الاحساس باليقين الدينى والثقة الذى يميز « رجل الدين » ، ولقد عرفت لحظات من النشوة الخلاقة الحادة ، غير أنها كانت مصحوبة دائما بتجربة « الهجران الالهى » ، وبغياب كل حضور محسوس للطف الالهى .

وانى لأذكر حلما - ولعله أعظم حلم زارنى على الاطلاق - يمثل شيئا من رحلة الحج الروحى التى قمت بها . شاهدت فى هذا الحلم ميدانا واسعا ، تكاد لا تحده الحدود ، وقد نصبت وسط هذا الميدان موائد خشبية مغطاة بأفخم أنواع الطعام ، وأحيطت هذه الموائد بأرائك خشبية مستطيلة ، كأنما سيعقد به مجمع مسكونى ، واقتربت من الموائد ، وأردت أن أجلس على واحدة من تلك الأرائك حتى أشارك فى شئون المجمع ، وأتصل بالآخرين الذين أوشكوا على المناقشة ، والذين تعرفت بينهم على كثير من أصدقائى الأرثوذكس . ولكن كنت

حيثما حاولت الجلوس يخبروننى أننى اخطات المكان ، أو أنه لم يعد لى مجلس أستقر فيه ، فأخذت أدور حول المكان ، ولمحت فى نهاية الميدان صخرة خشـــنة جرداء ٠ فذهبت اليها وشرعت أتسلقها ، بيد أن محاولاتى الأولى للقيام بهذا العمل أظهرتنى على المصاعب الفظيعة التى تنتظرنى فى صعودى ٠ ومضيت فى محاولتى رازحا تحت الاجهاد والارهاق ، ورأيت يدى وقدمى غارقة فى الدماء ٠ ولما بلغت ارتفاعا معينا ، تلفت حولى ، ونظرت الى جانبى والى أسفل ، فلمحت طريقا ملتويا مجهدا ، أخذ يصعد فيه عدد عظيم من الناس ٠ وواصلت كفاحى باذلا جهودا أليمة لارتقاء الصخرة ، وفى نهاية الأمر بلغت القمة ، وفجأة شاهدت أمامى المسيح مصلوبا ، وقد أثخن جانبه بالجراح ، وأخذت الدماء تسيل منها ، فارتميت عند قدميه ، وقد هدنى الاعياء ، وكدت أفقد وعيى ٠ ولم ألبث أن استيقظت وقد حركتنى هذه الرؤية الغريبة وهزت مشاعرى ٠ وحين رويت هذا الحلم فيما بعد لبعض أصدقائى الأرثوذكس ، كان تأويلهم له واحدا ، اذ رأوا فيه برهانا أكيدا على كبريائى الروحية ، ووقاحتى ٠ أما من ناحيتى أنا ، فقد كنت ممتلئا فقط باحساس من الاستصغار لتلك الأعالى التى تمثلت فى الحلم ذلك التمثل الواضح : اذ أنها تميز حنينى الخفى أكثر مما تميز وصولى أو حتى قدرتى على الوصول ٠ والواقع أننى كنت أدرك دائما قلة جدارتى بالنســبة لأبحاثى وخيالاتى ٠٠

* * *

وكثيرا ما وصفت من وجهة نظر الأرثوذكسية التقليدية بأننى « محدث » ٠ وهذه بالطبع كلمة يجانبها التوفيق ، اذ توحى بالاعتماد على العصر وعلى قدرة المرء على التكيف معه ٠ والواقع أننى لا أميل الى المبالغة فى أهمية الظروف الزمانية سواء أكانت حاضرة أم ماضية أم مستقبلة ٠ ولكننى « محدث » بمعنى أننى أعترف بامكانية العملية الخلاقة ، واندماج الوقائع الجديدة دائما داخل المســيحية ٠ وقد أعان على هذا الاعتقاد اعتراف بحقيقة تحتجب كثيرا عن الحكماء المتدينيين الا وهى أنه لا وجود لوعى انسانى ثابت غير متحرك ، أو أية ملكات عقلية وروحية أخرى ، طبيعية أو فوق الطبيعة ، يملكها الانسان . بل على العكس من ذلك ، الوعى الانســـانى قابل للتغيير والتطهـر والتقوية والتعميق ، فهو قادر اذن على تلقى حقائق جديدة ، أو فهم الحقائق القديمة بطريقة جديدة ، الحق أبدى ، وكل ما ينبع عن الحق وحده أبدى ٠٠ ومن الانتهازية أن نؤكد أن الحق نسبى ٠٠ بيد أن هناك درجات وألوان من التباين فى اظهار الحق، وفى الطريقة التى نتلقاه بها ٠ وهذا يقتضى امكانية التحريف أو حتى الخيانة فيما يتعلق بالحق ٠ والحق لا يهبط علينا من عل ، كما أنه لا يغشى العين كما يغشاها موضوع مرئى محسوس ٠ الحق طريق وحياة أكثر من أن

يكون حقيقة موضوعية تنهض ازائى ، وهو يكتسب نتيجة لمسابقة روحية ، وحركة من الخارج الى الداخل ·

وقد كنت متفقا مع كثير من ممثلى الفكر الدينى الروسى فى أوائل القرن العشرين ، على أمل استمرار الوحى فى المسيحية ، وعلى انصباب جديد للروح القدس · هذا الأمل شاطرت فيه « بافل فلورنسكى » الذى كان مختلفا عنى ومعاديا لى فى نواح أخرى · وكانت المسائل الخاصة بالمسيحية والقدرة الانسانية الخلاقة ، والمسيحية والحضارة ، والمسيحية وحياة المجتمع وهلم جرا ، كانت هذه المسائل تتطلب وضعا جديدا وحلولا جديدة ، فهناك حقيقة مسيحية أبدية تعلو على الزمان والمكان، غير أن هذه الحقيقة ذاتها ، كما تتكشف فى التاريخ ، وكما ترتبط بمرحلة معينة وبمجموعة معينة من الظروف ، قد أخذت تقترب من نهايتها ، وهذه النهاية تطبع فى الوقت نفسه حكما على التحقق التاريخى السابق للحقيقة المسيحية ، وعلامة على التحققات المقبلة الأخرى ·

وقد وجهت الى مرارا تهمة الهرطقة ، بيد أننى فى كل مرة اصطدم فيها بهذه التهمة ، لا يسعنى الا ان أفكر فى أن الناس الذين يوجهونها الى يسيئون فهم وضعى تمام الاساءة ، ويحسبون الظل هو الحقيقة · والواقع أن الزنديق الخارج على العقيدة يعد ممثلا غريبا واضحا كل الوضوح للنزعة الكنسية ، بحيث تتملكه رغبة فى أن يكون شخصية كنسية محضة ، وأن يكون هو وحده المحق من حيث الحقيقة الدينية التى يعتنقها · بيد أن هذا لا يمكن أن ينطبق على ، فلم أزعم قط أن تفكيرى الدينى هو تعليم الكنيسة ، ولم افعل شيئا أكثر أو أقل من أن أبحث عن الحق ، وأشهد عليه كما رأيته · اما الأرثوذكسية التاريخية ، وكل المزاعم المانعة للأرثوذكسية ، فكانت تبدو لى باعتبارها مزاعم تفوح منها الهرطقة والطائفية بقوة ، وعلى أنها خالية من الروح الكلية · وأنا لست خارجا على العقيدة ، أو طائفيا ، بل مفكرا حرا مؤمنا · وكمفكر حر ، لا أستطيع أن أخضع أو أقبل اية وصاية أو رقابة على فكرى · بيد أن فكرى يضرب بجذوره عميقا فى فعل أصلى من أفعال الايمان ، وما من شىء أو انسان يستطيع أن يزعزع هذا الايمان ، فهو عبر جميع العلاقات العقلية الخالصة ، ولا أستطيع أن اعطى عنه تعبيرا معادلا له · وانى لأرى نفسى مندمجا فى أعماق الوجود الانسانى ، واقفا فى مواجهة سر العالم الذى يفوق كل وصف وازاء كل ما هو موجود · وفى هذا الموقف ، أشعر شعورا حادا محرقا بأن العالم لا يمكن أن يكون مكتفيا بذاته ، وأن ثمة معنى غامضا متعاليا مازال مختفيا فى أعماق أبعد غورا من ذلك · وهذا المعنى هو الله ، وقد عجز الناس عن العثور على اسم أسمى من ذلك ، وان كانوا قد أساءوا اليه الى الحد الذى كاد فيه ألا يكون

منطوقا · وليس من الممكن انكار الله الا من السطح فقط ، ولا يمكن انكاره حيث تغوص التجربة الانسانية تحت سطح الوجود العادى التافه المبتذل ·

* * *

ولقد بحثت باستمرار خلال تطورى الدينى كله ـ عن الاتصـــال الروحى بالآخرين ، مدركا الأهمية الشديدة التى تتسم بها الصلات مع الرجال والنساء الآخرين ـ وفى هذا المجال على الأقل ـ ان لم يكن على الأكثر ـ عنه فى المجالات الأخرى · والحق أن الاتصال الروحى بالآخرين منبع خاص جدا من منابع المعرفة الدينية ، ومن خصائص الحياة الدينية أن الانسان المشارك فيها ، سيتغلب على عزلته ، ويدخل فى اتصال روحى مع غيره من الناس · ومع ذلك ، فقد عانيت مصاعب عظيمة فى هذا المجال خاصة ، وان لم أرغب قط فى أن أبقى مغلقا على نفسى فى موقف من مواقف العزلة التى لا سبيل الى الفكاك منها ·

وعندما أتيت للاقامة فى موسكو ، تعرفت عن طريق « سرجى بولجاكوف » على عدد من الناس ، كان يفصلنى عنهم فى الأزمنة السابقة ما يبدو هوة لا سبيل الى اجتيازها · وكانوا أشخاصا نموذجيين لطائفة من المثقفين الروس الذين تحولوا الى الأرثوذكسية ، ومثلوا أنفسهم فى الكنيسة الأرثوذكسية · وقد أتاح لى هذا اللقاء فرصة فريدة لاكتسب معرفة عن الأرثوذكسية لا من الكتب ، بل من الاتصال المباشر بحياة الكنيسة كما يحياها هؤلاء المتحولون الجدد ، من أبنائها المخلصين الأوفياء ·

وكان قلب هذه الجماعة وروحها « ميخائيل نوفوسيلوف » (ولا أعرف أحيا هو أو لا) ، كما كانت هذه الجماعة تضم فلاديمير كوجفنيكوف (وهو عالم عظيم وصديق شخصى لـ « نيقولاى فيودوروف » · و « فيودور سامارين » ، و « بوريس منصوروف » (وهم من بقايا حركة أنصـــار الســـلافية القديمة) والأســـقف « فيودور » عميد أكاديمية موســكو اللاهوتية · وكان بولجاكوف مستجدا نسبيا الى هذه الجماعة ، ولاشك أن انضمامه اليها ، كان يعنى بالنسبة اليه ميلا حاسما الى « اليمين » ، فى توجهتى النظر الدينية والســـياسية على السواء · وكان « فلورنسكى » من أعضاء هذه الجماعة أيضا ·

اعتدنا أن نلتقى فى شقة « نوفوسيلوف » الشبيهة بالدير ، حيث كنا نقرأ الأبحاث المألوفة ، ونواصل مناقشاتنا ومجادلاتنا · وكانت هذه الجماعة أكثر أرثوذكسية ويمينية من الجمعية الدينية الفلسفية التى ارتبطت باسم « فلاديمير سولوفييف » · وكان « سولوفييف » مكروها جدا لدى جماعة « نوفوسيلوف » · وكان أعضاء هذه الجماعة من المترددين المتحمسين على الكنيسة ، ومن المتدينين

الغيورين على الشعائر الدينية ، ولهم اتصـالات وثيقة بنسـاك الأديرة ، وبالستارسي ، (وهم كبار النساك الذين كانوا خبراء متضلعين فى فن التوجيه الروحى) • وقد أسلم كثيرون من الناس أنفسهم لارشاد هؤلاء النساك الروحى، وتعودوا على زيارة صومعة « زوسيموفا » التى حلت مكان صومعة « أوبتنيا » باعتبارها مركزا للحياة الناسكة الروحية • واشتهر من بين هؤلاء النسـاك خاصة « جويرمان » الذى سأذكر عنه المزيد حالا •

وقد كان « نوفوسيلوف » نفسه تلميذا سابقا لتولستوى ، ولكنه تحول الى الأرثوذكسية ، وكان مشغولا بتحرير ونشر مكتبة من مؤلفات الكتاب الأرثوذكس وكان شخصا ممتازا بطريقته الخاصة ، مؤمنا ايمانا عميقا ، مخلصا لفكرته اخلاصا لا حد له ، نشـطا نشاطا متطرفا الى حد الهوس ، شـديد الاهتمام بالناس ، ومتأهبا على الدوام لتقديم يد المعونة ، ولاسيما المعونة الروحية وقد أخذ على عاتقه أن يحول الناس جميعا الى الدين ، وكأنه شخص ارتبط بعهود رهبانية خفية • بيد أن اهتماماته الثقافية والعقلية كانت ضيقة نوعا ما • وكان معجبا أشد الاعجاب « بخومياكوف » ، ويعتبر نفسه تلميذا له • أما عدوه الألد فكان « فلاديمير سولوفييف » الذى لا يستطيع أن يصفح عنه بسبب ميوله الغنوصـية ، ونزعته العشـقية وميوله الـكاثوليكية الرومانية • وكان « نوفوسيلوف » أرثوذكسيا محافظا متحيزا تحيزا قويا للزهد والرهبنة • ولكنه كان متحررا من النزعة الهكنوتية ومن الولاء للسلطة الكنسـية ، ذلك الولاء الذى يميز الجناح الأيمن من « المهاجرين » الكنيسيين الروس عقب الثورة ، ولم يكن يعترف الا بسلطة النساك الذين كانت مواهبهم وتجربتهم الروحية مستقلة عن مكانهم من مراتب الكنيسة • ولم يكن يهتم أدنى اهتمام بالأساقفة ويعتبرهم موظفين كنسيين ينحنون أمام الدولة ويتملقونها • وعلى الرغم من أنه كان ملكيا ثابتا على مبدئه ، ومؤمنا بالدلالة الدينية للملكية المطلقة ، الا أنه كان يعارض الأرسطوسية(١) ، وخضوع الكنيسة للدولة •

وقد اعتدت التردد على اجتماعات « نوفوسـيلوف » ردحا من الزمن ، والمشاركة فى المناقشات • وكنت مهتما اهتماما حقيقيا بهذا العالم الجديد على كل الجدة ، وكنت مجتذبا الى تلك الاجتماعات ـ كما ذكرت آنفا ـ بسبب جديتها التى تميزها عن دوائر « بطرسبورج » الأدبية ، ولكننى لست بحاجة الى القول بأننى وجدت نفسى فى النهاية دخيلا على هذه الجماعة ، وأننى كنت مضطرا باستمرار الى كبح جماح ذاتى الطبيعية • ومع ذلك كنت أحترم أعضاء هذه الجماعة احتراما عميقا ، ولاسيما « نوفوسيلوف » •

---

(١) مذهب أرسطوس الذى يدعو الى ضرورة تقييد سلطة الكنيسة (ف.ك) .

وانى لأذكر مناقشة دارت بيننا عن اقتراح بادخال دراسة التاريخ المقارن للأديان فى مقــررات الأكاديميات اللاهوتية · وقد دافــع « بولجــاكوف » و « كوجيفنكوف » عن هذا الاقتراح ، غير أن الأسقف « فيودور » عميد أكاديمية موسكو اللاهوتية التى كانت تعد أعلى مؤسسة تعليمية ، عارض الاقتراح بحجة أن « مثل هذا الموضوع قد يفسد ايمان الشباب » على حد تعبيره ، وأنه على أية حال : « لا داعى الى الاشتغال بالأبحاث العلمية وذلك بسبب خلاص الروح الوشيك أو ادانتها » · وكان هذا هو صوت الأرثوذكسية التقليدية الرهبانية الزاهدة ، التى أظهرت مرارا عداءها للمعرفة والعــلم والثقافة · وان بدنى ليقشعر من مظاهر تلك النزعة الظلامية ، وما كنت أستطيع أن أرى طريقى الى اعتناق قضية « نوفوسيلوف » ·

وقد يكون أعضاء الطبقة المثقفة الذين تحولوا الى الكنيسة الأرثوذكسية ما يعرف بعبادة الـ starchestov · وكانوا يبحثون عن الهداية الروحية عند الستارتسى · وكان ذلك عندئذ أكثر تمييزا للطبقة المثقفة فى محاولتها لاعتناق الأرثوذكسية ، من الأرثوذكسية التقليدية التى لم تغادر حظيرة الدين مطلقا · وكان بعض الاشخاص خارج الكنيسة مثل الثيوصوفيين والأنثروبوصــوفيين يبجلون « الستارتسى » الذين يعتبرونهم من «الواصلين » · وأصــبحت الـ starchestvo نوعا من الأسطورة ، وكان الناس يعتقدون انه الى جانب هؤلاء النساك المعروفين الذين يعيشون فى الأديرة والصوامع المعروفة ، هناك نساك مخفيون ، لا يعرف مقرهم ، أو تعرفه قلة قليلة من الناس · وكان الرجال والنساء يبحثون عن التعليم الروحى والهداية ، فأســهموا فى عقيدة القديس «سيرافيم» الساروفى(١) النامية ، وهو القديس الذى كانت حياته تمثل باعتباره صورة جديدة بيضاء من النسك وأقل أخروية من المؤسسة الرهبانية المستقرة ، ويملك مواهب خاصة من الروح القدس ، ووجد وحى جديد من الأرثوذكسية فى محادثة مسجلة بين القديس سيرافيم وصديقه وتلميذه « موتوفيلوف » ، وكانت الستارتشستفو » المعاصرة تعتبر استمرارا لنفس التقليد السرى للأرثوذكسية ·

ولقد قرأت كل ما استطعت أن أحصل عليه من مؤلفات لأحيط علما بصومعة « أوبتنيا »(٢) وناسكها الأعظم آمفروسى · بيد أننى لم أجد على اية حال فى تلك الروايات شيئا يشابه تلك الشخصية كما تصورها خيال المعجبين به الذين عاشوا فى أوائل القرن العشرين ، فهو ينتمى الى نوع تقليدى جدا من النســك

---

(١) قديس روسى عاش فى بداية القرن المــاضى .

(٢) المكان الذي بدأت فيه حركة الـ starchestvo فى روسيا .

الأرثوذكسى الذى يعد هو من أفضل ممثليه ، بيد أن شيئا من العنصرية (نسبة الى العنصرة وهو عيد الخمسين عند النصارى) لم يكن فيه ، بل كان فيه شىء من الكآبة على العكس من القديس سيرانيم الذى كان تشع منه حقا أنوار الروح ٠

وذهبت الى صومعة «زوسيموفا» باقتراح من « نوفوسيلوف » وبصحبته لمشاهدة النساك بنفسى ، وانضم الينا « بولجاكوف » ، غير أن التجربة أثبتت أنها خيبة للأمل ومؤلمة الى أبعد حد بالنسبة الى ٠ وكان هناك ناســـكان فى صومعة «زوسيموفا» : الناسك « جويرمان » الذى كانت روحانيته توضع فى مرتبة رفيعة جدا ، والناسك « ألكسى » الزاهد ٠ وكان على هذا الأخير أن يقوم بالاختيار النهائى بالقرعة فى انتاخب البطريرك « تيخون » عام ١٩١٧ ٠ وتقع صومعة «زوسيموفا» فى اقليم فلاديمير الذى لايتميز بأى مفاتن طبيعية خاصة ٠ وفى اليوم الذى وصلنا فيه ، كانت الدوقة الكبيرة «اليزافيتا فيودوروفنا» هناك أيضا ، وأكدت الظروف التى أحاطت بحضورها سماجة الرابطة بين الكنيسة الأرثوذكسية والنظام الامبراطورى ٠ واستغرق أداء الشعائر شطرا كبيرا من الليل ، ووقف خلفى فى الكنيسة « بافل فلورنسكى » الذى لم يكن قد تم تكريسه بعد فى ذلك الوقت ، وحين استدرت شاهدته يبكى والدموع تنهمر على محياه ، وفهمت أنه يجتاز فترة تغشاها الكآبة والشدائد الروحية العظيمة ٠ وكنت أقصد أن أعترف للراهب «جويرمان» ٠ ووافق الناسك «ألكساى» ، الذى كان منقطعا للعبادة حينذاك – على استقبالنا أيضا ، وكانت المناقشة مع هذا الأخير غير مرضية ، بل كئيبة ، ولم أستطع – بكل نياتى الحسنة – أن اكتشف فيه شيئا روحيا على الاطلاق ، بل لقد مضى فى تسفيه « ليو تولستوى » مستخدما أعنف لغة وأشدها ابتذالا ، وكان يدعوه «ليفكا» ٠ وكانت المقابلة فى الواقع بغيضة أكثر من أن تكون بناءة ٠ وعندما التقيت به مرة ثانية فيما بعد ، ترك فى نفسى انطباعا أفضل ٠ أما الناسك « جويرمان » ، فكان من ناحية أخرى – مختلفا كل الاختلاف ٠ فبينما كان « ألكساى » متعلما (وهو أمر ثبت أنه فضيلة مشكوك فيها فى حالته) ، كان «جويرمان» فلاحا بسيطا لم يتلق أى تعليم على الاطلاق ، وقد بهرنى باعتباره رجلا يتمتع بطيبة عظيمة واشراق ، وكذلك بعطفه الشديد على الناس ٠ ومع ذلك لم أجد فيه تلك الاشياء التى يعزوها اليه الناس ، أو يبحثون عنها فيه ٠ وعلى كل حال ، لم أكتشـــف شيئا يمكن أن يدفعنى الى الانضمام الى أولئك الذين يسلمون آراءهم كلها لهداية ناسك ٠ وعندما وقفت فى الصباح الباكر عند نافذة حجرة الضيافة بصومعة « زوسيموفا » ، وأخذت أراقب سقوط الجليد المبتل ، أدركت أن طريقى مختلف ، وأنه ربما كان أشـــد صعوبة ، واننى فى اتباع هذا الطريق ينبغى الا احسب حسابا لما قد يكلفنى من

ثمن ، والا أستسلم للخوف أو التردد • وكنت على أهبة الاستعداد للندم على خطاياى العديدة ، ولكننى ما كنت أستطيع أن أندم على بحثى عن روح جديدة، وطرق جديدة للمعرفة والحب والحرية •

وكنت قد قرأت فى احدى فترات حياتى مجموعة كبيرة من الكتابات الروحية وكتابات الزهد من ذلك النوع الذى يعرف باسم Dobrotolynbye (١) ، وهذه الكتابات تحتوى على حقائق لا مجال للشك فيها • غير أن مطالعتى لهذه الكتب تركت فى نفسى احساسا ساحقا بمذلة الانسان ، وبانكار لرســالته الخلاقة المتسامية • ومن ناحية أخرى ، أحببت « تقليد المسيح » الذى أحسست فيه بنبل عظيم ، واحساس بالحزن يغشى طريق الانسان الى الله • وانى لأعتقد أن التصوف من النوع الزاهد، كما يعرضه خاصة الزهد السورى - هوتشويه لتعليم المسيح، وهذا الزهد يعتقد فى دخيلة أمره بأن للمسيح طبيعة واحدة ، وينكر الوحى المسيحى عن الربوبية الانسانية • ومع ذلك فان الزهد السورى أفضل من تعاليم الأسقف « ثيوفان الناسك » الذى يعد من أروج كتابنا الروحيين • فمن المحال أن أصف احســاس النفور الذى عانيته فى أثناء قراءته ، ونظرياته فى الحياة الزاهدة والصلاة لا تختلف عن نظريات أسلافه العظام ، بيد أن أقواله جميعا عن الأخلاقية العملية لاحت لى على أنها أعلى مراحل الســطحية والعبودية والغموض • ويبدو أن عشرين عاما من حياة الدير التى قضاها فى الصــلاة والعزلة ، لم تترك أى علامة طفيفة على الاشــراق العقلى والأخلاقى فى هذا الرجل •

هذه الأمور وأمثالها من مظاهر الأرثوذكسية المنحرفة كانت تثير تمردى • وكلما التقيت بها ، لم أستطع أن أعلق أية معنى كائنا ما كان على زعم بعض الكتاب الكنسيين من أن الكنيسة هى ملكوت الله على الأرض ، اللهم الا نوعا من التضليل الذاتى ، والأحرى أن أقول ان الكنيسة هى ملكوت الأرض فى السماء، وأترك للقارىء أن يقرر أكان ذلك أمرا حسنا أم سيئا •

ذكرت فى الفصل السابق أن العهد الذى أكتب عنه كان يتميز بعدد من الحركات الرامية الى كشف المحجوب وهى حركات التى كانت تجتذب طوائف معينة من الطبقة المثقفة اجتذابا ملحوظا، وأهم هذه الحركات «الأنثروبوصوفية»، وقد كان «فياتشسلاف انفانوف» و « أندريه بيلى » مذ « الأنثروبوصوفيين » المتحمسين زمنا ما ، وكانت المتحدثة باسم « الأنثروبوصوفية » هى « الكسندرا منتسلوفا » مبعوثة « رودولف شتاينر » الى روسيا ، والتى وقع « ايفانوف »

---

(١) Dobrotolynbye أو Philocaalia وهى مجموعة من المختارات للاباء تعالج الحياة الروحية الزاهدة والصلاة والاتصال الصوفى بالله (د.ل) •

تحت نفوذها • وكانت جماعة الشبان والشابات التى تحيط « بآلهة الموزى » واقعين تحت تاثير « الأنثروبوصوفية » والاشكال الأخرى من النزعة الرامية الى كشف المحجوب • وكان الناس يبحثون عن الجمعيات السرية يكتشفونها ، وكانوا يرتابون بعضهم فى البعض الآخر على أنهم منضمون الى منظمات سرية، وكانت أحاديثهم حافلة بالتلميحـــات الى الظواهر المحجبة ، وكانوا يدعون المعرفة بمعرفة الغيبيات التى لا يملكون منها شيئا قط • وحتى « بافل فلورنسكى» الأرثوذكسى المتطرف ، اهتم اهتماما ايجابيا بالمسائل الغيبية ، كان واحدا من القلائل الذين يملكون حقا ملكات غيبية ، تتكشف فى تصوره السحرى للعالم •

وأنا أبعد ما أكون عن انكار كل حقيقة للظواهر الغيبية ، أو النظر اليها باعتبارها أباطيل وألوانا من الخداع الذاتى ، أو حتى من تفسيرها باعتبارها موضـوعا لعلم الأمراض النفســية ، اذ أننى أعترف بوجود قوى غيبية فى الانسانية ، وظواهر غيبية فى الطبيعة لم يكشـــف العلم عنها الحجاب بعد ، والميول الغيبية ومحاولات السيطرة على القوى الغيبية ، وتنظيمها موجودة خلال التاريخ الانسانى كله ، وهذا فى حد ذاته لا يخلو من دلالة • وفضلا عن ذلك ، لا أرى سببا لارجاع مجال الغيبيات كله الى تاثير القوى الشيطانية ، كما يفعل كثير من المسيحيين • ولا يكون ذلك واضحا الا حيثما تدعى النزعة الغيبية أنهـــا بديل عن الدين • أما موقفى النقدى من الغيبيـة ، والثيوصـــوفية ، والأنثروبوصوفية ، فيقوم على انكار للسحر الكونى الذى يبدو أنه يحوم فوق تلك الحــــركات •

ولقد اطلعت اطلاعا وافيا على « أنثروبوصوفية » شتاينر ، ولسوء الحظ ، وعلى الرغم من تلك التسمية الواعدة ، فاننا فى الواقع لا نجد « الانسان » فى مذهب « شتاينر » ، اذ يذوب ذوبانا تاما فى مكان ما بين « الأبعاد الكونية » أو فى داخلها • وبالمثل بحثت فى « الثيوصوفية » عبثا عن الله ، والواقع أن الله يذوب فى الكون أو يصبح واياه شيئا واحدا • وقد فسرت شعبية هذه الأفكار بأنها اغراء للعصر ، الذى بهرته قوة الكون ، وامكانية الانسماج فى « روح العالم »، وكان هذا نذيرا بالغاء الحرية والشخصية • وليس من شك أن شـــطرا من المسئولية على فاعلية هذا الاغراء يرجع الى اللاهوت المسيحى الرسمى الذى كان عاجزا تمام العجز عن مواجهة المشكلات التى أثارت عقل الطبقة المثقفة وروحها فى بحثها عن الحق •

وللأنثروبوصوفية تاثير مفسد مفكك واضح على هؤلاء الذين يعتنقونها ، ويبدو انها تخلق فراغا غريبا على أرواحهم • ومن الأمثلة النموذجية على ذلك «أندريه بيلى» الذى عجلت معتقداته الأنثروبوصوفية بانحلاله الروحى • وقد بدا لى أن بعض الأنثروبوصوفيين باعتبارهم مخبولين ، تسيطر عليهم قوة خارج

ارادتهم .وكلما نطقوا الكلمات السحرية «الدكتور قال» (ويقصدون به شتاينر) بدا عليهم كأن شيطانا قد استولى عليهم ، فتغيرت عيونهم وتعبيرات وجوههم وأصبح من المحال المضى فى الحديث . والواقع أن الأنثروبوصوفيين أشد ميلا الى القطعية وحبا للسيطرة من أكثر ممثلى الأرثوذكسية الكنسية صرامة .

وعلى الرغم من هذا كله ، فقد كنت اريد أن أكتسب معرفة أوثق بالأنثروبوصوفية ، وخاصة أن بعض أصدقائى صاروا من أنصارها المتحمسين، وبفضل هؤلاء الأصدقاء أتيحت لى فرصة الاستماع الى سلسلة من المحاضرات عن Bhagavadgita ألقاها «رودولف شتاينر» فى المأوى الأنثروبوصوفى « بهلسنجفورس » . وأكدت هذه التجربة أسوأ توقعاتى ، اذ ترك « شتاينر » نفسه انطباعا أليما فى نفسى الى أقصى حد ، وان لم أعتبره مشعوذا على الإطلاق ، فقد كان رجلا يتعدى اقناعه للآخرين وتنويمهم مغناطيسيا الى اقناع نفسى وتنويمها أيضا . وكان يبدو أنه يمتلك عددا من الشخصيات يغيرها كما يغير الأقنعة وفقا لحاجته : فهو الآن راع صالح (بل كان يرتدى أحيانا مسوح راع بروتستانتى) ، وهو فى لحظة أخرى ساحر يسيطر على الأرواح الانسانية . بيد أننى لم ألتق الا نادرا بشخص يخلو من كل فضل الهى كما كان يخلو « شتاينر » ، فما من شعاع واحد من النور قد هبط عليه من عل . وكان غرضه الوحيد ، ومطمحه أن يمتلك الأشياء جميعا من أسفل ، وبأساليبه الجبارة الخاصة ، وأن ينفذ بمجهود حار الى ملكوت الروح .

وقد كانت كتب « شتاينر » تبعث الملل الى نفسى دائما ، وهى فى نظرى لا تكشف الا عن موهبة ضئيلة . ويقال فى كثير من الاحيان ان هذا الكلام ينطبق على كتبه الشعبية ، ولكى يقدره الانسان فلابد من أن يستمع الى محاضراته . ولكننى لا أرى اختلافا كبيرا بين سلسلة محاضراته التى استمعت اليها فى « هلسنجفورس » وبين أقواله المكتوبة . وربما كان يملك مواهب خطابية ، ولكنه كان يفتقر الى الموهبة الحقيقية والشعور الصادق بالكلمات ، فكانت خطبته ضربا من العمل السحرى يهدف الى السيطرة على مستمعيه عن طريق الاشارات، وارتفاع الصوت وتخفيضه ، وتغيير تعبيرات وجهه ، وكان ينوم تلاميذه تنويما مغناطيسيا ، وكان بعضهم ينام فعلا (ومن المفروض الا يكون ذلك من الضجر) . وقد خضع « أندريه بيلى » الذى لم يكن يعرف من الالمانية شيئا حينذاك ، لتاثيره المنوم أيضا . وبالاضافة الى محاضراته عن Bhagavadgita ، الى «شتاينر» محاضرة عامة عن حرية الارادة ، وهى محاضرة عادية جدا ، وليست لها غير قيمة فلسفية ضئيلة ، وكتابة الفلسفى (المتميز عن أبحاثه الثيوصوفية والأنثروبوصوفية الأخرى) « فلسفة الحرية » ليست له بالمثل غير

قيمة ضيئلة ، أو ليست له قيمة على الاطلاق • وقد لخصت انطباعاتى عن « هلسنجفورس » فى مقال نشـــر بمجلة « الفكر الروســـى » أثار ســـخط الأنثروبوصوفيين •.

وأحب أن أضيف هنا بضع كلمات قلائل عن « منتسلوفا » التى لعبت فى وقت ما دورا عظيما فى الدوائر الأدبية تحت تأثير « الغيبية » • التقيت بها أول مرة فى بطرسبورج عند « آل ايفانوف » ، فلم ألتفت اليها كثيرا وقتذاك • فلما توفيت زوجة «ايفانوف» ، استطاعت «منتسلوفا» أن تسيطر عليه ، وأن تقوم بدور حاملة العزاء اليه ، غير أن نشاطها فى هذا المجال كان ذا طبيعة غيبية متميزة • وعندما حضرت «منتسلوفا» الى موسكو فيما بعد ، لكى توقع «بيلى» والشباب الذين يلتفون حوله فى الشبكة الأنثروبوصوفية ، أوليتها مزيدا من الاهتمام • ولقد ـ كانت ـ كما قلت من قبل ـ سفيرة « شتاينر » الى روسيا • وكانت امرأة دميمة بدينة ذات عينين جاحظتين ، تشبه الى حد ما « مدام بلافاتسكى » ، وكان مظهرها منفرا نوعا ما ، ولم يكن فيها غير راحتين جميلتين بديعتين • وكانت ذكية موهوبة ، وفوق هذا كله ماهرة فى دنوها من الأرواح الانسانية ، وكانت تعرف كيف تتحدث الى كل شخص الحديث الذى يلائمه • أما تأثير « منتسلوفا» على ، فكان يبدو سلبيا شيطانيا الى أقصى حد ، وانى لأتذكر رؤية غريبة عنها حدثت عقب وصولها الى موســـكو • كنت راقدا فى سريرى نصف نائم ، وكنت أستطيع أن أرى الحجرة فى وضوح ، وأن ألمح الركن المقابل لى حيث علقت•أيقونة أمام مصباح زيت صغير مشتعل • وكنت أحدق فى هذا الركن ، عندما أبصرت فجأة وجه « منتسلوفا » ، وكان تعبير الوجه مفزعا جدا ، وكأنه يمتلك قوى الظلام جميعا • فتفرست فيها بامعان لحظات قلائل ، ثم أرغمت الرؤية الفظيعة على الاختفاء بعد أن بذلت مجهودا روحيا عنيفا •

ولاشك أن « منتسلوفا » قد أحست بعدائى نحوها ، وبذلت أقصى ما فى وسعها لتبديد هذا العداء ، فأعلنت حضورها ذات صيف فى دارنا الريفية بالقرب من « خاركوف » وهى فى طريقها الى شبه جزيرة القرم • وبرهنت على أنها رفيقة شائقة الحديث ، ولكنها لم تنجح فى الفوز بتأييدى لها • وكان اختفاؤها أغرب ما يروى عن شخصيتها • فبعد أيام قلائل من عودتها الى موسكو قادمة من شبه جزيرة القرم ، ذهبت مع احدى صديقاتها التى كانت تمكث معها الى « جسر كوزنتسكى » واستدارت صديقتها لحظة ، وفجأة وجدت أن « منتسلوفا » قد اختفت • ولم يعرف أحد أين ذهبت ، ولم يرها أحد بعد ذلك ، واسهم هذا كله فى شهرتها الغامضة ، واعتقد البعض أنها احتجبت فدير كاثوليكى فى مكان ما

بأوروبا الغربية ، وهو مكان ارتبط اسمه باتباع المذهب الروزيكروشى ، وظن البعض الآخر أنها انتحرت لأن « شتاينر » أدانها بسبب فشلها فى تحقيق مهمتها فى روسيـــــــيا •

ان أشخاصا من أمثال « منتسلوفا » وحدها ، هم الذين يمكنهم أن يؤثروا فى الجو الذى ساد بين الصفوة المثقفة فى ذلك الوقت ، تلك الصفوة التى تعتريها أحوال غيبية والتى تبحث عن الألفة الوثيقة والاتحاد بأسرار الكون • وكان هناك قدر كبير من الانحراف والزيف والخداع الذاتى شائعا فى الجو ، وحب ضئيل للحق • وكان الرجال والنساء يرغبون فى أن يخدعوا وأن يغرر بهم ، وما من أحد كان يقبل النقد • بيد أن هذا كله لم يكن ظاهرة جديدة فى روسيا ، اذ تميزت نهاية القرن السابق بمثل هذ هالاحوال والاتجاهات عندما اســـــتولت الماسونية الحرة الصوفية على عقول الروس وأفئدتهم فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر • غير أن التلقائية والبساطة كانتا متغلبتين فى ذلك الحين •

ومن اكثر الشخصيات تمييزا لذلك العهد الذى تحدث عنه شـــخصية «أندريه بيلى» (هذا هو اسم الشهرة ، أما اسمه الحقيقى فهو بوريس بوجايف) الذى يعد أكثر الرمزيين الروس نفوذا ، والذى يحتل مكانا هاما فى تاريخ الأدب الروسى • كان « بيلى » شخصية معقدة صريحة الى أبعد حد ، ومع ذلك كان يحيا بنوع من الرغبة الحارة لفقدان ذاتيته تماما • وكان عالم « بيلى » الأدبى بكل مافيه من تفصيل مشابه للحياة ــ يبدو حقا ملكوتا لا شخصيا لا ماديا يسقط فيه الواقع كأنه دوامة من الخيالات • وكانت نزعته « اللاشـــخصية » تتبدى خاصة فى خيانته البشعة وميله الى الغش • وكانت صلتى به صلة غريبة ، تكاد تكون شاذة • كنت أميل اليهميلا شخصيا، وأقدره باعتبارهروائيا تقديرا عظيما، وعندما أصدر أولى رواياته « اليمامة الفضية » ، التى لم تلبث أن أثرت تأثيرا هائلا ، وان مضـــت فى البداية دون أن يلحظها أحد ، ثم تلاها بروايته الثانية «بطرسبورج» ، كتبت تعليقا عليهما فى مقالتين : واعتبرت كلتا الروايتين من وجهة النظر الأدبية ، عملا قويا جدا وشـــائقا الى أقصى حد من الوجهـــة الفلسفية ، لأن كلا منهما تعالج بطريقة أصيلة غاية الاصالة مشكلات فلسفة التاريخ الروسى • ولعلنى بالغت فى أهميتهما ، ومنذ ذلك الحين أصبح « أندريه بيلى » زائرا دائما لمنزلنا • وكانت كل الظواهر تدل على انه صديق للأسرة ، اذ كان يتفق معى دائما فى الحديث ، وهو عاجز على وجه العموم عن الاختلاف مع أى شخص فى وجهه • ثم كان يختفى فجأة من أفقى اختفاء تاما ــ لفترة ما ، يعكف فيها على كتابة قصيدة هجاء أو مقال يهاجمنى فيه هجوما عنيفا ، ويسخر

منى • وقد صنع هذا الصنيع مع أصدقائه الآخرين : مع آل « مرزكوفسكى » ومع «اميل مدتنر» ، ومع «راتشنسكى» ، ومع «ايفانوف»، بل ومع أعظمأصدقائه «الكسندر بلوك» • واستخلصت من ذلك أنه يصفى حسابه عندما كان يخضع لأفكارى اذا تقابلنا وجها لوجه ، وكان يدفع ثمن اختلافه الحقيقى معى مع « القوائد » • لم يكن من الممكن اذن أن يثق المرء بـ «بيلى» بأية صورة من الصور • وعندما صـار من أتباع « شـتاينر » عاش أربعة أعوام فى الـ Goetheanum مقر « شتاينر » السحرى بدورناخ Dornach فى سويسرا ، ولكنه انقلب فجأة عدوا لدودا « لشتاينر » ، وكتب أقذع الكتابات عنه • ولم يلبث أن عاد الى حضن الايمان الأنثروبوصوفى • وفى صيف عام ١٩١٧ ، كان معجبا متحمسا « بكيرنسكى » Kerensky ، وعاشقا له بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة ، وقد عبر عن حبه واعجابه برسومات راقصة فى حجرتنا للاستقبال • ولكنه أظهر نشاطا محموما فيما بعد فى مناصرة البلشفية التى راى فيها فجرا لنهضة صوفية عظمى لروسيا •

كان « بيلى » موهوبا بصورة هائلة •• وربما كان أعظم هجـائينا بعد « جوجول » • وكان ثمة شىء حقيقى جديد ، وأصيل اصالة ضارية فى عمله الخلاق ، وكان يتجه بكليته ـ على عكس الرمزيين والرومانسيين الآخرين ـ الى المستقبل ، ورواياته اشبه بالسيمفونيات الموسـيقية (من أعماله النثرية الأولى كتاب سماه « السيمفونية الدرامية » ولهذا الاسم ـ على حد قوله فى مقدمته ـ ثلاثة معان : موسيقى ، وهجائى ، وفلسفى) ومع ذلك لم يكن قادرا على أن يبدع عملا فنيا كاملا ، وسيمفونياته كلها ناقصة ، وتفتقر الى الوحدة الباطنة • ومهما يكن من أمر ، فان « بيلى » أهم فى نظرى باعتباره فنانا من «ايفانوف» ، وان يكن « ايفانوف» أعلم منه ، اذ كان « بيلى » يعرف القليل ، وهذا القليل الذى يعرفه كان مهوشا غير متماسك • أما عقليته وشعوره ازاء الحياة ففيهما شىء جرمانى ، وكتبه الأولى زاخرة بالتلميحات التيوتونية • ولكنه لم يكن يعرف اللغة الالمانية جيدا ، ولم يقرأ شيئا باللغة الالمانية كما ينبغى ان تكون القراءة • ولا يسع المرء الا أن يظن به الجنون ، اذ كانت تستبد به دائما الهواجس والمخاوف والاهوال والتوقعات ، فكان يخاف مثلا خوفا قاتلا من أن يلتقى بشخص يابانى أو صينى • ولكنه كان يتمتع بجاذبية لا تقاوم ، ومن العسير جدا أن يغضب منه أحد• وكان محاطا بالصداقة، بل حتى بالعبادة، ولكنه اعترف لى بعد ذلك فى مناسبات عدة ، بأنه يشعر بالوحدة التامة وعدم الرضـــا •

ان « بيلى » ينتمى الى ذلك العقد اللامع من الرجال والنساء الروس الذين وصفتهم فى الفصل السابق ـ رواد النهضـــة الثقافية الذين ـ على الرغم من تحيزهم وامتلائهم بكثير من الشرور ـ قد وسعوا آفاق العقل الروسى ، وأثروه الى غير حد ، وكانوا دليلا على وعى عميق بلحظة روسيا التاريخية • يبدو لى أن العصر الحالى الذى جاء فى أعقاب الحرب والثورة أفقر فى الموهبة وأضيق فى الرؤية ، وان ميزته أحداث تاريخية أقوى وأخطر •

* * *

كانت حياتى فى موسكو فترة أعتبرها أسعد فترات حياتى ، وقد بدأت هذه الفترة عندما اتصلت أولا بروسيا المتجولة « بالحجاج ، والمتسكعين ، ومشردى روسيا المقدسة» • وفى حانة من حانات موسكو المسماة «ياما» (المصـــيدة) بالقرب من كنيسة القديس فلورنت Florent والقديسة لورا، بحى مياسنيتسكى، كانت هناك قاعة يجتمع فيها أعضاء كثير من الطوائف الدينية الروسية • وقد سمعت عن هذه الاجتماعات ، واهتممت بها اهتماما حادا • فبدأت من ثم أتردد عليها ، فتركت منذ البداية انطباعا قويا فى نفسى ، اذ كانت رمزا لروسيا الباحثة عن الله والحقيقة والعدالة •• روسيا الشجاعة المنطلقة التلقائية التى لا تحدها الحدود • وبدأت اشترك اشتراكا فعليا فى مجادلاتهم الدينية ، مما أثار دهشتى أنا نفسى ، بل لقد اكتشفت فى نفسى مواهب دفينة فى الحديث مع « الناس » الذين كانوا أبعد ما يكونون عن الحذلقة المألوفة « للثقافة » ، وبدا كأن بيننا تعاطفا وفهما متبادلين •

كان هناك تنوع واســــع فى الحركات الدينية الممثلة فى تلك الاجتماعات : فهناك « البسمرتنيكى » (الخالدون) ، والمعمدون Baptists ، وظلال متباينة من الانجيليين ، والمنشقون اليساريون ، والـ Dukhobors ، والخليستى السريون ، والتولستويون وغيرهم • وكان الخالدون ـ وهم طائفة صـــوفية جديدة أثارت اهتماما عظيما ـ ينقســـمون الى جماعات ثلاث ـ أتباع العهد القديم ، وأتباع العهد الجديد ، وأتباع العهد الثالث • وكانوا مبرزين خاصــة من حيث لغتهم ، اذ كانت لغة الطبقة المثقفة تبدو شاحبة مجردة بالقياس الى لغتهم الغنية الحية القوية ، وكانت لغة هؤلاء الطائفيين تجمـــع بين الرقــة والسخرية ، بين الدعابة والغضب ، وكان خيالهم عارما ، وأصيلا أصـــالة جريئة • وكان « نيكيتا بوستوفيات » بليغا بلاغة خاصة ، والجو كله يعبر عن اهتمام حار ، وبحث عن الحق ، وشدة روحية وعقلية عظيمة • وليس من شك أن تلك الاجتماعات كانت ذات قيمة لا تقدر لدراسة الشعب الروسى كما هو فى الواقع ، لا كما يتصوره الآخرون • وكان بعض هؤلاء الطائفيين غنوصيين

صادقين ينتمون الى الشعب ، وقد وضعوا مذاهب كاملة من الغنوص (المعرفة) الروحى ينظر فيها الى الخلاص باعتباره متوقفا على معرفة الحقيقة • وكان منهم مانويون وبوجوميليون(١) متميزون • وقد تجاوبت بغريزتى مع الدافع الثنائى فى موقفهم ، ولكننى عارضــــت بحرارة روحهم الطائفية ، وحاولت أن أحطم مذاهبهم المغلقة • كما لم أكن أستطيع العطف على ميلهم الى الادعاء بأن فى كل حالة فردية امتلاكا مطلقا للحق دون جميع الحالات الاخرى التى نفترض أنها غارقة فى الظلام • وكانت الطوائف الصوفية أكثر طرافة من الطوائف العقلية • وكان المعمدانيون هم اقل الطوائف نصيبا من حبى ، اذ لم أكن أحتمل الحاحهم على الخلاص ، واكتفاءهم الذاتى العنيد • اما اتباع « تولستوى » فقد نجح معظمهم فى ابراز أستاذهم العظيم على ضوء غبائهم الخاص • وأيا كان الأمر فان أشد المشاهد تأثيرا ، هو مشهد المبعوث الأرثوذكسى الذى أرسل الى هناك لفضح الطائفيين وتفنيد مزاعمهم • وكان موقفه ضربا من الأرثوذكسية المخففة، وحتى عندما يقول شيئا صادقا ، فقد كان يأتى مثيرا للحنق ، بغيضا ، لا تأثير له على الاطلاق •

وقد تبادلت مع « الخالدين » كثيرا من الأحاديث ، اذ كانوا كما قلت على أهمية خاصة بالنسبة لى ، كما اعتادوا هم أيضا الحضور لرؤيتى فى المنزل والعقيدة الرئيسية فى ايمانهم هى أنهم لن يموتوا مطلقا ، وأن الناس لا يموتون الا لأنهم يؤمنون بالموت وينظرون اليه نظرة عقلية ، أو بتعبير أدق ، أن الموت أصبح نوعا من الاعتقاد بالخرافات • وكانوا كغيرهم من الطائفيين يستندون الى نصوص الكتاب المقدس • وهم يفهمون انتصار المسيح على الموت لا على أنه يعنى بعث الموتى ، بل على أنه حالة من الخلود أمكن الوصول اليها فعلا والواقع أنهم ينكرون حقيقة الموت بالنسبة لهؤلاء الذين يؤمنون بالمسيح • فاذا مات الناس «فذلك دليل على افتقارهم الى الايمان بانتصار المسيح على الموت» • واذا مات أحد « الخالدين » ، فذلك يرجع الى ضياع ايمانه فقط • وكان من المحال أن تجادل « الخالدين » مادامت حقيقة الموت لا تثبت لديهم شيئا غير اختفاء الايمان أو ضعفه • وقد قال لى أحدهم أنه اذا حان دفنه ووقف الناس يندبونه ويبكون عليه ، فانه سيقف الى جانب قبره ليضحك على هؤلاء الناس الذين لم يعمر قلوبهم غير ايمان ضئيل • فما الموت بالنسبة اليه غير وهم كوهم المرض عند العلماء المسيحيين ، مجرد بدعة ابتدعها خيال شرير ، وايمان فاسد ، وينبغى محاربتها والتغلب عليها بالخيال السليم والايمان الصحيح • وقد سمعت

---

(١) طائفة من المانويين الذين ظهروا فى أوائل القرون الوسطى ويقال ان منشأهم كان فى بلغاريا (ك٠ل) •

عن طائفة أكثر كآبة من الخالدين عرفت باسم «الأبالسة » ، وكان أصحابها لا يؤمنون الا بخلودهم هم وحدهم ، وينظرون الى الآخرين باعتبارهم صائرين الى الموت • ومهما يكن من أمر ، فالشيء الذى له مغزى فى هؤلاء الخالدين هو أنهم يعبرون عن الاهتمام العميق الفطرى لدى الشعب الروسى بمشكلة الموت • وعيبهم هو أنهم كغيرهم من الطائفيين ، كانوا يستقرون على حقيقة واحدة ويستبعدون الحقائق الأخرى جميعا ، وبالتالى ، فقد وقعوا فريسة للانحراف فى الحكم ، والتعصب •

وذات مرة أقبل على « نيكيتا بوستوشبعيات » أحد المنشقين اليساريين ، وقال لى فى أحد الاجتماعات : « اذا أردت أن تعرف الحق ، فوجه الى الدعوة للحضور ورؤيتك » • وبالطبع ، كنت أريد أن أعرف الحق ، فسألته أن يحضر لرؤيتى • وقد وصل فعلا ، وجلس فى وسط الحجرة ، وبدأ يعرض على بلغته القوية الحية ، مذهبا « غنوصيا » معقدا جدا ، ويدور حول مركز واحد هو مشكلة الزمان • وكان يرى فى الزمان منبع الشر • ولكنه كان يرى أنه شر لا يقهر اللهم الا عن طريق ما سماه « الالتقاف باللحظة » ، حيث تدخل الأشياء جميعا فى الحياة الأبدية • بيد أنه لم يكن مهتما أدنى اهتمام بمستمعيه ، وعندما حاولت أن أطرح بعض أحكامه للمناقشة ، لم يستمع الى ببساطة ، اذ كان مقتنعا اقتناعا مطلقا بأنه حامل الحق المخلص الوحيد • بيد أنه كان يتمتع بذكاء وخيال يبعثان على الذهول• وكان كثير من هؤلاءالطائفيين يذكروننى بـ «يعقوب بيمه » وغيره من الصوفيين المسيحيين والثيوصوفيين • وأقول بهذه المناسبة أن « بيمه » لم يكن مجهولا فى روسيا ، وأنه عرف فى أثناء حكم «الاسكندرية الأول» الذى كانت له هو نفسه ميول صوفية • غير أن ذكرى « بيمه » لم تبق حية الا بين أوساط الشعب ، حيث كانوا يعتبرونه قديسا ونبيا •

ولم تلبث الشرطة أن منعت الاجتماعات الدينية التى تعقد فى « المصيدة »، وكان هذا أمرا مميزا للنظام القديم ، اذ حينما أحست أرثوذكسية الدولة الرسمية بعجزها وتهافتها الروحى ازاء تلك الحركات الدينية المنتشرة بين صفوف الشعب ، التجأت الى الدولة ، التى شرعت فى تحريم تلك الحركات ، بل اضطهادها •

وفى أثناء تلك الفترة التى ترددت فيها على « المصيدة » كان « أندريه بيلى » يكتب روايته « اليمامة الفضية » ، وبطلها شخص مثقف تشرب حقيقة الثقافة الأوروبية تشربا عميقا ، ولكنه ما برح غير قانع ، فأخذ يبحث عن حقيقة جديدة، ووجدها بين مجموعة من الفلاحين الذين ينتمون الى طائفة صوفية معربدة تدعى « اليمامات البيض » • واقترحت على « أندريه بيلى » أن يحضر الى « المصيدة » ويستمع الى رجال الطوائف • ولكنه رفض ــ مما أثار دهشتى ــ

وآثر أن يعتمد على حدسه الفني • وكانت النتيجة عجيبة حقا ، اذ نجح فى تصوير شخصيات الطائفيين تصويرا « جوجوليا » حيا ، وفى نقل شـــىء من الروح التى تشيع فى بحثهم عن الحقيقة •

وأحب أن أذكر عدة مقابلات اخرى قليلة مع « الباحثين عن الله » الذين ينتمون الى صفوف الشعب ، أولئك الذين تركوا انطباعا أعمق وأدوم فى نفسى • وكنا منذ أعوام عديدة نقضى الصيف مع أم « ليديا » فى الريف ، بالقرب من ليوبوتين من اقليم خاركوف فاكتشفنا أن « فلاديمير شيرمان » شقيق الثيوصوفى المعروف ، وأحد أتباع تولتسوى ، قد انشأ بالقرب منا مستعمرة أو مجتمعا روحيا على الطراز التولستووى • وعلى أية حال ، لم يكن اتباع «تولستوى» هم المبرزون أو الأكثر عددا هناك ، بل كان ذلك المجتمع أشبه بأمة مصغرة لكل من « يسغب ويتعطش الى الحق والعدالة » سواء من الطبقة المثقفة او من « الشعب » • وهناك كان المرء يلتقى بأعضاء من جميع أنواع الطوائف ، ومن الرهبان الأرثوذكس المتجولين ، وغيرهم ممن اكتشف طريقه الفردى للخلاص • وكان هذا النوع الأخير هو الغالبية العظمى • وفى هذا المركز الروحى العجيب تعرفت لأول مرة بأتباع « اسكندر دوبرليوبوف »(١) وهو الشاعر المنحل الذى « اختلط بالشعب » وأصبح حاجا يتجول فى أنحاء روسيا بلا مأوى ، ثم مؤسسا لحركة صوفية فوضوية • وألف كتابا بعنوان « من الكتاب الخفى » نشره الشاعر الرمزى « بريوسوف » ، ويضم مقطوعات من النثر تصف رؤاه الصـوفية ، وتتخلله أشعار ذات نضرت وأصالة ملحوظتين • وقد كان من الصعب الاتصال بأتباع « دوبروليوبوف » لأنهم كانوا قد تعاهدوا على الصمت ، بحيث لا يجيبون عن سؤالك الا بعد عام ، مما لم يكن أمرا لائقا من جانبهم • وكان « شيرمان » نفسه شخصا مدهشا ، يتمتع بصفاء عجيب ، ووقف حياته للبحث عن الحياة الطيبة • ولم يكن فيه شىء من التزمت الاخلاقى وضيق الأفق والتعصب أو الطائفية ، على عكس الغالبية العظمى من اتباع «تولستوى» • والحق أن أتباع « تولستوى » ـ كقاعدة ـ كانوا غير محتملين من هذه الناحية •

وكنت اتردد كثيرا على « المستعمرة » ، كما كان أعضاؤها بدورهم يترددون على • وكان سكانها أشبه بالماء الجارى، اذ كان كثيرون من الناس يمرون بها فى أثناء تجولاتهم فى أنحاء روسيا ، وقد استخلصت استبصارات عظيمة من هذه الاتصالات ، ومعرفة بالشعب الروسى ليست ميسرة فى اى مكان آخر ، اذ كانت

(١) وينبغى الا نخلط بينه وبين « نيكولاى دوبروليوبوف » اشد نقاد الأدب الراديكاليين نفوذا بعد بلنسكى (المؤلف) •

هذه المستمرة هى المنبع الحقيقى للروحية الروسية • ولست أعرف ماذا حدث لهذه الروسيا بعد الثورة ، خلال الاعوام التى احيلت فيها البلاد بالجملة الى الاشتراكية • ولكنى لا أستطيع أن أتخيل روسـيا بغير هؤلاء الباحثين عن الحقيقة الذين قد يظهرون لبعض الناس بمظهر المجانين ، ولكنهم قديسون وأنبياء فى نظر البعض الآخر • لقد كانوا الثوريين الحقيقيين فى روسيا ، وكانوا أكثر أصالة وتأثيرا من الثوريين الاجتماعيين والسياسيين •

وكان « أكيمو شكا » أعظم أصدقائى •• وهو فلاح بسيط ، وعامل غير متمرن، وشخص أمى، يكاد يكون ضريرا • وكان يبدو أنه ضائع فى عالم الأشياء والموضوعات الخارجية •• وكأنه طفل لا حول له ولا قوة •• طفل لا يستطيع أن يجد طريقه ، ولا يسع المرء الا أن يشعر نحوه بأنه على وشك أن يتعثر فى شىء ما ، ثم ينكفىء على وجهه • وكان يذكرنى سلوكه أحيانا « بأندريه بيلى » والحديث معه يجعل المرء يغوص دائما فى أعماق غير معقولة• وكان يبدو أنه يعرف ذرى أصعب المسائل الصوفية الجليلة ، وفى الوقت نفسه ، كان يبدو أنه يتنفس عطفا وشفقة ورحمة •• رحمة طفولية طبيعية تلقائية • وقد اعتاد أن يأتى كثيرا ليرانى ، فكنا نقضى الساعات معا • وكنت فى كل مرة ألقاه أشعر بأنه أشد قربا منى ، وأن الحديث معه أسـهل من الحـديث مع ممثلى النهضـة الثقافية •

وأقنعتنى صداقتى بـ « أكيموشكا » بمغالطات الافتراض الشـعبى التى تذهب الى القول بوجود هوة بين الطبقات المثقفة وبين « الشعب » ، وأخبرنى أكيموشكا » أنه يشعر بأن الصلة بينه وبين الفلاح المنشغل بشئون وجوده المادى قد انقطعت ، وأنه يجد بالقرب منى قرابة روحية ، ومشاركة فى الاهتمام• فهناك وحدة ، وعالم للروح يعلو على جميع الفوارق والاختلافات التى تنتسب الى حياة المدنية •

وقد قص على « أكيموشكا » ذات مرة حادثا هاما وقع له فى حياته • كان راعيا صغيرا ، وكان يرعى أغنامه ذات يوم عندما استولت عليه فكرة مباغتة بأنه لا وجود لله • وحينذاك اظلمت صفحة الشمس ، وغاص فى الغياهب ، فأحس بأنه اذا لم يكن الله موجودا ، فلا يمكن أن يوجد شىء على الاطلاق ، ولن يكون هناك غير الظلام والخواء المطلق • ولما ادرك أن الوجود نفسه أخذ يتقلص فى الفراغ ، وأنه ألقى الى أعماق العدم ، لمح بصيصا مباغتا من النور طفق ينمو وينمو مستوليا على قلبه وعقله ، فأصبح فى وعى بالله مرة أخرى ، وتحولت الظلمة الى نور يشمل كل شىء ، واستردت الاشـياء جميعا واقعها الأصـيل •.

ورحل « أكيموشكا » فيما بعد الى القوقاز ، ولم اره بعد ذلك مرة أخرى غير أن ذكراه عندى ما برحت غالية جدا ٠

ومن « المتعلمين » اذكر خاصة الفنان « ب » وزوجته (وربما كانا على قيد الحياة حتى الآن فى روسيا) ٠ كانا اقرب الناس الى مستعمرة «دوبروليوبوف»، وكان « ب » يتمتع بوجه فاتن فتنة مذهلة ، يوحى بقوة روحية عظيمة ٠ ولكنه كان صامتا لا يتحدث ٠ وكان لمجرد وجوده تأثير مضىء يسمو بهؤلاء الذين يلزمون صحبته ٠ وكانت زوجته من نمط اكثر ارثوذكسية ، وكانت مولعة بأتباع « دوبروليوبوف » ، وتعودت على قراءة ادب الزهد التصوف الشرقى ومناقشته مناقشة طويلة ، وانى لأذكر أمسيات كثيرة منعشة قضيتها بصحبة « ب » وزوجته ٠ وقد رحلا هذان الاثنان أيضا بعد ذلك الى القوقاز التى أصبحت مركزا آخر « لروسيا المتجولة » ٠

والحق أننى بنشاتى المدللة ، وانشغالاتى الأنانية بعملى الفلسفى والأدبى الخاص ، لم اصنع غير القليل ــ اذا كنت صنعت شيئا على الاطلاق ــ بالقياس الى أولئك الرجال والنساء ــ للوصول الى المثل الأعلى للحياة الطيبة ٠ ومع ذلك شاهدت وأحسست كما شاهدوا وأحسوا ، وكنت على وعى عميق بتضامنى معهم فى تشوقهم الى الحق وبحثهم عنه ٠

وقد كانت الأيام التى قضيتها فى منزلنا الريفى بأوكرانيا وسط الظروف العاصفة الخطرة التى أخذت نذرها تتجمع فى روسيا قبل الثورة ــ كانت هذه الأيام اشبه بقصة خرافية ٠ ولن أنسى ما حييت تلك الأمسيات الشتوية التى كان « شيرمان » يصل فيها على زلاقته مصطحبا فى كل مرة ضيفا جديداً ٠ وكان فى سترته الرحبة من الفراء ، وبلحيته المغطاة بالثلج ، وبعينيه اللطيفتين الرحيمتين ، شخصية تذكرنا « بسانتا كلوز » Santa Claus ٠ وكنا نندفع من حجرة الاستقبال للترحيب بالضيوف ، تصاحبنا زمجرة كلبنا « تومكا » القابع بالقرب من المدفأة ٠ فاذا حضر الشاى ، بدأنا حديثنا المعتاد ، منصتين الى اساليب ضيوفنا الجدد فى تخليص العالم ، مناقشين ، او مدافعين عن هذا أو ذاك ٠ وكان الجو كله يوحى بالسلام والطمأنينة ، بيد أنه كان محتجبا وراء مرجل الاحداث العالمية التى سوف تغلى لتصبح حربا وثورة رهيبتين ٠

* * *

كانت مقاومتى للأرثوذكسية الرسمية ومظاهر الحياة الكنسية تشتد ، وهذا شيء يبعث اعترافى به المرارة الى نفسى ، غير أننى كنت أزداد ادراكا بالعقبة

الكأداء الرهيبة التى تضعها المسيحية التاريخية • وعندما انضمت الكنيسة الروسية الى وزارة الخارجية فى تدخلها لاخماد حركة « الممجدين لاسم الله(١)» ، كتبت مقالا غاضبا تحت عنوان : « المطفئون للروح » هاجمت فيه المجمع المقدس هجوما صريحا • ولم اكن انا نفسى أتعاطف أى تعاطف خاص مع أفكار « الممجدين لاسم الله » ، ولكننى سارعت الى الاحتجاج على استعمال العنف فى المسائل الروحية الخالصة ، وعلى الدنيوية التى تنتشر فى ذلك المجمع الروسى المقدس خلف قناع من التقوى • وقد صودر عدد الصحيفة التى ظهر فيها هذا المقال ، وأخطرت بأنه سوف تجرى لى محاكمة مقبلة بتهمة التجديف ، وهى تهمة عقوبتها النفى الى سيبيريا مدى الحياة • وأنبأنى محامى أن قضيتى ميئوس منها • ومهما يكن من أمر ، فقد تأجلت الجلسة بسبب الحرب ، ولأن عددا من الشهود المهمين لم يكن من اليسير استحضارهم • ولما اقترب موعد الاستماع الى القضية ، اندلعت نيران الثورة ، فوضعت حدا لهذه المسألة الى الأبد • ولو لم تقم الثورة ، لكنت الآن منفيا مدى الحياة فى سيبيريا بدلا من باريس •

وفى صيف عام ١٩١٧ ، والثورة فى أوجها ، عقدت اجتماعات كنسية تمهيدا لانعقاد مجلس روسى شامل لانتخاب بطريرك بعد أن مضى مائتا عام على حكومة الكنيسة المجمعية وعلى الخضوع للدولة • ولم أكن أحب اطلاقا تلك الاجتماعات الكنسية ، غير أننى حضرت فى تلك المناسبة عدة اجتماعات دون أن أشترك اشتراكا فعليا فى المناقشات • وكان بعض هذه المؤتمرات يوحى بأنها اجتماعات يعقدها « اتحاد الشعب الروسى لشرب الشاى » ، وكان بعضها الآخر أكثر دلالة• بيد أنها عقدت جميعا فى ظل الرابطة العميقة بين الكنيسة الارثوذكسية والقوى الرجعية ، والرجعية المتطرفة ، بين الكنيسة وبين الملكية المطلقة بسياستها فى التمييز الدينى ، وبمائتها السوداء(٢) وخلافه ــ وهى رابطة تحررت منها الكنيسة الأرثوذكسية الراهنة فى روسيا تحررا تاما • وقد كان مستوى المناقشات فى المجلس منحطا نوعا ما ، اذ لم تكن هذه المناقشات على صلة اطلاقا بالاحداث الهامة الحاسمة التى تقع فى ذلك العصر ، ولم تثر مشكلة واحدة من المشكلات التى شغلت اذهان ذلك العدد الكبير من المفكرين الروس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين • وكان المجلس خلفا الى حد بعيد للأرثوذكسية الشائعة المسألة، تلك الأرثوذكسية التى كان اهتمامها مقصورا على المسائل الثانوية المتعلقة بنظام الكنيسة الخارجى وتنظيمها • بل ان رجالا من مستوى « سرجى بولجاكوف »

---

(١) وهم أنصار صوفية نشأت بين الرهبان الروس الذين يعيشون على جبل آثوس Athos ، وهم يضفون دلالة مقدسة بل قدسية على اسم الله (ك.ل) .

(٢) حركة ملكية مضادة للنزعة السامية احتضنها النظام القيصرى (ك.ل) .

والأمير « افجيني تروبتسكوى » اللذين اشتركا اشتراكا فعليا ووضعا معظم مذكرة المجلس ــ لم يكونوا يستطيعون أن يفعلوا الا القليل فى وجه الجمود غير العادى الذى استكانت اليه الدوائر الرسمية الكنسية · وانى لأتذكر كيف كان من العسير على اقناع قسيس « ابراشيتنا » لكى يحذف الاشارات الى « قيصرنا المستبد » من الشعائر الدينية · وكان هذا القسيس رجلا بديعا (كان هناك فى الواقع عدد كبير من القساوسة الطيبين جدا المؤمنين ايمانا عميقا ، وان كان من النادر وجود أساقفة طيبين فى روسيا السابقة على الثورة) ، بيد أنه وقع فى قبضة النزعة الكنسية الخاضعة للدولة، وكان سقوط الملكية الأوتوقراطية معناه بالنسبة اليه سقوط الكنيسة الأرثوذكسية ، ولهذا تشبث «بقيصرنا الأوتوقراطى» كما يتشبث الغريق بعود من القش · ومع ذلك ، فانه حينما انطلق اضطهاد الكنيسة ورجال الدين من عقاله ، ظهر عدد كبير من القساوسة المتمكسين بايمانهم ، والمتأهبين لمواجهة الآلام والتعذيب فى سبيله ، والحق أن هذا الاضطهاد كان تطهيرا للكنيسة · ومع ذلك لم يكن من الممكن تمييز أية علامات على وعى جديد خلاق داخل الأرثوذكسية الكنسية ، وثبت أن الكنيسة باعتبارها مؤسسة اجتماعية تقليدية تحكمها الشعائر الدينية والقانونية ــ أشد عنادا ونفوذا من الكنيسة باعتبارها كائنا صوفيا ·

ولقد كانت هناك استثناءات ملحوظة لتلك الحالة ، اذكر منها خاصة مقابلتى مع « الكسى متشفوى » قبل نفيى من روسيا السوفيتية بزمن قصير · وكان ينتمى الى رجال الدين المتزوجين ، ويعتبره الكثيرون من النساك « البيض » · وبالفعل كان فيه شىء يذكرنا بالناسك starets « زوسيما » فى رواية دوستويفسكى (الأخوة كارامازوف) · وكان يبدو أنه ينتسب الى عالم روحى مختلف تمام الاختلاف عن عالم الغالبية العظمى من رجال الدين الروس · وكان يعتقد ــ عرضا ــ أنه ما من تدخل عسكرى أو ثورة مضادة يمكن أن تتغلب على شرور البلشفية ، وان أولئك المسيحيين الذين يعتمدون على مثل هذا التدخل ذو الثورة المضادة، لا يهتمون بالحقيقة المسيحية التى يزعمون أنهم يمثلونها · وكان يقول ان التجديد الروحى داخل الشعب الروسى نفسه ، هو وحده الذى يمكن أن يطهر روسيا ·

وقد تحققت من صدق هذه الحقيقة فى أثناء أعوام النفى التى قضيتها فى الخارج · وأخبرنى « الأب الكسى » كيف كان جنود الجيش الأحمر يأتون اليه ليلا للادلاء باعترافاتهم · وعن طريق « الأب الكسى » بدأت أشعر برابطة جديدة تربطنى بالكنيسة الأرثوذكسية التاريخية ، وهى رابطة لم تنقطع قط انقطاعا تاما على الرغم من تنكرى لها واحتجاجاتى ضدها · وهناك من هذه الناحية شىء

مشترك بين موقفى الدينى وموقف « سولوفييف » ، وان تكن أهدافه التى يرمى اليها مختلفة عن اهداف ٠

سأتناول تجربتى عن حياة الكنيسة فى الخارج فيما بعد ، ولكنى أريد أن أذكر هنا ملاحظة عامة ألا وهى أن الظروف الروحية والنفسية السائدة بين « المهاجرين » كان لها على نفسى التأثير الخارق الذى كان للظروف الروحية والنفسية السائدة فى حياة الكنيسة قبل الثورة ٠ وكانت الغالبية العظمى من الأرثوذكس «ومن بينهم الشبان ، وهو أمر يؤسفنى قوله) متأثرة ـ كما كانت الحال من قبل ـ بتجديفات الصدوقيين (الذين لا يعتقدون بالبعث والآخرة) والفريسيين ٠ وكان يبدو أن الفكر الدينى الروسى قد تلاشى تماما أو أبطل ، فلم تتمسك به غير جماعة صغيرة من ممثلى الفكر اللاهوتى والفلسفى الذين كانت أرثوذكسيتهم ـ على أية حال ـ موضع الشك فى الدوائر الكنسية ٠

وسأتحدث باسهاب فيما بعد عن اتصالاتى بالعالم المسيحى الغربى ، الكاثوليكى والبروتستانتى على السواء ٠ ولقد كنت أود دائما ـ فيما يتعلق بالكنيسة ـ اصلاحا لاحوالها ، لا بأى معنى بروتستانتى خاص لهذه الكلمة ، بل بمعنى الاصلاح الروحى الشامل الذى تحتاج اليه الكنيسة البروتستانتية نفسها احتياج الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية ٠

وان دراما حياتى الدينية لتبدو لى فى المقام الاول على أنها دراما الانسان ورسالته الخلاقة ٠ وسأسهب فى الحديث عن هذا فى الفصل التالى ٠ وكلما أنعمت الفكر فى أزمة المسيحية التاريخية ، ازددت اقتناعا بأن المخرج الوحيد منها هو طريق اعادة التوجيه نحو الابداع ٠ وهذا معناه اعادة التوجيه الأخروى ، أى طريق الخلاص الحقيقى ٠ والله يكشف عن نفسه للعالم ، ولكنه لا يحكمه ، انما يحكمه « أمير » هذا العالم ٠ وعبارة « ملكوتك آت » تدل على أن ملكوت الله لم يأت بعد فى هذا العالم ، وأننا ننتظره ، وأننا ندنو منه ، أو نبتعد عنه ٠ وكثير من مؤرخى المسيحية مثل « فايس » ، و « لويزى » ، و « شفايتسر » وغيرهم ، كانوا يعتقدون بأن ملكوت الله ينبغى أن يفهم فهما أخرويا » ٠ بيد انه لا ينبغى أن ننتظر ملكوت الله فحسب ، بل أن نخلقه أيضا ٠ ويقتضى الموقف الأخروى تغييرا عميقا أساسيا فى الوعى الانسانى ٠٠ تغييرا يختلف عن التغيير الذى طالب به « كيركجور » الذى كان السؤال المركزى بالنسبة اليه هو أن يعرف هل الانسان مؤمن أم لا ، وهل هو يختلف عن أولئك الذين يهتمون بالخطيئة والخلاص وحدهما ، أو حتى عن هؤلاء الذين يجتازون عذابات الشك والحيرة ٠ ويتضمن هذا التغيير بالنسبة لى قبل كل شىء تعديلا فى تجربة الانسان وفهمه للعلاقة بين الله والانسان ٠ ولست أشك فى وجود الله ، ولكننى عرفت لحظات

كان قلبى وعقلى فيها يزرحان تحت فكرة رهيبة وهى أن يكون ذلك التصور الشائع عن هذه العلاقة صحيحا ، أى تصور الله باعتباره سيدا والانسان باعتباره عبدا ، أو الله باعتباره حاكما والانسان باعتباره رعية · فاذا كان الأمر كذلك ضاع كل شيء ، وضعت أنا أيضا ، واذا كان ذلك حقا ، لم يبق لى شيء ، الا هوة العدم الفاغرة فاها · وأبشع كابوس دينى هو تصور اله شرير ، ينظر اليه الناس وقد أعمتهم عبوديتهم ـ على أنه خير · بيد أن هناك تجربة دينية أخرى تعرف السر الالهى الانسانى الغامض لاله يتوقع من الانسان تلبية جريئة خلاقة لندائه · وهذا يضع على عاتق الانسان عبئا أعظم الى غير حد ، ومسئولية أكبر مما يمكن أن يواجهه أى تصور للقانون وتحقيقه · ونصل الى ذروة الجسارة فى ادراكنا بأنه لا تتوقف على الانسان الحياة الانسانية وحدها ، بل والحياة الالهية كذلك :

الفصـل الثـامن

مجال الابداع ·· معنى الفعل الخلاق ·· الفعل الخلاق باعتبـاره وجـــدا

ليست مسالة الابداع ، ورسالة الانسان الخلاقة مجرد وجه ، أو أحد وجوه نظرتى التى وصلت اليها نتيجة لتفكيرى الفلسفى ، بل انها منبع لتفكيرى وحياتى كلها ، انها تجربة باطنة مبدئية ، واستنارة · ولكنها اثبتت أيضا أنها سبب لأعظم ضروب سوء الفهم ·

فالابداع يفهم ـ كقاعدة ـ على أنه تصور جمالى أو ثقافى يشير الى مجال العلم والفنون ، أى المعرفة وانتاج أعمال الفن · وهى تناقش غالبا فى السياق الدينى أو المسيحى فى حدود تلك المسالة السطحية نوعا ما ، الا وهى علاقة المسيحية بأوجه النشاط الثقافى أو بعبارة أخرى مسالة هل المسـيحية ظلامية أم لا · غير أنه من الممكن أن نتنـاول مشـكلة الابداع على مستوى مختلف ، وأعمق من ذلك · فليس الابداع بحاجة الى أى تبرير من وجهة النظر الدينية ، أو من أى وجهة نظر أخرى · لأنه هو نفسه تبريره الخاص المستمد من وجود الانسان نفسه ، انه ما يؤلف علاقة الانسان وتجاوبه مع الله · أما مسالة الثقافة والقيم الثقافية ، ومنتجات الثقافة ، فهى من ناحية أخرى مسالة ثانوية متفرعة ·

ولقد أرقتنى أرقا عميقا مشكلة العلاقة بين الابداع والخطيئة والفداء ، وعانيت لحظات من الادراك الحاد لخطيئة الانســـان ، ومن المحتمل ان مثل هذه اللحظات تميز نقط اقترابى من الارثوذكسية · ولكنى أدركت أيضا أن البقاء ثابت فى هذا الموضع ، وان تسليم نفسى تسليما تاما للاحساس بالخطيئة ، معناه الاحباط والعجز عن الحياة · وقد يكون الشعور بالخطيئة مرحلة فى الطريق نحو التجديد الروحى والاستنارة ، بيد أنه قد يكون أيضا نذيرا بظلمة لا مهرب منها ـ ولن يكون ثمة ابداع واستنارة ـ اذا انحطت الحياة الى مجرد

الشعور ببؤس الانســـان وتعسه وخلاصه الممكن • واذا كان لابد للتجدد أن يتم ، فينبغي أن يتحول الاحساس بالخطيئة الى تجربة أخرى ، اكثر من ذلك سموا • فكيف يمكن أن نتغلب على هذاالقصور الذاتي ، وعلى ما في الاحساس بالخطيئة من عجز ونقص ، والوصول الى موقف أشد حرارة وأكثر ابداعا ؟ ان نصائح الروحانية الدينيــة الشائعة تهيب بنا الى تعميق ادراكنا لحالتنا الآثمة الوضيعة ، فبهذا نصبح قابلين للطف الالهي وللتنوير والاستنارة • غير أن مصدر اللطف مستقر في الله ، واللطف يصدر عن أعلى ، بينما ادراك وضعنا الآثم يصدر عن أسفل • وسؤالي اذن هو هذا : هل نستطيع أن نعزو الى اللطف الالهي الذي يفتدي احباطات الوجود الانساني وتفاهته ، خاصية ليست الهية فحسب ، بل انسانية أيضا ، تصدر عن أسفل ، كما تصدر عن أعلى ؟ وهل يتم تبرير الانسان بطاعته لقوة الهية عليا فقط ، أم يتحقق هذا التبرير أيضا بمحاولته الانسانية ، ووجده الخلاق ؟

ومن الضروري جدا أن نضع في أذهاننا أن الابداع الانساني ليس مطلبا أو حقا من جانب الانسان ، بل مطلب الله ودعوته للانسان • الله ينتظر فعل الانسان الخلاق ، وما هو حق بالنسبة لحرية الانسان ، يصدق أيضا على قدرته الخلاقة ، ذلك أن الحرية هي أيضا نداءات الله للانسان ، وهي واجب الانسان ازاء الله • ولا يكشف الله للانسان ما ينبغي على الانسان أن يكشفه لله • ونحن لا نجد في الكتاب المقدس اى وحي خاص بقدرة الانسان على الابداع ، لا بسبب انكاره الضمني لقدرة الانسان الخلاقة ، ولكن لأن الابداع مسألة على الانسان أن يكشف عنها • والله يسكت عن هذه المسألة ويتوقع أن ينطق الانسان • وكثيرا ما طولبت بأن أبرز فكرتي عن الدلالة الدينية للقدرة الانسانية الخلاقة بآيات من الكتاب المقدس • وربما استطعت أو لم أستطع تقديم مثل هذا التبرير ، ولكن هذا الطلب ، على أية حال ، دليل على ســوء فهم أساسي للمشكلة موضع المناقشة • فهي في الواقع ارادة الله المحتجبة ، لا المكشوفة • ان الانسان يتجاسر فيخلق ، ومثل هذه الجسارة والقدرة الخلاقة علامة على تحقيق الانسان لارادة الله •

ومن العبث أن يوجه الى الاتهـام بمحاولة تحدى الله ، ذلك أن القدرة الخلاقة متضمنة بالنسبة الى في الحقيقــة المسيحية الأســاسية الا وهي « انسانية الله » ، وتبريرها هو الموضوع الانساني الالهي للمسيحية • وفكرة الله عن الانسان أسمى الى ما لا نهاية على التصورات الأرثوذكسية التقليدية للانسان ، وهي غالبا ما تكون تعبيرا عن عقل عاجز فاشل • ان فكرة الله هي أعظم فكرة انسانية ، وفكرة الانسان هي أعظم فكرة الهية • والانسان ينتظر

مولد الله فى نفسه ، والله ينتظر مولد الانسان فى نفسه . وعلى هذا المستوى تثار مسألة الابداع ، ومن وجهة النظر هذه ينبغى أن تعالج . وانى لأعترف بأن فكرة أن الله فى حاجة الى الانسان والى تجاوب الانسان معه ، فكرة جريئة جرأة منقطعة النظير ، ومع ذلك فانه بدون هذه الفكرة يفقد الوحى المسيحى عن « انسانية الله » كل معنى . ودراما الله ، والواحد الآخر الذى هو الانسان ، حاضرة فعالة فى أعماق الحياة الالهيـة . وهذه لا تكشف عنها المذاهب اللاهوتية ، بل التجربةالروحية ، حيثتتحول الدراما الالهية الى دراما انسانية، وما هو أعلى ينقلب الى ما هو أدنى . بيد أن هذا لا يتسق على الاطلاق مع الفداء ، بل هى بالأحرى لحظة أخرى فى الطريق الروحى نفسه ، وفعل آخر فى الدراما الصوفية لله والانسان .

وأريد أن أؤكد بهذه المناسبة ، أن معالجتى الفلسفية تتنافر تنافرا أساسيا مع الاعتقاد فى امكان قيام أنطولوجيا عقلية ، أى علم للكينونة تدفع فيه عملية التجريد الى النقطة التى ينظر فيها الى « الكينونة » باعتبارها خالية من كل الخصائص والسمات العينية ، ولا أستطيع أن أقبل الا ظاهرية (فينومينولوجية) تصف الواقع الميتافيزيقى فى حدود رمزية . وكل احالة عقلية للعلاقة الالهية الانسانية ، وكل محاولة للتعبير عنها فى حدود فلسفة عقلية للكينونة ، تجعل من تلك العلاقة ، ومن تلك الفلسفة شيئا لا معنى له . اذ لا يمكن الحديث عنها الا فى حدود رمزية وأسطورية تترك الباب مفتوحا « للسر » .

وفى رأيى أن القدرة الخلاقة ليست « اقحاما » فى المتناهى ، وليست سيطرة على الوسط ، أو الانتاج الخلاق نفسه ، بل هى بالأحرى التجاء الى اللامتناهى ، وهى ليست نشاطا يقوم بالاحالة الموضوعية فى التناهى ، وانما نشاط يعلو على التناهى متجها صوب اللامتناهى . والفعل الخلاق معناه الوجد، أى النفاذ صعدا نحو الأبدية . وقد كشف لى هذا التصور عن الطابع الفاجع للابداع كما يظهر فى منتجات الثقافة والمجتمع ، ذلك المجهود المتواصل الذى لا جدوى منه ، وكشف لى عن ذلك التفاوت المؤلم بين الفكرة الخلاقة وبين تجسيدها فى العالم .

لقد اجتزت ـ كما ذكـرت آنفا ـ مرحلة عانيت فيها تجربة الخطيئـة السـاحقة ، وفى أعقاب هذه التجربة تكاثفت الظلمات من حولى ، ولو أننى تابعت هذا الطريق الى نهايته دون أن أتمكن من تبديد سحره الأثيم ، لتعودت على التأمل المتصل للخطيئة ، والى التحويم فوق الظلمات ، بدلا من رؤية النور . والواقع ، أن هدف الحياة الدينية هو أن تضـع حدا لهـذا الموقف

الخانق · وقد أفسح احساسى باكتئاب الروح وهبوطها مكانه من نفسى لاحساسى بالنشوة · وأستطيع أن أذكر كيف استبدت بى فجأة ، فى يوم من أيام الصيف ، قبل بزوغ الفجر ، قوة عاصفة وكأنها تنتزعنى انتزاعا من ذلك الأسر الغامض الذى أسلمتنى اليه حالتى القانطة ، وغمر النور كيانى · وعلمت حينئذ أنه نداء واجد للابداع ، ومن الآن فصاعدا سوف أبدع من حرية روحى كما فعل الصانع العظيم الذى أحمل صورته بين جوانحى ·

وقد كان الشىء الذى ألقى على عاتقى فى هذه التجربة باعتبارى مسيحيا هو تحقيق عمليتين تبدوان متنافرتين فى الظاهر ، ولكنهما فى الواقع تكمل احداهما الأخرى بمفارقة من مفارقات الحياة ، واحدى هاتين العمليتين فدائية ، والأخرى خلاقة · وقد أدركت المغالطة الكامنة وراء دين فدائى soteriological بحت · ذلك أن الانسان لا يتغلب على ضغط المؤثرات الخارجية عليه واستعبادها له الا بالفعل الخالق · والفعل الخالق يكشف عن الأولوية المطلقة للذات على «ماليس بذات»، أى على الموضوع، ولكنه فى الوقت نفسه يجتث جذور مايتمركز على الأنا ، لأنه حركة من العلو الذاتى ، لبلوغ ما هو أعلى من الذات · ولا تتسم التجربة الخلاقة بأنها استغراق للمرء فى كماله أو نقصه ، بل انها تعمل على السمو بالانسان وبالعالم ، انها تؤذن بجنة جديدة وأرض جديدة ينبغى أن يعدهما الله والانسان فورا · وهذه نظرة فردية ، ومتمردة بلاشك فى طبيعتها ، اذ تقتضى الصراع بين الانسان وبيئته ، ولكنها – بما لها من قوة محررة – تقف فى القطب المقابل للرضى عن الذات ، وترفع الانسان الى رؤية واقع لا محدود ، ولا متناه ·

وهذه التجربة كامنة فى كتابى « معنى الفعل الخلاق » ، وهو مقال فى « تبرير الانسان » كتب فى حالة تكاد تقترب من الوجد النشوان ، وهو كتاب تبدو فيه أفكارى والسياق الطبيعى للجدل الفلسفى وكأنهما يذوبان فى رؤية واحدة ، انه كتاب مندفع ، عضوى ، ناقص (ولست براض مطلقا عن القسم الخاص بالفن) ، ولكنه يتضمن فى ذلك الشكل المغفل أفكارى السائدة والمكونة واستبصاراتى جميعا · وسوء الحظ الذى لازمنى هو أن تشتتى بموضوعات ومشاكل أخرى من جهة ، وطريقتى غير المنتظمة فى التفكير من جهة أخرى ، كل هذا جعلنى عاجزا عن توضيح الموضوع الرئيسى لهذا العمل ·

وقد كتبت « معنى الفعل الخلاق » حينما بدأ ينمو فى نفسى رد فعل لا سبيل الى مقاومته ضد الدوائر الارثوذكسية فى موسكو · ولم أترك جماعة « نوفوسيلوف » فحسب ، وانما تركت ايضا الجمعية الدينية الفلسفية ، ولم

أعد أحضر اجتماعاتها ، وانقطعت أيضا عن العمل فى دار النشر « بوت » التى ارتبطت بها منذ وصـــولى الى موســـكو · وانسحبت الى عزلة تامة ، وصادفت هذه الفترة زيارتى الأولى لايطاليا ، فذهبنا الى فلورنسا وروما ، وفى رحلة العودة الى روسيا دفعنا الى الاسراع فيها مرض ألم بأمى ، قمنا بزيارة لمدينة « أسيسى » ·

وتركت ايطاليا أثرا قويا فى نفسى · وقد كتبت الصفحات التى كرستها لعصر النهضة فى كتابى « معنى الفعل الخلاق » فى ايطاليا ، وكشفت لى تلك البلاد عن عصر النهضة باعتباره فجر عصر جديد أدركت فيه الروح المسيحية لأول مرة ارادة الابداع ، وعلى الرغم من معرفتى بأن النهضة كانت فاشلة ، فقد أدركت أن ذلك الفشل كان أكثر ضروب الفشل التى عاناها الانسان الأوربى فى تاريخه جلالا ودلالة وتراجيدية · وأحسست أننى منساق تماما الى درجة أننى شعرت بعودة حياة الدافع الخلاق للانسان المعاصر لعصر النهضة فى نفسى ، وتأكيد قوته للعمل فى حرية ، وبدافع من الحرية · وتأثرت خاصة بعصر النهضة الثلاثى والرباعى فى العهد الفلورنسى ، وبدا « بوتتشللى » لعينى ذا دلالة خاصة على الدراما ومفارقة الابداع كما عانيتها أنا نفسى · غير أن ايطاليا القرن السادس عشر كانت غريبة على تمـام الغرابة ، وقد أبغضت النزعة الأكاديمية الخالية من الحياة التى تميز بها فن العمارة فى ذلك القرن · وكانت كنيسة القديس بطرس منفرة لى كل النفور ، كما لم أستطع أن أحب « رفائيل » · ولكننى تأثرت من جهة أخرى تأثرا عميقا « بليوناردو » · وأحببت النافورات المشـــيدة على الطراز الباروكى ، وان لم أعجب بالكنائس المبنية على ذلك الطراز · أما فى « كامبانيا » فقد بدت لى آثار الابداع الانسانى وكأنها جزء من الطبيعة نفسها ·وفى روما ، كان من الواضح بالنسبة لى ــ أيا كانت الاعتبارات الماضية أو الحاضرة من الناحيتين العلمية أو الايديولوجية ــ انها تحمل طابع العالمية الثقافية ·

ولقد كنت أؤمن دائما ايمانا خاصا بالقديس فرانسيس الأسيسى الذى كنت ألمح فى شخصيته الفريدة صورة الطبيعة الانسانية المتسامية · غير أن « دير القديس فرانسيس » لم يبعث فى نفسى مطلقا تلك الصورة ، ولم يكن يبدو أن شيئا فيه قد قبس من نار القديس فرانسيس · وقد أفضى الى بشكوى مريرة شخص فرانشسكانى (من أتباع القديس فرانسيس) ــ دنماركى المولد ــ مؤداها أن القديس فرانسيس قد عفى عليه النسيان التام ، وأصبح رمزا لا حياة فيه ، ولم يكن بالكنيسة أحد غير الرهبان المقيمين بها · وقبل رحيلنا عن « أسيسى » أقيم قداس خاص عند قبر « القديس فرانسيس » ·

وغادرت ايطاليا وقد اعترانى شعور بالأسى ، وكأننى أغادر وطنى الروحى · وعندما عدت اليها ، كانت مختلفة تمام الاختلاف ، اذ كانت ترزح تحت عبء الفاشية ·

وبعودتى الى موسكو تبدأ مرحلة جديدة من حياتى ، اذ لم تكن الدوائر الأرثوذكسية ، سواء أكانت دوائر « اليمين » أم دوائر « اليسار » ، تخفى الآن ارتيابها ، بل عداءها من موقفى ، وخاصة فيما يتعلق بفلسفة الابداع ، كما عبرت عنها فى كتاب « معنى الفعل الخلاق » · وعلى قدر ما أذكر ، كان « روزانوف » و « فياتشسلاف ايفانوف » هما الناقدان الوحيدان اللذان أظهرا تجاوبا ما ازاء هذا الكتاب · وقد تحدث « سرجى بولجاكوف » – من ناحية أخرى – فى كتابه « النور الذى لا يخبو أبدا » – وهو الكتاب الذى نشر بعد ذلك بفترة قصيرة ، تحدث عن دفاعى عن الابداع فوصفه بأنه دفاع « شيطانى » ، « جبار » ، « انسانى » ، وبأنه أقرب الى أن يكون معاديا للمسيح ·

* * *

كانت مشكلة الابداع بالنسبة الى شيئا واحدا هى ومشكلة الحرية ، ذلك أن فعل الانسان الخلاق ، وظهور أشياء جديدة ، وقيم جديدة فى العالم ، أمر لا يمكن تصوره داخل دائرة الكينونة المغلقة التى تخضع لكل أنواع التحديد ·· من سببية وغيرها · والخلق لا يمكن أن يقوم الا على الحرية التى لا يحددها شىء ، حتى ولا الكينونة نفسها · ومنبع الحرية كامن فى خواء العدم · والحرية – كما حاولت كثيرا بيان ذلك – لا محددة ، ولا معلولة ، ولا مبرر لها · غير أن صياغتى الأصلية لهذه الفكرة ، كما توجد فى كتابى « فلسفة الحرية » مثلا ، وحتى فى كتابى « معنى الفعل الخلاق » – الى حد ما – ليست مرضية لأننى كنت لاأزال خاضعا لارتباطات الأنطولوجيا المثالية ، كما أننى استخدمت المصطلح المميز لهذه الفلسفة ·

وقد اتهمنى النقاد بأننى أرفض الاعتراف بالحاجة الى أية « مادة » معطاة بالنسبة لفعل الانسان الخلاق ، وهذه التهمة بالطبع لا أساس لها من الصحة على الاطلاق ، فما أنكرت قط أن الانسان لا يستطيع أن يخلق دون وسط ما ، وأنه لا يستطيع أن يستغنى عن عالم الواقع الخارجى ، وأنه لا يستطيع أن يصنع شيئا فى الفراغ ، ومع ذلك فان السمة الرئيسية للفعل الخلاق تكمن فى أن هذا الفعل لا يتحدد كله بوسطه الذى يتم فيه ، بل يتضمن شيئا جديدا ، شيئا لا يمكن أن يستمد من العالم الخارجى الذى يدخل فيه ، أو من أى مستودع ثابت من القوالب المثالية التى تضغط على خيال الخالق · هذه اذن هى النقطة

التى تتدخل عندها الحرية ، باعتبارها حركة لا سبيل الى تعقبها أو تحديدها أى التنبؤ بها تسير من الداخل الى الخارج · والخلق بهذا المعنى خلق من لا شىء · وبدون مثل هذه الحرية يكون الابداع مجرد اعادة توزيع العناصر المعطاة التى يتألف منها العالم ، ويكون ظهور أى شىء جديد أصيل مجرد وهم خالص · وقد شغلتنى كثيرا هذه المشكلة وهى : كيف يخرج الوجود من العدم ، وكيف يصير المعدوم موجودا · وليس من الممكن تفسير حركة العدم الى الوجود التى هى نسيج الحرية نفسه من داخل الوجود الذى يرتبط بقوانين تحديده الخاصة به · والاعتراف بأن الحرية تضرب بجذورها فى العدم أو اللاوجود معناه الاعتراف بسر الحرية اللامعقول · وليس من الممكن أن تعبر أية تصورات عقلية عن هذا السر ، اذ أن التصورات تتعامل مع ما هو موجود فعلا وتتوقف عليه ، ولذلك فهو ليس ميسرا الا للتجربة الروحية فقط ، وعلى هذا الأساس وحده يمكن التحدث عنه فى صور رمزية وأسطورية ·

ولقد ذكرت أن هبة الابداع تصدر عن الله ، بيد أن الانسان يتدخل بفضل حريته ، ولا يكون بقدرته على الخلق مجرد موضوع سلبى بين يدى الله · ومن العبث الذى لا غناء فيه أن نسأل : هل للابداع ما يبرره من وجهة نظر دين الفداء ، لأنه على الرغم من أن الانسان يمكن أن ينحط باقترافه للاثم ويتدنس ، فانه لا يمكن أن يكون فداء أو خلاص دون استجابة من الانسان لله · ومن ثم فان الفداء والخلاص فعلان أيضا من أفعال القدرة الخلاقة الالهية ــ الانسانية · وبالمثل فان التحقق النهائى للفداء ، ومجىء ملكوت الله يشملان فعلا خلاقا يقوم به الانسان · وأنا لم أتوان قط فى تأكيد الدلالة الدينية للقدرة الخلاقة لا الدلالة الجمالية أو الثقافية البحتة · ولم يكن غرضى تبرير القدرة الخلاقة ، وانما بيان أن طبيعتها الالهية الانسانية هى فى ذاتها تبرير لا ينفصل عن كافة الأفعال الأخرى التى تتسم بها علاقة الله بالانسان وبالعالم ·

غير أن هناك عنصرا آخر فى القدرة الخلاقة كان مستقرا تمام الاستقرار فى ذهنى عندما كتبت « معنى الفعل الخلاق » ، وأعنى به عنصر المأساة ، ذلك أن فعل الانسان الخلاق مصيره الى الفشل فى ظروف هذا العالم · وهو جهد هائل مقدر عليه ألا ينجح أبدا · وحافزه الأولى هو أن ينتج حياة جديدة ، وأن يحول هذا العالم ، ويهدى الى سماء جديدة وأرض جديدة · ولكن هذه الجهود فى ظروف العالم الساقط تتحول الى جهود لا جدوى منها ، اذ تصطدم بقوة القصور الذاتى ، وبقوانين العالم الخارجى والزاماته ، ذلك العالم الذى تسوده ضرورات صارمة · وتفضى هذه المحاولة الى انتاج موضوعات جمالية وثقافية أعظم أو أقل كمالا · ومهما يكن من أمر فان تلك الموضوعات رموز

على الواقع وليست الواقع نفسه ، وقد تكون كتابا أو سيمفونية أو لوحة أو قصيدة أو مؤسسة اجتماعية ، بيد أن هذا كله دليل على التفاوت المؤلم بين الدافع الخلاق وتجسيده الجزئى فى العالم الموضوعى ٠

ولن أكرر هنا ما قلته مرارا عن هذا الموضوع ، ولكننى أحب أن أتجنب أى سوء فهم ممكن ، وهو أمر كثيرا ما هيأت له المناسبة ٠ فأنا ابعد ما أكون عن انكار فضل الثقافة ومالوظيفتها الخلاقة من قيمة فى هذا العالم ٠ والانسان ملزم عن طريق مصيره الدنيوى الى انشاء الحضارة والمدنية ، ولكن ينبغى ألا يعمينا هذا الانسان عن هذه الحقيقة وهى أنه ليس الا علامة على التجلى الحقيقى الذى هو هدف الابداع الصادق ، وأن يكن هدفا لا يمكن بلوغه ٠ والواقع أن القـدرة الخلاقة « الواقعية » التى تتميز عن القـدرة الخلاقة « الرمزية » يمكن أن تعمل على التسامى بالعالم والسير به الى نهايته ، وعلى ظهور سماوات جديدة ، وأرض جديدة ٠ والفعل الخلاق فى قوته وقصوره ، أخروى ، وتصوير سابق لنهاية العالم ٠

وتكمن مفارقة الابداع هذه وراء ميلى الى الرومانسية وعدائى للكلاسيكية (وان كان التمييز المعترف به بين هاتين الفكرتين فى حاجة الى تبرير كاف) ٠ وقد تحدثت عن ذلك فى فصلسابق ٠ ولست أعترض ــ بالطبع ــ على الكلاسيكية من حيث أنها تهدف الى تحقيق الكمال فى الفعل الخلاق ٠ غير أن مغالطة الكلاسيكية والنمط العقلى الذى ساعدت على انتاجه تكمن فى أنها تؤمن بامكان الكمال فى المتناهى ، أى فى نطاق عالمنا هذا الساقط المعارض ٠ وأنا أعارض الكلاسيكية منأجل موقفها المضاد للأخروية الذى تتسم به ٠ وحقيقةالرومانسية (التى تعد من حيث جوانبها الأخرى هدفا يسيرا للنقد) تكمن فى احساسها السائد بعدم كفاية كل انجاز داخل نطاق المتناهى ، وفى شوقها الى اللامتناهى وتطلعها اليه ، أو اذا أردنا الدقة الى ما يتجاوز التناهى ٠ والهدف الصادق من الابداع هو اذن انتصار « الواقع » على الرمز ، والرغبة فى مثل هـذا الانتصار ٠ وأن يأخذ المرء الرموز على أنها واقع أمر يعد من المغريات الرئيسية فى الحياة الانسانية ، وقد ثبت فى أكثر من مناسبة أن فيه دمارا للانسان ، وخيانة للابداع ٠

ولكن هل من الممكن على الاطلاق الانتقال من القدرة الخلاقة « الرمزية » الى القدرة الخلاقة « الواقعية » أو المتسامية ؟ أو ان هذا مجرد حلم قدر عليه أن يسبب الألم والعذاب للانسان دون أن يتحقق على الاطلاق ؟ تتميز العبقرية الروسية باهتمامها الشديد بهذه المشكلة ، كما أن الكتاب الروس من أمثـال

« جوجول » و « ليو تولستوى » و « دوستويفسكى » وكثيرين غيرهم قد جاهدوا للعلو على الفن وتحطيم الأسوار التى تفصل الفن عن الحياة ، وكذلك سلك « نيتشه » و « ابسن » و « الرمزيون » طريقا مماثلا · وليس من شك أن فى مجرد اثارة الموضوع محاولة لمطالبة الانسان أن يقوم بمعجزة · غير أن المعجزة قائمة فعلا فى فعل الخلق الذى لا يتلاءم مع أى نظام معروفة قوانينه ، ويتطلب لتفسيره فاعلا يعلو امكانيات عالم معطى محدد ·

وينبغى ألا نفهم الخلق على أنه يعنى نوعا من عملية الكمال الأخلاقى يأمل بها الانسان تبرير نفسه فى نظر الله · ويتردد الموقف المسيحى الشائع من مشكلة القدرة الخلاقة بين الزهد الذى يتخذ من العالم موقفا عدائيا ، ومع ذلك فهو ينزع الى الكمال بالنسبة للروح الفردية الانسانية من جهة ، وبين محاولة اضفاء ثوب دينى على عادات هذا العالم الاجتماعية والثقافية ، أو تبريرها أو حتى تقديسها من جهة أخرى · أما أنا فقد كنت أتطلع من ناحيتى الى طريق آخر للابداع يهدف ــ فى الوقت الذى يدفعنى احساس بالقصور المطلق لكل تحقق خلاق ــ الى تحويل واقعى لهذا العالم ، وليس تحويلا اسميا أو رمزيا فقط ·

ولم يكن قط ايمانى وأملى فيما يختص بمجيء عهد خلاق جديد فى التاريخ الانسانى ، ايمانا وأملا « انسانيين » ، بالمعنى الذى يصدق فيه ذلك على النزعة الانسانية ، فى عصر النهضة ، وقد كان هذا الأمل وذلك الايمان مشبعين بالثقة والحماسة والنشوة فى بداية الأمر ، ثم لم يلبثا أن تحولا الى ايمان وأمل أكثر تقلبا ، وعسرا ، وايلاما · وأنا ــ بطبيعة الحال ــ صاحب نزعة انسانية ما دمت أومن بربوبية الانسان ، وبالتالى بانسانية الله ، والواقع أننى أومن بأن الله أكثر انسانية من الانسان ، أو بأن الله انسانى ، بينما الانسان لا انسانى · والايمان بالانسان يقتضى حقا الايمان بالله ، ولا يسمح بالانغماس فى الأوهام فيما يتعلق بالانسان · بيد أنه لا يمكن أن يقال عنى أنه لا فرق بينى وبين النزعة الانسانية التى كانت سائدة فى عصر النهضة الأوربية · ولقد كتبت كثيرا عن أزمة النزعة الانسانية ، وتنبأت بمجيء عصر معاد للانسانية ، وهو تنبؤ تحقق تحققا تجاوز كل حد · وكنت قد تحدثت فى بداية هذا القرن عن ديالكتيك باطنى تتحول به النزعة الانسانية الى نزعة معادية للانسانية ، وينقلب به الانسان الأعلى الى الانسان « الأدنى » ، ويتحول توكيد الانسان لاكتفائه الذاتى ، الى ابادته الذاتية · بيد أن هذا النفاذ الى الديالكتيك الوجودى للنزعة الانسانية لم يصرفنى على الاطلاق عن ايمانى بالابداع ، بل على العكس من ذلك ، ساعد على تأكيد تمسكى بهذا الايمان ، ولم أتراجع

مطلقا – بعد أن عانيت تجربة الوجد العنيفة التى وصفتها آنفا – عن ايمانى برسالة الانسان الخلاقة ٠

وأيا كان الأمر ، فقد تشتت أملى فى مجىء عصر الابداع بما جرى من أحداث تاريخية : بكارثة الحرب العالمية الأولى ، وبالثورة الروسية ، وبالطوفان فى المانيا ، وبالانحلال العام المنحوس للابداع فى أعوام ما بين الحربين ، وبالحرب العالمية الثانية ، وبالتهديد بنشوب حرب عالمية ثالثة ٠ ومع ذلك ، فان هذا كله لم يدحض أملى ، بل أكد فقط كفرانى بثبات النظام العالمى والاجتماعى وعدم تغيره ٠ ومايتظر اليه الكثيرون على انه ثابت صلب ، صامد ، عرضة فى الواقع لأن ينسف نسفا ببساطة متناهية بواسطة القوى البركانية التى تتوارى تحت سطح الانسجام الظاهرى ٠وليست الكوارث التاريخية التى تصنعها دينامية عظيمة ، والتى قد يخطىء المرء فيحسبها قوة خلاقة ، وعليها يعتمد بعض الناس فى خلق عالمجديد ٠٠ ليست هذه الكوارث التاريخية ملائمة على الاطلاق للقدرة الخلاقة كما أفهمها ٠ والحق أنها تعلن قدوم عهد رد الفعل ، هذا اذا كنا بصدد الحديث عن النشاط الخلاق الحقيقى ، ذلك أن تلك الكوارث لا تصنع شيئا من الانسان ، بل لقد أثبتت أنها مدمرة لحرية الروح ٠٠ وهكذا اندفع العالم الى عصر معاد للانسانية ٠

غير أن التجربة التاريخية لديالكتيك النزعة الانسانية هى فى حد ذاتها دلالة عظيمة ، والسخرية الكامنة فيها علامة على مرحلة جديدة فى مصير البشرية ٠ وليس الطريق الذى سلكه الانسان خلال العصور تطورا مستمرا غير منقطع ، وانما يميزه على العكس من ذلك طفح من القوى اللامعقولة ، انه امتحان لحرية الانسان ، امتحان غير محدد ، مبهم ، لا يمكن التنبؤ به ٠ ومن ثم ، فقد أصابتنى الدهشة عندما ألصق بى بعض نقادى اعتقادا فى « التطور الخالق » على طريقة « برجسون » ٠ والواقع ، أن « التطور الخالق » تصور خاطىء تماما ، لأن القدرة الخلاقة والتطور فكرتان تستبعد احداهما الأخرى ٠ فالتطور عملية تطابق قوانين معينة كامنة فى العالم أو عالية عليه ، بينما تصدر القدرة الخلاقة عن الحرية ولا تخضع لأية قوانين ، أيا كانت ٠

ولقد بدت لى دائما الحوادث التى تقع على سطح التاريخ بأنها ذات أهمية ثانوية ، وكنت أنظر اليها باعتبارها علامات على حياة أعمق من ذلك بعدا ٠ وبالتالى ، فاننى لم أجزع مطلقا بظهور الأحداث والجهود الفظيعة التى تنتمى الى العالم « الموضوعى » للتاريخ والمجتمع ٠ ويصدق هذا حتى على تلك الجهود التى اشتركت فيها أو كنت المحرض عليها ٠ بل اننى لأعامل تلك الأشياء

التى انهمكت فيها انماكا حارا بنوع من الانفصال المرير • وربما كان ذلك راجعا فى شطر منه الى تأثير « تولستوى » والنزعة العدمية الروسية على نفسى • ويبدو ـ على كل حال ـ أن الحياة تكمن عبر المسائل الخارجية أو تحتها • ومهما يكن من أمر فقد كان لوجود اليوم العادى بكل محاولاته ومطالبه مرصعا بلحظات من الحرية والالهام الحقيقيين ، وكان هذا وحده يضفى الدلالة والصدق والنبل على عالم من الايهام والانحطاط واللامعنى •

وقد كرست كثيرا من وقتى وكتاباتى لأحداث اليوم العابرة •• فعلت ذلك لأن التاريخ بالنسبة لى ، وعلى الرغم من انفصالى ، ليس مشهدا أراقبه من مقصودة فى مسرح ، وانما دراما انسانية أشارك فيها • بيد أن انسحابى الباطنى المستمر حتى فى وجه تلك الأشياء التى احتملتها فى قلق حار ، جعل أقوالى وأحكامى جميعا أشبه « بتأملات نيتشه اللامعاصـــرة » التى تنم على صراع عميق مع العصر ، والتى تشير الى مستقبل بعيد ، ليس الحاضر فيه غير كشف سلبى • ولم اكن سياسيا او صحفيا سياسيا قط ، وان كنت أحمل فى ضميرى عشرات المقالات الصحفية عن المسائل الاجتماعية والسياسية ، وعندما كنت أنضم الى قضية تمس المسائل الاجتماعية والسياسية ، فقد كنت أفعل ذلك بوصفى « أخلاقيا » يدافع عن الانسان ، فى عصر سمته الرئيسية عداؤه للانســان • وقد حاولت أن أدعو الى الانسانية فى أشـد العصــور لا انسانية • وعندما استخدمت المصطلح الوجودى ، ووصفت نفسى بأننى فيلسوف وجودى (بكل المؤهلات التى شرحتها فى الفصـل السابق) ، اعتقد الكثيرون أننى قد خنت طريقى الفلسفى • والواقع أن أحدا لم يلحظ أن التغير جاء نتيجة طبيعية لاهتمامى الأصيل الرئيسى بالانسان •

❊ ❊ ❊

دفعتنى الرابطة الموجودة بين الابداع وبين الموقف المتشائم للحياة كما تعطى لنا بكل ضروراتها والزاماتها ومواصفاتها ، دفعتنى الى أن أعلق على الخيال أهمية عظيمة ، ما دام أنه بدون الخيال لا يمكن أن يكون ثمة نشاط خلاق • والفعل الخلاق يرتفع دائما فوق الواقع ، فهو يعنى تخيل شىء مختلف ، وأفضل من الواقع المحيط بنا • ولكن ، كما يوجد خيال شرير يستحضر أمامنا صورا وأطيافا خبيثة ، فكذلك يمكن أن تكون هناك أفعال زائفة أو وهمية • وليس الانسان قادرا على الاستجابة لنداء الله فحسب ، بل انه لقادر على تلبية نداء الشيطان ايضا •

ومع ذلك ، هل نستطيع أن نتحدث حقا عن قدرة خلاقة شريرة ؟ قد يكون الفنان مدفوعا بقوى شيطانية ، أو قد يكون له خيال شيطانى (حالة ليوناردو دافنشي تدخل فى هذاالباب) ، ولكنه ما دام قد ألقى على عاتقه أن يقوم بفعل خلاق حقيقى ، فان شيطنته تستهلك بنار تلك القدرة الخلاقة · وليست تلك الأمور خاضعة للمقاييس الأخلاقية ، وقد اصطدمت مرارا بالعقائد الدينية التقليدية التى تدور حول هذا الموضوع · ومجال الفكر الذى تتسم به الارثوذكسية الدينية مجبر على انكار القدرة الخلاقة كلها ، أو على أحسن تقدير ، على احتمالها بطريقة مصطنعة ، لأنها الى حد كبير تعبير عن مجتمع اجتماعى منظم بمعاييره ومحرماته وممنوعاته ومواصفاته · أما الحافز الخلاق فانه ، من جهة أخرى وبصورة مطلقة فريدة ، تلقائى ، لا قانون له · ونسيج الفن هو الصراع الداخلى ، الصراع بين الانسان والمجتمع الذى يعيش فيه ، وبين الانسان وضميره الأخلاقى · ومن المحال كتابة مسرحية أو رواية ، أو قصيدة غنائية دون الاصطراع مع المعايير المتفق عليها ، وقواعد السلوك الأخلاقى والاجتماعى ، اللهم الا اذا قنع المرء بالمقطوعات شبه الفنية التى تمجد الدمى الاجتماعية أو الأخلاقية أو الدينية · وبالمثل ، لا يمكن أن يقوم فكر فلسفى خلاق اذا استبعد الصراع والمأساة ، واذا كانت الأشياء جميعا مؤكدة ومحددة تحديدا تاما ، واذا لم يكن من الممكن اثارة أسئلة جديدة ، واذا أخلد العقل الانسانى الى الراحة · ولا تريد المذاهب الارثوذكسية ـ سواء أكانت اجتماعية أم دينية ـ أن تسمع عن هذه المشكلات ، وموقفها من القلق الخلاق ، وأبحاث الروح ومصارعاتها هو موقف من الارتياب والعداء ، وهو الموقف الذى يتفق تماما مع تلك المذاهب ·

وكان معظم اللاهوتيين الارثوذكس اما أن ينظروا الى آرائى عن الابداع باعتبارها تجديفا ، واما أن يظنوا أننى أريد المداورة فقط ، رغم أن بعضهم قد اعترف بأننى أثرت مشكلة هامة · وقد قوبلت بهذا الموقف نفسه بين ممثلى الفكر اللاهوتى الغربى ، الكاثوليكى والبروتستانتى على السواء · (أقول عرضا انه من الطريف ملاحظة أن الناس فى الغرب يترددون من حيث استجابتهم لفكرى بين وصفى بالغنوصى « عرفانى أو عارف » أو بأننى « لاهوتى أرثوذكسى » !) · والحق أننى كلما ازددت اتصالا بالعالم الكاثوليكى والبروتستانتى الحديث ، ازددت ادراكا لمدى ابتعاد مشكلة الابداع (أو ـ لهذا السبب ـ كثير من المشكلات الأخرى التى أثارها الفكر الروسى) عن معظم المتحدثين باسم هذا العالم الكاثوليكى والبروتستانتى الحديث ·

تحدثت آنفا عن طبيعة تفكيرى غير المنتظمة ، وقد وجه الى كثير من النقد على اهمالى وقصورى الظاهرى عن التحليل الفلسفى الشامل • وانى أوافق على هذا النقد ما دمت على وعى بأن العمليتين القياسية والاستنباطية للتفكير يتخليان عن مكانهما فى عقلى لرؤى مباغتة مثيرة للاضـــطراب • ولقد هبطت على الأفكار التى أعلق عليها أعظم الأهمية كأنها ومضات من البرق ، أو كأنها استنارات فجائية • وحين أشرع فى الكتابة أندفع الى درجة الدوار ، وتنساب أفكارى بسرعة الى الحد الذى لا يتسع معه الوقت لتسجيلها • وكثيرا ما وجدت نفسى مرغما على أن اترك الكلمـات ناقصة حتى أستطيع أن ألاحق تيـار تفكيرى السريع • وقلما أفكر فى الشـــكل الذى يتخذه هذا التفكير ، اذ يبدو أنه يتدفق من تلقـاء نفسه ، بكلمة تسبق أو تلحق الكلمات العادية المكتوبة أو المنطوقة •

وعندما أكتب ، لا أقرأ عادة الكتب التى تعالج موضوع اهتمامى فى تلك اللحظة ، بل اننى لا القى عليها نظرة اذا كانت موضوعة على مكتبى • ويبدو لى أننى لو فعلت ذلك ، ضيقت الخناق على حرية فكرى ، وأضعفت من قواى الخلاقة • وقد ذكرت من قبل أن بعض كتبى تم تصورها فى أشد الظروف غرابة وشذوذا • فكتاب « مصير الانسان » تكون فى ذهنى فجأة بينما كنت أشاهد « باليه » من باليهات « دياجيليف » ، وأحيانا كان يراودنى احساس غريب باننى أعيش وافكر على عدة مستويات فى وقت واحد • فمثلا ، كنت أستطيع أن أعانى آلاما شديدة اذا ألم بى مرض أو ألم بغيرى ، ومع ذلك أستطيع أن أشعر فى الوقت نفسه بفرح الفكر الخلاق ونشوته •

وينبغى على الفنان أن يعنى بصلاحية عمله المنجز وقوة تأثيره ، أما من جانبى ، فلم أهتم قط ــ على قدر ما أتذكر ــ بهذه الأمور ، ولست أدعى أى ادعاء من حيث الكمال الفنى فى كتاباتى • ومع ذلك ، فان الكلمات الباطنية التى تكسو فكرى تحمل شحنتها الفريدة من الصوت والمظهر ، أيا كان عدم تناسـب تعبيرها الخارجى وموضوعيتها وقلة تأثيرها • انى أكتب مستجيبا لصوت باطنى يأمرنى بأن انقل تجربتى العقلية • والكتابة ليست شيئا كماليا بالنسبة الى ، ولكنها وسيلة بقاء ، بل تكاد تكون ضرورة فسيولوجية • وأنا لم انظر قط ورائى لمشاهدة ادائى ، كما لا أنظر الى نفسى فى أثناء انهماكى فى عملية الأداء • وقد تكون ثمة خاصية خلاقة ، أو بالأحرى فنية لتفكيرى فى لحظة البداية ، أما فيما عدا ذلك من الجوانب فان طريقتى تفسيرية • فأنا أكتب لكى ابين ، ولكى أحرر عقلى من انطباع مستبد • ولكن ، عندما أشاهد عملى منجزا داخل العالم الموضوعى ، وقد انتصب ازائى باعتباره شيئا ثابتا

لا رجوع فيه ، أعانى من عذابات السخط والحيرة ، وهو شعور أشبه بما يعانيه المرء عندما ينظر فى صورته الفوتوغرافية · ولا أشعر بلحظات الاكتمال والسرور الا فى الوقدة البيضاء للوجد الخلاق عندما لا تكون قد ظهرت بعد تلك التقسيمات والتمييزات الى ذات وموضوع · « فالأعمال » الخلاقة بإحالاتها الموضوعية وتقسيماتها واختلافاتها تندرج فى الزمان ، بينما « الفعل » الخلاق يقوم عبر الزمان ، فهو بأكمله فى الداخل ، وهو ذاتى سابق على كل احالة موضوعية ·

ثمة رابطة حميمة بين الابداع والتأمل ، وان يكن الميل الشائع احلال التعارض بينهما · وينبغى ألا يفهم التأمل على أنه حالة من السلبية المطلقة أو الاستقبالية ، اذ يضم التأمل عنصرا ايجابيا وخلاقاً متميزا · وهكذا نرى أن التأمل الاستطيقى للجمال الطبيعى هو أكثر من حالة : انه فعل ، وانطلاق الى عالم آخر · والجمال هو حقا ذلك العالم الآخر الذى يكشف عن نفسه فى عالمنا ، والانسان فى تأمله للجمال يخرج لتلبية نداء ذلك العالم الآخر · والشاعر الذى تسيطر عليه رؤيته عن الجمال لا يعكف على الملاحظة السلبية ، بل على نشاط يخلق فيه لنفسه ، ويعيد فى خياله خلق صورة الجمال · ومن الحق أن التأمل يستبعد تجربة الصراع والنزاع والتعارض ، ولكنه يقدم تلك الخلفية التى يكتسب منها الصراع والنزاع والتعارض دلالة ما · وينبغى على الانسان أن يكون قادرا من حين الى آخر على العودة الى التأمل حتى يخفف عن نفسه عبء النزعة الفعلية للوجود ، وهى النزعة ـ التى نعلم اليوم عنها جيدا ـ أنها تستطيع أن تمزقه اربا اربا ·

الفصل التاسع

الثورة الروسية ومجال الشيوعية

كانت تجربة الثورة الروسية ومرحلة من مراحل مصيرى الشخصى الخاص ، ولم تكن شيئا من الخارج • لقد حدثت هذه « الثورة » لى على الرغم من أن موقفى منها كان موقفا نقديا ، كما أننى قاومت مظاهرها الشريرة • وهناك ميل منتشر بين المهاجرين الروس للنظر الى الثورة الروسية باعتبارها شيئا جلبتة قوى الشر ، واقترفته عصبة من المجانين المجرمين ، بينما استقروا هم - أى المهاجرين - فى الحقيقة والنور المنزهين عن الدنس ، وانى لأجد هذا الميل بغيضا • والحق ، أن كل شخص مسئول عن الثورة ، متضمن فيها ، وتأتى فى المقام الأول تلك القوى الرجعية فى النظام القديم التى تدعى الآن البراءة • وأعتقد أن الثورة فى روسيا كانت أمرا محتوما ، وخليقا بأن يحدث ، ولكننى لم أتبين قط ألوانها الوردية ، وانما على العكس تنبأت بأن قضية الحرية سوف تتعرض فى الثورة للخطر ، وأن العناصر المعادية للثقافة سوف تسود • وكتبت كثيرا عن هذا الموضوع ، غير أن أحدا لم يجد من المناسب أن يتفق معى • أما توقعات أصحاب النزعة الانسانية من الثوريين عن ظهور نمط من الثورة لا تراق فيه الدماء ، وتتكشف فيه أخيرا طيبة الطبيعة الانسانية عامة ، والجماهير الشعبية خاصة ، كانت هذه التوقعات تبدولى قطعة من سلامة النية والسذاجة المفرطة • والواقع أن الثورة مرض خطير ، ومصدر لعذاب هؤلاء الذين يتعرضون لها ، وانها لعلامة على العجز عن الخلق ، وعلى المسئولية المهملة ، أو على المسئولية التى يتكلفونها بألا يفعلوا شيئا • والثورة الروسية كغيرها من الثورات لم تكن نتيجة لفعل خلاق من جانب الانسان ، بل كانت الى حد كبير خاضعة للقدر •

ولقد رحبت « بسقوط القيصرية الروسية المقدسة » (وهذا هو عنوان مقال لى نشر فى مستهل الثورة) : واعتبرتها عملية عادلة لا محيد عنها من التفسخ ، ومن تفكك سلسلة من الرموز التاريخية التى حملت معنى مقدسا ،

ولكنها ـ فى مجرى التاريخ ـ قد خانت الواقع كما هو ، لا كما يتخيله انصار الملكية • ومهما يكن من أمر فان هذه العملية المحتـومة من نبذ المظـاهر والادعاءات الزائفة ، لم تكن في حد ذاتها ، ضمـانا لما تنطوى عليه الأشياء المقبلة من خير •

وليس عيب الثورة الروسية كامنا فى انها أتت مبكرة جدا ، بل لأنها جاءت متأخرة جدا • وشخصيتها تعتمد الى حد كبير على الظـروف التى سببتها الحرب • وليس من شك أن الثورة قد حشدت قواها خلال الأعـوام المـائة السابقة ، وكان وراءها تقليد عظيم من الكفـاح البطولى الذى لا يلين ضـد الاضطهاد ، كما أن كثيرا من الحركات الثورية دفعتها الى الانفجار الفعلى • بيد أنها عندما جاءت ، كان مجيئها مباغتا وعلى حين غفلة : ولم تخلع الملكية المستبدة خلعا حقيقيا ، بل الأحرى انها تحطمت وانهارت من تلقاء نفسها • وأذكر ، كيف كنت أتناقش ، قبل حدوث ثورة فبراير بشهر واحد ، مع صديقين قديمين من أصدقائنا ، أحدهما منشفى ، والآخر بلشفى ـ عن فرص الثورة • وخلع الملكية فى روسيا • وكان رأى « المنشفى » أن علينا أن ننتظر خمسـة وعشرين عاما آخرين ، بينما كان «بلشفى» يعتقد أنه لابد من مرور خمسين عاما قبل أن تحدث الثورة • والبلاشفة لم يمهدوا للثورة بقدر ما استغلوا لحظة أفلت فيها زمام كل شىء • وهذا شاهد على طبيعة الثورة القدرية التى أشرت اليها • وينبغى ألا ننسى ـ ونحن نسلم بحقيقة الثورة ـ أن العنصر الكبير فيها كان انفجارا قدريا سلبيا لقوى أولية ، وشيطانية حقا •

وخلال العام السابق للثورة ، عقدت سلسلة من الاجتماعات الخاصة كان يبدو انها تميز نوعا معينا من كبح النفس فى عملية التفكك الطويلة التدريجية بين الطبقة المثقفة ، وكان اليسـار ممثـلا فيها بواسطة الديموقـراطيين الاشتراكيين ، والثوريين الاشتراكيين ، وكذلك بواسطة بعض البلاشفة ، بينما كان اليمين يمثله «القضاة» • وكانت «ايلينا كوسكوفا» و «سرجى بروكوبوفتش» الشخصيتين المركزيتين فى تلك الاجتماعـات • واعتاد « بوتريسـوف » الديموقراطى الاشتراكى الثورى ، والذى كان فى وقت من الاوقـات شريكـا للينين ـ أن يأتى متأبطا ذراع « فيرا زاسوليتش » (وكان جينذاك امرأة عجوزا) ، كما كان « سكفورتسوف ـ ستيبانوف » البلشفى ورئيس تحـرير ازفستيا فيما بعد ـ يظهر من حين الى آخر • ولما كنت مشاركا مستديما فى تلك الاجتماعات ، فقد أتيحت لى فرصة فسيحة لملاحظة سيكلوجية العنـاصر السياسية التى كانت على وشك أن تلعب ذلك الدور الهام فى مصير روسـيا السياسى • وكان أولئك الأشخاص يوحون الى المرء بأنهم فى قبضة قوة عليا

لامعقولة وفى قبضة قدر خارج عن ارادتهم ، وكان هذا على ما يبدو هو الذى يوحد بينهم ٠

وعلى كل حال ، فقد بقيت ـ كعادتى دائما ـ متباعدا حتى فى أثناء مشاطرتى فى نشاط تلك الجماعة مشاطرة ايجابية ٠ وعندما اشتعلت ثورة فبراير ألفيت نفسى غريبا عنها تمام الغرابة (١) ٠ وقد أثارتنى ـ قبل أى شىء آخر ـ الطريقة التى انتهجها بعض أعضاء الطبقة المثقفة الثورية فى حرصهم على احتلال المناصب فى الحكومة المؤقتة ، والسهولة التى تحولوا بها الى موظفين حكوميين محترمين ومشاهدتى المحاربين فى سبيل الحرية ينقلبون بين يوم وليلة الى انتهازيين مستغلين ، كانت من أشد التجارب ايلاما فى حياتى ، وهى تجربة أعانيها الآن مرة أخرى فى فرنسا اثر هزيمتها ٠

ولم تدم الثورة الأولى المحبة للحرية نسبيا وقتا طويلا ، اذ أحالها « كيرنسكى» وشركاؤه عبثا بسوء فهمهم التام للموقف وعجزهم عن معالجة المشكلات التى لا مهرب منها ٠ (٢)

---

(١) تبدى موقف « نيقولاى الكسندروفتش » ـ خلال ثورة فبراير ـ فى العمل البطولى التالى الذى مازلت اذكره وكأنه حدث بالأمس . كانت الأنباء قد تواترت الينا من بطرسبورج عن قيام الثورة ، وملأت الجماهير شوارع موسكو ، وانتشرت أبعد الاشاعات عن التصديق . وكان الجو مشحونا الى أقصى حد ، وبات وقوع الانفجار متوقعا فى أية لحظة ، وذهب « ن٠أ٠ » وشقيقتى وأنا للانضمام الى الحشد الثورى الذى كان يتحرك صوب « مدرسة الفرسان » . وما ان اقتربنا منها حتى شاهدنا حشدا ضخما قد تجمع فعلا حول الميدان . وكانت تحتل الميدان نفسه كتيبة من الجنود على أهبة الاستعداد لاطلاق النار .

واقترب الحشد المنذر شيئا فشيئا ، وكأنه حلقة ضيقة تضغط على الميدان . وكانت لحظة رهيبة توقعنا فيها وابلا من المدافع والبنادق . وفى هذه اللحظة استدرت لاقول شيئا الى « ن٠أ٠ » ولكنه لم يكن هناك ، وكان قد اختفى . وعلمنا فيما بعد أنه شق طريقه وسط الجموع ثم اخترق سور الأسلاك ، ورأيناه يتجه نحو الجنود ويهيب بهم ألا يطلقوا النيران على الجمع والا يريقوا الدماء . ولم يطلق الجنود النيران . ومازلت أعتقد حتى هذا اليوم ان معجزة هى التى منعت ضابط الكتيبة من أن يرديه قتيلا فى الحال (ك٠ل) .

(٢) كنت ذات يوم فى المنزل بمفردى . دق جرس الباب ، ثم اندفع « اندريه بيلى » الى الداخل ودون أن يحيينى هتف بصوت منفعل : « أتعرف أين كنت ؟ »ولم ينتظر جوابا ، بل بادر قائلا : « لقد رأيته .. رأيته ، كيرنسكى » . وقال « .. حشد مكون من آلاف .. نشوة . نبوءة ! » ثم مد « بيلى » كفيه فى حالة من حالات الوجد وواصل حديثة قائلا : « لقد رأيت .. رأيت كيف هبط عليه شعاع من النور .. لقد شاهدت ميلاد انسان جديد خالد .. » وبينما كان « بيلى » يتحدث أو بالأحرى يعلن هذا الحدث ، دخل « نيقولاى الكسندروفتش » الى الحجرة دون أن يلحظ احد ، ولما سمع تلك الكلمات الأخيرة انفجر ضاحكا . فألقى عليه « اندريه بيلى » نظرة كومضة البرق ثم انطلق خارجا من الحجرة دون أن يتفوه بكلمة . ولم يحضر لرؤيتنا بعد ذلك بفترة طويلة (ك٠ل) .

وكان صيف عام ١٩١٧ أشبه بكابوس ، وكان يبدو أن الجو الثورى المتقد على وشك الانفجار والتحول الى حريق شامل لا نظير له • وكنت أشعر فى الربيع وفى أوائل الصيف شعورا متميزا بأن الثورة لن تقف عند مرحلة فبراير ، وأنها يمكن أن تكون أى شىء ، ولكن لا مفر من أنها ستكون ثورة دموية • وأيا كان الأمر ، فقد يبدو غريبا أن قد شعرت بأننى أسعد باطنيا عقب ثورة اكتوبر ، وفى العهد السوفييتى ، اكثر من شعورى خلال الأشهر السـابقة ، ويرجع ذلك الى أن البلاشفة قد اظهروا وعيا أعظم بالموقف وشجاعة أعظم فى مواجهة العاصفة الثورية ، كما يرجع أيضا الى اننى قد عشت فى ذلك الوقت الصدمة الأولى ، وكنت قد وجدت معنى داخلياً لما حدث ، فلم اشعر بالاخفاق نتيجة لضغط الأحداث • والحق ان الحوادث كان يبدو انها تزود المرء بشحنة اضافية للنشاط ، وقد شرعت فى تنفيذ خطة تعليمية واسعة النطاق ، فالقيت محاضرات وقرأت أبحاثا ، وكتبت وناقشت واشتركت اشتراكا ايجابيا فى اتحاد الكتاب الروس ، كما انشأت أيضا الأكاديمية الحرة للعلم الأخـلاقى • (١) وامكان الارتباط بمثل هذه الأعمال مثال على درجة الحرية التى كان يتمتع بها الخصوم المذهبيون للبلشفية فى الأعوام الاولى التى اعقبت ثورة أكتوبـر • وعلى خلاف الانطباع العام ، لم تستخدم الحكومـة السـوفييتية وسـائل الاضطهاد بالجملة الا بعد أن واجهتها مهمة مناضلة نصف العالم فى الخارج ، والارهاب المضاد للثورة فى الداخل •

وقد راقبت فى ألم وحيرة فرار الجيش الروسى من الجبهة ، ذلك الفرار الذى تحول الآن الى نوع من الحركة الجماهيرية • وكانت استجاباتى تصدر عن مزيج من الوطنية والشرف العسكرى الذى لابد قد تشربته نفسى نتيجة لنشأتى وبيئتى الأسرية • وكانت تمر بى لحظات اكاد أكون فيها على استعداد لأن أتقمص فيها موقف القواد والجنود المحترفين فى ذلك الوقت • فاذا راجعت نفسى ، لم يكن لى أن أستسلم لتلك الغرائز فى وجه الظروف الفريدة التى اكتنفت ذلك الحدث التاريخى الهائل • وقد تغير موقفى فيما بعد ، وبدأت أرى الحوادث من منظور أعمق وأوسع • وأيا كان الأمر ، فاننى لم اشك فى الحتميـة المطلقة لتجربة روسـياً عن البلشفية • ولا مراء فى أن « الحتميـة التاريخية » عبارة فخمة يسعى بها الناس الى تدعيم انفسهم ، وأحيانا الى شل حركة خصومهم ، غير أن هذه كانت حتمية مختلفة ، تبدى تجربة حاسمة فى مصير الشعب الروسى الداخلى ، وتهدى روسيا الى عالم جديد تستطيع

---

(١) الاسـم الروسى Svobodnaya Akademya Dukhovnoy Kultury
(الأكاديمية الحرة للثقافة الروحية) وأقرب كلمة المانية معادلة لعبارة Geisteswissenschaft

فيه أن تنطق بالحقيقة الكاملة عن نفسها · ولم يكن ثمة سبيل الى العودة الى ما قبل الثورة البلشفية ، وكانت كل محاولات الارتداد ، أو حتى الرجوع الى مبادىء ثورة فبراير ، كانت هذه المحاولات جميعا تبدو واهنة ضارة · ولم يعد هناك بعد تجربة نكبة لها أبعاد الثورة الشيوعية غير التحرك الى الأمام أو حركة رفع (بالمعنى الهيجلى) ، ولم يعد لوقائع الماضى أية أهمية الا من حيث ارتباطها بوقائع المستقبل · وعلى أى حال ، فان هذا الادراك للدلالة العميقة للاحداث الثورية ، لم يجعلنى أرحب بحكم البلاشفة ·

وقد ألقيت نفسى نتيجة لعدد من الظروف عضوا لفترة قصيرة فى مجلس (سوفيت) الجمهورية التى أعلنت حديثا « قبل قيام البرلمان » (١) ، وهو منصب يكاد يبدو ــ بالنسبة لى ــ منصبا غريبا · بيد أنه أتاح لى فرصة أخرى لكى أرى عن كثب التيارات والتيارات التحتانية فى روسيا الثورة · وهناك وجدت عددا كبيرا من معارفى الذين التقيت بهم فى ماضى السياسى ، والذين زحموا الآن المسرح السياسى أثر أعوام من الاضطهاد والوجود « غير القانونى » ، وكان منظرهم يثير الشفقة باعتبارهم خنافس ومتطفلين سياسيين · وانغمس « كيرينسكى » فى ضروب من الهذيان الهستيرى · وكان الجو كله منفرا ومثيرا للغثيان الى أبعد حد ، وانشغل عقلى بفكرة واحدة هى : كيف أهرب من هذا الكابوس ؟ وأفلحت فى بداية عام ١٩١٨ فى التغلب على حالة الغضب التى استولت على · وللوقائع البغيضة طريقة تزداد بها بغضا اذا لم يعمل المرء على مواجهتها · وقد نشأت مشكلات جديدة صعبة وأمور كريهة باقامة نظام الحكم السوفيتى · وفى ربيع عام ١٩١٨ كتبت « فلسفة عدم المساواة » ، وهو الكتاب الذى أبغضه أشد البغض من بين كل ما كتبت ، ففيه كثير مما أعتبره الآن متعسفا زائفا بالنسبة لمعتقداتى العميقة · وقد لامنى بعض الناس على أننى كتبته على الاطلاق ، بينما لامنى الآخرون على أننى تنكرت له · والشىء الوحيد الذى لست على استعداد لانكاره فى هذا الكتاب هو أننى كتبته نتيجة لاهتمام شديد بالحرية ضد نزعة المساواة الروحية ، لا الاجتماعية ، وهى النزعة التى أطلقتها الثورة وحكم « الانسان العادى » و « العقل الجمعى » · ودافعت عن تلك الحقيقة الواضحة الا وهى أن المصدر الوحيد للمساواة الاجتماعية الحقيقية توجد فى الاعتراف بكرامة الشخص الانسانى وقيمته · وما دامت البلشفية تنكر هذه الحقيقة ، فقد اعتبرتها ظاهرة قبيحة ، وحتى وان كنت مدركاً أن الثورات فى حتميتها ذاتها قبيحة ، وأن النقاء الأخلاقى

(١) الذى عينه « كيرينسكى » قبل اكتوبر غير انه كان يضم فى البداية عددا من البلاشفة (ك.ل) ·

فيها يلوثه التطبيق – وفى قولى ذاك قبل كل شىء تعبير عن الوفاء لنفسى . والواقع ان الاعوام الخمسة التى قضيتها من حياتى تحت حكم السوفييت كانت نضالا أخلاقيا متصلا ، نضالا لم يبدأ وقتئذ فحسب ، بل عرفته أينما وحيثما اصطدمت بألوان الضغط فى هذا العالم . ولم يكن بقاء المرء مستقلا ، أو صادقا بالنسبة الى نفسه فى الظروف التى سادت روسيا الثورية ، وروسيا بعد الثورة ، أمرا ميسورا ، وانى لأعترف بشىء من الزهد اننى استطعت الصمود ازاء ضغط تلك الظروف .

ومن أشد التغيرات التى حدثت نتيجة للغليان الثورى ظهورا وايلاما ذلك التحول المذهل فى مظهر كثير من الرجال والنساء ، وكأن نمطا جديدا من الناس قد ظهر ، نمطا لم يكن فيه شىء من التسامح والعطف اللذين إتسم بهما نمط الانسان الروسى قبل الثورة ، ولم يكن فيه ذلك الحنين الى ما ليس موجودا ، أو شىء من تلك الفوضى التى لا تحترم أية قواعد ، فلا شكوك ، ولا استجابات شخصية ، ولا كآبة ، ولا استبطان .. بل افسح ذلك كله مكانه لتفاؤل سطحى ، وعدوانى الى حد ما ، ولاستعداد للتكيف مع أى انسان ، وفعل أى شىء . وكانت الوجوه تظهر منها عيون مسددة فى ثبات على الوقائع الخارجية ، وأصبح التعاطف والرحمة بالآخرين – وخاصة بأولئك الذين يعتنقون آراء مخالفة للمعتقد السائد – صفتين مجهولتين . وساد الاندفاع والثقة بالنفس والتعطش الى اعتراف الآخرين بقيمة الانسان – ساد العلاقات الانسانية بين هؤلاء الأشخاص . وباختفاء الكسل الروسى اختفت صفات أخرى أكثر ايجابية، ولكن كان هناك استعداد أعظم من ذى قبل لمواجهة المتاعب والأخطار المقبلة .

وعلى الرغم من هذا التغير النمطى ، فقد كانت الحياة نفسها فى روسيا السوفييتية شائقة ، بل مثيرة . فقد أطلقت الثورة كثيرا من القوى ، لا بمعنى « المراكز المفتوحة أمام المواهب » فحسب ، بل قوى روحية كانت مجهولة حتى ذلك الحين . وكان ثمة شىء يكاد يكون دالا الى درجة فائقة على الطبيعة فى الحوادث التى كان يتعاقب بعضها اثر بعض يوميا ، والتى فتحت آفاقا جديدة وأثارت مشكلات جديدة باستمرار ، وهى صفة تخلو منها تماما الكارثة التى تعانيها فرنسا فى اثناء كتابتى لهذه السطور . وقد وجدت نفسى أيضا – كما ذكرت من قبل – منهمكا فى جهود محمومة ، ولكنها لم تكن تكن ذات طابع سياسى . وقد جعلت اخطار الوجود ومجازفات العلاقات الشخصية أيسر بالنسبة الى ، وان كانت الدوائر الرسمية تنظر الى العنصر الشخصى نظرة احتقار . وجدير بالذكر أن كثيرا من الناس الذين استولت عليهم فيما بعد

ـ فى المهجر ـ عداوة ونفور متبادلان ، أظهروا قدرة حقيقة على الصداقة والتفاهم ٠

ولم أخف موقفى من الشيوعية ، بل شننت حربا صريحة على روحها ، أو بالأحرى على عداوتها للروح ٠ ولم أكن أرغب فى الارتداد الى النظام القديم مطلقا ، بل كنت مقتنعا تمام الاقتناع بأن العالم القديم قد بلغ نهايته ، وأن العودة اليه أمر محال وغير مرغوب فيه على السواء ٠ وكنت أعتقد أحيانا أن موقف المهاجرين ونفسيتهم أمعن فى الشر من تطرفات الثورة ٠ وكنت أعارض تمام المعارضة كل صنوف التدخل من الخارج وتدخل الأجانب فى مصير روسيا ٠ وكان كثير من المهاجرين يعملون لمصلحة عدو روسيا الخارجى ، تحركهم فظائع النظام البلشفى الذى كانوا من ضحاياه ٠ ولكننى لم أكن أستطيع اتخاذ هذا الموقف ، للأسباب الذى ذكرتها آنفا ، ولأن الشعب الروسى قد أسند ظهره الى الجدار ، وحوصر من كل جانب ، وأخذ يناضل يائسا من أجل البقاء ٠ فكانت المسألة أكثر من أن تكون : « أى نظام للحكم هو الذى نفضله » ٠ وكنت مقتنعا بأن ذنب الفظائع التى اقترفتها الثورة ومسئوليتها يقعان قبل كل شىء على عاتق رجال النظام القديم ، ولهذا لم يكن من حقهم أن يجلسوا للحكم على هذه الفظائع ٠٠ وقد أدركت فيما بعد أن زعماء النهضة الروسية ـ الذى كنت واحد منهم ـ مشتركون فى نصيب من الذنب الناشىء عن ذلك الموقف العدائى الذى اتخذته الثورة الروسية ازاء القيم الروحية ، لقد كنا مذنبين لأننا كنا نتصف بعدم الشعور بالمسئولية الاجتماعية ، وبالنعومة ، وبالاكتفاء الذاتى ، وبالارستقراطية الزائفة ٠ وعلى أية حال ، فان المسئولية العليا تقع على عاتق المسيحية التاريخية، وعلى عاتق المسيحيين الذين فشلوا فى أداء واجبهم ٠ وقد كانت الشيوعية بالنسبة الى منذ البداية تحديا وتذكيرا بواجب مسيحى لم أقم به ٠ وكان ينبغى على المسيحيين أن يستوعبوا حقيقة الشيوعية ، ولو أنهم فعلوا ذلك ، لما انتصر باطلها على الاطلاق ٠ وقد كان هذا الاعتقاد هو الفكرة المسيطرة على وراء نشاطى الاجتماعى خلال منفآى فى الغرب ٠ والشيوعية دليل على أزمة تجتازها المسيحية والنزعة الانسانية على السواء ٠ كما أثبتت فضلا عن ذلك أنها علة ضخمة لكثير مما ألم بأوربا الغربية، لا بسبب أى دفع مزعوم نحو الغرب من جانب روسيا الثورية ، ولكن بسبب النتائج الروحية لتجربتها الثورية أولا وقبل كل شىء ٠ بيد أن هذا التأثير كان معقدا وكانت استجابة أوربا الغربية لهذا التأثير فى بعض الحالات أشبه برد الفعل الأعمى ٠ والفاشية حالة من تلك الحالات ٠

كانت الثورة الشيوعية بمثابة النهاية للطبقة المثقفة الروسية ، ذلك أن الثورات لم تكن مجزية قط لهؤلاء الذين يغذونها ، وكان موقف الثورة الروسية من الطبقة المثقفة التى مهدت لها السبيل موقفا جحودا أسود ، اذ اضطهدت وتجاهلت (فى مراحلها الأولى) الثقافة الروسية السابقة على الثورة بقضها قضيضها واستنكرت قيمتها التاريخية ، وهذا يدل على اننى كنت مصيبا فى اعتقادى بأن الحرية ليست ديمقراطية بل ارستقراطية : فالحرية لا تعنى الجماهير الثائرة وليست ضرورية لها ، بل ان عبء الحرية أثقل من أن تحتمله تلك الجماهير ٠ والوجود الانسانى خاضع لرمزى الخبز والحرية ، ممزق بهما ، والثورات فى أغلب الأحيان ترفض الحرية باسم الخبز ٠ وقد ثبت فى روسيا الشيوعية أن ارادة القوة أقوى من ارادة الحرية ، وأن عنصر القوة فى السياسة أشد حسما من عنصر الاشتراكية الثورية الحقيقية ٠

ذكرت لتوى أن شيئا مثيرا كان يشيع فى الجو الذى عاشت فيه روسيا بعد الثورة ، فلم يكن من الممكن أن يبقى الانسان جامدا ، وعلى الرغم من الضغط العاتى للأحداث ، لم يشعر انسان بأنه منسحق أو منكسر القلب ، اللهم الا هؤلاء الذين فقدوا صوابهم ، ولم يعودوا يجرءون على القول بأن روحهم ما برحت ملكهم ٠ وحتى بعد أن فرضت التعبئة للعمل ، وكان على أن أزيح الثلوج ، أو أن أسير فى الصباح الباكر مخترقا الشوارع الباردة المعتمة لأحفر الأرض خارج المدينة ، لم أشعر بالكآبة والشقاء على الاطلاق رغم قلة اعتيادى على وطأة المعول والجاروف على عضلاتى الجامدة وشعورى بالدوار عندما أنهمك فى عمل جثمانى شاق ٠ ولم يكن يسعنى الا الاعتراف بعدالة المأزق الذى وقعت فيه ٠

وقد تحول الجوع فى « بطرسبورج » وغيرها من المدن الى مجاعة حقيقية ، وكان نقص الطعام فى موسكو اقل قسوة ، وان كان الجوع يقرصنا تماما نتيجة لنصيبنا الضئيل الذى نتمكن من الحصول عليه من الخبز والبطاطس ٠ غير أن كل الطعام كان أحلى مذاقا منه فى أعوام الوفرة ٠ وكنت لا أزال أعيش فى شقتنا (التى لم تعد تعرف التدفئة) بأثاثها المعهود ، وما تضمه من صور أسلاف القواد الذين يتشحون بالشرائط ، ويتزينون بالنجوم والصلبان ٠ وبمعجزة ما لم تستول الحكومة على هذه الشقة ، وظلت مكتبتى سليمة نظرا للموقف الغريب الذى اتخذته السلطات من الورق ! فقد اكتسبت كل قطعة من الورق ، سواء أكانت بيضاء أم مكتوبة ، على هيئة كتاب أم فى صورة صفحات جريدة ، اكتسبت نوعا من الدلالة المقدسة : فقد تحولت روسيا الى مملكة بيروقراطية للورق ٠

وفى ذلك الوقت ذهب كثير من الكتاب الى القرم ليتيحوا لأنفسهم فرصة الحصول على خدمات « لوناتشارسكى » ، الذى أصبح الى جانب « مكسيم جوركى» حاميا للفنون ومزودا لجمهورية الآداب التى اهتزت دعائمها اهتزازا سيئا بوسائل البقاء • ولكننى كنت أعارض مثل هذا الاتجاه ، ولم أشعر بأى ميل لكى أصبح فيلسوف البلاط لرفيق صباى «لوناتشارسكى» ، بل لقد ذهب بى الأمر الى حد أننى تشاجرت لهذا السبب مع بعض أصدقائى القدامى ، ومنهم مثلا « فياتشسلاف ايفانوف » و « جرشنزون » • ولست أعتقد الآن أن لموقفى ذاك ما يبرره ، وخاصة بالنسبة لـ «جرشنزون» الذى وافق على الثورة الروسية ، لا لأنه كان انتهازيا ، ولكن لأنه كان يعتقد مخلصا أن العاصفة الثورية المدمرة ستحرر الروح الحديثة من المقاييس الخانقة للثقافة والمعرفة المفرطتين •

ولم يكن النظام السوفيتى قد تبلور حتى ذلك الحين ، أو وضع موضع التطبيق ، ولم يكن من الممكن أن يسمى بالتأكيد نظاما استبداديا ، وكان زاخرا بالمتناقضات والمفارقات • وقد وضعت علاوة طعام خاصه - ان تكن ضئيلة كل الضآلة - للكتاب المعروفين بغض النظر عن وضعهم الايديولوجى ، وذلك قبل ظهور « المخصصات الأكاديمية » الى الوجود ، وكانوا يطلقون على هؤلاء الكتاب اسم «الخالدين» على سبيل المداعبة • وقد ألفيت نفسى واحدا من هؤلاء • غير أن هذا الجميل وافق اعتقالى الأول والثانى فى السجن بواسطة « التشيكا » • ومن حسن الحظ أن « التشيكا » لم يكن يسيطرون على مصير روسيا كل السيطرة • وكان الكرملين - الذى أصبح الآن قلب الأمة - كما تنبأ هرتزن بذلك منذ ستين عاما - والذى نشب حول أملاكه صراع عنيف انتهى الى توطيد السيطرة البشفية - كان يسكنه ممثلون للطبقة المثقفة الروسية القديمة ، من أمثال «كامينيف» و «لوتشارسكى» ، و «بوخارين» و «ريازانوف» وآخرون غيرهم • وكان موقفهم من أعضاء الطبقة المثقفة الذين لم ينضموا الى صفوف الشيوعية مختلفا من موقف « التشيكا » ، بل كانوا بطبيعتهم أميل الى اتخاذ موقف العدو الكريم ، وكانوا معنيين حقا بما وقع على زملائهم السياسيين السابقين من اضطهاد جامح •

* * *

اشتركت عام ١٩١٨ فى موكب كنائسى كان يرأسه البطريرك ، وتحول هذا الموكب الى شىء أشبه باضراب على نطاق واسع • وقد انضم اليه الناس على الرغم مما قد يتهددهم من خطر ، بيد أن الحكومة لم تتدخل فعلا •

وقد واصلت الكتابة بغزارة كما هى العادة ، غير أن الفرصة لم تسنح لنشر ما كتبت · وقد ألفت كتبا أربعة من بينها كتاب « معنى التاريخ » ، ومقالا أدبيا فلسفيا عن « دوستويفسكى » بنيتهما على محاضرات ودراسات ألقيت فى ندوات · وكانت مشكلات فلسفة التاريخ تشغل ذهنى كثيرا حينذاك ، والأزمة التاريخية والكارثة اللتان أشهدهما يلائمان مثل هذه الأبحاث · أما كتابى عن « دوستويفسكى » فقد دفعتنى اليه النتائج الاجتماعية والدينية « لأسطورة المفتش الكبير » ·

وفيما عدا الكتابة ، كنت أساهم مساهمة ايجابية فى ادارة « اتحاد الكتاب الروسى » الذى كان لابد من تسجيله تحت فئة « رجال الطباعة » (اذ لم يكن هناك فرع رسمى يتناول أعمال الكتاب ، وفى هذا من الدلالة ما يكفى !) ، وظللت قائما بأعمال رئاسته لمدة عام · وكلما ظهرت حاجة للتدخل من أجل أعضاء الاتحاد ، للحصول على اذن باطلاق سراحهم من السجن ، أو تجنب اخلاء منازلهم ، كان يطلب منى ـ كقاعدة ـ أن أذهب لرؤية « كامينيف » رئيس مجلس مدينة موسكو لنواب العمال ، الذى أصابته نكبة التقلب السياسى فيما بعد ، ولقى مصير «زينوفييف» الفاجع ، واتهم بالاشتراك فى اغتيال «كيروف» · وكان لكامينيف طريقة ظريفة ، وكان يدافع دائما عن مصالح رجـال العلـم والأدباء ، وقد صنع الكثير فى سبيل المثقفين المضطهدين · ومع ذلك فقد كانت كل زيارة له تعنى مجهودا هائلا ابذله من جانبى ، مجهودا لم تجعله طريقته الأنيسة أيسر على نفسى · وفى احدى المناسبات ، بلغ بى الأمر الى مقابلة « كالينين » رئيس اللجنة التنفيذية المركزية ومعه عضو آخر من أعضاء اتحاد الكتاب ، لكى أتوسط لاطلاق سراح « ميخائيل أوسورجين » الذى ألقى القبض عليه لتعاونه مع الصليب الاحمر فى التخفيف عن المعتقلين السياسيين (أنشأت الطبقة المثقفة هذه الجمعية ، غير أن الحكومة السوفييتية نفسها تولت رعايتها ، على ما فى ذلك من مفارقة) · وفى مجرى الحديث أشرنا الى « لونا تشارسكى » ، غير أن كالينين ـ الرئيس الاسمى للدولة السوفييتية ـ أفضى بالعبارة المحيرة التالية : «ليست التوصية « لوناتشارسكى » أية دلالة كانت ، وليست لها أهمية كأى توصية كان يمكن أن أعطيها لك · والأمر يختلف لو خولت لك سلطة الرجوع الى الرفيق ستالين » ·

وفى عام ١٩٢٠ انتخبتنى الكلية أستاذا للفلسفة بجامعة موسكو ، وظللت لمدة عام ألقى محاضرات انتقدت فيها الماركسية بصراحة وبلا أى عائق · ولم أتمكن من البقاء والتوفيق بين الغايات ، الا بفضل مساهمتى فى « حانوت الكتاب » ، وكا نالمنظم الرئيسى لهذا « الحانوت » هو « أوسورجين » ، وقد

أصبح هذا الحانوت شيئا كالمنتدى الأدبى ، وكان الى جانب ما يتيحه من فرصة للالتقاء بالآخرين ، يزودنا بالطعام والدفء والنور ·

ومنذ الأيام الأولى للثورة ، وخلال حياتى كلها فى روسيا حتى نفيت منها ، كانت تعقد الاجتماعات فى منزلنا بعطفة « مالى فاسيلفسكى » يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، فتلقى الأبحاث والمحاضرات وتدور المناقشات المعتادة · وكذلك كنت أحاضر كثيرا فى الأماكن العامة ، ولا أظن أننى اجتذبت هذا العدد الهائل من المستمعين فى أى وقت آخر مثلما اجتذبت فى تلك الأيام المضطربة · وكان هناك عدد من الجماعات والحركات الفوضوية ، ثبت أن بعضها كان عاملا حاسما فى تطور الثورة · وكانت الحكومة السوفييتية تغض عنها الطرف حتى عام ١٩٢١ (وهو العام الذى وقع فيه تمرد كرونشتات ولعبت فيه المؤثرات الفوضوية دورا ما) ، فكان لها مخازن كتبها الخاصة ، ومطابعها وأجهزة دعايتها · وقد أعلن أحد المنتديات الفوضوية عن مناظرة حول المسيح (كان ذلك فى أواخر سنة ١٩١٨ أو أوائل سنة ١٩١٩) ، ودعيت الى هذه المناظرة ، مع عدد من الأساقفة والقساوسة (الذين لم يحضروا على أية حال) للحديث فى ذلك الاجتماع (١) · واشترك فى هذه المناظرة أيضا عدد من أتباع « تولستوى » ، وأتباع « نيقولاى فيودوروف » الذين يعتنقون مزيجا من أفكار «فيودوروف» والشيوعية الفوضوية، وبعض الفوضويين الخلص، والشيوعيين · وما كدت أدخل القاعة المزدحمة حتى انتابنى احساس ، يكاد يكون جثمانيا ، بالتوتر المخيف الذى يشيع فى الجو · وكان الحشد يضم عددا كبيرا من رجال الجيش الأحمر ، ومن البحارة والعمال · وكان الجو بأسره دالا على القوى الأولية التى تعمل خلف الثورة والتى ابتهجت بانهيار القيود غير المحتملة ، وركبها النزق والانلاق والقسوة والصراحة حتى الصفاقة العارية · وقرأ أحد العمال بحثا عن الكتاب المقدس أكد فيه أن أم المسيح امرأة ساقطة وأن السيد المسيح ابن غير شرعى لجندى رومانى ، على اعتبار أن هاتين الحقيقتين أمر برهن عليه العلم ، وقد قوبل قوله هذا بتصفيق عنيف من المستمعين · كما وقف طويلا عند « المتناقضات » و « المفارقات » الموجودة فى الكتب المقدسة · وأعقبه أحد اتباع « تولستوى » فهاجم الكنيسة هجوما حادا · وألقى أحد اتباع « فيودوروف » - الذى وصف نفسه بأنه صاحب نزعة كونية حيوية - ألقى شيئا أشبه باللهجة العامية التى لا يمكن طبعها ، خليط من الهذيان العلمى

---

(١) كان الفوضويون هم الجماعة الثورية الوحيدة التى كنت على اتصال بها فى الأعوام التالية للثورة . وكانوا كثيرا ما يطلبون منى أن أتحدث فى اجتماعاتهم . وقد ألقيت سلسلة من المحاضرات عن « أخلاقيات اللغة » فى معهد الدولة للغة (المؤلف) .

والغنوصية وآيات الكتاب المقدسة لا سبيل الى تصديقها · وختم كلامه بأن أعلن أنه ما دام الحد الأقصى من البرنامج الاجتماعى قد وضع موضع التطبيق فان « البعث الكونى للأموات » سوف يقع فى اية لحظة · واثار هذا القول عاصفة من الضحك لدى المستمعين · وكأن المتحدث التالى ـ وهو افضلهم جميعا ـ فوضويا · واحسست بعد أن استمعت الى المتحدثين جميعا بأننى مشلول تماما ، لا أدرى ماذا أقول، أو كيف أنتزع نفسى من هذه الأزمة المروعة· بيد أننى بذلت مجهودا روحيا عنيفا ، وركزت كل قواى ، ونهضت للحديث عندما طلب منى ذلك · وشعرت منذ أن نطقت بالكلمات الأولى وكأنما استولت على قوة تلهمنى وتمدنى بالقوة وبكل العبارات الملائمة لهذه المناسبة · والحق ، أننى لا أعتقد أننى تكلمت فى اجتماع غير هذا الاجتماع افضل من ذلك طيلة حياتى ، وقلت تقريبا ما عرضته بعد ذلك فى كتبى : « عن قيمة المسيحية وتهافت المسيحيين » · وفى البداية كأن المستمعون معادين لى تماما ، وأغرقوا كلماتى فى موجة من الصفير والصيحات وعبارات الاستخفاف · بيد أننى سيطرت عليهم شيئا فشيئا ، وختمت حديثى بين عاصفة من التصفيق · ولما انتهيت اقبل الناس على ، مصافحين شاكرين ·

وما زلت أذكر أيضا محاضرة عامة عن « العلم والدين » فى قاعة المتحف الهندسى · وكان الحاضرون حوالى ألفين ، اغلبهم من العمال ورجال الجيش الأحمر ، وكذلك حضر عدد كبير من الشيوعيين · وطلب الجمهور بعد انتهاء المحاضرة فتح باب المناقشة · ولكن كان لابد لى أن أشرح لهم أن السلطات سمحت بالقاء المحاضرة على شرط ألا تعقبها مناقشة · وعندما قلت ذلك تقدم فجأة شخص كا نيقف ورائى وقال : « باسم اللجنة غير العادية « تشيكا » أعلن أن باب المناقشة مفتوح » · وكان الجو أشبه بجو المناسبة السابقة ، فكان هناك نفس الحدة والاهتمام بالموضوعات المطروحة للمناقشة · ومهما يكن من أمر ، فان أطرف تجربة كانت تنتظرنى حين لمحت فى أثناء عودتى الى المنزل جماعة كبيرة من الناس ، يتألف معظمها من العمال ، يتعقبوننى عبر ميدان « أربات » ، واقترب أحدهم منى وشرع يهاجم الله والدين فى عنف · فسألته لما مكث فى القاعة استمع الى محاضرتى ، فأجاب قائلا : « كنت أود أن أرى معتقداتى وحججى ضد الله وضد الايمان وقد فندت ، وكنت أريد أن أرى هل أستطيع أن أصمد أمام الله » · لم يكن من الممكن ان يقول أحد من المهاجرين الروس الشبان شيئا من هذا القبيل ، اذ كان يبدو أنهم فقدوا عقلهم الباحث ، وفقدوا القلق الروحى العنيف الذى يتسم به الرجل الروسى تمام الفقدان ·

ولم تنجح عاصفة الثورة فى تحطيم بقايا الحياة الثقافية جميعا ، فظلت بعض الروابط التى تربطها بالتقليد الروحى الروسى سليمة • ومن ثم فقد خطر لى أنه لابد أن تسنح الفرصة لمواصلة العمل الثقافى وحشد القوى الثقافية الميسرة بعضها الى البعض الآخر • ولست أقصد بالطبع مجرد احياء للجمعيات الدينية الفلسفية ، وانما أقصد أن تكون الدائرة متسعة على قدر الامكان لكى تضم ممثلين لأكثر اتجاهات الفكر تنوعا بحيث يوحد بينها الاعتراف باستقلال القيم الروحية وأولويتها • وعلى هذا النحو ظهرت الى الوجود « الأكاديمية الحرة للعلم الأخلاقى » التى ظلت باقية حتى نفيت عام ١٩٢٢ ، وكانت هذه الأكاديمية معارضة « للأكاديمية الفلسفية الحرة » ببطرسبورج • وكانت أكاديمية موسكو وأكاديمية بطرسبورج تضمان أولئك الذين « يقبلون البلشفية » ، وهؤلاء الذين يرفضونها ولكنهم يقبلون فى الوقت نفسه العصر الجديد بحسبانه عصر هدم مادى وخلق روحى ، وكذلك هؤلاء الذين يقفون موقفا مستقلا تمام الاستقلال • وكان هناك أيضا عدد قليل من رجال الكنيسة الأرثوذكسية الذين أدانوا الشيوعية الملحدة ، وأخذوا يتطلعون الى عهد جديد تصبح فيه الكنيسة المضطهدة المتطهرة شاهدا أكثر حرية وصدقا على الحقيقة المسيحية • وقد نظمنا سلسلة من المحاضرات والندوات ، والاجتماعات والمناقشات العامة • ولم يكن من الممكن بالطبع أن تكون لجامعتنا فى موسكو أماكنها الخاصة ، ما دامت مستقلة عن أية مؤسسة من مؤسسات الدولة القائمة ، بيد أن السلطات أتاحت لنا تأجير القاعات العامة • فكنا نلقى سلسلة المحاضرات فى مدرجات « جامعة المرأة » ، أما الندوات فكانت تعقد فى أماكن أخرى متعددة •

وانى لأذكر سلسلة من المحاضرات ألقيتها فى معمل التقطير المركزى ، ولم تلبث أن ظهرت كلمة فى صحيفة « برافدا » تقول : ان « برديائف » قد استخدم المؤسسة السوفييتية للدعاية الدينية ، وأن مثل هذه الأعمال يجب أن توقف فورا • وأظهر كاتب المقال ـ الذى بنى مقاله على مجرد اختلاق ـ براعته عندما ختم مقاله بهذه الملاحظة : وهى أنه كانت هناك دائما رابطة بين الدين والروح (اشارة الى المشروبات الروحية) ، ونتيجة لهذه الحادثة ، استدعيت أنا ورئيس معمل التقطير المركزى « التشيكا » ، فأخرجت لهم ورقة تحمل توقيع «كامينيف» ، وتنص على أن « الأكاديمية الحرة للعلم الأخلاقى» مسجلة فى مجلس موسكو لنواب العمال • وهنا سألونى أن أشرح لهم معنى العلم الأخلاقى ، ولماذا وكيف يختلف عن العلم الطبيعى (الفيزيائى) • ولم تكن المهمة يسيرة ! غير أن رجل « التشيكا » أنصت فى انتباه ، وانتهت الحادثة بسلام فى ذلك الوقت ، ولكن لابد أنها أسهمت فى طردى ـ الذى أعقب ذلك ـ من الاتحاد السوفييتى •

وقد استمع الى محاضراتى عن فلسفة التاريخ والى الندوة التى أقيمت عن « دوستويفسكى » جمع غفير ، من بينهم عدد كبير من الشيوعيين ، كما حضر أيضا شاب كان يبدو عليه أنه من عملاء «التشيكا» ، اذ كان يجلس دائما فى الصف الأول ، وهو يحدق فى بنظرة خالية من المعنى · وقد كنت أتحدث دائما فى حرية دون أن أحاول اخفاء معتقداتى بأية طريقة كانت ، وكذلك كانت المناقشات التى تعقب هذه المحاضرات العامة صريحة ايضا · وقد كانت السنة الأخيرة من عمر « الأكاديمية الحرة للعلم الأخلاقى » ناجحة على وجه الخصوص · وفى احدى المناسبات (وكان موضوع المحاضرة كتاب « اشبنجلر » عن « انحلال الغرب » أو ربما كان عن الثيوصوفية) · اجتمع فى القاعة حشد كبير من الناس الى درجة شطرا منهم كان يقف فى الطرقات ، وكانت السلالم مكتظة ، ولم أستطع أن انفذ الى قاعة المحاضرات الا فى مشقة بالغة · وفى مناسبة أخرى تلقيت مذكرة من ادارة « جامعة المرأة » تقول انه من الممكن أن تنهار الأرضية تحت وطأة هذا العدد من الناس · وأحب أن أذكر هنا ، أننا لم نكن نعلن مطلقا فى الجرائد عن هذه الاجتماعات (وان كان من المؤكد أنها كانت لا توافق اطلاقا على نشر اعلاناتنا) ، ولم يكن من الممكن الاستعلام عنها كقاعدة الا عن طريق « حانوت الكتاب » أو عن طريق الأصدقاء ·

ولقد كان نجاح نشاط الأكاديمية دليلا على الاهتمام العقلى والروحى العظيم بين الروس · وعلى الرغم من أن امكانيات العثور على هذا الاهتمام فى روسيا الحالية أمر لا وجود له ، فاننى لا أستطيع أن أتصور أن الاهتمام نفسه قد تلاشى تماما ، بل اننى مقتنع فى الواقع بأن الفكر الحر ما برح موجودا فى روسيا بصورة أو بأخرى · وهذا الاقتناع يؤكده خطاب عجيب تلقيته عام ١٩٣٤ فى باريس من أحد الشبان ، ونشر بعد ذلك فى صحيفة Put : ففى أثناء مقامى فى روسيا لم تكن المنظمة الشيوعية قد تقدمت كثيرا ، اذ كان العنصر الثورى ما زال فى الخارج ، والاتجاهات الشاملة للدولة السوفييتية قد تركت كثيرا من جوانب الحياة دون مساس ، واقتصرت فى بسط سلطانها على مجال السياسة والاقتصاد · وقد نجح بعض الكتاب غير الشيوعيين ، بل المناهضين للشيوعية ، فى اصدار كتب قليلة ، رغم النقص الشديد فى الورق ، ورغم الرقابة غير الفعالة نوعا ما ، التى لم تكن ممارستها تتم مباشرة ، بل عن طريق احتكار الدولة لصناعة الطباعة بأسرها ·

ولم أرغب اطلاقا فى مبارحة روسيا ، أو أن أصير « مهاجرا » ، اذ كنت أومن بامكان الولادة الروحية من جديد ، وتحرير روسيا الشيوعية من الداخل · وكنت أشعر أن هناك عنصرا انسانيا حقيقيا أطلقته الثورة التى كان يمكن أن

تمد النشاط الخلاق فى روسيا بدفعة جديدة • غير أن عوامل أخرى تدخلت ، وأجبرتنى على مغادرة بلادى •

ولا أستطيع القول بأن السلطات السوفييتية قد عرضتنى لأى اضطهاد ، ولكن « التشيكا » ثم الـ G.P.U. (قلم المخابرات) بعد ذلك اعتقلتنى وألقت بى فى السجن فى مناسبتين • غير أن مدة السجن لم تطل على كل حال • وقد حدث الاعتقــال الأول عام ١٩٢٠ فى الوقت الذى أثيرت فيه مسألة « المركز التكتيكى » (منظمة فوضوية) ، وهى مسألة لم تكن لى بها أية علاقة ، اللهم الا علاقة غير مباشرة عن طريق معارفى الشخصيين الذين اعتقل معظمهم بتهمة مناهضة الثورة ، وأجريت المحاكمة اثر هذه الاعتقالات ، غير أن قضيتى نظرت على انفراد •

وذات يوم (وكان ذلك فى منتصف الليل) ، كنت جالســا فى ســجن « التشيكا » الداخلى ففتح أحد الحراس باب الزنزانة ، واصطحبنى للتحقيق ، وقادنى خــلال دهاليز مظلمــة لا نهاية لها ، وصعد بى وأنزلنى من سلالم حلزونية ، وانتهى بنا المسير الى ممر أشــد وضوحا واضاءة ، وقد فرش بسجادة ، ثم دخلنا حجرة رحبة ساطعة الضوء ، وكان على أرضها جلد دب أبيض • وعلى يسار منضدة الكتابة وقف رجل يرتدى بزة عسكرية وقد تحلى بنجمة حمراء ، وكان أشقر الشعر ، ذا لحية نحيلة مدببة ، وعينين رماديتين بليدتين ، ومكتئبتين الى حد ما • وكان مظهره ومسلكه ينمان على التربية المهذبة واللطف ، وطلب منى أن أجلس ، ثم قال : « اسمى زرزنسكى » • هذا اذن هو رئيس البوليس السياسىالشهير الذى يقال عنه أن يديه ملطختان بدماء غزيرة ، والذى ترتعد روسيا كلها فزعا من مجرد اسمه • وكنت الوحيد بين المعتقلين الذى كان له شرف التحقيق على يد هذا السيد الرهيب • وكان الأمر خطيرا الى حد ما ، فالى جانب كل من «كامينيف» و «منزنسكى» ، كان نائب رئيس «التشيكا» حاضرا (عرفت هذا الأخير فى الأيام السابقة حين حاول أن يتجه اتجاها أدبيا فى بطرسبورج ولكنه فشل » ، ولست أذكر أننى أحسست بالخوف قط ، أو أنتابنى الاضطراب ، أو استبد بقلبى القنوط فى مثل هذه المواقف التى كانت ، على العكس من ذلك ، تثير فى نفسى حمية القتال • وقد قررت فى هذه المناسبة أيضا أن أتخذ موقف المهاجم بدلا من ان أدافع عن نفسى أو ان أسلك سلوك المعتذر • فقلت لزرزنسكى : « أرجو أن تضع نصب عينيك أن كرامتى كمفكر وكاتب تقتضى أن أتكلم فى صراحة وجلاء » • وهنا أجاب زرزنسكى : « هذا ما ننتظره منك » ، فشرعت فى هجومى ، وتحدثت أكثر من نصف ساعة ، وأنا أسوق الحجج على معارضتى الدينية والفلسفية والأخلاقية للشيوعية ،

مؤكدا فى الوقت نفسه أننى لم أكن معنيا بسياسة الحزب • وانصت « زرزنسكى » فى انتباه شديد ، مبديا من حين لآخر ملاحظة قصيرة • فقال — مرة — على سبيل المثال : « من الممكن أن يكون المرء ماديا من الناحية النظرية ومثاليا فى الحياة ، أو على العكس ، مثاليا من الوجهة النظرية وماديا فى الحياة » • وبعد أن فرغت من حديثى وجه الى عدة أسئلة ، أغلبها يدور حول أناس آخرين • ولما كنت قد خبرت أنواع التحقيق هذه فى نظام الحكم القديم ، فقد كنت أعلم أن هذا ما سيحدث ، فامتنعت بالطبع عن الادلاء بأية معلومات • وقد سارع « زرزنسكى » نفسه الى نجدتى عندما سألنى سؤالا محرجا ، بأن أجاب هو نفسه عليه • وعلمت فيما بعد أن أغلب الذين أجرى معهم التحقيق قد اعترفوا حتى تقوم التهمة الموجهة اليهم على شهادتهم هم أنفسهم • وعندما انتهت الاجراءات قال « زرزنسكى » : « سأطلق سراحك ، ولكن لن يكون فى استطاعتك مغادرة موسكو دون تصريح » • ثم التفت الى « منزنسكى » وأضاف قائلا : « الوقت متأخر ، والطريق مليء بقطاع الطرق ، أليس من الممكن اصطحاب السيد برديائف بالسيارة الى منزله ؟ » • ولم يكن الحصول على سيارة أمرا ميسورا ، غير أن حارسا أحمر اصطحبنى الى المنزل ، وحمل أمتعتى على دراجة بخارية • وعندما غادرت السجن سألنى المحافظ : هل « استمتعت » بمقامى بينهم • والواقع أن نظام « التشيكا » كان أشق وأشد صرامة من نظام السجن فى الأيام السابقة على الثورة • ومن هذا أننا كنا منعزلين انعزالا تاما مشددا ، ولم يكن يسمح لأحد منا بمقابلة الزوار • بيد أن نشاط « التشيكا » كان منصبا فى البداية على الخصوم العسكريين والسياسيين أكثر من انصبابه على الخصوم المذهبيين ، وكانت الاغتيالات التى حدثت فى الاعوام الاولى من الثورة انفجارات للعاطفة الشعبية ، وتعبيرا عن قانون الغوغاء • وفقدت « التشيكا » كل تمييز عندما تكاثفت الأخطار من الداخل والخارج على السواء ، وأصبح للخوف اليد العليا •

وترك « زرزنسكى » فى نفسى انطباعا بأنه رجل اخلاص واقتناع صادق • ولا أعتقد أنه شخص شرير أو حتى متحجر القلب بطبيعته (علمت فيما بعد أنه أدى خدمات كبيرة للأطفال المشردين ، دون أن يعلن اطلاقا عن هذا النشاط الذى بذله) • بيد أنه كان متعصبا ، وليس من شك أنه كان يحف به شىء من الغموض ، وقد انحدر من أسرة بولونية — لتوانية نبيلة ، وكانت تبدو عليه سمات تهذيب عظيم • وعلمت أنه كاد أن يصبح فيما مضى راهبا كاثوليكيا ، ولكنه تحول بايمانه المتعصب الى الشيوعية فيما بعد ، وانقلب فى عقيدته الجديدة الى قديس مضطهد •

وجرت محاكمة المركز التكتيكى بعد أسابيع قلائل من اطلاق سراحى ٠ وكانت المحاكمة علنية ، فحضرت الجلسات جميعا ، اذ كان بين المتهمين عدد من أصدقائى الشخصيين ٠ وتركت المحاكمة انطباعا كئيبا فى نفسى ، فقد كانت أشبه بالمسرحية التى أعد فيها كل شىء من قبل ٠ وكان بعض المتهمين يسلكون سلوكا ينم على تمسكهم بالكرامة ، غير أن البعض الآخر كان ينحنى ويتزلف ٠ ومهما يكن من أمر ، فان الأحكام لم تكن قاسية على وجه الخصوص ، بل كانت كلها مع ايقاف التنفيذ ٠

وعشت عدة أشهر بعد ذلك فى طمأنينة نسبية ٠ ولم يبدأ الموقف فى التغير الا فى ربيع عام ١٩٢٢ بعد أن تألفت جبهة معادية للدين ، وبدأت الاضطهادات المناهضة للدين ٠ وقد قضينا صـــيف سنة ١٩٢٢ فى « بورفيك » ، وهى بقعة جذابة على شاطىء نهر « موسكفا » ، و لاتبعد كثيرا عن « أنخارجلســك » الضيعة السابقة لآل يوسوبوف حيث كان يعيش فيها « تروتسكى » وقتذاك ٠ وتعد الغابات والمنظر كله الذى يحيط « ببورفيك » من أجمل المناطق فى روسيا الوسطى ، واستطعنا أن نعيش بعيدين عن كوابيس حياة المدينة التى أعقبت الثورة بضعة أسابيع قلائل ٠ وكان مما يخفف على المرء همومه أن ينفق عدة ساعات ليجمع « عيش الغراب » ٠ وذات يوم ، كان لابد أن أذهب فى زيارة قصيرة الى موسكو ٠ وفى ليلة وصولى ــ وهى الليلة الوحيدة التى قضيتها فى موسكو خلال فصل الصيف كله ــ نمت فى شقتنا ٠ فقام البوليس بتفتيشها ، وألقى القبض على للمرة الثانية ٠ ونقلت مرة أخرى الى سجن « التشيكا » الذى أطلق عليه الآن اسم الـ G.P.U. حيث حجزت ما يقرب من أسبوع ٠ وفى أثناء التحقيق الأول أنبئت بأننى سوف أنفى مـ نالاتحاد السوفيتى ٠ وأظهر المحقق وثيقة جاء فيها أننى لو اجتزت حــدود الاتحــاد الســـوفيتى بعد أن يتم نفيى ، فسوف يطلقون على النار ٠ وكان على توقيع هذه الوثيقة ، فلما فعلت ذلك ، أطلق سراحى ٠ ومضى على ذلك شهران قبل أن أنجح فى مغادرة البلاد ٠ وقد أرسلت الى المنفى جماعة بأكملها من الكتاب والعلماء والأشخاص الذين يعملون فى الفروع المتعددة من النشاط الاجتماعى والذين لم يجدوا من أنفسهم قابلية للتكيف مع الظروف الاجتماعية المتغيرة فى البلاد ٠ وكان ذلك اجراء غير عادى ، لم يتكرر بعد ذلك مطلقا ، اللهم الا فى حــالات فــردية معينة ٠ ولم يكن ابعــادى قائمــا على أية أسس سـياسية ، بل على أسس ايديولوجية ٠ ولما تناهى الى مسمعى هذا القرار ، استولى على الحـــزن واستبدت بى المرارة ، فلم أكن أرغب فى الهجـرة ، كما ذكـرت من قبل ، وملأتنى امكانية الاختلاط نالمهاجرين بشىء يشبه الفزع ٠ ومع ذلك لم يكن يسعنى الا أن أشعر فى الوقت نفسه ، بأننى سوف أستطيع أن أتنفس فى المنفى (الذى كنت أرجو الا يطول كما طال فى الواقع) بحرية أكبر ٠

وكانت السفارة الألمانية عظيمة المعونة فى ترتيب أمر رحيلنا ، ومن هذا أنها رفضت طلب الحكومة السوفييتية باصدار تأشيرة دخول جماعية ، وبدلا من ذلك قدمت لكل فرد من المنفيين تصريحا خاصا بالدخول الى المانيا • وكان لابد لى خلال تلك الأيام الأخيرة أن اتردد على .G.P.U فى عدة مناسبات من أجل رحيلنا • وذات مرة فى أثناء دخول الـ .G.P.U ، أصابتنى الدهشة عندما رأيت الدهليز وحجرات الانتظار غاصة برجال الدين الذين اتضح انهم أعضاء الكنيسة الحية(١) • وكان منظرا اليما محزنا نوعا ما • وقد تأكد انطباعى السلبى عن الكنيسة الحية عندما علمت أن زعماءها عاكفون على التشهير الكاذب بالممثلين الشرعيين للكنيسة الأرثونكسية الروسية ، وبالأخص الوشاية بالبطريرك ، الذى القى به فى السجن هذا العام نفسه نتيجة لتلك الوشايات • وكانت تلك طريقة مريبة — اذا شأنا أن نستخدم نعتا مهذبا — لادخال الاصلاح الذى كنت أريده أنا نفسى • والتقيت فى حجرات الانتظار فى .G.P.U بالأسقف « انطونى » الذى قابلته منذ أعوام فى « بطرسبورج » • وقد كان واحدا من أكثر الأساقفة الروس الموهوبين التقدميين فى روسيا وقد قام بدور ايجابى فى جمعية بطرسبورج الدينية — الفلسفية • ومع ذلك فقد كان دوره فى اصلاح الكنيسة دورا قبيحا غاية القبح ، اذ كان يحصل على المال من زعماء الكنيسة الآخرين ليكف عنهم الأذى ، ثم لا يلبث أن يشى بهم • وأقبل على الأسقف « انطونى » ، وعانقنى ، وهو يغمغم من شدة التأثر ، وشرع يستعيد ذكريات الماضى فى حماسة • وكانت حماسته وسلوكه العام فى هذا المكان فى احدى حجرات .G.P.U مثيرا للغثيان ، ولهذا كنت مقتضباً معه غاية الاقتضاب • وكانت تلك آخر ذكرى بغيضة حملتها من روسيا السوفييتية •

وليس يسيرا على أن أتحدث عن التجارب والعواطف التى جاشت فى نفسى فى اللحظة التى هممت فيها بالرحيل عن وطنى ، وعن الأشياء والناس جميعا الذين أصبحوا جزءا لا ينفصل عن حياتى • والحق أن التجربة كانت أشد ايلاما مما كنت أتصور • ولكن اذا كانت الحياة فى المنفى قد بدت لى فى تلك اللحظة مجهولا غامضا لا سبيل الى الترحيب به ، فقد ثبت فى الواقع

---

(١) وهى هيئة انشقت عن الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، وكانت تتألف فى معظمها من الانتهازيين ، كما أعلنت الى جانب دعوتها الى عدد من الاصلاحات الخاصة بالكنيسة أعلنت تأييدها المشروط للشيوعية . ومنحت الحكومة هذه الهيئة المنشقة عدة امتيازات ، ولكنها تنكرت لها فيما بعد ، باعتبارها حليفا غير مرغوب فيه (ك.ل) .

أنها ذات دلالة عظيمة لى ، وأنها زاخرة بالامكانيات الخلاقة · ولعلنى ما كنت أستطيع أن أحقق رسالتى بغير هذا الإنتقال الذى أرادته العناية الالهية ·

* * *

وخلال حياتى بالخارج ، رجعت أكثر من مرة الى مشكلات الشيوعية والثورة الروسية ، وكرست عدداً من الكتب والمقالات لهذه المشكلات · وكنت حريصا على اكتشاف معنى الأحداث الثورية التى اثرت ذلك التاثير البعيد على مصير روسيا ، ومصير العالم على السواء · وقد بذلت أقصى ما فى وسعى فى محاولتى لتقويم تلك الأحداث أن أسمو على الاعتبارات السياسية وما قد يؤيدها أو يعارضها من حجج ، وأن أتخلص تماما من كل تحيز أو مصلحة ، وألا أرى ما تنطوى عليه الشيوعية من زيف فحسب ، بل حقيقتها كذلك · وقد انسحبت بغريزتى من تلك الأمزجة السائدة بين المهاجرين الروس الذين أعماهم الحقد ، وأعمتهم الرغبة ، فى الثأر من الهزائم السالفة واستعادة مراكزهم المفقودة · فأذا كنت أعارض الشيوعية ، فما ذلك الا على أساس حرية الروح ، لا لأننى أرغب فى الابقاء على هذا النظام الاجتماعى أو السياسى ، أو ذاك · لقد عارضت الشيوعية لأننى أومن بألحرية وبالاستقلال النهائى للشخص الانسانى فى مواجهة النظم الاجتماعية والسياسية كافة · وقد تكون الحرية ما برحت مكبلة فى الواقع بآلاف القيود الى حكم الضرورة ، غير أن الشيوعية من حيث أنها تضع قانون ذلك الحكم وتتصرف تبعا لذلك ، فانها تعرض المبدأ الحى للحرية والشخصية للخطر · وليست – على اية حال – أعارض الشيوعية من حيث أنها تعالج المجال المحدد للتنظيم الاجتماعى والاقتصادى ، ومن حيث انها تقوم على التحليل العلمى لجوانب معينة من الحياة الإجتماعية ، بل أعتقد أن تنظيم الموارد المادية لمنفعة الجميع ، والغاء النزعة الفردية الاقتصادية ، لن ينقصا من وعى الناس بتلك الحقائق النهائية وقيم الوجود الانسانى التى تتعرض للخطر عن طريقة الشيوعية وما يناهض الشيوعية على السواء ، بل انهما سوف يزيدان من هذا الوعى ، وانى على استعداد لأن أنعت نفسى باننى اشتراكى ، غير أن اشتراكيتى شخصية ، وليست اشتراكية متسلطة ، فهى تستبعد ترجيح المجتمع على الشخص ، لأنها تنبثق من اعتراف بالقيمة العليا لكل كائن انسانى فردى صنع على صورة الله ، ومنح روحا حرا · فاذا كانت الماركسية فى لهفة على غايتها المزعومة لتحرير الانسانية من عبوديتها للاقتصاد ، فأنا اذن ماركسى · ولا أستطيع أن أقبل مطلقا أية احالة خارجية للضمير الشخصى ، أى تحويله الى ما هو جماعى · ذلك أن الضمير داخل الانسان ، وفى أعمق أعماق حريته حيث يدخل فى علاقة مع الله · أما « الضمير الجماعى » فهو نفسه تعبير أسطورى عن حالة يجتاز فيها الانسان عملية من التغرب الذاتى ، يفقد فيها مركز وجوده الحقيقى ·

وربما كان ذلك علة ما فى الشيوعية من طابع دينى ، لا لأنها ورثت فى الواقع كثيرا من الأفكار والتقاليد الدينية والمسيحية ، ولكن لأنها تملك خصائص نفسية معينة تصلح لأن تكون بديلا عن الدين • فلا مراء فى ان عبادة ما هو جماعى ظاهرة دينية ، أو نوع من الوثنية شبيه بالقومية والعنصرية والراسمالية ، وما شاكل ذلك • غير ان الشيوعية تبدو لى أمر لا سبيل الى دحضه باعتبارها نقدا وحكما على المجتمع الراسمالى البروليتارى بكل امتيازاته ومصالحه ، كما أننى أنظر الى جميع المحاولات التى ترمى الى تنفيذ الشيوعية وتقوم على اساس الافتراضات التى يبنى عليها ذلك المجتمع باعتبارها محاولات متهافتة غير مقنعة ، ولا غناء فيها •

وقد أنبأنى « ك » وهو احد الشيوعيين من اصحاب الثقافة والعلم (وهما صفتان غير شائعتين بين الشيوعيين حينذاك) ورئيس اكاديمية الفنون التى كنت عضوا فيها ـ أنبأنى فى حديث معى عقب نفيى بوقت قصير « انهم يأملون فى الكرملين ان يكون وجودى فى أوربا الغربية هاديا لى الى اى الجانبين تنتمى العدالة » او بعبارة اخرى ، حتى افهم زيف النظام الراسمالى ومظالمه • ولم يكن ذلك غائبا عن ذهنى مطلقا ، كما أننى لم احب العالم البورجوازى قط • وآرائى عن هذا الموضوع قد عبرت عنها فى كثير من كتاباتى ، وربما كان اقواها جميعا كتابى عن « معنى الفعل الخلاق » • ومن المرجح أننى قد أصبحت اكثر اشتراكية فى اوربا الغربية مما لو ظللت باقيا فى روسيا السوفيتية ، وان يكن مصدر اشتراكيتى روحيا فى المقام الاول ، اكثر من ان يكون سياسيا او اقتصاديا • فاذا كنت قد أعلنت عن ميولى الاشتراكية بصورة أكثر صراحة على وجه الأخص خلال حياتى فى المنفى ، فذلك راجع الى رد فعل مزدوج ، أولا: من حيث انه رد فعل ضد العالم الرأسمالى البورجوازى المحيط بى ، وثانيا : من حيث انه رد فعل ضد الميول السائدة بين المهاجرين الروس • واعترف بأن مثل هذا الرد فعل دليل فى ذاته على اعتماد نسبى على بيئتى • ومع ذلك اشك فى مسالة هل حققت آمال الكراملين تحقيقا كاملا ، لأننى ما زلت عدوا للنزعة الاستبدادية او الشمولية على اى صورة ظهرت ، فى روسيا او الغرب على السواء • اما بالنسبة للمهاجرين ، فيبدو أننى اصبحت شوكة دائمة فى جسدهم ، ولهذا يبذلون اقصى جهودهم للتشهير بى على اساس ميولى « البلشفية » المزعومة •

ولو كان لى ان الخص الدرس الذى تعلمته فى اثناء تلك الفترة من المحن والمصائب فى روسيا الثورية او روسيا بعد الثورة ، لقلت انها ملأت نفسى

بشعور مرير نحو أحكام التاريخ · ففى بعض العهود يسيطر على المسرح التاريخى أولئك الذين :

« ينادون بعيدا عن الصيحات والضحكات المتهانفة ، وعن الأيدى الملطخة بالدماء ،

« بعيدا صوب معسكر الخارجين على القانون ، الذين يناضلون فى سبيل الحب ويهلكون من أجله »(١) ·

ثم يدخلون التاريخ بوصفهم رجالا ونساء قد بذلوا أسمى التضحيات ، ونزلوا عن حياتهم فى سبيل قضية عظيمة · ثم تحين ساعة حظهم وتنتصر قضيتهم ، ويصبحون ظافرين ·· ولكن واأسفاه ، ما أسرع ما ينقلبون الى هؤلاء الذين يصيحون ويتهانفون ، والذين تلطخ الدماء أيديهم · وتأتى فى أعقابهم أجيال جديدة ، تدفعهم الرغبة الى الانضمام الى معسكر الخارجين على القانون · وهكذا تمضى ملهاة التاريخ فاجعة عودا على بدء دون انقطاع · ولا يتعالى على هذا السياق المحتوم ، ولا يتغلب عليه ، غير ملكوت الله ·

---

(١) ترجمة ب·ج· طومسون ، من قصيدة لنيقولاى نكراسوف Nicolai Nekrasov (ك·ل) ·

الفصـــل العاشـــر

روســـيا والغـــرب

غادرت جماعة المنفيين روسيا عام ١٩٢٢ ، واجتزنا « بطرسبورج » ، ثم ركبنا البحر حتى ميناء «شتيتين» ، ووصلنا برلين فى شهر اكتوبر · وكان عددنا خمسة وعشرين ، فاذا اضفنا الى ذلك افراد اســـرتنا ، بلغ عددنا حوالى خمسةوسبعين · ولمتحمل السفينة (وكان اسمها Oberbuergermesister Haken) فى الرحلة من بطرسبورج الى «شتيتين» غير جماعتنا فقط · وعندما تركنا المياه السوفيتية وراءنا ، راود الكثيرين شعور بالخروج عن منطقة الخطر · فلم يكن فينا من هو متأكد حتى ذلك الحين من أنهم لن يعيدونا مرة أخـرى فى اللحظة الأخيرة · وكانت حياة جديدة تتفتح امامنا · وأحسسنا بأننا احرار ، غير أن الاحساس بالحرية كان مشوبا عندى باحساس من الألم الشديد لهذا الفراق ــ الذى قد يكون بلا رجعة ــ عن وطنى الأصلى · وكانت الرحلة خــلال بحر البلطيق رائعة ، اذ كان البحر هادئا ناعما ، والشمس تطل علينا من سماء صافية لا سحاب فيها ، والليالى لطيفة مرصعة بالنجوم · وعند وصولنا الى برلين ، استقبلنا ممثلو الهيئــات الألمـــانية المتعددة فى حفاوة وعطف ، وقد ساعدتنا تلك الهيئات ايضا فى المسألة العملية الشاقة الا وهى ان نبدأ حياتنا فى بلاد أجنبية · ولم يحضر المهاجرون الروس لاستقبالنا ·

ولقد كنت دائما ــ شأنى فى ذلك شأن الكثيرين من الروس ــ « اوربيا » بصورة ما ، وكانت زياراتنا المتكررة للخارج من الأحداث العظمى بالنسبة لى ، منذ طفولتى · وعلى اية حال ، فقد احسست الآن ، فى اثناء مسيرى فى شوارع برلين ، بالتعارض بين عالمين ــ تعارض قدر على أن احملـــه فى نفسى طوال السنوات القادمة · لم اشعر بالشفقة على نفسى باعتبارى منفيا ، بل شعرت بالحنين الى روسيا · وكانت المانيا فى ذلك الحين بلادا تعيسة الى ابعد حدود التعس · وكانت برلين مكتظة بالجنود المشوهين ، و « المارك » يهبط بسرعة غير معقولة ، وعبارة « المانيا قد ضاعت » لا تبرح شفاه الألمان ابدا · وقد رأيت

شاهدته عديدا من المرات قبل ذلك ، وهو أن يكون الاوائل فى المؤخـــرة ، والأواخر فى المقدمة ٠

وكانت أول تجربة بغيضة لى فى ألمانيا ، اصطدامى بالمهاجرين ، وكانت الغالبية العظمى منهم تلقى بالشك المطلق ، بل وحتى بالعداء ٠ وشرع بعضهم ينشر شائعات مؤداها أننا وكلاء من البلاشفة المأجورين بعثت بهم الحكومة السوفيتية بغرض خفى ، هو القضاء على المهاجرين الروس والحط من معنوياتهم (وهى مهمة كان المهاجرون أنفسهم يقومون بها فى نجاح) ٠ وقد انعقد عقب وصولنا بقليل اجتماع بين عدد من المنفين وبعض البارزين من « المهاجرين » الذين ينتمون الى ما يعرف بالحركة البيضـــاء ٠ وكان على رأس هؤلاء « بيتر ســـتروف » الذى ارتبطت به فى الماضـــى (كنا قد فترقنا منذ زمن بعيد ، وباستثناء هذه المناسبة التى وقعت قبل وفاته تماما ، لم نلتق قط حتى فى المنفى) ٠ وكان الاجتماع فى شقتى ، وبدأ بروح من النية الحسنة الظاهرة ، ولكنه انفض فى عاصفة ٠ وقد حاولت أن أتمالك زمام نفسى فترة ما ، غير أن الاستفزاز كان قويا ، فاجتاحنى الغضب وطفقت أصيح (حتى لقد حضرت صـــاحبة المنزل نفسها وقالت انها سوف تستدعى البوليس) ٠ ذلك أن الخطط الخاصة بقلب البلشفية عن طريق التدخل العسكرى ٠٠٠ تلك الخطط التى أصبحت ضـــربا من أحلام اليقظة لدى المهاجرين ــ كانت تبدو لى أمرا بشعا ، أو بالأحـــرى مهزلة بشعة ، وأدركت أنه لا أمل هناك فى أن أتوقع منهم أدنى فهم للموقف الحقيقى ٠ ولم يكن عندى أى ايمان أو عطف على الحركة البيضاء ، اذ كانت تنتمى الى ماض لا رجعة له ، وكانت خارج الموضوع ، أو « مجرد جعجعة بلا طحن » ، ولكنها كانت فى بعض الأحيان شيئا ضارا ٠ أما من ناحيتى أنا ، فقد كنت أرى رأيا مختلفا تمام الاختلاف لانقاذ روسيا من أخطار البلشفية ، كنت أو من باصلاحها من الداخل عن طريق عملية أليمة من التطهير الباطنى ٠ وليس هذا بالعلاج الذى يبهر الناظرين ، ولكنه ليس أقل فاعلية لهذا السبب ٠ وكنت على وعى بأن روسيا فى تجربتها الثورية ، وعن طريقها العالم كله ــ على عتبة عهد تاريخى جديد ، وأنها نتيجة لهذه التجربة سوف ينتهى بها الأمر الى ادراك رسالتها الحقيقية ٠ وأعترف بأننى كنت أشعر بنفور غاضب من نمط « المهاجرين البيض » : فقد كان جمودهم وعنادهم وافتتانهم بأنفسهم أمـــرا مذهلا الى أقصى حد ٠ ولم تكن تخطر لهم قط امكانية الوقوع فى الخطأ ٠ ومهما يكن من أمر فان أكثر سماتهم دلالة وأشدها ايلاما ، هى عداؤهم الصريح للحرية ، وان كانوا يبتغون لأنفسهم أرحب مكان ممكن ٠ وكانوا فى الواقـــع لا يبالون أية مبالاة بالنقد الصائب الوحيد للبلشفية ، وهو النقد الذى يصدر عن الاعتراف بالقيمة العليا للحرية ٠ فما كان « المهاجرون » أكثر اعترافا بالحرية

من روسيا السوفييتية · وانتهيت الى هذه النتيجة وهى انهم يعانون من عقدة خوف ، فهم لا يفكون عن الحديث عن البلشـــفية دون أن يكونوا قادرين عن التفكير فى شىء آخر ، وهم يتوهمون وجود العملاء البلاشفة حيثما اتجهـوا بأنظارهم · كانت حالة اذن من حالات العقد النفســية المزمنة الحـادة التى سيطرت على المهاجرين حتى يومنا الحالى ·

وفى عام ١٩٢٢ ، اقترحت أن تعترف الدول الغربية رســميا بالاتحاد السوفييتى ، وأن تقيم معه العلاقات الدبلوماسية · وكان هذا ـ فى نظرى ـ يجعل من اليسير على روسيا أن تخرج من حالة العزلة ، وأن ترى نفسها فى منظور أرحب ، مما قد يخفف بدوره من الجوانب الأقل جاذبية من البلشفية ، ويلطف حدة الموقف العالمى · وأفزع هذا الاقتراح اشــد المهاجرين المنتمين الى الجناح اليسارى استنارة ، فاعتزمت نتيجة لهذه المعارضـة أن أتجنب الاتصال بدوائر المهاجرين ، وألا التقى الا بهؤلاء المنفيين القلائل الذين حضروا معى الى المانيا · ولم أبدأ فى الاختلاط بالدوائر الأوسع من الروس فى الخارج الا بعد انتقالى الى باريس ·

وما ان انقضت فترة قصيرة على وصولنا الى « برلين » حتى شرع بعض المنفيين فى تنفيذ سلسة من المشروعات الثقافية ، والفيت نفسى مرة أخرى مندمجا فى وجوه النشاط الاجتماعى · غير أننى كرست وقتا اكبر للدراسة والكتابة · ولما كان بيننا عدد من اساتذة الجامعة والعلماء ، فقد اقترح بعضهم تاسيس معهد تعليمى مستقل ، وتمخض هذا الاقتراح عن انشاء « معهد العلم » فى برلين ، وصرت عميدا لقسم من اقسام هذا المعهد · وكان ثمة تجـــاوب مباشر بين صفوف المهاجرين · واهتمت الحكومة الألمانية التى كان يتزعمها الديمقراطيون الاشـــتراكيون والمراكز الكاثوليكى جينذاك ، اهتماما ملحوظا بمشروعنا هذا ، وقدمت لنا المعونة بطرق متعددة فى ادارة المعهد · وقد اظهر الألمان لنا على وجه العموم تقديرا عظيما ، وكانوا يدعوننا باستمرار لحضور اجتماعاتهم الرسمية ، كما كانوا يقيمون حفلات الغداء تكريما لنا · وبهذا الصدد ، قابلت عددا من الوزراء الألمان الديموقراطيين الاشتراكيين الذين صدمنى غباؤهم ، وان كانوا ذوى نيات طيبة · وليس من الممكن مقـــارنة الاهتمام والانتباه اللذين ابداهما الألمان للمثقفين الروس بموقف الفرنسيين ، فبينما كان الألمان يظهرون اهتماما بالعالم الخارجى ، ويأملون فى ان يتعلموا من ذلك شيئا ، كان الفرنسيون محصورين فى عالمهم الثقافى الخاص دون أن يهتموا اقل اهتمام باى شىء آخر ، على الرغم من أن الألمان ذوو عقلية أكثر قومية وأشد عدوانية من الفرنسيين ·

وكان « معهد العلم » يقوم بعمل أكاديمى بحت ، ومع أننى بذلت أقصى جهدى للمساهمة فى هذا العمل ، الا آنه كان ضئيل الحظ من الجاذبية بالنسبة لى • وكنت أشعر بأن الأكاديمية الدينية الفلسفية الروسية التى انشئت فى برلين بايحاء منى ، وانتقلت بعد ذلك الى باريس ، كنت أشعر بأن هذه الأكاديمية أكثر الهاما لى • وكا ناسمها ملفتا للانظار نوعا ما ، ولكنه اختير لأننا لم نعثر على شىء أفضل منه ، ولأننا كنا نضع نصب أعيننا مواصلة التقليد الذى وضعته أكاديمية موسكو للعلم الأخلاقى والجمعيات الدينية الفلسفية •

وقد ساعدتنا جمعية الشبان المسيحيين مساعدة عظيمة فى انشاء الأكاديمية ، وكان ظهورها الى الوجود فى شقة سكرتير الجمعية فى برلين «بول اندرسون» ، وهو رجل مهذب غاية التهذيب يهتم اهتمام عميقا بالروس ويعطف عليهم • والحق أن العمل الثقافى بين الروس فى الخارج لم يكن ممكنا الا بفضل المساعدة النزيهة التى قدمتها تلك الجمعية ، وممثلاها « اندرسون » و « دونالد لادرى » ، وقد نشرت جمعية الشبان المسيحية أيضا كثيرا من مؤلفات الكتاب والمفكرين الروس ، وكانت معونتها ذات قيمة هائلة للثقافة الروسية ، وسوف تقدر هذه المعونة بلاشك داخل روسيا ، عندما تعود الأحوال الى مجراها الطبيعى • وكان من أوثق المتعاونين معى فى الأكاديمية الدينية الفلسفية الفيلسوف الروسى « سيمون فرانك » •

قدمنى « بول أندرسون » الى « جوستاف كولمان » ، وهو سويسرى كان فى ذلك الوقت سكرتيرا لجمعية الشبان المسيحيين ، ولكنه انضم فيما بعد الى سكرتارية عصبة الأمم • وقد دهشنا عندما التقينا فى « كولمان » بشخص يمثل الروح الغربية تماما ، ومع ذلك يشاطرنا تجربتنا الروحية والعقلية الخاصة ، ويستطيع أن يفهم اهتماماتنا ومشكلاتنا فهما صادقا ، فقد كان رجلا يتمتع بثقافة عميقة واتساع أفق عظيم ، مما جعله قادرا على أن يقوم بعمل هام فى المجالات الدينية والاجتماعية والسياسية على السواء •

وساعدت جمعية الشبان المسيحيين الامريكية على خلق « حركة الطلبة الروس المسيحية » (هذه التسمية عرضة لسوء الفهم ، اذ لم تكن هذه الحركة تتألف من الطلبة) • وكانت الأكاديمية الدينية الفلسفية ترتبط « بحركة الطلبة » ، وقد اشتركنا اشتراكا ايجابيا فى المؤتمر الأول للحركة الذى عقد فى « تشيروف » بتشيكوسلوفاكيا •

وعلى أية حال ، فان عمل الأكاديمية ، لم يلق فى صفوف المهاجرين

غير تجاوب ضئيل ، اذا غضضنا الطرف عن بعض الاستثناءات القليلة ، فقد أثبت الحاحها على فهم الأحداث والأفكار فى عالم ما بعد الحرب وما بعد الثورة ، وروحها التى تتطلع الى البحث الحر ، أثبتا أنهما مصدر استفزاز دائم لعقولهم المرجعية الوجلة • وكان مستوى الاهتمام العقلى ومستوى الثقافة بين الشبان منحطين نوعا ما ، فقد كانت الغالبية العظمى معنية بالوسائل والأساليب للقضاء على البلشفية ، أو بالحركة البيضاء ، او بالتقوى الشعائرية الخانقة • واحسست نتيجة لذلك برغبة متزايدة فى الخروج من هذه الدائرة المغلقة التى فيها يعيش المهاجرون ويفكرون ، وأن اقترب من رجال الغرب •

وتعرفت فى برلين بطائفة من المفكرين الألمان ، من بينهم « ماكس شيللر » الذى اعتدت مقابلته في بايس بعد ذلك ايضا • وقد قرأت مؤلفات « شيللر » باهتمام عظيم ، ووجدت كثيرا من أفكاره قريبة من أفكارى • وكان يبدو أننا فى كثير من المواضع نصل الى النتائج عينها ، وان كنا نبدأ بمقدمات مختلفة ، ونفكر باسلوب مختلف • بيد أن لقائى الأول مع « شيللر » كان مخيبا للأمل • اذ لم ألبث أن اكتشفت أنه لم يبتعد عن الكاثوليكية فحسب ، بل ابتعد أيضاً عن المسيحية • وكان لامعا فى حديثه ، ويكشف تفكيره عن خيال عقلى غنى • وكانت طريقته التلقائية اللطيفة التى تكاد تكون طفولية تسير جنبا الى جنب مع تمركز ذاتى مذهل ، وخال من الحياء الى حدما • ولم يكن من الممكن التعرض الى أى موضوع دون الارتداد الى شخصه ، والى كتبه ، والى دوره فى الحياة • وهو فى رأيى أعظم الفلاسفة الألمان المعاصرين حظا من المواهب والأصالة • ومع ذلك ، فقد شعرت بافتقاره الى أية فكرة سائدة متكاملة فى نظرته •

وفى هذا الوقت أيضا تعرفت بالكونت « كيسرلنج » ، وظللنا نلتقى ونتراسل دون انقطاع عدة أعوام • وقد كان سببا فى ظهور اول ترجمة المانية لكتاب من كتبى هو كتاب « معنى التاريخ » الذى كتب له مقدمة حافلة بالاطراء • ونادرا ما التقيت بمثل هذا الشخص المتعدد الجوانب والمواهب •• كان « اوربيا » قبل كل شىء ، أو مواطنا عالمياً ، قبل أن يكون المانيا • وكان يتكلم عدة لغات (ومنها الروسية) ، وعلى ألفة بثقافة كثير من البلاد • وكان أناس كثيرون يجدونه عسيرا ، ويخشون مقابلته • ومن الحق أنه كان مركزا حول نفسه بصورة لا سبيل الى تصديقها ، بيد أن هذا التمركز الذاتى كان يخلو من بساطة « شيللر » • وكان نرجسيا مستغرقا تمام الاستغراق فى انجازاته الخاصة ، ولست أدرى لماذا اهتم « كايسرلنج » بتفكيرى مع هذا الاستغراق الذاتى ، ومع الاختلافات الرئيسية فى كل من آرائنا وموقفنا من الحياة • ذلك أننى لم أستطع قط أن أوافق على نزعته الثنائية الصريحة لما نسماه بالمبادىء « الروحية » و « الأرضية » ، تلك الثنائية التى تكون فيها الأولوية للمبادىء

الأخيرة ، والتى تقوم على تحيز قوى مضاد للأخلاق · وأيا كان الأمر فان لا أخلاقيته ذات طابع هندوكى أكثر منه نيتشاوى ·

والتقيت « باشبنجلر » أيضا فى برلين ، وكنت أنتظر الكثير من هـذه المقابلة ، ولكنها أثبتت فى الواقع ، أنها مخيبة للأمل · وقد بدا لى « اشبنجلر » سواء فى مظهره أو فى عقليته ، انه بورجوازى ، وهذا بالتأكيد ما لا يمكن أن يقال عن « شيللر » أو « كيسرلنج » ·

وفى برلين ، بدأت العمل فى كتاب عن فلسفة الدين ، كما كتبت أيضا مقالا أصغر حجما بعنوان « العصور الوسطى الجديدة » · حاولت فيه أن أفسر بعض الاتجاهات السائدة والأحداث فى عصرنا · ولدهشتى ، نجح هذا الكتاب نجاحا عظيما ، اذ ترجم الى أربع عشرة لغة ، وكان موضوعا لمناقشات طويلة فى كثير من الأوساط · وكانت هذه المقالة مدخلا لى الى الدوائر العقلية الأوربية ، أما من ناحيتى ، فاننى لم أعلق عليها أهمية عظمى ، كما أنها لم تحتل بالتأكيد مكانا مركزيا فى تفكيرى ، كهذا الذى أفرده لها الأجانب · ولعل نجاحها راجع الى طابعها الحاضر الشاغل نسبيا للأذهان ·

وكان شتاء ١٩٢٣ ــ ١٩٢٤ ، وهو آخر شتاء قضيته فى المانيا ، شتاء قاسيا ، اذ ساءت الأحوال ، وكان الجو ينذر بشىء من الشؤم · وقد واصلنا جلساتنا الأسرية التقليدية فى شقتنا ، تلك الجلسات التى كان يشترك فيها كثير من الشبان الذين لم أشعر نحو بعضهم بأى ميل · ومن الطريف أن أذكر أنه لم تكن توجد فى ذلك الوقت أى قطيعة مطلقة بين المهاجرين الروس ، والروس السوفييت الذين يعيشون أو يقيمون فى الخارج (كان ذلك يصدق خاصة عن برلين) · وقد علقت أهمية عظمى على امكانية الاتصال بين هاتين الطائفتين ، وكنت أرحب دائما فى اجتماعاتنا بالمثقفين السوفييت ، كما أرحب بالمهاجرين السوفييت الذين يجشمون أنفسهم عناء الحضور ·

* * *

كانت السنتان اللتان قضيتهما من حيـاتى فى برلين افتتاحية لتجوالى الغربى ، وكانت المانيا حدا فاصلا بكل ما فى الكلمة من معنى بين الشرق الروسى والغرب الأوربى · ولم أشارك الغرب فى حياته مشاركة تامة الا فى باريس · لقد أتيت الى أوربا الغربية باعتبارى روسيا ، وبفضل هذا الاعتبار استطعت أن أحب أوربا ، وأن أجعلهـا وطنى · وانى لأشـعر بما يقوله « دوستويفسكى » عن الروس جميعا ، وهو أنهم قادرون على أن يكونوا أوربيين

على وجه الخصوص لأنهم روسين على وجه الخصوص • والنزعة العالمية صفة روسية خاصة • وقد أثنى على « كيسرلنج » فى احدى مقالاته لأننى أول مفكر روسى يمكن أن يوصف بأنه أوربى تماما ، وأول مفكر روسى يرى أن مصير أوربا هو أيضا مصيره • والحق ، أننى ربما كنت اقل شعورا بأننى أجنبى فى أوربا الغربية عن غيرى من الروس اليوم ، وأننى أشارك فى حياتها فى حرارة أشد • ولست على استعداد للموافقة على أن هذا راجع الى تلك الحقيقة وهى أننى قوبلت فى الغرب بتقدير أعظم مما قوبلت به بين مواطنى • ومع ذلك فانا اكثر روسية مما يعتقد أصدقائى الغربيون ، ومن المحتمل أن هذا هو علة ما سببته من سوء الفهم والتاويل فى اذهانهم • أما من حيث أننى كنت قادرا على الاسهام فى المناقشة الفلسفية والدينية فى الغرب ، فاننى انظر الى هذا الاسهام على أنه روسى فى المقام الأول • وقد أقبلت الى الغرب « بفكرة » روسية أصيلة ، وان لم يكن من اليسير على أن أحدد أين يقع فيها ذلك الطابع الروسى الخاص • ومن الأشياء التيجعلتنى اشعر شعورا حيا بالفارق الأساسى بين التناول الغربى والروسى لمشكلات الحياة ، الحاح الغربيين التطرف على مايسميه الألمان بالحضارة ، ومايسميه الفرنسيون بالمدنية • وقد أشرت الى ذلك بمناسبة الاجتماعات التى عقدت فى «بوتينى» ، تلك الاجتماعات التى سوف أعود اليها حالا • ويبدو لى أن الغربيين كلها واجهوا مشكلة من المشكلات، فانهم يميلون الى أن يتشاغلوا عنها ببحث مكانها فى التاريخ ، وتاثيرها على هذا الموقف أو ذاك ، وبالعناية بين « أين » و « كيف » أكثر من عنايتهم بـ « ماذا » • ومن ثم فانهم أميل الى التفكير والحديث « عن » شىء ما أكثر من رجوعهم الى الشىء نفسه • فتفكيرهم يستعبده ثقل التاريخ المفرط والتقليد الثقافى ، ويجعله عاجزا • ومن ناحية أخرى ، يرتد العقل الغربى من حيث قدرته على التخلص من هذا الثقل ، يرتد – كقاعدة – الى المذاهب الفكرية المجردة التى تتميز بالقطعية والموضوعية ، واستبعاد الاهتمام الشخصي ، والانطباع الذاتى• وفى النزعة التوماوية (نسبة الى القديس توما الأكوينى) شاهد على ذلك •

وقد سمعت الفرنسيين يرددون فى كثير من الأحيان أنهم يحتلون مرتبة عالية فى سلم التطور الحضارى ، فى الوقت الذى لم يبرح فيه الروس بعد مرحلة الطبيعة ، والهمجية • أما من ناحيتى انا ، فانى أومن بأولوية الهمجية (لا من الناحية الهمجية فحسب ، بل من الناحية المنطقية أيضا) • وفى الوقت نفسه فانه من واجب الروسى أكثر من أن يكون واجب الرجل الفرنسى أن يشير الى أن أرواح الطبيعة ومشاعرها فى روسيا لم يكبح جماحها أو تتم السيطرة عليها بواسطة قوة الانسان المتمدنة • ومن ثم كانت تلك الميول « الأولية »

المنطلقة المعروفة التى يتسم بها الرجل الروسى ، والتى تنعكس حتى فى المناظر الطبيعية الروسية ، فى الوقت الذى تضيع فيه فى أوربا الغربية المتوازنة المحددة الصياغة المتمدنة • ولعل ذلك يفسر أيضا السهولة النسبية التى يشتبك فيها الروس فى الحديث الاجتماعى (بينما لا يملكون أية مواهب فى التنظيم الاجتماعى) وفى الاتصال بالآخرين ، فهم أقل شعورا بما تفرضه العادة وقواعد المباراة الاجتماعية من حرج ، وطريقتهم فى الحياة أقل اعتمادا على تقاليد الأسرة والجو الأسرى والمعايير الأخلاقية •

وقد قال لى ذات مرة كاتب فرنسى معروف : ان الفرنسيين من بين شعوب الأرض جميعا أقلها ظهورا فى مجال العلاقات الانسانية (ويمكن أن يقال هذا أيضا عن الانجليز) ، وأن ذلك نتيجة للنزعة الفردية الفرنسية • وقال ان هناك شيئا بعيدا لا سبيل الى الاقتراب منه لدى الفرنسيين ، وأن مرحهم الخارجى لا ينفع الا فى تأكيد احساسهم بغربيتهم الأساسية • ولقد أدهشنى مدى الانعزال الذاتى السائد فى الثقافة الفرنسية ، وافتقار الفرنسيين الى الاهتمام بالثقافات الأخرى ، اذ يبدو لهم أن كل شىء وراء نهر الراين ، ما هو الا شطر من مجال الهمجية ، وخارج تراث المدنية اليونانية ــ الرومانية ، ولهذا فان الروس ــ على الرغم من ذلك الطلاء الخارجى من العادات الثقافية الفرنسية الذى اتخذوه منذ القرن الثامن عشر ــ لم يستطيعوا النفاذ الى منابع الثقافة الفرنسية • والفرنسيون يؤمنون بالطابع العالمى لمدنيتهم ، بل انهم أحيانا يذهب بهم الظن الى حد الشك فى وجود كثرة من الأنماط الثقافية • وقد كان هذا الموقف يبدو لى تحديدا لا سبيل الى احتماله ،على الرغم من أننى أنا نفسى معجب وعاشق كبير للثقافة الفرنسية •

وقد أوليت مشكلة روسيا والغرب نصيبا كبيرا من تفكيرى ، واكتشفت أن أفكارى عن هذا الموضوع تسير على خطوط مماثلة لتلك الخطوط التى وضعها فيلسوف التاريخ الألمانى « فروبينيوس » • ولكن ، بينما تنطبق تمييزاته على العلاقة بين ألمانيا من ناحية ، والبلاد اللاتينية وانجلترا من ناحية أخرى ، فاننى أميل الى تطبيقها على العلاقة بين روسيا والغرب ، بما فى ذلك أوربا الوسطى • ويعتقد « فروبينيوس » أن ألمانيا يتهددها خطر النزعة الغربية القادمة من الغرب ، وأنها بتمثلها لهذه النزعة العقلية التى تتمخض عن مدنية تسيطر عليها « التكنولوجيا » ، فانها سوف تستهلك طاقاتها الثقافية • غير أن هذا الرأى أكثر انطباقا على العلاقة بين روسيا والغرب بأسره • ذلك أن ألمانيا بالنسبة الينا ــ نحن الروس ــ لا تقل غربية عن فرنسا ، واننا نرى فى كليهما انتصار النزعة العقلية ، تماما كما تمثل روسيا الغرب فى نظر الهند

والصين • وهذه التمييزات تحمل كثيرا من الدلالة على شرط الا يكون فيها شيء ثابت طبيعي ، وشخصية شعب من الشعوب هي ما تصنعه تجربة ذلك الشعب ، لا ما تصنعه القوانين الطبيعية الثابتة ، كما يعتقد « اشبنجلر » •

فما هي اذن تلك « الفكرة » الروسية المميزة التي اتيت بها لألتقي بالغرب ؟ اعتقد انني حملت معي في المقام الأول احساسا أخرويا صريحا بالتاريخ ، وهو احساس فقده الناس تماما في الغـرب ـ المسيحيون وغير المسيحيين على السواء ـ وبدأ الآن فقط يستيقظ بينهم من جديد • وحملت افكاراً تولدت على النار الفاجعة التي اشعلتها الثورة الروسية وتجربة الشيوعية الروسية التي اثارت موضوعات كان العالم المسيحي يتوارى منها منذ عدة قرون ، كما احمل في نفسي وعيا بأزمة المسيحية التاريخية • وكان عقلي يمزقه صراع بين الشخصية والانسجام العالمي ، بين الفردي والعام ، بين الذاتي والموضوعي ، وهو صراع لم اتمكن من العثور على حل له داخل حدود التاريخ • كما انني لم اخف مطلقا « فوضويتي » وعدائي لكل تمجيد او تقديس للقـوة والدولة ـ ولا اعني بذلك الدولة الحديثة فحسب ـ الشيوعية وغير الشيوعية ـ بل الدولة كما فهمها الانسان منذ بدء المدنية • وقد رايت ان الضمان النهائي هو ان البشرية لن تنسى صورة الانسان ، وكرامة الانسان التي خلقها الله في ربوبية المسيح الانسانية • هذه الموضوعات تعبر عن موقف وجودي ، ولكنني تلقيتها باعتبارها تراثا من الفكر الروسي • ومع احساس مرير بالتاريخ ، قد يصل الى حد التشاؤم ، مازلت أتطلع على كل حال وانتظر عهداً خلاقا جديدا للمسيحية •

ولقد تعلمت الكثير من الفكر الغربي ـ وخاصة من الفلسفة الالمانية ـ في المراحل الأولى من تطوري الفلسفي ، وما برحت اتعلم الكثير في اعوام المنفى بأوربا الغربية •وكانت الموضوعات التي عنيت بها تدور وتتشكل تحت تأثير التقائي بالفكر الغربي ، على الرغم من رد الفعل العنيف الذي كنت اعانيه في بعض الأحيان ، ضد هذا الفكر •

* * *

وفي عام ١٩٢٤ بارحت « برلين » المنهزمة الى باريس الظافرة ، وكان مقدرا لي بعد ستة عشر عاما ان اعرف باريس المندحرة ايضا • وثمة اسباب كثيرة دفعتني للانتقال إلى فرنسا • ويأتي في بداية هذه الأسباب ان برلين قد تخلت عن مكانتها تدريجيا لباريس كمركز للحياة الروسية في الخارج • غير انني منذ رحيلي عن روسيا ، كنت أنوي الذهاب الى فرنسا التي كانت ترتبط

فى ذهنى بذكريات عديدة · وما كدت أصل الى باريس حتى بهرتنى روعة المدينة وثراؤها ولونها بالقياس الى برلين التى كانت تبدو عندما يرتد النظر اليها خالية تماما من الشخصية والأسلوب · بيد أننى كنت أشعر فى الوقت نفسه باحساس لا سبيل الى تفسيره عن « باريس » ، وكأنما توحى روعتها « بوليمة وسط الطاعون(١) » ، وبمصير مشئوم معلق فوق رأسها · وانتقلت الأكاديمية الدينية الفلسفية أيضا الى باريس ، حيث اتسع نطاق نشاطها ·

وشهد عام١٩٢٦ ظهورالمجلة الشهرية «بوت» (السبيل) لسان حال الفكرالدينى الفلسفى الروسى ، تلك المجلة التى ظللت آحررها حتى بداية الحرب العالمية الثانية ، وكانت تنشر تحت رعاية الأكاديمية ، غير أن فكرتها ترجع الى « جوستاف كولمان » الذى أدى كثيرا من الخدمات للروس ، وكان يشجع الجهود الثقافية والعقلية بينهم بكل الوسائل الممكنة · وكذلك كان دكتور « موت » صديقا مخلصا للارثوذكسية وللروس ، وكانت معونته وتعاطفه باعتباره رئيسا لجمعية الشبان المسيحيين ورابطة الطلبة المسيحيين ذواتى أثر هائل · وقد وحدت « بوت » بين كافة القوى العقلية التى يتيسر حشدها ، باستثناء تلك القوى التى لم تكن تخفى اشتغالها بالغوامض ولا رجعيتها ، ولم تكن تمثل مدرسة معينة من مدارس الفكر ، اذ لم تكن ثمة مدرسة قائمة ، بل كانت بالأحرى تمثل عددا من الروس المؤهلين بطريقة أو بأخرى لحل تقليد الفكر الفلسفى والدينى الروسى · وقد بذلت أقصى جهدى ـ باعتبارى رئيسا للتحرير ـ لكى أكون متسامحا تجاه الآراء والاتجاهات الفكرية المتعددة ، فكنت أقبل مقالات لا أتفق معها بتاتا فى الرأى · وأحيانا كانت صحيفة « بوت » تبدو لذوقى مملة نوعا ما ، فكنت أود لو كانت أكثر مشاكسة وعراكا · وكانت أشد المقالات سعيا وراء القتال تأتى من ناحيتى ، فكانت تثير استفزازا ملحوظا ، بل فضيحة بين « المهاجرين » · ومن هذا مثلا حملتى ضد أسقفية كارلوفتسى(٢) . وهجومى على تلك العناصر من المهاجرين التى قطعت علاقاتها بالكنيسة فى موسكو ، وعلى ادانة «المطران سرجى» لنظرية «الأب بولجاكوف» عن «صوفيا»، وعلى المعهد اللاهوتى فيما يتعلق بمسألة «جورجى فيوتوف»(٣) · وينبغى أن

---

(١) « وليمة وسط الطاعون » مأساة شعرية عن نظم « بوشكين » ، اقتبسها من رواية جون ويلسون « مدينة الطاعون » (ك.ل) .

(٢) فرع من فروع النظام التصاعدى من الكنيسة الأرثوذكسية يمثل الأقسام الرجعية المتطرفة من « المهاجرين » سواء من الناحية السياسية أو اللاهوتية (ك.ل) .

(٣) أستاذ من أساتذة المعهد اللهوتى نشر عددا من المقالات دفاعا عن أسبانيا الجمهورية (ك.ل) .

أذكر هنا أيضا مقالا لى نشرته دفاعا عن الكنيسة فى روسيا السوفيتية وظهر فى صحيفة « بوسلدنى نوفوستى »(١) ٠

وفى هذه المقالات جميعا ، وفى كثير غيرها من الاقوال شـــننت حربا من أجل الحرية ، حرية الروح ، وحرية الضمير ، وحرية الفكر ٠ ولم تفلت منى فرصة واحدة لمناهضة أولئك الذين يخدمون الروح ، وينتهكون حرمة الفكر والضمير ٠ ومن الأشياء ذات الدلالة ان تلك الاجراءات المتعسفة كانت تقترفها العناصر الرجعية الدينية والسياسية ، فكنت أحاربها فى مجلة « بوت » ، وفى الأكاديمية الدينية الفلسفية ، وفى حركة الطلبة المسيحيين ٠ ونجحت أخيرا فى تأليف جماعة صغيرة من العناصر الأكثر استنارة حول هذه الحركات وفى داخلها ٠ أما حينما لا أكون ناجحا ، او عندما تنتصر العناصر الرجعية ، فإننى كنت أقطع علاقاتى ، وأمضى فى طريقى الخاص ٠ وعلى الجملة ، فقد كان نجاحى هزيلا نوعا ما ، وسيطرت كل صنوف الرجعية ، من نزعة ظلاميـة وكهنوتية ، واستبدادية ، وعبودية ، وغيرها على الحياة بين المهاجرين ٠

وكلما انقضى الزمن ، صرت أشـــبه بالغول فى نظر المهاجرين ٠ ففى البداية وصفونى بأننى ناطق بلسان « التسامح » و « رحابة الأفق » ، وكان هذا الوصف مما يعتبره البعض من الخطايا المهلكة ، أما معناه بالنسبة للهوس السياسى الذى استبد بالمهاجرين فهو « التسامح » و « رحابة الأفق » ازاء البلشفية (كانت وجهة النظر هذه صادقة الى حد ما ، لأن الحقد العنيف لم يكن يسيطر على تجاه الثورة الروسية) ، وازاء بعض الحركات « اليسارية » التى كنت على اتصال بها فى أغلب الأحيان ٠ ولم يلبث الناس ان غيروا رأيهم فيما بعد ، وبدءوا يصفوننى بأننى غير متسامح بكل تأكيد ٠ وأعترف انه كان من العسير جدا فى الظروف السائدة على حياة المهاجرين ألا يعتنق المرء عقائد غاضبة وإلا يفقد المرء أعصابه ٠ وكان المهاجرون يعكسون كافة الظلال الموجودة فى النطاق السياسى المعروف فى أوربا الغربية ٠ ولم اكن قط على اتصال باليمين المتطـرف ، غير أن المعتدلين الأكثـر اسـتنارة (وهم الذين يؤلفون « الوسط اليسارى » اذا شئنا أن نستخدم المصطلح الشائع الذى تنقصه الدقة) ، وخاصة الجيل الأصغر بينهم ، كانوا يعتبروننى أساسا واحدا منهم ، وان لم أكن فى واقع الأمر شيئا من ذلك قط ٠ اذ كنت من الوجهتين العقلية والعاطفية « يساريا » و « ثوريا » ، وان تكن لمثل هذه التسميات بالنسبة الى مضامين روحية اكثر منها سياسية ٠ والواقع أن مصالحنا الخاصة وتحيزاتنا هى التى

---

(١) صحيفة روسية يومية كانت تصدر فى باريس قبل الحرب الأخيرة (ك.ل) ٠

تضع هذه التفرقة المضللة بين اليسار واليمين فى مكان التمييز الحقيقى بين الحق والباطل ·

* * *

والآن ، أحب أن أقول بضع كلمات عن حركة الطلبة الروس المسيحيين التى ارتبطت بها عدة أيام · اثبت هذا الارتباط أنه مصدر لخلافات أليمة أسهمت فى الاعتزال المتزايد بينى وبين « المهاجرين » · وقد وجدت هذه الحركة التى انضمت الى المنظمة الدولية المسماة بهذا الاسم ، على صورة جنين فى روسيا قبل الثورة ، ولكننى لم أكن على صلة بها حينذاك · فلما وصلت الى المانيا ، لم ألبث أن صرت مشاركا ايجابيا فى نواحى نشاطها المتعددة · ومنذ ذلك الحين ، ولعدة أعوام تالية ،كنت فى « مجلس الحركة » ، ومساهما فى مطبوعاتها ، ومشاركا ايجابيا فى مؤتمراتها واجتماعاتها · وكنت أحاول بهذه الجهود جميعا التعبير عن شىء من روح تقاليد الفكر الدينى الروسى ، وتعميق الاهتمام العقلى لدى الشبان المسيحيين الروس ، وتغذية اهتمامهم بالحرية ، وصرف انتباههم بعيدا عن المصالح الطائفية الى مضامين المسيحية الأكثر اتساعا · غير أن جهودى لم تؤت من الوجهة العملية أية ثمرة · والواقع أننى أصبحت مكروها تماما ، ومصدرا لهواجس دائمة · وظل ارتباطى بالحركة باقيا عن طريق سكرتيرها « فيودور بيانوف » الذى كنت أحله من نفسى مكانة عظيمة ، اذ كنت أثق فيه باعتباره واحدا من القلائل بين زعماء الحركة الذين يخلصون لعقائدهم · وكان يؤازرنى دائما فى كفاحى ضد الاتجاهات الرجعية المتفشية بين المهاجرين ·

وحان الوقت الذى صار فيه السبب الوحيد الذى من أجله يحتملنى أعضاء حركة الطلبة المسيحيين الروسية ــ على قدر ما أستطيع أن أرى ــ أو حتى يدفعهم الى مجاملتى ، هو فى الواقع « شهرتى » العامة ، وخاصة عند أولئك المسيحيين الغربيين الذين يؤيدون حركة الطلبة الروسية · بيد أنهم كانوا يعتبروننى أجنبيا غير متجانس معهم ، وكانوا ينظرون الى قبل كل شىء على أننى لست ارثوذكسيا صادقا ، بل « محدثا » و « مفكرا حرا » و « ضالا فى الدين » ، وكان هذا النفور متبادلا · وقد أدركت عقب انجذابى الى الحركة فى مراحلها الأولى ، وفى عديد من المناسبات الأخرى ، انه من الصعب على فى نهاية الأمر أن أكيف نفسى مع جو من العداء المتزايد للفكر المنطلق ، وللحرية ، وللخيال المبدع ، وللعدالة ، وباختصار لكل ما أقدره أعظم التقدير · وكلما أطلقت العنان لمعتقداتى الحقيقية كنت كمن يصرخ فى الخلاء · وما كنت أستطيع الشكوى ، فقد كان كثير من أعضاء الحركة البارزين قد تلقوا تعليمهم

الدينى على أيدى رجال الكنيسة من أمثال المطران « انطونى » ، والمطران « ثيوفان » اللذين كانا معقل كل نوع من أنواع الرجعية بين المهاجرين الروس فى صربيا ، وهناك حيث وجد كثير من المواطنين الروس أنفسهم نتيجة لانحدار الجيش الأبيض · أما أنا فكنت أعتبر هذين الرجلين من رجال الكنيسة صانعين للمصائب من الطراز الأول · وفى أحد المؤتمرات هاجمت أسقفية « كارلوفتسى» التى ينتميان اليها هجوما حادا ، مما أثار حينذاك استنكارا عنيفا · ومن ذلك الحين أطحت بما كان يحمله هؤلاء الناس لى من رأى طيب ضئيل · ولقد كانت الحياة الدينية ، حتى بالنسبة للاعضاء الأصليين فى حركة الطلبة المسيحيين الروسية ـ وبعضهم كان يدفعه اهتمام دينى صادق ـ كانت تلك الحياة من النمط المتمسك بالشعائر الدينية ، مما كان يبدو لى قيدا لا سبيل الى احتماله · أما هؤلاء الذين انضموا الى « الحركة » فما بعد ، فانهم لم يظهروا على كل حال أى اهتمام دينى حقيقى · وأخيرا اصطنعت تلك « الحركة » اساليب العناصر القومية والشبيهة بالفاشية · فانقطعت عن حضور المؤتمرات أو الاشتراك فى أعمال الجماعات والدوائر المتعددة ، وفى آخر الأمر قطعت علاقتى تماما بالحركة · وصار اسمى رمزا على العار ، وصكت عبارة جديدة هى « البرديائيفانية » (تحقيرا للنزعة البرديائفية) للاشارة الى ابغض مايمكن أن يفكر فيه « المهاجر » الروسى من أمور مثل : حب الحرية ، والهرطقة ، والنزعة المحدثة ، والبلشفية ، وما شاكل ذلك · وفى الوقت نفسه شرعت بعض جماعات الحركة فى اقامة « ايديولوجية » للدولة الارثوذكسية وصياغتها ، وهو نشاط كنت أعتبره بدورى جوهر الدنس ·

* * *

ولم يكن الفكر الروسى بين الجيل الأصغر من المهاجرين عقيما تمام العقم ، كما يمكن أن توحى بذلك شواهد حركة الطلبة المسيحيين الروسية · وقد خرجت أكثر المظاهر طرافة من جماعة من الشبان ذوى العقلية السياسية الذين أطلقوا على أنفسهم اسم « الأوراسيين » (نسبة الى أوراسيا أى أوربا وآسيا) ، والذين كانوا يمثلون عقلية « تالية على الثورة » ، وعرفت جماعات مماثلة تحت اسم Utverzhdentsy (١) واسم Mladorossy (٢) · وكنت معنيا أشد العناية بتلك الجماعات ، وكان لى بينهم عدد من الأصدقاء الشخصيين ،

---

(١) وهم الذين يؤكدون (utverzhadat') أو يقبلون الثورة باعتبارها مرحلة حتمية فى تطور روسيا التاريخى (ك·ل) ·

(٢) ومعناها « الشبان الروس » الذين حاولوا الجمع بين النظام الاجتماعى السوفييتى الذى انشىء عقب الثورة وبين الملكية (ك·ل) ·

وخاصة بين « الأوراسيين » ، فى الوقت الذى كانوا يسعون فيه الى تأييدى لهم ضد النشاط المعادى الموجه اليهم من صفوف « المهاجرين » القدامى . وكان ما يجعل هذه الجماعات تبدو لى ذات دلالة خاصة ، أنها كانت فى نظرتها واهتمامها متمشية مع الأحداث والاتجاهات داخل روسيا نفسها ، وأنها تعتقد أنه لابد لروسيا أن يعاد خلقها بالنسبة للتغيرات الروحية والاجتماعية والسياسية البعيدة التى أحدثتها الثورة . وكان ذلك يجتذبنى اجتذابا ملحوظا . وعلى الرغم من انكارى ممارسة مثل ذلك الدور من الزعامة لتلك الحركات كما يحلو لبعض الأوراسيين أن يدعوا ، فقد كنت على استعداد لتأييدهم الى حد ما . والواقع أن عددا من العوامل كان يحول بينى وبين تأييدهم قلبا وقالبا ، اذ كانوا هم أيضا يظهرون تقديرا ضئيلا للحرية . كما أننى لم أستطيع الزام نفسى بنزعة القومة « الآسيوية » المتطرفة ، وبتفسيرهم لروسيا باعتبارها عالما ثقافيا يقف بمعزل تام عن الغرب . ولم أكن سعيدا أيضا بطباعهم الكنسى الورع المقصود الذى كانوا يغرمون بوضعه فى معارضة « البحث عن الله » ، على ذلك الأساس الواهى وهو أنهم يريدون أن يستمدوا القوة من الدين بدلا من أن يتنازلوا له عن كل قواهم . كما كنت أتوجس شرا من الأهمية التى يعلقونها على الدولة ، ذلك أن عددا من الأوراسيين انقلبوا فى نهاية الأمر الى شيوعيين صرحاء . أما « المؤيدون » فكانوا أكثر حرية فى نظرتهم ، ولم تكن لديهم أية عقائد قطعية محددة . ولكنهم لم يظفروا على أية حال بذلك التأييد الواسع الذى ظفر به الـ Mladorossy مثلا . وهذه الطائفة الأخيرة لم تكن مقبولة عندى على الاطلاق بسبب الحاحهم الشديد على شرعية النظام الملكى . وادركت مرة بعد أخرى أنه على الرغم من استعدادى وقدرتى الجزئية على المشاركة فى حركات التاريخ المتقلبة ، وعلى تمثيل مشكلات عصرى ، فلابد أننى كنت دائما شخصية لا تلائم زمانها ، أو اذا استخدمت تعبير «نيتشه» مرة أخرى ـ شخصية لا معاصرة .

وكانت انطباعاتى بين المسيحيين الغربيين ـ من الكاثوليك والبروتستانت على السواء ـ شبيهة الى حد ما بانطباعاتى بين المسيحيين الروس ، اذ كان أولئك أيضا يبدون لى الى حد كبير فى قبضة رد فعل دينى ، وان يكن مستواهم العقلى والثقافى أعلى من الأرثوذكس الروس المهاجرين . وقد اتخذ رد الفعل هذا صورة « العودة » أو « الارتداد » الى كافة ضروب الأشياء ـ بحثا عن سلطة وتقليد ثابتين بين أمور الوجود الانسانى غير المحققة . وكان ذلك واضحا على وجه الخصوص بين أتباع التوماوية الجديدة والكالفينية الجديدة . وبالمثل كانت مشاغل الفكر الدينى الروسية غريبة ، وغير مفهومة لمعاصرى الروس ، وللمسيحيين الغربيين ، وأما فيما يختص بمعاصرى الروس ، فقد كنت على

وعى خاص بافتراقى عنهم فى فهم الانسان وتقدير التجربة التاريخية للنزعة الانسانية وللعصر الجديد عامة · ومع ذلك ، فقد التقيت بعدد من الأرواح المشابهة لى ، وخاصة بين الشبان الروس والغربيين على السواء ، ففى هؤلاء الشبان لمست ذلك القلق الروحى والعقلى الذى يعد علامة على موقف سليم من الحياة · وكانت هذه المقابلات بالنسبة لى مصدر قوة وسرور عظيمين .

* * *

ما كدت أصل الى باريس حتى كنت البادىء بتنظيم عدد من الاجتماعات الطائفية المشتركة بين الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت ، وذلك فى « الدار الروسية » بشارع «مونبارناس» · وربما كان من الأمور ذات الدلالة أن تلك الاجتماعات قد أتاحت لأول مرة ــ على قدر معلوماتى ــ فرصة الجمع بين الكاثوليك والبروتستانت الفرنسيين بغرض مناقشة المسائل الدينية كما ثبت أيضا أنها مناسبة للكاثوليك المحدثين وللتوماويين للاجتماع رغم ما بينهم من اختلافات كنسية · وقد قدمت الأرثوذكسية نقطة التقاء بين الطوائف المتعددة من الكنيسة المسيحية المنقسمة ، لأنها لا تعانى كبتا من وطأة الذكريات التاريخية التى تحول دون التفاهم المتبادل بين الكنائس الغربية المتعددة · وقد كانت الاجتماعات حية شائقة للغاية خلال السنة الأولى ، بل كان ثمة خطر من أن تصبح بدعة متفشية · وكان هناك شعور بأن أعضاء الطوائف المختلفة قد وضعوا وجها ازاء عوالم جديدة تماما ، عوالم مجهولة وان تكن قريبة ــ على غير انتظار ــ بعضها من البعض الآخر · وكنا نشعر جميعا بأننا ننشىء واحة مسيحية فى صحراء « اللادين » والعداء تجاه المسيحية ، ومع ذلك فقد كان الادعاء والتأكيد الذاتى الطائفى غائبين تماما · وقد اكتشفنا وحدتنا الأساسية فى المسيح ، كما اكتشفنا فى الوقت نفسه اختلافات تعلمنا كيف نحترمها ونفهمها · وكان أنشط المشتركين بين الكاثوليك : الأب « جيليه » الذى أصبح فيما بعد جنرالا فى الطائفة الدومينيكانية والأب « لابرتونيير » ، وهو من أصحاب النزعة المجددة البارزين ، وعلى الأخص « جاك ماريتان » الذى سأتحدث عنه باسهاب فى هذا الفصل · أما البروتستانت البارزون فكان منهم الراعى « بوجنر » رئيس الكنائس البروتستانتية فى فرنسا ، والبروفسور « ليسرر » وهو من أتباع « كلفن » الأرثوذكس (كان يبدو سواء فى مظهره أو عقيدته ، وكأنه قفز الى عصرنا قادما لتوه من القرن السادس عشر) و «ولفريد موتو » ممثل التقليد البروتستانتى الحر فى فرنسا ·

وكان دورى فى الاجتماعات محرجا لى نوعا ما ، فقد كان كل شخص يتحدث باعتباره ممثلا لمذهبه الخاص ، وبقوة ولائه لهيئة كنسية ، فكان الكاثوليك الرومان والبروتستانت يريدون اكتشاف طبيعة الأرثوذكسية ، وشخصية الفكر

الديني الذى ترعرع فى أرض أرثوذكسية • وكنت على وعى فى المقام الأول ـ بأنه لا يوجد ـ على خلاف الكاثوليكية الرومـانية والبروتسـتانتية ـ تقليد أرثوذكسي عقلى موحد يمكن أن يلجأ اليه أى أرثوذكسى • ولم يكن فى جانبنا غير مشترك واحد هو « الأب بولجاكوف »الذى يستطيع أن يتكلم باسم الكنيسة الأرثوذكسية ، بيد أن صوته كان صوت رجل لاهوت ، لا صوت فيلسوف ، وكانت السلطات الكنسية الأرثوذكسية تنظر الى لاهوتة نظرة ارتياب • أما تحرجى فكان يرجع الى موقفى الملتبس ، اذ لم أكن أستطيع أن أتحدث باسم أية هيئة رسمية ، كل ما أستطيعه هو أن أعبر عن معتقداتى الفردية الخاصة دون أن ادعى تمثيل أى شىء ، أو أى أحد ، اللهم الا نفسى • ولكن عندما بدأت هذه الاجتماعات الطائفية المشتركة ، اعتبر أصدقاؤنا غير الأرثوذكس موقفى موقفا أرثوذكسيا متميزا ، بل انهم اعتبروه صوت الأرثوذكسية ذاتها • وكان ســوء الفهم ذاك ، الذى كان يعــود مرة اثر أخرى فى غير ذلك من المناسبات ـ مزعجا الى حد ما ، وقد بذلت أقصى ما فى وسعى لتبديده •

واشتد سوء الفهم هذا ، وانتشر فى أوساط أخرى نتيجة لأنه تصادف أن أكون أول فيلسوف روسى مسيحى عرف فى الغرب ، وبدأ الناس يكونون رأيهم عن طبيعة الأرثوذكسية الروسية وفقا لأفكارى • فلدهشتى ، أصبحت ـ مثلا ـ نوعا من المفكر الأرثوذكسى الرسمى en titre بالنسبة للمسيحيين الأنجلو ـ سكسونيين ، والأنجليكانيين خاصة • وتضخم هذا الالتباس نتيجة لموقف المعهد الأرثوذكسى الروسى فى باريس ، اذ أنه لم يخف عداءه نحوى فيما يختص بأمورنا الكنسية والسياسية الداخلية • ولكنه ، لما كان حريصا على علاقاته الطيبة مع الانجليكانيين والبروتستانت الامريكيين فقد أعلن أننى واحد منهم • وعجلت هذه السياسة من المواربة والخداع ، وكذلك بعض الاعتبارات الأخرى بانفصالى النهائى عن المعهد ، ولم تعد تربطنى بهيئته أية صلة • وفهم أصدقائى من الكاثوليك الرومان أخيرا أنه لا ينبغى اعتبارى ناطقا باســم أية هيئة كنسية ، بل النظر الى على أننى فيلسوف مسيحى فردى • وفى نهاية الأمر اعترف الجميع بهرطقتى ، ونظروا نظرة تسامح الى انحرافاتى « الغنوصية » المزعومة نظير ما وصف باستفززاتى النافعة فى المجال الاجتماعى ، ونجاحى فى قراءة علامات العصر • وأعترف بأننى لست سعيدا كل السعادة بهذا الشكل المبتور لتفكيرى ، وان كنت سعيدا بأن الالتباس الخاص بموقفى الكنسى قد تبدد أخيرا •

وأخذت اجتماعاتنا الطائفية المشتركة تتضاءل بعد ثلاثة أعوام ، وانتهى بها الأمر الى أن تخلت عن مكانها لشكل جديد ربما كان أكثر جدوى ، من الاتصال

المشترك وكنا نعقد اجتماعاتنا الجديدة فى منزلنا « بكلامار » ، ولم تكن هذه الاجتماعات ممكنة الا بفضل معونة « جاك ماريتان » وتعاونه ٠

وكنت قد التقيت بماريتان بعد فترة قصيرة من وصولى الى باريس عام ١٩٢٥ ، عن طريق أرملة « ليون بلوا » ، وقد اهتممت اهتماما شديدا « بليون بلوا » عندما كنت لا أزال فى روسيا ، وقدمته الى الجمهور الروسى قبل وفاته سنة ١٩١٧ بأعوام قلائل ٠ وكانت « ليديا »(١) تقدره أيضا تقديرا عظيما ، وعن طريق مراسلاتها مع مدام بلوا (وهى امرأة عظيمة بطريقتها الخاصة كرست نفسها تكريسا حارا للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ولذكرى زوجها) ، استطعنا أن نلتقى « بماريتان » ٠ و « ماريتان » بروتستانتى انقلب كاثوليكيا رومانيا ، وكان « ليون بلوا » أباه الروحى ٠ وقد قرأت عدداً من مؤلفات « ماريتان » ، وفهمت أنه الممثل الرئيسى للتوماوية فى فرنسا ٠ كما سمعت أنه مارس نفوذا قويا على الشبان الكاثوليك الفرنسيين ٠ وجدير بالذكر أن «ماريتان » كان فيما مضى فوضويا وماديا ، فلما أصبح كاثوليكيا رومانيا دافع بحرارة عن مذهبه الكاثوليكى ، وذاع صيته باعتباره ناقدا قويا « للنزعة الحديثة » ٠ وقد كنت متحيزا ضد التوماوية والأرثوذكسية الكاثوليكية ، وضد أولئك الذين يحملون على أصحاب النزعة الحديثة ٠ ومع هذا كله ، فقد استولى « ماريتان » على قلبى فورا ، اذ كان فيه بالنسبة الى شىء جذاب لا سبيل الى مقاومته ، وهذا الشىء يتبدى حتى فى مظهره نفسه ٠ وحين كتب « ماريتان » عن خصوم الكاثوليكية الرومانية أو التوماوية كان فظا جارحا ٠ (كان تقويمه لخصائص «ديكارت» و «لوثر» و «روسو» فى كتابه «المصلحون الثلاثة» ، تقويما جائرا) ، ولكنه كان فى الواقع لطيفا كل اللطف ، مهذبا كريما متزنا فى عقله وشخصيته اتزانا عظيما ٠ ولم تلبث أن نمت بيننا أكثر العلاقات مودة ٠ وكنت أشعر نحوه بعاطفة عميقة ، وهذا شعور لم أجربه فى علاقتى بالآخرين ٠ ويبدو انه يغفر لى عقائدى المخالفة للدين ، التى لم يكن يوافق عليها بتاتا ، او يتغاضى عنها فى الآخرين ٠ ولعل ذلك راجع الى اننى قادم من عالم مختلف تماما ، لا يرتبط لديه بأية روابط مع المشكلات والخلافات الناشئة فى سياق فرنسى كاثوليكى خاص ٠ ولم يكن من الممكن أن نتفق عمليا على المسائل الفلسفية ، كان أرسطيا سواء فى طريقته أو فى مادة تفكيره ، وعلى الرغم من كل مؤهلاته وتحفظاته ، لم يكن يسعنى الا أن أعتبر فلسفته المسيحية بناء فلسفيا فوقيا يقوم على أساس من النزعة العقلية الأرسطية ٠ ولم يكن متأثرا بحال من الأحوال بمشكلات

---

(١) قرينة برديائف (ف.ك) ٠

واهتمامات الفلسفة الألمانية التى كانت بالنسبة اليه عاملا معاديا دخيلا • ولست أدعى اطلاقا بأنى فيلسوف أكاديمى ،ولكننى لا أعتقد أنه من الممكن تتفلسف على الاطلاق اذا لم يكن الانسانقد عاش مشكلات «كانت» و «هيجل» عاناها • و « ماريتان » فيلسوف مدرسى ، لا لأنه « توماوى » ، بل لأن مشكلات الثنائية الألمانية كانتبالنسبة اليه فى نهاية التحليل غير واقعية ، وخارجة عن الموضوع • ومع ذلك كانت علاقتنا مثمرة الى ابعد حد ، لأن « ماريتان » كان متصوفا قبل أن يكون فيلسوفا ، وكان الحديث معه عن موضوعات التصوف والروحانية منعشا بصورة غريبة • وهو يملك فضلا عن ذلك حسا مرهفا ، وتجاوبا مع الحركات الاجتماعية والثقافية فى عصره ، وان يكن من الغريب أن هذا التجاوب لم يؤثر فى فلسفته أدنى تأثير •

وعلى الرغم من التغيرات العديدة التى طرأت عليه خلال صداقتنا المتينة ، فقد ظل « ماريتان » « توماويا » دائما ، حريصا على تكييف « التوماوية » مع ظروف عصره المتغيرة بلا انقطاع • وليس من شك أن هذه المحاولات تذكرنا بالنزعة المحدثة • وكان « ماريتان » يمينيا من حيث الناحيتين السياسية والاجتماعية عندما التقيت به لأول مرة ، ولكنه تحول نتيجة لتطور طويل الى « اليسار » أكثر فاكثر ، بل لقد صار زعيما لبعض الحركات اليسارية فى الكاثوليكية الفرنسية • وعلى هذا النحو كان مصدرا دائما للحنق والحيرة بالنسبة لزملائه الدينيين المحافظين • والحق أن « ماريتان » ظاهرة نادرة ، فهو الفرنسى الذى لا توجد فيه أقل علامة على التحيز القومى • وكان يحاول الخروج من دائرة العادات الثقافية اللاتينية الضيقة ، وفتح الأبواب على العالم الخارجى ، وقد نجح فى ذلك نجاحا فريدا • وكان مولعا أشد الولع بالروس ، وفى طريقة حياته شىء مما يميز المثقف الروسى • وكان « آل ماريتان » يدعون كل من يجدون عنده ميلا لزيارتهم فى منزلهم • ويعقدون أحيانا اجتماعات ومناقشات خاصة ، بيد أن معظم المترددين على تلك الاجتماعات والمناقشات كانوا من « التوماويين » ، ولهذا كان المرء يحتاج الى قوة هضمية ، وقدرات أقوى على التنفس لكى يحتمل تلك الجرعات الخانقة من « المدرسية » التى كانت تصب فى تلك المناسبات • أما « ماريتان » نفسه فكان ساحرا كل السحر دائما وأبدا • لم يكن خطيبا أو مجادلا ، وانما كان فى كتابته أكثر اقناعا منه فى حديثه • أما بالنسبة الى ، فكان الأمر على خلاف ذلك ، اذ كنت أتجلى فى المناقشة ، وأبدو مكبوتا غير متماسك فى الكتابة •

وكلما تعاقبت الأعوام ، امست نزعة « ماريتان » التوماوية أخف صرامة ، وأقل تحيزا • وانى لأذكر كيف اعتاد أن يكون بغيضا غير متسامح فى

اجتماعاتنا الطائفية المشتركة المبكرة التى كنا نعقدها عند الأب « لابرتونيير » الذى قاسى كثيرا من الأرثوذكسية التوماوية وممثليها المتعصبين ، فلم يعد يحتمل « التوماوية » . والواقع أن « لابرتونيير » كان شهيدا لعقائده . وقد وجدت نفسى الى جانبه فى أغلب الأحيان فى اثناء مداولاتنا اكثر من أن اكون فى صف « ماريتان » . ومهما يكن من أمر فقد كانت نزعته المضادة « للتوماوية » أشد صرامة وتعصبا هى أيضا ، بل كان يرفض اعتبار « توما الأكوينى » مسيحيا . أما الأب الدومينيكانى « جيليه » فكان أبغض الجميع الى قلبى ، اذ كان سلوكه الشبيه بسلوك « توركمادا » ازاء « الأب لابرتونيير » مثيرا للتقزز .

وخلفت جماعة « مونبارناس » الطائفية المشتركة ، جماعة أخرى كانت تجتمع فى منزلنا ، كما ذكرت آنفا . وكانت هذه الجماعة أقل رسمية واهتماما بالمسائل ذات الصبغة اللاهوتية والكنيسة الخاصة ، اذ ركزنا انفسنا بدلا من ذلك على موضوعات التصوف والروحانية . وقد رحب « ماريتان » بفكرة هذه المناقشات ، وأخذ على عاتقه الترتيبات الخاصة بالعضوية الفرنسية ، ولكنه كان يعارض اشتراك البروتستانت لعدة أسباب . وقد ثبت منذ البداية أن هذه الاجتماعات ناجحة جدا ، فقد انضم الى الجماعة عدد من الأشخاص المهمين الذين لم يحضروا الاجتماعات الطائفية المشتركة السابقة . وكان من بينهم الكاتب « شارل دى بوس » (الذى أخفى تحوله الى الكاثوليكية ولم يصرح بها الا قبل بدء اجتماع جماعتنا بوقت قصير) و « جبرييل مارسل » ، و «ماسيدون» (الخبير المعروف بالتصوف الاسلامى) و «اتيين جيلسون» الذى كان زائرا من الحين الى الحين . وكانت الأحاديث تدور ـ على الرغم من الاختلافات ـ فى جو ودى للغاية . ولكن عندما أشرت ـ فى أحد ابحاثى عن التصوف ـ الى « يعقوب بيمه » ، و « انجلوس سيلزيوس » ، حدث مايشبه الهدير ، وقال قسيس كاثوليكى رومانى ـ وهو استاذبالمعهد الكاثوليكى ـ لزميله : « وهكذا تولد الهرطقة » ! وكان يبدو لى أننى أحرج « ماريتان » أحيانا ، اذ كانت بعض أقوالى امتحانا لشعوره نحوى .

وكانت مساهمة «دى بوس» ـ الذى كان يعتلى المنبر فى أغلب الأحيان ـ قيمة على وجه الخصوص من حيث انه كان يعالج مشكلات التصوف والروحانية فى سياق الأدب ، وسوف أتحدث عن هذا الرجل باطناب فيما بعد . وكان « جبرييل مارسل » أحد المتحولين الى مذهب الروم الكاثوليك ، وهو فيلسوف وكاتب مسرحى ، غير أن فلسفته كانت من طراز مختلف عن فلسفة « ماريتان » . وكان فى ذلك الحين الممثل البارز الوحيد للوجودية فى فرنسا .

وكانت أقواله الفلسفية لامعة ، ولكنه كان فى بحران اذا تعلق الأمر بمسائل اللاهوت والعرف المسيحى . ومن الأشخاص الآخرين الذين كانوا يأتون الى الاجتماعات الكونت « دى بارج » المكتئب ، و « فوميه » ، و « ديرمينهايم » و «مونتييه» الذى أصبح فيما بعد رئيسا لتحرير مجلة « الروح »، وبعض أعضاء الكنيسة . والواقع أن تلك الاجتماعات كانت تضم زهرة الكاثوليكية الفرنسية المعاصرة .

وانى لأحفظ لتلك الاجتماعات ذكريات لطيفة الى أبعد حد ، وقد حزنت عندما انفضت بعد ذلك بثلاثة أعوام ، اذ كانت تخاطب شيئا فى نفسى . ومع ذلك لم أكن أستطيع – حتى هنا أيضا – أن أتغلب على احساسى بالتباعد ، ضرب من القصور النهائى عن التعبير عن أعمق « أفكارى » مهما تطلعت الى ذلك وطولبت به . ويبدو لى كأنما يتناسب شعور « الغربة » مع شدة الارتباط بالآخرين ، أيا كان تشابه عقليتهم بعقليتى . أليس من الممكن أن يكون جوهر العلاقة الانسانة أمرا يقتضى صـــراعا لا مفر منه ، وبالتالى يقتضى الألم والمرارة ؟

والى جانب تلك الاجتماعات التى وصفتها لتوى ، والتى كانت مسألة غير رسمية ، اعتدت أن أحضر مؤتمرات كثيرة دولية ، رسمية وشبه رسمية ، وأن أتحدث فيها ، وعلى الأخص تلك المؤتمرات التى كان ينظمها اتحاد الطلبة المسيحى . وأعاننى ذلك على معرفة أساليب التفكير لدى مختلف الناس ، وعلى الاتصال بتفكيرهم . وخلال هذا النشاط ، زرت انجلترا ، والمانيا ، والنمسا ، وسويسرا ، وهولندا ، وبلجيكا ، والمجر ، وتشيكوسلوفاكيا ، وبولندا ، وبلادا لم تعد مما يراه المرء الآن على خريطة أوروبا . وكنت أجد السفر دائما مهمة عسيرة مزعجة ، فالقنصليات ، والقطارات ، والجمارك ، وفحص جوزات السفر كل ذلك كان يشرف بى الى حد المرض ، وان كنت لا أذكر أية حادثة سخيفة ملموسة فى هذا الصدد . ومع ذلك كانت كل رحلة بالنسبة الى تجربة منعشة مغذية ، وان تكن تجربة مرهقة نوعا ما . وقد يكون السفر الى الخارج نشاطا له دلالته فى حد ذاته ، وهذا ماتعبر عنه اللغة الروسية ، اذ أن معنى « الذهاب الى الخارج » هو « اجتياز الحدود » أو « التعالى » ، أو بمعنى آخر ، انتزاع الانسان لنفسه من الوجود اليومى .

وقد استقر فى ذهنى نتيجة لزياراتى المتعددة فى الخارج ، أن أوربا تتحول تدريجيا الى ضحية للقومية المتطرفة : اذ يبدو أن كل أمة أوربية قد استولت عليها فكرة عظمتها الخاصة ، ودلالتها العالمية الخطيرة فى الشئون الانسانية -

وحتى المجريين والاستونيين ، لم يكفوا ع ن الالحاح على رسالة المجر واستونيا البارزة المقصورة عليهما فقط • وكان هذا الميل الى التفاخر القومي والتمجيد الذاتي يسير جنبا الى جنبا الى جنب ـ كما هي العادة ـ مع كراهية الأمم الأخرى ، وخاصة الأمم المجاورة • وكانت أوربا في حالة من الاضطراب المريض ، فقد كان من الواضح أن صلح « فرساي » والسياسات التي أعقبته قد مهدت الطريق لكارثة جديدة • غير أن أسباب لوثة القومية أعمق من ذلك • اذ اتخذت النزعة القومية صورة العبادة الوثنية التي ضللت آراء الأمم • والنزعة القومية ، كشقيقتها التوأم الا وهي نزعة التمركز حول الذات ـ ليست لا أخلاقية فحسب ، بل انها بكل صراحة مضحكة هزلية • وكانت استجاباتي لهذه المظاهر مماثلة لاستجابات « فلاديمير سولوفييف » كما عبر عنها في مقاله القيم « المسألة القومية في روسيا » • وفي هذه المسألة ، وفي كثير غيرها من المسائل ، كنت أجد نفسي على طرفي نقيض من الغالبية العظمى من المهاجرين الذين لذ لهم أن يتملقوا أنفسهم تملقا قوميا ، ويدبروا الخطط لروسيا مجيدة •

وكان حبي الحار لروسيا وللشعب الروسي ينمو مع مضي الوقت ، ولكنه كان مرتبطا في ذهني وقلبي باحساس من العالمية ، ولم أكن أتصور الوطنية نوعا من التمجيد للاضطراب المزق الذي يعتري التطورات القومية • ومهما يكن من الأمر ، فان النزعة العالمية ، وكذلك كل تصور يبدأ بالمقطع inter (الطائفة المشتركة interconfessionalism تصور آخر من هذا النوع) لامعنى له عندي، ولا يشير الى أي مجال معلوم من مجالات الوجود • والنزعة العالمية تجريد يخلو من الوجود الحقيقي كما تخلو عبارة الطائفة المشتركة ، وكلتاهما ترفض الدرجات والمراحل المتعددة لعملية التفرد (التفريد) التي لا تنفصل عن الحياة • ولكنني كنت على استعداد للدفاع عن النزعة العالمية لمجرد الاحتجاج على النزعة القومية النامية التي تهدد أوربا بالدمار ، ذلك لأن النزعة العالمية ـ تعكس ولو بصورة مشوهة ، حقيقة النزعة الكلية • وأعتقد أن الجمعيات والهيئات القومية التي لا تحصى في يومنا هذا ، تمثل صورة غريبة مفارقة لخيانة فكرة الأممية حقيقية ـ أو نوعا من النزعة العالمية اليمينية • وان شئت الصراحة ، فأنا أمقت كلمة « الأجنبي » و « الغريب » بكل ما فيهما من نغمات عالية ومنخفضة ، ولا أستطيع أن أضع نفسي في موقف التمييز بين الكائنات البشرية تبعا لجنسيتها • وكل أجنبي مواطن لي • وقد أعطف كثيرا أو قليلا على هذا النمط القومي أو ذلك ، ولكن ينبغي الا يحدد هذا موقفي من الكائنات الانسانية الفردية • وقلما توجد صفات أشد مقتا من التضليل القومي والغرور والانحصار ، واني لأجد تلك الغرائز منفرة في الروس على وجه أخص •

وهذا ينطبق فوق كل شيء على النزعة المعادية للسامية ، وكل شكل آخر من أشكال التمييز العنصري ٠

ولكنى أحب أن أكرر أننى فى الوقت الذى أرفض فيه النزعة القومية ، فاننى أشعر شعورا عميقا « بروسيتى » ، بل وأكثر من هذا ، أومن برسالة الشعب الروسى العظيمة الكلية ، وان لم تكن تلك الرسالة مقصورة عليه فقط ٠ وأنا لست قوميا ، ولكننى وطنى روسى ٠ وقد وقفت أعواما طوالا أدافع عن الشرق الروسى ضد ادعاءات الرجل الأوربى بالتفوق الثقافى المطلق ٠ ولم يمنعنى هذا الموقف من ادراك أن البشرية الحديثة قد تشهد مواجهة وصراعا لا نظير لهما بين روسيا والغرب ٠ وكلما مضت الأعوام أخذت أنا نفسى أنظر الى روسيا من داخل الغرب ، وحملت فى نفسى هذين العالمين وبذور نزاعهما الممكن ٠ فالنزعة القومية العنيفة فى أوربا من ناحية ، والتجربة المدمرة لما احدثته الأحداث الحاضرة من تأثير شامل من ناحية أخرى ، يؤلفان تناقضا رئيسيا من متناقضات عصرنا ٠ ومن النادر أن التقى بأشخاص على وعى حقيقى ، وعلى سيطرة على حركات التاريخ الحديث ، اذ اتجه الناس ـ كقاعدة ـ الى الاذعان للغرائز القومية ، والى أن يتركوا فى النفس انطباعا بأنهم قد سحقوا سحقا تاما بنوع من الاقليمية العدوانية فى المكان ٠

والاقليمية الفرنسية ظاهرة عجيبة ، اذ يؤمن الفرنسيون بأنهم حملة المبادىء العالمية للمدنية التى هى فى نظرهم المدنية الاغريقية الرومانية ـ وحملة مبادىء النزعة الانسانية وحكم العقل ، والحرية والاخاء والمساواة ٠ وقد حدث حقا أن كانت فرنسا هى من حمل هذه المبادىء الى العالم ، بيد أن هذه المبادىء مقدرة للانسانية جمعاء ، وتستطيع سائر الشعوب أن تشترك فى هذه التجربة ٠ وأيا كان الأمر ، فان القومية الفرنسية ليست عدوانية ، ولا تلجأ الى العنف ، كما هى الحال بالنسبة للقومية الألمانية التى تصدر عن احساس بالدونية القومية أو بالـ geltungsbeduerfnis (الحاجة الى احترام الآخرين وتقديرهم) فالفرنسيون اذن ضحايا بدرجة أقل لكراهية الأجانب الجنونية ، وأقل حرصا على السيطرة على الآخرين ٠

عقد الأرثوذكس الروس فى باريس ، برئاسة أساتذة المعهد اللاهوتى ـ عددا من الاجتماعات السنوية مع الانجليكانيين فى المؤتمرات الأنجلو ـ ارثوذكسية بانجلترا ٠ وقد نظمت هذه المؤتمرات زمالة تهدف الى « التقارب » بين الأرثوذكس والأنجليكانيين ، وكان هؤلاء يمثلهم الأنجلو ـ كاثوليك بوجه خاص ٠ ونظرا لسيادة الطابع الكنسى والكهنوتى عليها ، فاننى لم أشترك

اشتراكا فعليا فى نشاط تلك الزمالة ، بل كنت اذهب من حين الى آخر لقراءة الأبحاث فى المؤتمر فقط · وقد بهرنى الأنجلو ـ كاثوليك بأنهم متنبهون لقضايا المجتمع الحديث انتباها حيا صادقا ، ويصدق ذلك بوجه أخص على جماعة « العالم المسيحى » التى كانت مساهمتها فى دراسة علم الاجتماع من وجهة النظر المسيحية قيمة للغاية · كان التجاوب الذى لقيته فى تلك الدوائر محصورا فى آرائى عن المسائل الاجتماعية ، ذلك لأن تلك الدوائر كانت من الناحيتين الفلسفية واللاهوتية على صلة أوثق كثيرا بالتوماوية ·

* * *

ولعل أكثر أشكال الاتصال بالفرنسيين طرافة ، أو بالدوائر الأجنبية ـ بوجه عام ـ التى اشتركت فيها ، اتصالى بجماعة «العقود» (هذه التسمية غير دقيقة ، لأن مقابلتنا لم تدم غير أسبوع واحد) ببونتنييه ، فهناك عرفت حقا الثقافة الفرنسية والحياة الفرنسية ، وكذلك لم أكن اقل تعرفا على موقف الرجل الفرنسى من الأجانب· وكانت «بونتنييه» ضيعة يملكها «دى جاردان» وهو من ابرز الفرنسيين فى زمانه ، وقد توفى عام ١٩٤٠ فى سن الثمانين · وكان المنزل الرئيسى فى « بونتنييه » ديرا قديما فى الأصل انشأه القديس « برنار » ، وظلت بضع حجرات تاريخية محتفظة بشكلها الأصلى التى كانت عليه فى القرن الثانى عشر ، مثل حجرة الطعام القوطية ، ومكتبة « دى جاردان » الواسعة · ولكن أضيفت على كل حال الى الدير القديم اضافات حديثة ، وفخمة نوعا ما جعلت الحياة فيه مريحة الى أقصى حد ، وفى كل عام كانت تعقد دورات ثلاث تستغرق كل منها عشرة أيام تجتمع فيها زهرة فرنسا الثقافية، كما كان يحضرها عدد كبير من المثقفين القادمين من الخارج : من الانجليز والألمان والايطاليين والأسبانيين والامريكيين والسويسريين والهولنديين واليابانيين · وكاد الا يكون حاضرا أى ألمانى فى الأعوام الاخرة نتيجة للموقف الدولى ، وان كنت قد اعتدت فى وقت ما أن ألتقى بـ « ماكس شيللر » ، وجورج كورتيوس » وآخرين الثانى لموضوع أدبى ، والثالث لموضوع اجتماعى وسياسى · وكنت أتردد عنى « بونتنييه» كثيرا ، وخاصة خلال الأعوام الأخيرة · وهناك تعرفت على «أندريه جيد» و «جورج فيليب» ، و «فرنانديز» ، و « جروتويسال » و «مارتن بوبر» ، و « بينالوتى » وغيرهم كثيرين · وكان الروسيان الوحيدان اللذان اعتادا الحضور هما « ديمترى سفياتوبولك ـ ميرسكى » (قبل عودته الى روسيا السوفيتية) وأنا ·.

وكان نطاق الموضوعات متسعا كل الاتساع حقا ، فقد كان يشمل : الرومانسية ، والتسامح ، والدولة الشمولية ، والزهد ، ووظيفة الكتاب

والمثقفين فى المجتمع الحديث ، والعزلة ، وهذه هى بعض الموضوعات التى اذكرها · وعلى الرغم من تعدد وجهات نظر المشتركين ، فقد كان للجو صبغة طبيعية ودية ، وكان المستوى العقلى للمناقشات عاليا جدا ، بل كانت تشيع فيه نغمة من الأناقة ترجع فى معظمها بلا شك الى حضور عدد من السيدات الجميلات الأنيقات فى كل جلسة · وكان الطعام وأنواع النبيذ ممتازين · وكنا نقضى الأمسيات عادة فى ممارسة بعض الالعاب او فى الاستماع الى الموسيقى الاوركسترالية أو الغناء · وفى بعض الاحيان كانت تنظم بعض الرحلات ، فيحملنا موكب من السيارات للتملى من مفاتن المنطقة الريفية المحيطة بنا · وكان الوسط كله نموذجا على البورجوازية الفرنسية المترفة المثقفة · ولم يمنع ذلك عددا من الشيوعيين ومن العاطفين على الشيوعية عن حضور اجتماعات «العقود» · أما من ناحيتى ، فلم يكن يسعنى الا الشعور بأننى طفيلى فى هذا العالم من الترف الروحى والمادى · وكان يبدو لى أحيانا أن قوى بركانية كانت تجيش تحت تلك القشرة الرقيقة ، وأنها على وشك الانفجار ، وتحطيم كل ذلك الطلاء من الأناقة والتصرفات المهذبة · ولقد مرت حياتى كلها فى عالم من الثورانات البركانية ، وكنت أعجب هل من الممكن حقا التوفيق بطريقة مرضية بين هذين العالمين · كما صدمنى أيضا اتجاه تحدثت عنه فيما سبق ، هو الانزلاق بنوع من «البدعة» الأدبية أو الجدلية اللامعة حول كلا مايمكن أن يسمى مشكلة حقيقية · وعندما كانت احدى المشكلات من الأهمية بحيث لايمكن تجنبها ، فقد كانت تقدم فى صورة مهضومة مقدما تمام الهضم بالقياس الى ذوقى الروسى · ومع ذلك فقد كنت بكل صراحة منجذبا الى هذا العالم ·

وكانت مضيفتنا « مدام دى جاردان» امرأة ذكية لطيفة ، ذات مظهر رجولى الى حد ما ، كما كانت صريحة مجاهرة برأيها · وكان «دى جادران» نفسه شخصية جديرة بالتصوير · كان بعض الناس يعتقدون أنه يشبه فلاحا روسيا ، أما أنا فكنت أعتقد انه اشبه بأريستارخوس(١) فرنسى · وكان مجلا على ثقافة عظيمة ، وعالما هلينيا ، ومحدثاً رائعا ، وكانت طريقته فى النقاش رقيقة ، بل رشيقة · وقد فعل الكثير لاقامة السلام فى أوربا ، وللتقريب بين المثقفين من كل البلاد ، ولتقدم القيم الروحية من حرية وتسامح · ومع ذلك فقد كان بطبيعته نافد الصبر بالنسبة للآراء المعارضة لآرائه ، كما كان هو نفسه أول من يعترف بذلك ، وان كانت له طريقة تدعو الى الاعجاب فى كتمان انفعاله · وكان قلب «سونتنييه» وروحها، الى جانب كونه أكرم مضيف فيها · وعلى الرغم من ملكاته العقلية الممتازة ، وتضلعه العظيم ، فانه كان مقلا غاية الاقلال

---

(١) ناقد يونانى اشتهر بالشدة والتدقيق العادلين فى نقده (ف.ك)

فى الكتابة ، ومن الواضح أن رسالته الحقيقية كانت فى عالم العمل الثقافى والاجتماعى ، وكانت « العقود » شاهدا على نجاحه الفريد فى هذا المجال • كما كان يراسل المثقفين فى جميع أنحاء العالم على نطاق واسع (كان ليو تولستوى واحدا ممن يراسلهم) • والى جانب « العقود » فى « بونتنييه » كان مسئولا أيضا عن « الاتحاد من أجل الحقيقة » •

وانى لاذكر سلسلة من المناقشات الفلسفية العنيفة ـ وان تكن ودية ـ دارت فى « بونتنييه » بينى وبين « ليون برونشفك » ، الذى كان الفيلسوف الفرنسى البارز فى « العقود » • وكان « برونشفك » نمطا يمثل وجهة النظر الفلسفية التى تعرض فى تلك المناسبات • ولم يكن هناك غير عدد قليل نسبيا ممن يمثلون الموقف الكاثوليكى ، وكانت النغمة السائدة هى « المثالية الثقافية » • وكان « برنار جروتويسان » ، وهو من أصل نصفه هولندى ونصفه الآخر روسى، وكان يعمل مسجلا بجامعة برلين، وقضى شطرا كبيرا من حياته فى باريس، ـ كان يمثل نوعا من النزعة الشيكة المستنيرة • ولما كان رجلا شديد الذكاء ، وعلى معرفة واسعة ، فقد كان من بواعث النشاط الجم أن يتحادث المرء معه ، وان تكن مساهمته فى المناقشة تحليلية صرفة ، هذا اذا لم نشأ أن نصفها بأنها تعمل على التفكيك • أما «فرنانديز» ـ وهو رجل متعدد المواهب ، اذ كان ناقدا أدبيا محترفا ، وممثلا ورياضيا صارما ••• ـ فكان يقود المناقشات فى أغلب الأحيان ، وكان شخصا حاضر البديهة ، ولكنه على الجملة كان أشد اقناعا فى توجيهه للمباريات فى المساء منه فى اجتماعات النهار • ومن المعروف عنه انه كان فى وقت من الأوقات قريبا من الشيوعية ، ولكنه انتقل عقب ذلك الى الطرف المضاد • وكان هناك آخرون ممن يعطفون على الشيوعية ـ كما ذكرت آنفا ـ وهذا أمر شائع بين المثقفين الذين كانوا يغشون الصالونات حينذاك ، بيد أن أشخاصا قلائل كانوا يأخذون ذلك مأخذ الجد ، ومن بين هؤلاء لسوء الحظ أولئك الذين كانوا يتجهون ذلك الاتجاه •

وقد ظل «شارل دى بوس» الزعيم فى «بونتنييه» زمنا طويلا ، حتى منعه المرض عن هذه الزعامة • وكنت قد التقيت به عام ١٩٢٤ مع بعض الفرنسيين الآخرين ، عن طريق « ليو شستوف » ، وأصبحنا بعد ذلك صديقين حميمين • وكان « دى بوس » رجلا أصيلا ، يختلف كل الاختلاف عن النمط العادى من الفرنسيين • ولم يكن ينتمى الى عصرنا ، بل كان رومانسيا من الطراز السائد فى أوائل القرن الثامن عشر • ومن احدى صفاته البارزة خياله العنيف النشط• وكانت الصداقة بالنسبة اليه موضوع عبادة رومانسيا ، ولهذا كان له ـ بلا مبالغة ـ مئات من الأصـــدقاء الحميمين المقربين • فاذا تعلق الأمر باهداء

أصدقائه نسخا من كتبه تحمل توقيعه ، بلغ عدد النسخ المائتين عدا • وكان متعمقا، لا فى ثقافة فرنسا وحدها ، بل فى ثقافة انجلترا والمانيا ، وكان أستاذا كاملا فى اللغتين الانجليزية والألمانية • ولم ألتق الا نادرا بشخص له مثل هذه الروح النبيلة المخلصة • ولكنه كان « جمالياً » قبل كل شىء آخر ، ولم يكن يتحدث الا عن أدباء الدرجة الأولى فقط • وكانت أحكامه ومواقفه كلها من الحياة تحدوها جميعها معايير الأدب والفن ، وتتمثل له المشكلات كلها من جانبها الأدبى • ولم يكن يسعنى الا أن أعتبر ذلك دليلا على الانحلال الثقافى الذى كان منتشرا على هذه الصورة فى فرنسا ، ولم يكن مقصورا بحال من الأحوال على « دى بوس » ، وان يكن « دى بوس » نموذجا واضحـــا عليه • وقد يتحدث الشبان الفرنسيون عن الأزمات التى اجتازوها ، وهم يعنون بذلك عامة أنهم انتقلوا من جماعة أدبية الى أخرى ، من « بروست » و « جيد » الى « باريس » و « كلودل » مثلا • وروسيا دولة تملك أدبا عظيما حيث يعد الأدب فيها — فضلا عن ذلك — القناة الوحيدة للحركات الثقافية وميدان القتال فى السياسة فى معظم الأحيان ، ولكننا لم نعرف قط مثل هذا الميل لتضييق نطاق الحياة على الأدب وحده• وكان «دىبوس» يتمتع ببصيرة عجيبة ، وله فى بعض الأحيان ملاحظات تتصف بدقة وتمييز مدهشين ، ولكنى لم أستطع قط الكشف عما يرمى اليه حقيقة ، أو ما هو اهتمامه الرئيسى وأفكاره الرئيسية • ويبدو أنه أنفق حياته على عبادة عباقرة المدنية الانسانية • ولكن هل زوده ذلك بمصـــادر لمواجهة قضايا عصرنا المنكوب ؟

قابلت « أندريه جيد » قبل « بونتنييه » ، وعقب مقالى عن الشيوعية ظهر فى العدد الأول من مجلة « الروح » • وقرأ « جيد » المقال ، وكان حينذاك ميالا الى الشيوعية ، فطلب مقابلتى • وبالتالى دار حديثنا فى معظمه عـــن الشيوعية الروسية ، وعن العلاقة بين الشيوعية والمسيحية • وتأثرت بطريقة « جيد » المخلصة الصريحة فى معالجة تلك المشكلات • وكـــان — كغيره من المثقفين الفرنسيين الآخرين — يقاوم تأثير البيئة البورجوازية الرأسمالية التى يعيش فيها • ومن الجلى أنه كان تشوف الى تغيير رئيسى ، والى تجديد فى حياة الانسان الحديث • ولم يكن دارسا للمشكلات الاجتماعية ، ويبدو أنه لا يعرف سوى القليل عن الأدب الشيوعى ، ولا داعى لذكر التطبيق الشيوعى • وأخشى أننى كنت — خلال حديثنا — عدوانيا الى حد ما فى نقدى لشـــيوعية « المقعد الوثير » • وقد بدا لى « جيد » شخصيا باعتباره رجـــلا خجولا الى أقصى حد ، هادئا مرهف الحس ، لا يعرف الفضـــول • وكان خجله يتبدى خاصة فى الاجتماعات الكبيرة مثل اجتمـــاعـــات « بونتنييه » ، حيث كـــانت مساهمته تتألف فى معظمها من ملاحظات قلائل لا مبالاة فيها • وقد قـــرأت

« جيد » فى نهم ، فأحسست انه كاتب تبع اتجاهه الداخلى فى حماسة وتدبر - لا بتلك النزعة اليسيرة الى اللذة ، بل بعد أن اجتاز مصاعب وأخطارا . وتبينت فيه قلقا دينيا وأخلاقيا عظيما ، وبحثا عن مسيحية مصفاة . ولكن يبدو أن حاجته الى التبرير الذاتى كانت تحتل مكانا كبيرا غير متناسب فى موقفه من الحياة . كان من المتطهرين قبل كل شىء ، ويريد أن يستمتع بالحياة . ولا يستطيع أن يفعل ذلك دون أن يشعر بوخز الضمير . و « يومياته » تعد وثيقة انسانية قيمة فى كثير من النواحى ، ومع ذلك فان فيها شيئا كثيبا موحشا . وقد كافح « جيد » طيلة حياته بلا جدوى للتغلب على الخميرة البروتستانتية الكامنة فى نفسه ، وهو يحارب لتخطى تلك العقبات التى تعترض طريقه الى الحياة المليئة الرحبة فى هذا العالم ، اما أنا فلا اشتهى شيئا أكثر من تخطى العقبات التى تعوق تحررى من هذا العالم للانطلاق الى حرية عالم آخر .

وفى مناسبة أخرى ، سنحت لى فرصة التعرف على « ليون بلوم » . والسياسيون - وحتى الكامهم جميعا - قلما يظهرون اية علامات على الثقافة والذكاء ، والأمانة والانسانية . اما « ليون بلوم » فقد ترك فى نفسى انطباعا بأنه يمتلك هذه الصفات جميعا . والحق انه أجدر السياسيين الفرنسيين طرا بالتقدير . وقد عطفت أشد العطف على اصلاحاته الاجتماعية وسياسته خلال مرحلة « الجبهة الشعبية » . ومع ذلك لم يكن يبدو انه يملك ارادة قوية عظيمة ، ولم يكن يؤثر فى المرء باعتباره سياسيا عظيما .

والى جانب هؤلاء الذين كانوا يحضرون « العقود » فى « بونتنييه » ، تعرفت على جماعة أخرى أشرت اليها فيما سبق ، وأعنى بها جماعة « الاتحاد من أجل الحقيقة » . وكانت الجماعتان تختلطان الى حدما . اما هذه الجماعةفكانت تجتمع فى باريس كل أسبوع ، وكنت فى وقت من الأوقات زائرا دائما لاجتماعتها . وكان أعضاؤها يعكفون عادة على مناقشة كتاب ظهر حديثا ، وينصب اهتمامهم الرئيسى على فلسفة الحضارة ، أو السياسة ، أو موضوعات مشتركة من هنا وهناك . وفى هذه المناسبات كان يدعى المختصون فى تلك الموضوعات ، وكذلك مؤلفو الكتب المطروحة للمناقشة . وكان هؤلاء المؤلفون هم الذين يقدمون للمناقشة . وقد انضمت الى هذه الجماعة لأول مرة ، عندما دعيت لتقديم كتابى « مصير الانسان » . وكان « الاتحاد من أجل الحقيقة » - كما يدل على ذلك اسمه - معنيا « بالبحث الحر عن الحقيقة » . وكانت لهذه الجماعة نزعة يسارية واضحة ، اذ تلوى مشكلات الشيوعية طاغية على المناقشات ، ويشترك الشيوعيون أو أشباه الشيوعيين من أمثال « نيزان » (الذى ترك الحزب

الشيوعى فيما بعد) و « مالرو » (الذى تنكر هو أيضا لميوله الشيوعية) و « ج٠ب٠ بلوك » ، وكثيرون غيرهم فى تلك الاجتماعات ٠ وكانت الحجرة التى تعقد فيها الاجتماعات تغص بالناس حتى يكاد يكون من المحال على المرء أن يتنفس ٠

وعلى الرغم من الطابع الجدلى لمغظم الموضوعات ، فقد كان ثمة جو من التلطف والمجاملة ، فلم يفقد أحد أعصابه قط ، كما لم يكن التحدى المكشوف يلقى أى تشجيع ٠ وأحيانا كانت المناقشة تنقلب الى مجرد استجواب موجه الى المختصين ٠ وكنت فى حيرة من أمرى ، أحاول أن أرى اذا كان من الممكن أن يصل المرء الى الحقيقة باستخدام مثل هذه الوسائل فى البحث ٠ كان الجو كله شاهدا على نزعة عقلية هادئة ، لا على نزعة عقلية منطلقة ضارية كما كانت فى الماضى ٠ والحق أن النزعة العقلية الماضية كانت أى شىء اللهم الا أن تكون هادئة على الرغم من ادعائها التفكير النزيه ، اذ كان مولدها عن عاطفة عظيمة شديدة ٠٠ بيد أن هذه العاطفة قد استهلكت نفسها ٠ فهنا كانت المسائل ذات الأهمية الحيوية لبقاء البشرية ، تناقش بطريقة توحى بأنه لا علاقة لها فى الواقع بالصراع الحقيقى فى الحياة ، وكانت المتفجرات تقدم كأنها ورقة شجر ذاوية ، ولا تلوح علامة خافتة من علامات الخوف الا مصادفة ، الخوف من الحرب ، من الثورة من رد الفعل ، ولكنه كان خوفا عاجزا لا يفيد الا فى اثبات الجبن الفطرى الذى تتصف به ضحاياه ٠

وفى فرنسا ـ حيث تعتبر الحياة العقلية عادة محكا للحركة السياسية ـ كان المثقفون فى الواقع منقطعين عن السياسة التى كانت مجالا مقصورا على النواب ، ووزراء الحكومة ، وبعض السيدات خلف الكواليس ٠ وقلما كان يأتى بعض النواب مثلا الى « بونتنييه » أو إلى الاجتماعات التى يعقدها «الاتحاد من أجل الحقيقة» ٠ أما المثقفون الذين كانوا يناقشون مسائل تؤثر على المصير السياسى لبلادهم ، فقد تركوا لينضجوا فى عصيرهم الخاص ، بينما ألف السياسيون المحترفون ـ مع استثناءات نادرة ـ دائرة مغلقة خاصة بهم ، وقد استغرقوا تماما فى لعبة السياسة ، بعيدا عن الحياة الثقافية ، وحياة الناس العاديين على السواء ٠

وقد انتهى الأمر بهذا البناء كله الى نهاية منكوبة يستحقها : والواقع أنه لم يكن من الممكن أن يستمر فى شكله القديم ، اذ أبدت النماذج والعادات القديمة للثقافة الفرنسية ، وللسياسة الفرنسية أيضا ـ نذرا لا يخطئها المرء على الانحلال ٠ ومع ذلك ، وعلى الرغم من النزعة الشكية ، والافتقار الى الغرض ، وعدم الاكتراث بالحق ، فقد كانت ثمة وحدة كامنة فى الفكر

الفرنسى ، اذ كان الناس جميعا يؤمنون بتفوق العقل،وكان الجميع «انسانيين» يدافعون عن المبادىء الكلية الديمقراطية المستمدة من الثورة الفرنسية . أما الفكر الالمانى أو الروسى، فكان ينظر اليه عامة على أنه «همجية شرقية» ، وعلى أنه مظلم لا عقلى ، ملىء بالأخطار بالنسبة لمستقبل المدنية . ولم يكن ثمة أحد يقبل صحة أى نمط من أنماط الثقافة غير النمط الفرنسى ، فلا عجب اذن أن أحسست بنفسى « دخيلا » على «الاتحاد من أجل الحقيقة » كما داخلنى هذا الاحساس نفسه فى « بونتنييه » .. « دخيلا » قادما من عالم آخر ، وان لم يكن احساسى بذلك فى هذه المرة أقل ان لم يكن اكثر ، على الرغم من أننى قد تمثلت طرق التفكير الفرنسية أكثر من أى روسى آخر . وأخيرا ، نفد اهتمامى باجتماعات « الاتحاد من أجل الحقيقة » نفسه ، ولكنى تعلمت الكثير من هذه الاجتماعات .

***

وأتيحت لى الفرصة الثانية للاتصال بالفرنسيين عن طريق الجماعة المرتبطة بمجلة « الروح » ذات النزعة الشخصية ، وعن طريق الاجتماعات الفلسفية التى كان « جبرييل مارسل » يعقدها فى منزله . وكانت تلك الاتصالات ذات قيمة عظمى لى ، وعن طريقها التقيت باشخاص أمت اليهم بصلة كبيرة . وقد كنت حاضرا الاجتماع الذى أنشئت فيه مجلة « الروح » . حدث ذلك فى منزل « اى » وهو كاثوليكى من الجناح اليسارى ، وأصبح فيما بعد نائبا ، وعضوا بالحرب الاشتراكى . ويدين المشروع بتنفيذه الى جماعة من الشبان ، ووردت المساهمات الى « المجلة » - أو على الأقل فى مراحلها البدائية - من الشبان والشابات . وقد تأثرت أعظم التأثير حين أجمعت الآراء فى الاجتماع التأسيسى للمجلة على أن يكون غرض المجلة واهتمامها الرئيسى هو « الدفاع عن الانسان » وأحسست أن هاهنا مكانا تهب فيه روح جديدة .

ولم تكن الخطة المرسومة لمجلة « الروح » أن تكون مجلة كاثوليكية فحسب ، بل منبرا يستطيع أن يجتمع حوله ، ويتحدث منه ، الكاثوليك المستنيرون والبروتستانت والأشخاص الذين لا يدينون بالولاء لأية هيئة دينية منظمة . وكان منشئها ورئيس تحريرها « ايمانويل مونييه » ، رجلا ذا مواهب عقلية غظيمة ، وطاقة ملحوظة ، وكان كاثوليكيا رومانيا ، غر أن آراءه الاجتماعية والسياسية تختلف عن الموقف الكاثوليكى الرومانى المعروف تجاه تلك المسائل . وكانت النواة التى تألفت منها جماعة « الروح » كاثوليكية رومانية فى معظمها ، غير أن المجلة نفسها لم تكن تولى عنايتها الرئيسية للمسائل الفلسفية أو الدينية ، بل كانت تقوم بدراسات للمشكلات الاجتماعية والسياسية وللمشكلات الجمالية الى حد معين ، وهدفها هو وضع برنامج اجتماعى على أسس روحية . ولم تكن النزعة الشخصية التى تجهر بها الجماعة ، والتى أعطف عليها عطفا

خاصا ـ لم تكن مذهبا ، بل كانت موقفا أو موضعا يعبر عن البحث لتحويل العالم الموضوعي الى عالم شخصي ، موقفا يكون فيه الشخص الانساني هو الموضوع الرئيسي ، وهو موضوع المعرفة الذى لايرد الى شيء غيره ٠ وأما من حيث أن لمجلة « الروح » ميلا اشتراكيا ، فقد كانت اشتراكية برودونية (نسبة الى برودون) أكثر منها ماركسية ، وان تكن صفحات المجلة تضم بعض الدراسات الهامة فى نظرية الماركسية وتطبيقها ٠ وقد تم التعبير عن امتزاج النزعتين الاشتراكية والشخصية فى عبارة صكت حديثا هى « النزعة الشخصية الاشتراكية » ٠ واعتنقت مجلة « الروح » منهجا أصيلا للعمل ، فقد كان هناك عدد من الجماعات تعالج موضوعات مختلفة ، فهناك جماعة فلسفية ، وجماعة أدبية ، وجماعة تدرس الماركسية ، وأخرى تعكف على بحث المشكلات السياسية ، وكانت هناك أيضا جماعة عامة تدرس مساهمات الجماعات الأخرى كلها ، وتضع برنامجا للمجلة من تلك الزوايا المتباينة ٠ وقد شاركت بضع سنين فى العمل الذى تقوم به تلك الجماعات ، وهو عمل يحضره عادة عدد كبير من الناس ٠

وكانت الحركة التى تدور حول مجلة « الروح » جديرة بأعظم العطف ٠ غير أن النقص الوحيد الذى كان يشوبها ـ شأنها فى ذلك شأن الكثرة من الحركات المماثلة ـ هو انها كانت مقصورة على جماعة صغيرة نسبيا ، وغير قادرة على فعل أى شيء يمكن أن يؤثر تأثيرا فعالا على البيئة المحيطة بها ، كل ما يمكن أن تفعله هو أن « تثبت » للعالم الحديث وأن تحاول فهمه ، ذلك العالم الذى كان يبدو أنه يتحرك فى اتجاه مضاد لأهداف « الروح » ٠ ان ارادة الشر أقوى الى ما لا نهاية من ارادة الخير ، والانسان مرغم على الاعتراف بأن الشر منتج لمواهب عظيمة ، وأنه اذا كان ثمة شيء يتقدم فى هذا العالم ، فهو الشر ٠

وقد نشأ فى الأعوام السابقة على كارثة الحرب العالمية الثانية ، عدد من الحركات الهامة بين الجيل الأصغر فى فرنسا ، تتميز عن معظم حركات الشباب الأخرى فى أوربا فى أنها نشأت عن بحث صادق عن الحق ، ولو أنها تمكنت من النجاح فى هذا العالم الذى صرعه الشر ، لكان ذلك انجازا هائلا حقا ٠ أما من ناحيتى ، فقد كنت أشعر بالثقة حين التقى بهؤلاء الشبان ، لا لأننى أعرف أنهم قد فكروا بعمق فحسب ، بل لأن عقولهم قد عاشت أيضا ٠ وكان هناك رد فعل قوى بين المفكرين الفرنسيين من الجيل الأصغر ضد العالم المحيط بهم ، وحتى جماعة الشبان الملتفين حول صحيفة « كومبا » كان يطيب لهم أن يسموا أنفسهم « ثوريين » ٠ وأصبحت كلمات « الثورة » و « الأزمة »

و «الصراعات الكامنة » من الألفاظ المتداولة الشائعة التى تخفى أحيانا لختلاط الأفكار والقيم ، والتى كان لها تاثير خفى فى عقل الطبقة المثقفة المنحلة وقلبها ٠

ويجب الا أغفل الاجتماعات الفلسفية التى كانت تعقد فى منزل « جبرييل مارسل » ، فقد كانت فى رأيى النوع الوحيد من الاجتماعات التى التى يمكن أن يكون له قيمة دائمة ٠ ولم يكن يحضرها الفرنسيون فحسب ، بل الالمان والروس والاسبان من الشيوخ والشبان على السواء اللذين كانت لمساهمتهم تأثير حاسم على عمل تلك الجماعة ٠ ومن المحتمل انه كان المكان الوحيد فى فرنسا الذى تدرس فيه مشكلات « الظاهرية » والفلسفة الوجودية دراسة جدية ، وكانت تتردد دائما أسماء « هوسرل » و « شيلر » و «هيدجر» و « يسبرز » وغيرهم من المفكرين الأجانب ، كما لم تكن هناك أدنى علامة على تملق الذات الثقافى المعروف عن فرنسا أو أوربا الغربية ٠

أحسست فى بداية الأمر بدرجة ملحوظة من الاتفاق مع « جبرييل مارسل» ، ولكننا اختلفنا فيما بعد لأسباب سياسية اذ كان يعتبرنى بالنسبة لذوقه « يساريا » متطرفا ، و « فوضويا » مغاليا ٠

وكانت الوجودية هى الفكرة الرئيسية فى اجتماعاته ٠ وقد ذاعت عن « مارسل » نفسه شهرة بأنه فيلسوف وجودى ، وان يكن من الأدق أن يقال انه «تجريبى صوفى» ٠ «ومارسل» على خلاف غيره من الفلاسفة الفرنسيين ــ يحيط احاطة دقيقة بالفكر الالمانى ويقدر « يسبرز » ــ الذى كرس له مقالا شائقا ــ تقديرا خاصا ٠ وانى لأقدر فكرة « مارسل » عن « السر » الذى حدده بأنه مشكلة غير قابلة للاحالة الموضوعية وتشمل الانسان الذى يحاول القبض عليها ، ولا يمكن ارجاعها الى المعطيات الخارجية ٠ بيد أنى كنت أقل سعادة بهذه الحقيقة وهى أنه على الرغم من موقفه الباحث المتسائل الصريح ، فقد كان يترك فى النفس انطباعا بأنه يعرف تماما أين يريد الوصول ، وأعنى بذلك الوصول الى الكنيسة الكاثوليكية ٠

وأيا كان الأمر ، فلم يكن « مارسل » هو الشخص الوحيد الذى يمثل تحولا فى الوعى الفلسفى فى فرنسا ، فقد كان هناك عددا من الفلاسفة الآخرين مثل «لوسين» ، و «لافل» (الذى خلف «برجسون» و «لروا» بالكوليج دى رانس) و « فال » ، وغيرهم ممن كان لهم رد فعل ضد طغيان النزعة الوضعية على العقل الفلسفى الفرنسى ٠ ووجد هذا التغير تعبيرا فى سلسلة « مونتانى » المعروفة باسم « فلسفة الروح» التى كان يصدرها «لافل» و «لوسين» ٠ وكم كنت أود

أن اتمكن من استغلال مقابلاتى العديدة مع هذين المفكرين اللذين كانا قريبين منى فى كثير من النواحى ـ استغلالا تاما ، غير أنه كان من الصعب اختراق نطاق تقاليد العلاقات الانســانية العادية للوصــول الى أكثر ما كان يهمنى فى تلك المقابلات • وكان فشلى فى هذه الناحية مصدرا من مصــادر ادانتى الدائمة لذاتى •

ومن الأشخاص الذين صادفتهم فى منفاى بالغرب ، ينبغى أن أذكر أيضاً اللاهوتى السويسرى والاشتراكى البارز « ليب » الذى تراودنى ذكراه مصحوبة بعاطفة عظيمة • وكان له غرام أول ظل له مخلصـــا الى الأبد ، هو : غرامه بروسيا والروسيين • وكان يحب أن يدعى « فيودور ايفانوفيتش » ، على الرغم من أن أسمه الحقيقى الأول هو « فريتز » ! هذا ، مع ميل الى الفوضى ، ومكتبة روسية ضخمة، وهذه هى الأشياءالروسية الوحيدةفيه • وكان له قلب من ذهب، وطبيعة متحررة تمام التحرر من التقاليد • وكنت أقدر صداقته تقديرا عظيما كذلك حصافته الواسعة ، وحدة ذهنه • وكان يعيش تمزقه قرون حيرة غـــير عادية نوعا ما ، بين البارتيانية (نسبة الى كارل بارت) وبين الأفكار الدينية الروسية التى كان يرتبط بها ارتباطا مؤثرا • ولا أظن أن كان لى صديق وفىّ مثله بين أصدقائى غير الروسيين • وأحب أن أذكر أيضا « باستير بوريه » الذى كرس بضعة أعوام من حياته لتأليف كتاب عن فلسفتى ، وانى لمعترف بفضله لعمله العاطف المثقف •

وتختلف المصاعب التى تشوب الاتصال بالروس عن تلك المصاعب التى قد يعانيها المرء فى الاتصال بالشعوب الغربية • فالروس ـ كما سبق أن ذكرت اجتماعيون ، كقاعدة ، وهم ينبذون المواضعات الاجتماعية، ولا يتباعدون عن اخوانهم البشر ، ويتمتعون بما يمكن أن يســميه المرء القدرة على التآلف مع الآخرين سواء أكانوا من أصدقائهم أم من معارفهم الأقربين أم لم يكونوا •• وهم يحبون أيضا أن يتخففوا من الهموم التى تثقل أفئدتهم ، وأن يقتحموا حياة زملائهم ، وأن يجادلوا الى ما لا نهاية حول الأفكار ، كما يجدون أنه من العسير عليهم توطين أنفسهم على عادة الغربيين فى ترتيب المقابلات بالتليفون أو عن طريق البريد ، ويؤثرون القيام بزيارتهم فجاة فى أوقات متباينة من الليل والنهار • بيد أنهم لا يتمتعون فى رأيى الا بقدرة ضئيلة على الصداقة الفردية القوية ، وهم على وجه العموم يحبون الاتصال بالناس ، ولديهم احســـاس بالزمالة بلغ حـــدا عاليا من التقدم • ومن الأمور ذات الدلالة أنه أينما التقى الروس (وقد تشتت منهم بعد الثورة مئات الألوف فى أرجاء العالم كله) فانهم يؤلفون من أنفسهم فى الحال جماعات وزمالات وجمعيات • والروس يأنفون من

مجالات الاهتمام المحددة تحديدا صارما ، ومن التمييزات الثقافية التى يعجزون عن العيش وفقا لها · والعثور عن « معنى الحياة » ليس بالنسبة اليهم مسالة تتعلق بالنظر المجرد ، بل مسالة حياة أو موت ، وهم لا يستطيعون أن يجدوا هذا المعنى الا فى الاتصال الروحى بالآخرين الذين يسعون الى هذه الغاية نفسها ·

ولكن الى جانب هذه الخصائص من الزمالة والتضامن هناك صفات أخرى ذات طبيعة اكثر تدميرا · فما من أوربى غربى يستطيع أن يحدث مثل هذه الجراح الذهنية فى شخص زميل له، أواهانته أو اظهار مثل ذلك البرود والازدراء نحو الآخرين ، كما يمكن أن يصنع الرجل الروسى ، ومن السهل أن يجرح هو نفسه ويهان ، ويصاب فى احترامه لذاته · ومن المحال أن تجادل شخصا روسيا حول فكرة ما دون أن يعمد الى تحقير الشخص الذى يريد تفنيد رأيه ، وهنا تتحول المناقشة الى اتهام شخصى · وفضلا عن ذلك فان الروس اقل تقديرا للفكر وللنشاط العقلى من الغربيين ، وهم ينزلقون فى سهولة من موقف عقلى الى وضع يطالبون فيه بمطلب اخلاقى ، ويتوقعون منك (كما يتوقعون من أنفسهم) عملا باهرا من أعمال القداسة أو البطولة الثورية · وليس فى هذه الصفات صفة تميز بها الفرنسيون الذين عرفتهم أكثر من أى شعب آخر من شعوب الغرب · ومن هنا كانت المصاعب وضروب سوء الفهم التى تنشأ فى العلاقات بين الفرنسيين والروس · وعندما يتحدث روسى الى فرنسى ، فانه يشعر أنه مكبوت كبتا لا سبيل الى مقاومته بواسطة نزعة للفرنسى الفردية ، وتحفظه ودماثة خلقه ، وقلة مبالاته ، فالذهن والحواس تطغى على القلب ، وهذا ما يتمثل فى الرواية الفرنسية المعاصرة التى لا تحتوى الا على قدر ضئيل من الشعور ، ونصيب كبير من الذهنية والحسية · ومن ناحية اخرى ، يعرف الفرنسيون كيف يحترمون شخصية غيرهم من الناس ، ولا يحاولون اقتحام حياتهم الباطنية واذا جادلوا أفكارك ، فانهم لا يشعرون بما يدفعهم الى مناقشة حياتك الخاصة · وهم أقل تبجحا من الروس ولا يشعرون أن من واجبهم أن يكونوا قضاة أخلاقيين على غيرهم من الناس · ويعترف الروس بسهولة أنهم خطاة بائسون ، وأنهم على استعداد للتكفير عن خطاياهم ، ولكنهم يتوقعون أن يصنع غيرهم صنيعهم ، وينكرون اى شخص لا يعترف بوقوعه فى الخطيئة ·· العاطفة الأخلاقية لدى الروس تنعكس فى تفكيرهم الذى يطغى فيه الاهتمام الأخلاقى والميتافيزيقى على الاهتمام بحقيقة القضايا المنطقية والابستمولوجية (التى تنتمى الى نظرية المعرفة) · وهذا الاهتمام الأخير يتسم به العقل الغربى لأنه فقد الاتصال بالوقائع النهاية واكتسب عادة التوارى عنها ، وعن هؤلاء الذين يذكرونه بها ·

ولقد تشوقت طيلة حياتى لملاقاة الناس الآخرين ، والى بلوغ الاتصال الروحى الحقيقى ، وأن « يتجاوب العميق مع العميق » ، وأن تمتلىء جوانب وجودى النهائى بالتنوير الذى يصدر عن الاتصال الروحى الحقيقى · بيد أننى فشلت فى هذا كما لم أفشل فى أى شىء آخر ، اذ يبدو وكأن هناك انقساما أساسيا داخل نفسى ـ لعله انقسام بين العناصر الروسية والغربية فيها · فأنا مدفوع الى ملاقاة اخوانى البشر ، ولكنى أشعر فى الوقت نسه بأننى محتجز مكبوت بعدم الثقة والتحفظ تجاه وجود الآخرين نفسه · ومن دواعى الدهشة ألا تفشل الروابط الاجتماعية وحدها فى بلوغ الاتصال الروحى ، بل أن الحب بين الرجل والمرأة يلقى مثل هذا الفشل ، ويظل الانسان مغلقا داخل عزلته الخاصة دون أن يفهم الآخر ، أو أن يجعل نفسه مفهوما · وقد يحطم الحب الصمت بين المحبين ، ولكن ألا يتحدثان فوق هوة لا سبيل الى عبورها ، ولاتستطيع أية ألفة أن تزيلها؟ لا مفر من أن يبقى شخص كل كائن انسانى آخر سرا لا نفاذ اليه ولا حيلة فى اكتناهه ، ولا يستطيع الحب نفسه أن يسبر غوره ·

وتخالج بعض الناس فكرة عجيبة مؤداها أنه كلما كانت الرابطة بين الناس أوثق ، كان حبهم بعضهم للبعض الآخر أكبر · وانى لعاجز عن تقديم أى دليل على هذا التفاؤل من واقع تجربتى الطويلة عن التعاون مع الآخرين ، فقد اشتغلت مع « مرزكوفسكى » جنبا الى جنب أعواما عديدة فى سبيل قضية عزيزة هامة بالنسبة لكلينا · ونحن الآن نعيش فى المدينة ذاتها ، ولكنى نادرا ما اراه ، ولا أتحدث اليه أبدا ، ولا يتحدث الى أبدا · وتتألف علاقاتنا منذ بضع سنوات ـ على ما أذكر ـ من سلسلة من المقالات الشائنة التى كتبها عنى · وهذا يصدق أيضا على « بيترستروف » و « أنطون كارتاشوف » ، و « بوريس زيتسف » و « بيتر موراتوف » · ولم تنقطع علاقاتى قط مع الأب « بولجاكوف » ، ولكننا نادرا ما نلتقى ، اللهم الا فى المناسبات الرسمية ، وأخشى لو أننا التقينا ، لتباعدنا أكثر من ذلك · والاستثناء الوحيد هو « ليوشستوف » الذى أمست صداقتى به أقوى وأعمق منذ أيام « كييف » و « موسكو » ، وهو الشخص الوحيد الذى أستطيع أن أتحدث معه عن مسائل ذات همية عظمى لنا معا ·

ومن برز الشخصيات التى ظفرت بصداقتها فى المنفى « الأم ماريا » التى قضت نحبها فى حجرة غاز بأحد معسكرات الاعتقال الالمانية ، ويبدو أن حياتها ونهايتها الفاجعة تعكس مصير عصر بأكمله ، وقد كانت تتجسد فيها سائر السمات المميزة للقديسات الروسيات ، وفوق هذه السمات جميعا تضامن شامل مع آلام العالم وعذاباته ، واستعداد باسل للتضحية بنفسها فى سبيل اخوانها فى الانسانية · ويعد مصرعها الذى كان انكارا خالصا للذات من أجل امرأة

يهودية لا تريد الانفصال عن طفلها وهى على وشك الموت فى حجرة غاز ـ تعد هذه الوفاة صفحة من أعظم الصفحات البطولية فى سجلات الحرب الجهنمية ٠

وأحب أن أذكر من أصدقائى الآخرين الثورى الاشتراكى السابق «بوناكوف ـ فوندامنسكى » ، وهو رجل كرس حياته كلها لفكرة العدالة الاجتماعية والسياسية ، وكان رجلا محبوبا الى اقصى حد ، وينتسب هو وصديق آخر من أصدقائى « جورجى فيدوتوف » الذى يعد من أعظم مؤرخينا ورجال دعايتنا موهبة ، و «قسطنطين موتشولسكى» وهو ناقد أدبى ، الى الدائرة نفسها ٠ وكانت الأم « ماريا » ، و « فوندامنسكى » و « فيدوتوف » ، و « موتشولسكى » زوارا دائمين لمنزلنا الذى أصبح ملاذا لشتى انواع البشر ٠ وكانوا يأتون كلما طاب لهم ذلك ، فيلقون منا دائما كل ترحيب ، ولكن ، اذا كانوا قد شعروا بالسعادة والراحة ، فذلك لا يرجع الى ، وانما الى أعضاء الأسرة الآخرين ٠

وكنا اذا خلونا الى انفسنا فى الأمسيات ، نطالع فى اغلب الاحيان بصوت مرتفع ٠ وقد كانت « ليديا » قارئة ممتازة ، وأحيانا كانت « جينيا » تطالع بدورها ٠ وبهذه الطريقة أعدنا قراءة معظم الكتاب الروس ، كما قرأنا أيضا بصوت مرتفع المآسى اليونانية ، وشكسبير ، وسرفانتس ، وجيته ، وديكنز ، وبلزاك ، واستندال ، وبروست وغيرهم من الكتاب المحدثين ٠ وقد استمتعت خاصة بالاستماع الى اعمال الكتاب الروس ، وكانت تلك الأمسيات بالنسبة لى فرصة لأحيا من جديد ، مرة بعد أخرى ـ الانسانية والفهم اللامحدودين اللذين تميزت بهما العبقرية الروسية ٠

وقد لاحظت شيئا من عدم الاخلاص فى موقف بعض الروس نحوى ، اذ كانوا يظهرون تجاهى أحيانا من الود والصداقة أكثر مما يضمرون حقيقة ٠ وكان الكثيرون منهم يتحاشون الجدل معى كلية ٠٠ وانى لأعجب هل يرجع ذلك الى ميلى المؤسف للانفعال فى المناقشة ، أم أن هناك اسبابا أخرى ؟ وقد حاول بعض الروسيين الاحتفاظ بمظاهر الاتفاق معى ، بينما كنا نختلف فى الواقع اختلافا أساسيا فى موقفنا من الحياة ٠

وكثيرا ما وجه الى اللوم لأننى قطعت شوطا طويلا فى الاتجاه نحو «اليسار» ٠ وقد قلت فعلا ما أعتقده فى مثل هذه التسميات ٠ ومهما يكن من أمر ، فان الموقف الذى اتخذته الغالبية العظمى من « المهاجرين » يجعل الاتجاه نحو « اليسار » بالنسبة اليها لا يزيد على كونه مجرد احترام أولى للذات ٠ وقد انتهيت الى هذه النتيجة وهى: أن اليسار فى تلك الظروف يعنى عقيدة تتعلق بالقيمة العليا للانسان وأولويته على الجنس والطبقة والدولة ، والأمة ، والقوة

الاقتصادية ، والسلطة الكنسية ، بينما تعنى كلمة « اليمين » نظرة يكون الانسان وفقا لها خاضعا لكل تلك الاشياء مستعبدا لها · فالانســـانية اذن ، ومحاولة اقامة العلاقات الاجتماعية على أساس الانسانية ، أطلق عليهما اسم « الجناح اليسارى » ــ وينبغى على الانسان أن يحيا وفقا للصورة الالهية ، أى متمركزا حول الله، بينما ينبغى على المجتمع أن يحيا وفقا للصورة الانسانية أى متمركزا حول الانسان · والمركزية الالهية فى المجتمع تتولد عنها النزعة الشمولية ، سواء أكانت دينية أم طائفية ، الهية أم وثنية ، وهى نزعات تخون الحركة ــ كما اثبت التاريخ ذلك بأمثلة وفيرة · ·

وسارت علاقاتى مع الدوائر الكنسية بين المهاجرين الروس من سيىء الى أسوأ · وعندما نشب الخلاف بين الكنيسة البطريركية فى موسكو بممثليها القلائل فى الخارج ، وبين الهيئة الرئيسية لكنيســـة المهاجرين التى يرأسها المطــران ايفلوجى ، ناصرت فى اصرار الطرف الاول ، وكتبت فى حرارة مؤيدا له · وكانت تلك مناسبة لتشهير عنيف من جانب الأعمدة السياسية والكنســـية التى تقوم عليها رجعية المهاجرين وبلغ النزاع ذروته فى مسألة «جورجى فيدوتوف» الذى هدد المعهد اللاهوتى بفصله نتيجة « لانحرافاته اليسارية » · والنتيجة الواضحة التى يمكن استخلاصها من هذه الحادثة هى أن الأرثوذكسية الأكاديمية لابد أن تكون « يمينية » · ولم يكن ذلك بنبأ جديد على ، فقد كانت القسمات الدميمة الذليلة النثرية للكنيسة الرسمية مصدرا لكآبتى وضيقى منذ عهد بعيد · وفى هذه المناســـبة كتبت مقالا عنيفا فى مجلة « بوت » تحت عنوان : « هل تقبــل الأرثوذكسية حرية الضمير ؟ » قضى نهائيا ــ على ما يبدو ــ والى غير رجعة على علاقاتى بالمعهد اللاهوتى واساتذته ، وسبب مصاعب ملحوظة فى طبع مجلة « بوت » · بيد أن هذه حادثة واحدة من كثير · والحق أننى لم أتوان قط عن التشهير جهارا بمن يخونون قضـــية الحرية · وحين اتهمنى بعض المهاجرين الروس بالجرأة والنزق ــ اللذين لا سبيل الى الصفح عنهما ــ ازاء « الرأى العام » ، كنت أقول لهم ان هذا اطراء لى · وأنا لم أفعل طيلة حياتى شيئا غير محاربة الرأى العام ، ومظاهره اللعينة ، وانتهز هذه المناسبة لأؤكد أننى لا أعبأ على الاطلاق بهذا الرأى العام ، ولا أشعر بأية عظمة أو قوة قاهرة فيه ·

* * *

وعندما نفيت الى أوربا الغربية ، ألفيت نفسى فى جو عقلى يتسم برد فعلى ضد القرن التاسع عشر · وردود الفعل هذه ضد العصر السابق أو الأجيال السابقة لم تكن مجهولة فى الماضى · والحق أن الزمان مقياس جاحد لا يكترث لشىء · ولكن ، فلنكن موضوعيين · الواقع ، أن أوائل القرن العشرين كانت

من الواضح أنها ما برحت جزءا من القرن التاسع عشر وشطرا منه • ثم جاءت فترة اعوام ما بين الحربين ، وهى فترة اتخذت فيها البشرية الاوربية متعمدة موقف المعارضة للعصر السابق • ومع ذلك ، فمن المدهش أن المرحلة الاجتماعية والثقافية كانت حتى ذلك الحين خاضعة لسيطرة القرن التاسع عشر المحتقر اشد الاحتقار ، ولم تكن قادرة على انتاج اى شىء أصيل اصالة متميزة • كانت عهدا لا يتمتع بغير القليل من المواهب ، والافكار التى تدفع الانسان الحديث للاستجابة ضد القرن التاسع عشر مستمدة هى نفسها فى أغلبها من ذلك القرن • فمن هم حقا « صانعو القرن العشرين » ؟ انهم « دى ميستر » و « هيجل » ، و « سان سيمون » ، و « ماركس » و « كونت » ، و « فاجنر » و « نيتشه » ، و « دوستويفسكي » و « كيركجور » و « كارلايل » و « جوبينو » ، و « داروين » • وتكاد تكون كل الايديولوجيات التى تحوم فى أفق المدنية الأوربية الحديثة ، كالشيوعية ، والدولية ، والقومية ، والعنصرية ، والفردية ، والنزعة المضادة للفردية ، والوضعية ، وغيرها ، قد وضعت جميعا فى القرن الماضى •

وتكمن المساهمة العظيمة للقرن العشرين ــ كما هى الحال دائما فى تعاقب العصور ــ فى ابتذال بارع لتلك الأفكار وتزييفها • ويبدو أن تراث « نيتشه » قد عانى بوجه أخص عملية تطبيق محزنة • والحق أن القرن التاسع عشر أشد تعقيدا واكثر دلالة مما يمكن أن يعترف به ورثته ومعارضوه المحدثون • وبالمثل كان القرن الثامن عشر اكثر دلالة مما يمكن ان يعترف به وارثوه فى القرن التاسع عشر ، فقد كان عصر التنوير وتحرر العقل وعصر الحركات الصوفية والاشراقية الهامة ، ولم يكن عصر « فولتير » وأصحاب دائرة المعارف فحسب ، بل كان عصر القديس « مارتن » و « سويدنبرج » و « بليك » وغيرهم • والناس والتاريخ جاحدان ، خاليان من الذاكرة بشكل رهيب • اما بالنسبة الى ، فانى أنتمى الى عصرى ، ولكنى حملت على هذا العصر من حيث انه نسى تراثه ، ومن حيث انه خان ذلك التراث •

وقد أعدت كثيرا قراءة الكثير من مؤلفات « هرتزن » ، الذى ذكرنى بالدروس التى يلقننا اياها تاريخ أوربا الغربية ، بيد اننى اجتزت كوارث تاريخية اعظم مما اجتاز « هرتزن » • وتبدو أحداث زمانه تافهة بالقياس الى أحداث زماننا • وقد اختار « هرتزن » المنفى ليهرب من عبودية روسيا فى منتصف القرن التاسع عشر ، الى ما كان يعتقد انه حرية أوربا الديموقراطية • وسرعان ما تبدد وهمه ، ونفر من الروح البورجوازية الخانقة السائدة فى الغرب • وعندى انا ايضا من الأسباب ما « يبدد وهمى » ، وان تكن هذه

العبارة غير موفقة . انني اشارك « قسطنطين ليونتييف » في احساسه ببشاعة العصر الديموقراطي ، كما أشاطره كراهيته الحارة للقطيع الديموقراطي . وقد كان أسوأ أعداء « ليونتييف » أولئك الذين يؤمنون بالتقدم ، ويريدون ادخال كمالهم الديموقراطي التافه في هذا العالم الناقص نقصا رائعا . وأنا الآخر أتشرف الى روعة الجمال التي يمكن أن نجد منها في الماضي - بكل مظالمه - قدراً أكبر مما يمكن أن نجده في العصر الحاضر . غير أن « ليونتييف » كان راضيا بهذا « النقص » ، و « هرتزن » وجد راحته في « الغرائز الصحية للفلاح الروسي » ، بينما لا أرى مخرجا الا في مجيء ملكوت الله الآخر ، والا في رؤيا التحول عبر أعتاب هذا العالم . وقد يتم اختيار روسيا والروسيين خاصة لشهادة هذا المخرج نظرا لنزعتهم الرؤوية . وأيا كان الأمر فان مجيء الملكوت لا يمكن أن يعتمد على أية خصائص فطرية طبيعية ، بل الأولى أن يعتمد على الفعل الخلاق الحر يقوم به الله والانسان . ونحن مثل « هرتزن » غادرنا روسيا أو أجبرنا على مغادرتها ، آملين أن نجد الحرية في الغرب ، وقد وجدنا فعلا الحرية أعظم مما كان من الممكن أن نتمتع به وسط ما قامت به روسيا الثورية ، وروسيا ما بعد الثورة ، من ضروب التدمير والبناء . غير أن هذه الحرية النسبية نفسها في الغرب تشارف نهايتها ، اذ تتلقى الحكم عليها من الخيانات التي اقترفتها ، تلك الخيانات التي تغرق الانسان في عبودية أشد وضاعة .

* * *

منذ أعوام قلائل ، طرأ تغيير طفيف على ظروفنا المادية ، فقد انتقل الى ميراث ضئيل ، وأصبحت صاحب منزل تحيط به حديقة في « كلامار » على مقربة من باريس . ولأول مرة في حياتي منذ أن تركت روسيا ، صرت من أصحاب الأملاك ، وأصبحت أقطن في مسكني الخاص . ومن الحق أنني ورثت قبل ذلك بزمن طويل ، مناجم للحديد في بولندا كان يملكها أبي وكانت هذه المناجم قائمة في أرض هي ضيعته السابقة . غير أن الحكومة البولندية استولت على هذه الضيعة ، فكنت استحق تعويضا نظير ما فيها من المناجم . ومهما يكن من أمر ، فان شيئا من هذا التعويض لم يصل الى في نهاية الأمر ، بعدما تكبدته

لذلك من نفقات لا ضرورة لها . وإذا شئت الصراحة ، فانى سعيد لافلاتى من ذلك العبء الجائر الذى يتحمله مالك الأسهم . أما الميراث الذى جعل منا أصحاب الأملاك فى « كلامار » ، فقد انتقل الينا من صديقة لنا هى « فلورنس وست » ، وهى سيدة انجليزية تزوجت من رجل فرنسى واسع الثراء . وكانت امرأة ذات جمال باهر ،وإرادة قوية ، وعقائد دينية عميقة . وكانت مخلصة لـ « ليديا » خاصة . وكانت هناك جماعة ظلت تلتقى فى منزلنا غدة أعوام لدراسة الكتاب المقدس ، وقامت «فلورنس وست» فى هذه الجماعة بأبرز الأدوار . وجعل المنزل الذى تركته لنا الحياة أيسر مما كانت من قبل .

وقد سبق أن تحدثت عن موقفى من المسائل المادية والمالية . والحق أننى لم أعان قط الفقر المدقع ، وإن كنت فى كثير من الأحيان لا أوقن بما تحمله الى الأشهر القليلة القادمة . غير أن شيئا ماكان يحدث دائما فى أغلب الأمر . وعلى الجملة ، فاننى أكره الأمان والترف اللهم الا من حيث أنهما يتيحـــان للمرء الاستقلال . وانى لأرتبط ارتباطا شديدا بحجرة مكتبى فى منزل « كلامار » بنوافذه المطلة على الحديقة ، ومكتبته التى جمعتها خلال سنوات المنفى .

* * *

وتذكرنى ظروف فرنسا المحتلة تذكيرا قويا بالأعوام الاولى لروســـيا السوفييتية . ففرنسا الثرية التى كانت ترتع فى بحبوحة من العيش ، وتتمتع بالحرية منذ عهد قصير قد اصبحت الآن يشـــوهها منظر الطوابير الجائعة ، والحوانيت الخاوية ، والقيود من كل نوع ، وحظر التجول ، وعدم اليقين فيما سوف يحمله الغد . وقد انبأنى خادم فى منزل احد أصدقائى ذات يوم أن كوكبنا يترنح ، وكنت أشعر بذلك منذ عهد بعيد ، غير أن هذه التجربة تكون فى الوطن أكثر احتمالا ، ومعناها أيسر تمييزا منها فى الخارج .. وأنا لم أحى قط ــ على ما أعتقد ــ حياة منعزلة على مثل هذا الهدوء الظاهرى ، حياة كرستها تماما لتأمل المشكلات الميتافيزيقية ، فمن الســـخرية أن يكون هذا الوقت هو أكثر الأوقات المنكوبة فى مصـــير أوربا . ولم أكن أعرف على كل حال المحنة التى تنتظرنى فى الغد .

وقد تحدثت لمثوى عن الجاذبية التى للماضى على نفسى أحيانا ، فهل هذا مجرد تشبث بالذكريات ، وضرب من « الهروب » فى وجه حاضـــر مزعج ، ومستقبل منذر ؟

« الذكريات » تنتمى الى المتاحف وعلم الآثار ، لا الى الحياة الواقعية • والأحرى أنها مسألة ذاكرة تبدع وتحول ، وعملية انتقاء تعانى تجربة انتصار على الزمان • وجمال الماضى ليس جمال الوقائع الماضية يســـجل فى مراجع التاريخ والآثار ، وانما هو جمال الماضى الواقعى وقد جربناه وتحول الى داخل الحاضر • ومن المرجح أن الماضى لم يعرف مطلقا هذا الجمال • وما جمال اطلال « البارثنون » غير جمال الحاضر أكثر منه جمال الماضى • بل ان قدمها نفسه تجربة من تجارب الحاضـــر • هذه هى مفارقة الزمان • فعندما أتذكر الماضى، أقوم بفعل خلاق أعمل به على تحويل الماضى واضفاء المعنى عليه• وأنا حريص على أن أجد معنى ما فى الماضى : غير أن جمال الماضى الذى أعيه أكثر من أى وقت مضى ، لا ينعكس فىنفسى انعكاسا سلبيا ، بل استجيب له ، وأحياه من جديد حياة مبدعة • والحياة الحقيقية هى الخلق ، وهى وحـــدها الحياة الجديرة بأن نحياها •

الفصـــل الحـــادى عشـــر

نظرتى الفلسفية النهائية · قانون الايمان · مجال العلم الأخروى · الزمان والأبدية

كانت أعوامى فى باريس عهدا من النشاط الفلسفى الشديد · فبعض النظر عن الكتب التى ألفتها عن الفلسفة والأخلاق (وتبدأ بكتاب « الحرية والروح ») والتى ذكرتها آنفا ، كتبت عددا من المقالات الاجتماعية والتاريخية والثقافية مثل « مصير الانسان فى العالم الحديث » وهو مقال يمثل تفسيرا للمشهد التاريخى المعاصر أحدث من « العصور الوسطى الجديدة » و « أصل الشيوعية الروسية » و « الفكرة الروسية » · وهذه الاعمال جميعا تعبر عن وضعى الفلسفى تعبيرا أكثر تكافؤا من أى كتاب آخر كتبته قبل منفاى ، باستثناء «معنى الفعل الخلاق» · ومع ذلك يجب أن أكرر ما ذكرته فعلا فى مناسبات سابقة ، وهو أن شيئا منها لا يرضينى فى نهاية الأمر ، ولا ينقل أعمق أعماق فكرى · والفكر يحتاج الى جسد يرتديه ، ولابد أن يتم التعبير عنه ، والانسان مجبر على الكلام · ومع ذلك ، فلا جدال فى أن « الفكرة اذا نطق بها مرة فهى كذبة » كما قال «تيوتشف» ·

ولقد اكتسبت من حين الى آخر خلال تطورى العقلى الطويل ، مصطلحا فلسفيا جديدا ، وتوسعت فى نطاق أبحاثى ، وظفرت باستبصارات جديدة ، غير أن عملى ككل يدور حول محور واحد ، وله عدد من الموضـــوعات الدائمة السائدة التى تمنحه وحدة داخلية أيا كانت الصورة الجزئية المتقطعة التى يتخذها فى الخـــارج · وربما لم تكن التناقضـــات والمفارقات التى اتهم بها فى أغلب الاحيان ، راجعة كثيرا الى ذلك التفكك بمقدار ما ترجع الى تلك الحقيقة وهى أن فكرى ينبع من مستويات مختلفة حاولت أن ألفت اليها الانتباه فى الفصول السابقة · فالتناقضات والمفارقات كامنة اذن فى طبيعة الفلسفة نفسها التى أومن بها ، وليس من الممكن ـ كما لا ينبغى ـ رفع هذه التناقضات والمفارقات ·

والفكرة التى أحب تبيانها فى المحل الأول هى فكرة « الاحالة الموضوعية »

فهذا التصور أتاح وسطا للتعبير عن حدس من حدوسى الفلسفية الرئيسية ٠ ويشير نقدى للاحالة الموضوعية الى عجز عن الاعتقاد أو الاعتماد على صلابة العالم « الموضـــوعى » ثباته ، وأعنى به عالم بيئتنا الطبيعية والتاريخية ٠ فالأشياء « الموضوعية » خالية من الحقيقة النهائية ، وهى وهم يتوهمه شعورنا، ولا وجود لها الا بمقدار بعدها عن مصادر الوجود ، وهو بعد يعتمد بدوره على حالة معينة أو اتجاه للروح ٠ ومثل هذا البعد علامة ـ على كل حال ـ على نقص فى الواقع ٠ فالعالم الذى أحيل احالة موضوعية ليس هو العالم الحقيقى الواقعى، بل مجرد حالة لهذا العالم الحقيقى الذى انبثق نتيجة لقابلية ذلك العامل الأخير للتغير٠ فالذات تنتج الموضوع، والذات وحدها هى الواقعية «الوجودية»، والذات وحدها هى القادرة على معرفة الواقع ٠ وأيا كان الأمر ، فلا ينبغى أن يختلط هذا الرأى « بالمثالية الذاتية » فى مصطلح التصنيفات المستهلكة المبتذلة ٠ المثالية الذاتية تسلم قبل كل شىء ، بعالم منعزل ، وعقل انسانى منعزل ، عالم يبدو باعتباره مظهرا ، وعقل يظهر له هذا العالم ٠ واذا شئت أن أعتنق مؤقتا تمييزات « دلتاى » أسميت موقفى « مثالية الحرية » باعتبارها معارضة للنزعة الطبيعية و « للمثالية الموضوعية » ٠ والعالم يوجد حقيقة فى الذات التى لم تخضع للاحالة الموضوعية ٠ ومقولة الكينونة نفسها ـ وهى المقولة التى تلعب مثل ذلك الدور السائد فى تاريخ الفلسفة منذ عهد اليونان فصاعدا ، نتاج للاحالة الموضوعية العقلية ٠ وهى فى مصطلح «كانت» وهم متعال ٠ ولايمكن أن نصف الواقع فى طابعه الأولى وأصالته بأنه كينونة لا متمايزة أو ماهية أو جوهر ٠ والواقع الأصيل هو الفعل الخلاق ، وهو الحرية ، وحامل الواقع الأصيل هو الشـــخص ، هو الذات ، والروح لا الكينونة أو الطبيعة أو الموضـــوع ٠٠ والموضوعية معناها استعباد الروح للاشياء الخارجية ، وهى نتاج التفسخ ، والانفصال والغربة والعداء ٠ وتتوقف المعرفة ـ وهى نشاط تبذله الذات ـ على الانتصار على الانفصال والغربة ، وعلى مدى الاتصال الروحى وشدته ٠

وتعالج المعرفة العلمية عالما أحيل احالة الموضوعية ، وتزود الانسان بقوة للسيطرة على العالم وتشكيله ٠ ولكنها لا تقوم هى نفســـها بعملية الاحـــالة الموضوعية ، والأحرى أنها تعالج واقعا ، هو الطبيعة ـ وقد أصبح فعلا فى حالة من حالات الاحالة الموضوعية ٠ والحق أنها دليل على محاولة الانسان للتغلب على قوة الطبيعة الغريبة وجعلها انسانية ٠ وأنا لا أذهب الى أن مادة البحث فى المعرفة هى الموضوع ، فان الموضوع هو ما يميز علاقة معينة داخل المجال الوجودى حيث يتخذ الانسان موقفا ادراكيا « ازاء » شىء ما ، وحيث ينبغى أن يكون موقفه « هو » هذا الشىء ٠ وفى المعرفة الحقة يتعالى الانسان على الموضوع ، أو بالأحرى يملك الموضوع امتلاكا خلاقا ، بل الحق أنه يخلقه بنفسه٠

والواقع يثرى بالمعرفة · وبمقدار ما يوضح العلم والمنهج العلمى الأسس التى يقوم عليها أى جزء معطى من أجزاء المعرفة توضيحا نقديا ، فاننى أحبذهما قلبا وقالبا ، وكلما حاولت توضيح موقفى الفلسفى ازددت اعتناقا لموقف نقدى، وانكارا لمناهج التعمية · وأنا الآن على وعى أشد بقيمة العلم التاريخى خاصة، مما كنت فى أيامى الماركسية المبكرة ·

ومهما يكن من أمر ، فانى لا أزعم أن لى منحى علميا سواء فى مادة فكرى أو طريقته · وعبارات « الوجودى » و « الاشراقى » و « التاريخى » و «الاخلاقى» نعوت أكثر ملاءمة لوصف طراز الفيلسوف الذى أود أن أكونه · والى هذا يمكن أن نضيف « الميتافيزيقى » بكل المؤهلات التى وضعتها آنفا بمناسبة الحديث عن «علم الكينونة» · «فالكينونة» منعزلة عن موضوع الكينونة شىء لا واقعى من الناحية الوجودية · و « الموضوع » الواقعى للمعرفة ليس هذه الكينونة أو تلك ، وليس هذا المحمول أو ذاك ، لأن هذه الاشياء لا توجد فى ذاتها ، بل توجد (أى الكينونة والمحمول) من حيث انتمائها الى شىء ما أو بالأحرى الى الذات التى ترتبط بها · وقد أوضح « سولوفييف » هذا جيدا ، وان يكن فى بعض النواحى الأخـــرى ممثلا نموذجيا للميتافيزيقا الأنطولوجية كما ارتآها كل من «بارمنيدس» و «أفلاطون» و « أرسطو » و « توما الأكوينى » و « اسبينوزا » و ليبنتس و « هيجل » و « شلنج » · وطراز الفلسفة الذى أمقته أكثر من أى طراز آخر هو طراز الميتافيزيقا الطبيعية التى تحرص على احالة كل فكرة وكل عملية من عمليات الفكر احالة موضوعية ، وتعمل على تقنينها ، وعلى أن ترى فى كل مكان وقائع موضوعية ، وجواهر ثابتة ، وحقائق وأشكالا · والنتيجة التى تتمخض عنها مثل هذه الفلسفة هو تجميد كل ما تلمسه · وقد لا يتحرر عقل الانسان مطلقا من القهر الذى تمارسه « الوقائع الموضوعية » ، بيد أن هذا لا يدل الا على وضعه الساقط الذى لا يمكن أن يفهم فهما سليما ، ولا أن يقوم تقويما صحيحا ، الا من وجهة نظر فلسفة للحرية ، وللقدرة الخلاقة ، وللاتصال فى الحب · ولقد ألفيت نفسى حين اعتناق هذه الفلسـفة فى صـحبة مفكرين متباينين من أمثال « دنس سكوت » و « بيمه » و « كانت » و « مين دى بيران » و « دوستويفسكى » ·

وقد هاجم النقاد الذين تعرضوا لى من الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت فكرة الحرية غير المخلوقة هجوما عنيفا ، لأن هذه الفكرة قد بعثت فى عقولهم شبح ثنائية وغنوصية غير مسيحيتين ، وأقامت تحديدا وقحا للقدرة الالهية الشاملة · وأعترف بأن طريقتى فى التفكير ــ فى هذه المسـألة وفى غيرها من المسائل ــ قد أسهمت فى ذلك الاضطراب · وقد حاولت أن أوضح فعلا بأننى

أعارض الثنائية الأنطولوجية معارضتى للواحدية الأنطولوجية ، وأننى أعتبر كلتيهما احالة عقلية • والواقع أن معظم المذاهب اللاهوتية والميتافيزيقية تنوعات على موضوع النزعة القدرية السابقة - أو العيب الموروث فى كل فكر أحدى بكافة أنواعه• وهذا يصدق على المذهب التقليدى عن العناية الالهية ، وكذلك عن المانوية والكلفينية • ويكمن عبر « التقابل » بين الله والحرية غير المخلوقة ، تقابل آخر هو وحده الذى يصف فى رأيى العلاقة بين الله والانسان كما نجربها فى هذا العالم ،، هناك يكمن « السر » الالهى المتعالى الذى تزول منه كل التقابلات والمتناقضات ، بحيث تصبح سائر المحاولات للتعبير عنه فى قضايا منطقية محاولات سطحية • وهذا هو ملكوت « المعرفة النورانية » بالله •

بيد أن الحرية ليست بطبيعتها قابلة للاحالة العقلية ، وعندما أقول أن الحرية لا مخلوقة ،، وان الاحالة الموضوعية هدامة للوجود الحقيقى وللمعرفة الحقيقية ، أقصد أن الانسان لا يستطيع أن يكون حرا الا اذا لم تتحدد حريته بشىء آخر خلاف نفسه ، وأنه لا يكون ذاتا الا اذا لم يكن « شيئا » يتكيف أو يخضع - بطريقة سببية أو بأية طريقة أخرى - للاشياء الأخرى • و « الحرية اللامخلوقة » فكرة محددة ، تصف بطريقة رمزية واقعا لا يند عن التعريف المنطقى • و « الاحالة الموضوعية » بالمثل وصف رمزى لحالة العالم الساقطة التى يجد فيها الانسان نفسه خاضعا للضرورة والانفصال • والعالم الذى أحيل احالة موضوعية قابل للمعرفة العقلية والتعريف التصورى ، غير أن مصدر حالته الموضوعية لا يمكن أن يعرف أو يحدد بهذه الطريقة • وأحب أن ألخص آرائى حول هذه المسألة تحت عنوان « نظرية المعرفة للخطيئة الأصلية » •

وترتبط فكرتا الحرية اللامخلوقة والاحالة الموضوعية بالنزعة الشخصية • ولقد علقت أهمية عظمى على الشخص الانسانى فى مقابل كافة المظاهر اللاشخصية وفوق الشخصية للعالم الموضوعى ، تلك المظاهر التى تهدد دائما بتحطيم الانسان واغراقه ، ولم يكن عملى ذلك ابتغاء الهروب أو الافلات أو العزوف عن تلك المظاهر • هذه المشكلة تذكرنا بالنزاع التقليدى بين «الواقعيين» و « الاسميين » • وأنا أعارض النزعة التصويرية الواقعية سواء من الناحية العقلية أو العاطفية ، ولا أعتقد بأية افكار عامة أو « كليات »لا تمثل صورا جزئية أو فردية، بل تمثل ماهية مفترضة للاشياء • فأنا - من هذه الناحية - معاد لأفلاطون، وان تكن ثمة عناصر أخرى فى افلاطون أعطف عليها عطفا كبيرا• ولكننى لا أستطيع - من ناحية أخرى - أن اعتنق الموقف الاسمى ، اذ يبدو انه يقوض فكرة الشخص الانسانى ، ويفشل فى الاعتراف بالصورة الأبدية للانسان، ولست معنيا بانكار أى واقع للكليات أو حصر الفلسفة فيما هو جزئى : بل

الأحرى أننى معنى بالعثور على الكلى فى الجزئى ، وعلى فهم المجرد فهما عينيا، بدلا من فهم العينى فهما مجــردا • ويبدو أن النزاع التقليدى بين الواقعيــة والاسمية قام على « أما •• أو » زائفة • وعلى كل حال فان واقعية التصورات التى تعترف بأولوية العام على الفردى ، وتخضع العقل الانسانى للتعميمات، هى فى رأيى مصدر عبودية الانسان ، ومن ثم فان التمرد على سيطرة « العام » تمرد مشروع ، يتلقى قوته الدافعة من التصور المسيحى لله ، الذى ليس هو فكرة أفلاطون عن الخير أو تصور أرسطو عن الفعل المحض ، ولكنه « اله ابراهيم واسحاق ويعقوب » ، والله الذى جعل انسانا ، والذى يدخل معه الانسان فى علاقات شخصية • وانى لمقتنع بأن جميع الأسس الفلســفية تتطلب اعادة فحص على ضوء هذا التوكيد المسيحى لترجيح الشخصى والمفرد • وهذه الاعادة للفحص ستكون ثورة حقيقية فى شعور الانسان الحديث •

وعندما يتهمنى النقاد بأننى « صانع أساطير » أو « نبى » يحسن صنعا لو أنه سكب قطرة من البلادة وقليلا من الدقة فى ذلك البحر المتلاطم من تأكيداته وحدوسه المتعسفة ، فانه لا يسعنى الا أن أكرر ما قلته فى مناسبات أخرى وهو أن رسالتى ليست اعلان مذهب ، بل التعبير عن رؤية ، وأننى أعمل – وأريد أن أعمل– بالالهام ، مدركا تمام الادراك أننى مكشوف لكافة ما يمكن أن يقوم به الفلاسفة المنهجيون والمؤرخون والعلماء من انتقادات ، وهم فى الواقع قد وجهوا هذه الانتقادات فعلا • أليس « نيتشه » عرضة لهذا النوع نفسه من النقد؟ ولست أعتقد أن الفلسفة تستطيع أن تعلن الحقيقة اذا لم تضع فى اعتبارها العنصر الغامض للالهام • وانى لأتساءل كما تساءل « نيتشه » عن مكان النشوة المبدعة والرؤية والنبوءة فى محاولة الانسان للاحاطة بالواقع • وقد وصــل نيتشه باذعانه لتلك العناصر ، الى هذه النتيجة وهى أن « الله مات » • وربما كانت هذه النتيجة مما لا يمكن تجنبه حقا فى تجربة المصير الانسانى ، غير أنها فى « نيتشه » لا تدل على موت الله فحسب ، بل على موت الانسان كذلك بمجىء الانسان الأعلى • أما بالنسبة الى ، فأنى حريص على بيان أن النشوة المبدعة والرؤية والنبوءة والالهام شواهد على الواقع الحى لله والانسان •

* * *

وكلما حاولت فهم ما ينطوى عليه الوجود الانسانى من تعقيد وازدواج ، اصطدمت بمشكلات علم الآخرة • ولعل ذلك راجع فى شطر منه الى تكوينى النفسى، وقلقى ، ونفاد صبرى، وعجزى عن أخذ الأشياء على علاتها • وعندما صرت مسيحيا كانت تجربتى الأولى تجربة عدم تكافؤ فاجع بين الوعد المسيحى بالاكتمال النهائى ، وتحققه الجزئى فى هذا العالم • ولقد تقدم للتفسير الأخروى

للمسيحية تقدما كبيرا فى اللاهوت منذ نهاية القرن التاسع عشر من خلال أعمال « رتشل » و« شتاينر » و « فايس » و « بلومهارت » و « راجاز » ، وغيرهم . بيد أن آرائى الأخروية تنبع من مصدر ميتافيزيقى لا من مصدر تاريخى أو من الكتاب المقدس . وقد جاءت القوة الدافعة عن تجربة حية لما تتصف به الحياة الانسانية من تقلب وافتقار الانسان التام الى أرض صلبة تحت قدميه . كنت انتظر وأتوقع دائما وقوع الكوارث فى حياتى الشخصية وفى حياة العالم من حولى وتاريخه . وقد عشت أعواما طويلة قبل نشوب الحرب العالمية الأولى متوقعا للكارثة ، وتحدثت عن هذا الموضوع الى درجة الغثيان ، لم أشاهد انفصال الانسان عن المسيحية فحسب ، بل انفصاله عن الانسانية أيضا ، وهما نزعتان كانتا تجمعان قوة دافعة فى العالم الحديث . وقربتنى محاولتى لفهم هذا المصير الانسانى أكثر فأكثر من الطبيعة الأخروية (الاسكاتولوجية) للمسيحية. ولم أكن قادرا على النظر الى المعايير الدنيوية للسلوك العادى فى عالم من الشذوذ التام ، أو أن أعتمد على وعود التطور الطبيعى . ومن مصيرنا أننا واقعون فى شبكة تطوراتنا جميعا ، وأنه ليس ثمة غير مخرج واحد هو المخرج الأخروى (الاسكاتولوجى) .

ولم يلهمنى ايثارى لموضوعات علم الآخرة بأى ميل خاص الى كتاب الوحى، أو بأية رغبة للانغماس فى تفسيرات وشروح عنه . واذا كنت قد نكصت عن شىء ، فقد نكصت عن الأدب الرؤيوى من «أخنوخ» فصاعدا ، لما فيه من عناصر مقيتة من الانتقام والعدالة الرادعة ، ومن ميل الى اقامة تقسيم حاد للانسانية الى أخيار وأشرار . وللسادية دخل ملحوظ فى تاريخ الدين ، والمذهب المسيحى لا يخلو من هذه النزعة خلوا تاما . ويعد « أوريجن » و «جريجروى النيساوى» استثناءين بارزين ، وان لم تعمل آراؤهما على تقدم للاهوت المسيحى الا تقدما ضئيلا . ومن الممكن تأكيد انسانية المسيحية على أساس المجازفة بأن يجعل المرء من نفسه أحمقا بين اللاهوتيين المسيحيين الذين يعدون القسوة عنصرا أساسيا من عناصر الأرثوذكسية . وقد أقام كثير من المسيحيين لاهوتهم الذى يحبذ الانتقام على الأناجيل . بيد أن رسالة الأناجيل قد عرفت لنا عن طريق الوساطة الانسانية بكل ما فيها من نواحى النقص والتحديد . والانسان قاس ، بطىء الشعور . والمسيحية كشف عن عالم آخر ، فاذا جعلناها مطابقة لهذا العالم ، فاننا بالتالى نخونها . وللمسيحية الأخروية تأثير ، ــ بل ينبغى أن يكون لها ــ تأثير الثورة على المسيحية التاريخية ، لأن هذه المسيحية التاريخية قد كيفت نفسها مع العالم وأسمنت نفسها عليه . وحتى الزهد المسيحى ثبت أنه غير فعال ، فقد بقى خاضعا خضوعا سلبيا للعالم ــ شأنه فى ذلك شأن الدنيوية المفضوحة ، ان لم يزد عليها ــ واستطاع أن يجمع بين التقشف الشخصى

والخضوع العجيب للشر والظلم فى هذا العالم · غير أن العلم الأخروى ليس دعوة للهروب الى جنة خاصة ، بل هو نداء للتسامى بهذا العالم الشرير المنكوب· وهو شاهد على نهاية عالمنا هذا باحالاته الموضوعية التى ترمى الى استعباد الانسان ، سواء أكانت دينية أم أخلاقية أم اجتماعية أم فلسفية ·

وقد أدهشنى دائما كيف يستطيع الناس الاعتماد على ما فى التطور الانسانى من طابع تدريجى ، وعلى ثبات الطبيعة الانسانية ، وعلى الاستجابات العقلية للحق ، وعلى المعايير الموضوعية للخير ، وعلى سائر الأوهام المعطرة الأخرى ، فى مواجهة ما تتميز به الحياة الانسانية من فساد وتقلب لا سبيل الى الغائهما ، وفى مواجهة الجراح القاتلة التى يصاب بها الانســـان نتيجة لكل موت وقرلق وخيانة وعاطفة · هذه الأوهام جميعا ترمى الى بعث الطمأنينة فى نفسه ، ولكنها فى الواقع تعميمات قاصرة عن تعويض ما يذرفه طفل واحد من دموع ·· وقد يكون التقدم الانسانى واقعا وقد لا يكون ، غير أنه يصبح ولا معنى له اذا نظرنا اليه على ضوء الجدل (الديالكتيك) الذى دفع «ايفان كارامازوف» الى الجنون· ثمة شىء واحد مؤكد ، وهو أن المحن والعذابات والعواصف التى تحتاج الوجود الانسانى تضع الناس وجها لوجه ازاء السر اللامعقول للحياة والموت ·

ولست ممن يعتريهم الفزع من الموت ، كما كان حال « تولستوى » مثلا ، ولكننى احسست بألم شديد عند التفكير فى الموت ، وبرغبة محرقة لاعادة الحياة الى من ماتوا جميعا · والحق أن الانتصـــــار على الموت قد بدا لى باعتباره المشكلة الأساسية فى الحياة · والموت حدث أكثر دلالة وأساسية للحياة من الميلاد · ولا أستطيع أن أرى ـ كما رأى « روزانوف » ـ انتصار الحياة عن طريق الميلاد ، بل على العكس انى أرى فى الميلاد انتصارا للموت ، مادام الأمر يتعلق بالشـــخص الانســـانى العينى ، فالجنس يبقى الى الأبد ، بينما يموت الشخص الانسانى · والمسيحية وعد بالحياة لكل فرد انســـانى اجتاز أبواب الموت ، وليست وعدا « للبشرية » باعتبارها تجريدا · الوعد المســـيحى وعد « ذاتى » ، وليس وعدا « موضوعيا » · والوعد « الموضوعى » ليس وعدا على الاطلاق ، وانما هو نصيحة يسديها أولئك الذين يريدون ادخال العزاء على قلب « أيوب » ، وسخرية من المصير المميت للانسان · ولا عزاء فى الفكرة القائلة بأننا سوف نخلد فى أبنائنا ، أو فى أننا نساهم فى صنع السعادة المقبلة أو فى اقامة المدنية أو المجتمع الكاملين فى المستقبل ، وذلك لأن النهاية تستريب بهذه العزاءات جميعا لأنها غير متناسبة مع المصير الفريد لكل فرد انسانى على حدة ·· ولقد انتصر المسيح على الموت، ولم يكتسب هذا الانتصار بواسطة قوة الهية موضوعية

تعمل من الخارج ، بل بفعل الهى انسانى من الداخل ، وفى أعماق « الذات » حيث تستقر الحياة الأصيلة والواقع الأصيل ·

كان الآلهة خالدين عند الاغريق ، بينما كان الانسان فانيا · وكان من المعروف أن فضيلة الخلود تنتمى الى الأبطال ، الى أنصاف الآلهة ، الى الأشخاص الذين هم أعلى من الانسان · بيد أن هذا كله كان محاولة لاضفاء الخلود على ما هو الهى ، وانكاره على ما هو انسانى · ومن الأمور ذات الدلالة فى نزعة « نيتشه » المضادة للانسانية انه ارتد الى التصور اليونانى ، فقد استعاض « نيتشه » عن صورة الانسان الالهية الخالدة بصورة اله جديد خالد هو « الانسان الأعلى » (السوبرمان) ، على الرغم من أن أحدا لم يكن متعطشا ذلك التعطش الحار الى خلود الانسان كما كان « نيتشه » · وبالمثل ، لم يكن لدى « أفلاطون » أى احساس بالمصير الخالد للانسان ، لأن تصور الخلود ، كما يعرضه فى محاورة « فيدون » ، لا ينطبق على الانسان بل على «الروح الكلية» · ويصدق هذا أيضا على المثالية الالمانية · والمسيحية وحدها هى التى تنادى بخلود الانسان كله ، وخلود كل ما هو انسانى صادق والهى صادق فيه ·

ومع ذلك ثمة ما هو أكثر أساسية من ادراك مأساة الموت وحاجتنا الى الانتصار عليه وتأكيد طبيعة الانسان الخالدة ، تلك هى الحاجة الى تحريره من عذابات السعير « الأبدية » · وقد حاولت صياغة تلك المشكلة فى كتابى « مصير الانسان » ، فاذا نظرت الى الوراء ، أدركت أننى كنت أريدأن أقول شيئا ما هو حجر الزاوية فى كل محاولتى الفلسفية · بيد أن المشكلة من القسوة والفظاعة والظلمة بحيث لا تقبل أية صياغة حاسمة · فلا مندوحة للانسان من أن يسأل أمام الله وأمام الانسانية عما يريد أن يقوله بصدد هذا الموضوع · ثمة شىء واحد مؤكد هو أننا فى اعترافنا بوجود عذابات السعير الأبدية ننكر كل معنى وقيمة لحياة الانسان الروحية والأخلاقية ونعزلها فى منطقة الفزع الذى لا سبيل الى تخفيفه أو التخلص منه · وأنا لا أنكر الجحيم : ولا أستطيع أن أنكره ، ما دمت عضوا فى عالمنا هذا · وأنا أقبل الجحيم لنفسى ، وقد عانيت رعبه الذى لا سبيل الى التعبير عنه أكثر من مرة ، ولكننى لا أقبله للآخرين ، ووجودى كله يتمرد على تلك « الأخلاقية » التى تطالب بالجحيم للانسان باسم العدالة · ولا أستطيع أن أتصور حجة أقوى ولا سبيل الى دحضها فى تأييد الالحاد من عذابات الجحيم الأبدية · واذا كان الجحيم أبديا ، فأنا اذن ملحد ·

ومع كل هذا ، فان الشر والألم والجحيم كما نعانيها فى هذا العالم لا يمكن أن تتخذ ذريعة ضد وجود الله ، لأن الايمان بالله ينبعث عن شوق الانسان الى

الخلاص من هذا الشر والعذاب والعالم الجهنمى • وتجربة الشر تحض الانسان على أن يعلو على هذا العالم ، وعلى الرغم من كونه غارقا فى سخافة وجوده الدنيوى ، فان سخطه ورفضـــه الاذعان لظروف الحياة كما يجدها هما أكثر الشواهد كلية على وجود الله • وكان « نيتشه » يعتبر التغلب على الألم بلا ثواب أو رشوة مرصودتين له عمق من أعمال البطولة • وقد يكتسب الانسان الذى اجتاز تجربة العذاب — معرفة جديدة : والحق أن كل معرفة مؤلمة ، وبزوغ الوعى يعد نهاية لحالة البراءة والسذاجة الأولية للانسان • والموت هو الانقسام الأسمى ، الانقسام بين الله والانسان ، والانسان والانسان ، والانسان والعالم• « الهى •• الهى ، لماذا تخليت عنى ؟ » • لاخير نهائى أو كامل ، ولا معرفة به ، يمكن بلوغهما فى هذا العالم على الاطلاق ، وبدون أن يجتاز الانسان ذلك الانقسام ، ويعانى وطأة الموت ، فلن يبلغهما قط • وحالة الموت ليست انطلاقا للروح التى تحرر نفسها من الجسد ، وليست وهما ، ولكنها لحظة دياليكتيكية تحقق خلالها مصيرها الانسانى — الالهى •

* * *

ظل الفكر الروسى مهتما دائما بمشكلات فلسفة التاريخ ، واهتمامى الحاد بهذا الموضوع قد نما وفقا لتقاليد الفكر الروسى • وحين شرعت فى فهم طبيعة التاريخ استولى على انطباع طاغ ، وهو أنه لا شىء يبدو ناجحا فى التاريخ ، ومع ذلك فان الأشياء جميعا ذات دلالة فيه • ان معنى التاريخ يكمن عبر حدود التاريخ، وللتاريخ معنى لأنه ينتهى الى نهاية • أما التاريخ الذى لا ينتهى — سواء بالتقدم أو بالنكوص — فأمر لا معنى له • وهكذا وصلت الى هذه النتيجة وهى أن فلسفة التاريخ الحقيقية ذات طبيعة أخروية ، أى انه ينبغى أن نفهم العملية التاريخية فى ضوء النهاية ، ومن ثم فان فيلسوف التاريخ تحدث كما يتحدث نبى ينتقل من المجهول الى المعلوم ، لا من المعلوم الى المجهول •

هناك علم للآخرة ورؤيا فرديان ، وهناك علم للآخرة ورؤيا تاريخيان ، بيد أن الاثنين يتشـــابكان ، فالتاريخ والنهاية هما تاريخى الخاص ونهـايتى الخاصة ، كما أن تاريخى الخاص ونهايتى الخاصة يؤثران فى مجرى التاريخ ونتائجه كلها • بيد أن هذا التفاعل المتبادل لا يسمح بتعريف قاطع محدد ، لأن هناك صراعا فاجعا بين التاريخ بحركاته وعوامله المركبة ، والانسان بمصيره الشخصى الفريد الذى لا يرد الى شىء غيره • وقد ألفيت نفسى مقاوما دائما لضغط العمليات التاريخية بسبب عدائها وقسوتها تجاه الانسان ، ولأنها تنشأ وتنمو من أجل غايات لا انسانية ولا شخصية • فلابد للتاريخ أن يصل الى نهاية مادام عاجزا عن حل مشكلة الشخصية داخل حدوده ، ولأنه يفضى الى ما وراء تلك الحدود • وهذا جانب من جوانب موضوع « التدوين التاريخى » •

ويتميز الجانب الآخر بتجربة جعل الانسان نفسه والتاريخ شيئا واحدا · فانا لا أستطيع أن أنتزع نفسى من العالم ، ومن الانســانية ، ومن الحركات الاجتماعية والثقافية فى هذا العالم ، ومن الماضى والحاضر والمستقبل · والتاريخ يحتل مكانه داخل نفسى ، لأننى لست حقيقة منعزلة قائمة بذاتها ولذاتها ، بل أنا عالم مصغر وادراكى لمعنى التاريخ اذن يتضمن هاتين التجربتين : تجربة طابع التاريخ المعادى لنا والغريب عنا ، وتجربة اندماجى فيه · والتوتر الكامن فى هذه التجربة المزدوجة لا يزول الا فى نهاية التاريخ ، وهذا معناه انتصار على كل احالة موضوعية وكل مباعدة لنا ـ انتصار يبطل معه أن يظل الانسان مجبرا من الخارج · ومهما يكن من أمر ، فنحن فى خطر احالة النهاية نفسها احالة موضوعية ، وتصورها على أنها تتم فى الزمان التاريخى · والواقع أن ما يتجاوز التاريخ لا يمكن ربطه بالتاريخ بحدود تاريخية بحتة · والاخفاق فى تبين ذلك حجر عثرة فى كثير من المحاولات لتأويل سفر «الرؤيا» ، وقد لانستطيع الاستغناء كلية عن الزمان عندما نفكر فى نهايته ، ومع ذلك فلا يمكن أن تكون هذه النهاية مجرد جزء من زماننا المنقطع ، بل انها تنتمى الى نظام آخر من الوجود ، وينبغى أن تكون نهاية الزمان نفسه اذا كان لابد أن تكون نهاية على الاطلاق ، وأيا كانت الصعوبة التى تواجهنا عند التفكير فى شىء أخير بصورة مطلقة · وهكذا يقسم ملك الرؤيا انه لن يكون ثمة زمان بعد ذلك ، وسيل الزمان علامة على حالة عالمنا الساقطة الممزقة : « والسماء الجديدة والأرض الجديدة » يؤذنان بالانتصار على هذا السيل الزمانى الممزق الذى يشطر الوجود الانسانى الى لحظات وتجارب برانية ، ويبدء زمان آخر اطلقت عليه اسم « الزمان الوجودى » وهو زمان لا يخضع للمقاييس الرياضية والفلكية ·

النهاية اذن ليســت حادثة بين غيرها من الحوادث ، بل بنها كل حادثة تستمد دلالتها عبر سلسلة اللحظات الممزقة ، ونحن نجربها ونحياها فى كل مرة يحركنا اندفاع القوى المتعالية · ونحن أقرب ما نكون اليها لحظات من حياتنا الشخصية ومن حياة الشعوب ، فى الحروب والثورات ، فى النشوة الخلاقة ، فى مشارفة الموت · ونحن نلتقى فى مناقشة هذه المشكلة بذلك النوع من الصعوبات نفسه الذى واجه « كانت » فى نقائضه الكونية · فنهاية العالم والتاريخ داخلة فى العالم والتاريخ وتتجاوزهما فى آن واحد · وليس لهذه النقيضة معنى اذا أصررنا على التفكير « موضوعيا » وفى حدود أشياء أو موضوعات يستبعد بعضــها البعض الآخر ، ولكنها تصبح ذات معنى عندما نفكر فى حدود الذاتية الوجودية التى يتداخل « هذا » العالم والعالم « الآخر » بالنسبة اليها تداخلا متبادلا ·· والعالم « الآخر » معناه طريقة للحياة وخاصية للموجود يمارسان قوة محولة مضيئة ، ويصدان تيار الزمان الذى يعمل عمل التفكك · ولا يمكن التعبير عن

عملية التسامى هذه بمصطلحات العلة والمعلول ، والتقدم الضرورى ، والثورة، لأن هذه المصطلحات هى أيضا احالات موضوعية وتزييفات لفعل الله والانسان الخلاق • وينبغى أن يقال هذا نفسه عن الغائيات الالهية • ففى هذه الحالات جميعا ينظر الى التاريخ باعتباره شيئا سلبيا تصوغه قوة تعمل عليه من الخارج، وتستحيل الحرية الى وهم أسيان •

ولعل بعض الناس ما برحوا يخدعون أنفسهم بفكرة أن الناس يصيرون أغنى وأغنى، وأنهم يستمتعون بوقت أحسن وأحسن بفضل تلك القوة الغامضة المسماة التقدم ، غير أن بعض الناس لا ينخدعون بهذا اليسر • فأنا أيضا أومن بالتقدم ، بيد أن التقدم الذى أومن به تقدم مستمد من الاعتراف بامكانية الافعال الخلاقة الحقيقية فى التاريخ ، وليس مستمدا من النزعة الطبيعية الثورية أو من الحتمية • غير أن التقدم لفظة مضللة • والتاريخ يمدنا بمسرح للصراع الفاجع الذى يشتبك فيه كل من الخير والشر فى سباق يتزايد ويشتد باستمرار • وهذا هو ما يحرك التاريخ ويحثه نحو النهاية التى سوف يتحول فيها الزمان التاريخى الى زمان وجودى •

والانسان قد سمر الى صليب الزمان بمتناقضاته المعذبة ، ولا يستطيع أن يحتمل سيره الذى لا ينتهى ولا يرحم فى الظاهر • وقد عرفت لحظات من نفاد الصبر اليائس تجاه الزمان ، اذ كنت لا أستطيع أن أستغرق تماما فى لحظة من لحظات سيره الذى لا يلين • وكم كنت أود بجدع الأنف أن أسرع وأستبق النهاية ، لا النهاية التى يجلبها الموت ، بل النهاية عبر الزمان فى العلو والأبدية• وهناك خصومة محرقة مميتة بين « هذا » و « الآخر » ، وكان « هذا » — حتى ولو كان « هذا » الذى يخصنى — هو الذى جعل يطاردنى كقوة خارجية غريبة معادية •

ويميل التقدميون المتحذلقون المثقفون الى الارتياب فى الموقف الأخروى لأنهم يزعمون أنه يفضى الى الجمود والى تحويل الانسان بعيدا عن مهمته التاريخية • بيد أن هذا لا ينطبق مثلا الا على الرهبنة الزاهدة أو على بعض أشكال النزعة الرؤياوية مثل تمجيد « قسطنطين ليونتييف » و « فلاديمير سولوفييف » الأخير للافلاس التاريخى • والاحوال الرؤياوية خليقة بأن تدفع الناس الى الركود والانهزامية • وأنا أبعد ما أكون عن مثل هذه الاحوال ، وقد كافحتها دائما • ويقع كثير من الناس ضحية للاضطراب الأخروى لأنهم لا يستطيعون احتمال تجربة أفول عصر يرتبطون به بكل ضروب المصلحة ، والخوف ، والالتزامات الخاصة ، مما قد يدفعهم فى الوقت المناسب الى نشاط شديد ذى طابع سلبى الى أقصى حد

وانى لأكثر عطفا فى هذه المسألة مع « فيودوروف » ، عنى مع «سولوفييف» أو «ليونتييف» ، لأن « فيودوروف » يؤمن بفعل الانســـان الخــلاق وبالحكم الأخير ، الذى ليس حكما الهيا فحسب ، بل حكما انسانيا كذلك : فهو فعل الهى ــ انسانى سوف يحدث انقلابا فى الزمان ، وسيكون فعالا من حيث علاقته بالماضى والحاضر والمستقبل على السواء ، وفلسفة « فيودوروف » تفسدها نزعة طبيعية وطوباوية متطرفة ، بيد أن فيها قدرا كبيرا ينبغى الاحتفاظ به ، لاسيما احساسه غير المألوف بالمسئولية الاخلاقية ازاء التاريخ · ولقد كان « فيودوروف » ــ الذى لم يعرف ويقدر الا قليلا فى أثناء حياته ــ نبيا روسيا صادقا يبحث عن خلاص شامل ، وتستبد به عاطفة طاغية هى التضامن الذى لا حد له مع مصير البشرية ، والشوق الى افتداء التاريخ · ولست ميالا الى اعتقاد «فيدوروف» المتفائل نوعا ما فى « القوة الدينية » التى يتمتع بها التاريخ والمعرفة الفنية ، ولكنى أتفق معه فى تفسير الوحى بمصطلح القدرة الخلاقة الالهية ــ الانسانية، وفى النظر الى المجىء الثانى للمسيح بقوته ومجده باعتباره متوقفا على الفعل الخلاق للانسان · وربما كان من الممكن أن ننتظر انتظارا سلبيا حكم ألوهية منتقمة ، بيد أن مثل هذا الموقف لا يتفق مع المجىء الثانى ، الذى يعد الكشف الأخير عن انسانية الله · والانتقال من المسيحية التاريخية ، أى من المسيحية التى توجد على هذا الجانب من النهاية ، الى المسيحية الأخروية التى تتنبأ بنهاية عالمنا المأخوذ هذا ·· لليس ذلك الانتقال مرحلة خوف وركود اوحباط ، بل مرحلة جهد متجاسر خلاق ·ولقد صارت المسيحية التاريخية باردة نثرية الى درجة لا تحتمل ، ويتألف نشاطها فى معظمه فى أن تكيف نفسها مع ما هو شائع ، ومع النماذج البورجوازية وعادات الحياة · غير أن المسيح قد أتى ليشعل النار الالهية على الأرض ، وماذا يكون عمله ، اذا كانت هذه النار قد أضرمت فعلا ؟ ان هذه النار لن تضرم حتى تتوهج نار الانسان ·

حاولت فى مكان آخر أن أبين أن الأخلاقية الوحيدة الصحيحة هى الأخلاقية الأخروية (أنظر : « مصير الانسان ») · فكل فعل أخلاقى من الحب والرحمة والتضحية يعجل بنهاية العالم الذى يسوده الحقد والقسوة والأنانية · وكل فعل خلاق يجر فى أعقابه نهاية مملكة الضرورة والعبودية والجمود ، ووعدا بعالم جديد « آخر » تتكشف فيه قوة الله فى الحرية والحب · فاذا كان الله يبدو قاضيا يعاقب ويثيب مخلوقاته فيبعث بهم الى الجنة أو النار ، فليس ذلك الا اسقاطا لقوانين هذا العالم الموضوعى المستعبد وعاداته على العالم « الآخر » ، عالم الحرية والجوانية ، وبالتالى تزييفا لهذا العالم « الآخر » · وليس يوم القيامة والحســـاب الأبدى غير المرحلة الأخيرة فى طريق هذا العالم الهالك الساقط الذليل الواقع على هذا الجانب من النهاية · أما عبر هذه النهاية فلا

فناء ولا عبودية ، بل حرية · العالم يسير اليومها·تتصـــديـشع٥مـــلا·ماف كان ذلك حقاً هو قانون هذا العالم الذى لا يلين · بيد أن هذا لا يعنى أن الانسان ليس خلاقا الا بالادانة ، وأن طريق الفضل والحرية مســـدودان أمامه الى الأبد ·

ومع ذلك ، فكلما اشتد الشعور الأخروى ، ازداد الوعى عمقا بأن جميع المواقف الوسط التى يتخذها الانسان فى التاريخ والمجتمعات والمدنيات تتهددها النهاية ، وأن غشاءها الرقيق لا تتم المحافظة عليه الا بالقواعد والمواصـــفات الخادعة الغادرة · ويثير هذا لدى الكثيرين احساسا بالقنوط والكآبة · ان حكما رهيبا معلق فوق التاريخ والمدنية ·· هو ذلك الحكم الوشيك على سبلهما الانسانية ، الانسانية جدا · ويظهر التاريخ علامات دائمة على سقوط مميت من الانسانى أو الانسانى — الالهى الى ما هو ادنى من الانسان ، أو الى ما هو شيطانى · ومن غرائزه الوثنية والشيطانية يلجأ الانسان الى قوة جنية حقيقية لا تلبث بدورها أن تسيطر عليه · و « الوحش الذى يخرج من البحر » صـــورة كشفية موحية بالمحاولات الشيطانية الأخيرة التى تقوم بها مملكة قيصر للسيطرة على الانسان والعالم واستعبادها · وانتصار « الحمل » على «الوحش » هو انتصار الحرية والحب على القوة والحقد · وسيقذف بالوحش مرة أخرى الى قرار الجحيم ، تقيده الأغلال ، لا الى الأبد ، بل الى وقت ما ، لأن جهنم شىء يبقى فى الزمان ، وكل من تستولى عليه أحلامها المزعجة لا ينتقل الى الأبدية ·

وما أفظعها سخرية أن يسقط علم الآخرة المسيحى التقليدى كوابيس الزمان الجهنمية على الأبدية ! اذ لا يمكن أن يكون ثمة استعمال لأسم الله اكثر عبثا وأبعد عن الاحتمال · انما أومن بالله لأنه المنتصر على الجحيم ، ولأن الجحيم يختفى فى أعماق أبدية الله التى لا سبيل الى سبر غورها والتعبير عنها · وانى لأؤدى الصلاة كل يوم من أجل هؤلاء الذين يقاسون عذابات السعير ، وبهذا الفعل أفترض أن تلك العذابات ليست أبدية ·

كنت أقرأ فى الأعوام الأخيرة كتبا كثيرة جدا عن النقد التاريخى والدينى ، فكان يعترينى أحيانا شعور يكاد يكون ابتهاجا بالامكانيات التى يسرتها المناهج النقدية ، لا فى تنقية المواد التاريخية فى الدين المسيحى فحســـب ، بل فى تحطيم بالونات الأوهام الدينية والمعلومات الدينية اليقينية المفترضة أيضا · غير أن هذه المناهج تضع كذلك عددا من المشكلات الميتافيزيقية العميقة الخطيرة · فأنا من ناحيتى لا أستطيع أن أربط ايمانى بوقائع هشة يشـــوبها الالتباس وعدم اليقين ، وتتعلق بالزمان التاريخى · وكم من روح قد فقدت ايمانها على الرمال

الخادعة لتلك الوقائع التاريخية · وهنا يتدخل الوحى الالهى ويسطع من ثنايا التاريخ ، بيد أنه ليس كشفا تاريخيا ان شئنا الدقة ، بل على العكس ، أنه يؤذن بانتصار على الكشوف التاريخية ، والأحكام التاريخية كافة ·

* * *

وأنا لم أشك مطلقا فى وجود الله ، حتى حين انكره ، أو ربما كان شكى فيه أقل مايمكن حين أنكره · وانسان لم ينجح فى اغتيال الله ·· بيد أننى كنت أشعر فى معظم الأحيان بغياب الله عن العالم ، وهجران الله للانسان والعالم · والحق أن هجران الله للمجتمعات والمدنية الانسانية هو التجربة الأساسية للعصر الذى كان من نصيبى أن أعيش فيه ، وهو عصر انتصار القدر الأعمى الذى لا يعرف الرحمة · وقد كرست كثيرا من تفكيرى للطرق والوسائل التى اكافح بها ذلك الالحاد المحارب ، ومقاومة غوايته ، وانتهيت الى الاقتناع بأن المناهج التقليدية الشائعة للاعتذار عن الدين لا تنفع الا فى تأييد الالحاد ، وتقديم حجج قوية الى جانبه · والصعوبة التى يواجهها المسيحيون التقليديون ليست هى كيفية الدفاع عن الايمان بالله ، بل كيفية الدفاع عن فكرتهم عن الله وعن عنايته فى العالم · ولا يسعنى فى بعض الأحيان الا التفكير فى أنهم يحاولون ــ فى الواقع ــ الدفاع عن الشر وتبريره ، لا الدفاع عن الله وتبريره ·

وقد شرحت آنفا الأسباب التى أفضت بى إلى اطراح فكرة الله باعتباره سيدا وحاكما لهذا العالم · ذلك أن هذا العالم لا يحكمه الله بل أمير العالم ، وحكمه ناجح نجاحا باهرا · أما الله ، فانه يحكم ملكا آخر لا يقاس اطلاقا الى جميع الأشياء التى يعزوها هذا العالم اليه · وليست العناية الالهية فاعلا يمكن قياسه بالمصطلحات الطبيعية ، بل شيئا نحياه فى أعماق الروح الانسانى الحر · فاذا أدركنا ذلك ، انهارت حجة الالحاد الرئيسية التى توجه فى الواقع الى اللاهوت والغائية الطبيعيين الموضوعيين ·

وليس الله واقعا خارجيا ، وليس شيئا أو موضوعا قادرا على ممارسة تأثيره من الخارج · أنه كامن فى ، وهو كما قال القديس أغسطين ، « أقرب الى من نفسى » · غير أن البطون والمفارقة مصطلحان رمزيان على السواء · ولا يقصد بهما الاشارة الى علاقات مكانية بل يقصد بهما أن يتجاوزا تلك العلاقات ، وتحريرنا من عبودية التفكير الموضوعى الذى يرى كل شىء خارجا عن كل شىء آخر ، وهذا هو السبب الذى أحبذ من أجله التمييز بين الدين «الجوانى» والدين « البرانى » · وفعل الوحى فعل مزدوج ، ويتم على مستويين ، فهو صادر عن الله الذى لا يمكن أن يستحيل إلى أية مقولة مأخوذة من هذا العالم ، ولكنه متوقف أيضا على الانسان المتلقى بكل ما فيه من نقص وقصور · والانجيل

نفسه يعكس هذا الطابع المدوج للوحي ، ويمكن أن نشاهده مثلا فى الاختلاف الواضح بين السمو اللامتناهى لشخص السيد المسيح وسلوكه من جهة ، ومعظم تعليمه بضـــرب الأمثال من جهة اخـــرى ، وبكل ما فى هذا التعليم من ملوك منتقمين ، وأسياد ، وأصحاب الأراضى والعقارات ، وبكل ما فيه من بكاء وعض على النواجذ ، ونيران لا تخمد، وديدان لا تموت ٠ وقد أظهر المسيحيون ميلاً عجيبا للتمسك بهذه الأمثال لتدعيم حقدهم الخاص ٠

وهذا يثير السؤال : هل من الممكن بعد تفســـير المسيحية باعتبارها دين الخوف والارهاب ؟ والحق أن الناس فى هذه الأيام يسيرون فى خوف عظيم من هذا العالم الى درجة لا تسمح لهم باعتناق دين للخوف والفزع ٠ومهما يكن من أمر ، فلا ينبغى أن ننسى أن تلك الأمثال موجهة الى عامة الشعب فى ذلك الزمان ، أولئك الذين يتعذر على افهامهم الحب النزيه لله ، ولما هو الهى ٠ وكانت هذه الأمثال تلقى مع مراعاة حدود العقل الانسانى والقلب الانسانى ، وعلى هذا النحو ، فان طابعها برانى ٠ وكان صوت الله يسمع من خلال الوعى الانسانى الناقص الغفل ، وجمهرة البشر لا يفقهو نلغة اخرى ، ولا تشاهد الحقيقة الا من خلال مرآة معتمة ، ومعتمة جدا فى الواقع ٠ غير أن صورة المسيح الصادقة تتعالى على الصورة التى تتضمنها الأناجيل ، اذ تقدم هذه انكسارا للصورة فى مرآة التحديدات الانسانية المعتمة ٠

وانى لأعتقد أن أعظم ثورة أحدثتها المسيحية هى الكشف عن انسانية الله ٠ وهذه الحقيقة المسيحية عن انسانية الله ــ متضمنة فى العقيدة المسيحية ، فى الواقع ، غير أن مغزاها ظل خافيا على عقل العالم المسيحى الذى يعتمد على صورة أقل شأنا من انسانية الله ، يتكيف فيها الله ــ تربويا ــ وفق مقتضيات الطبيعة الساقطة ٠ بيد أن علم التربية الذى يلائم عصراً ما ، قد يصبح غير ملائم ، بل ضارا بعضر آخر ٠ وقد دخلت الانســـانية مرحلة لم تعد الأفكار الدينية فيها ، أيا كانت دقتها ومغالطاتها ، من مكافآت وعقوبات ، ومن صفقات شرعية ، ومن حكم اخلاقى وأخروى للرعب ، لم تعد هذه الافكار قادرة على انقاذ الوجود الانسانى الذى يتهدده العالم ويعمل على تمزيقه ٠

واسمى دفاع عن الله موجود فى الانسان نفســه ، وفى مســـالك الوجود الانسانى ٠ ففى هذا العالم الانسانى الناقص ، ظهر أنبياء ورسل وشـــهداء وقديسون ، ووجد فيه رجال ونساء عاشوا فى حضرة أسرار الحياة والموت ، وبحثوا عن الحق ، وكرسوا أنفسهم لخدمته فى نزاهة ، رجال ونســـاء أبدعوا الجمال وكانوا به متحلين ، رجال ونساء أقوياء فى الروح ، أحرار فى النشـــوة المبدعة ٠ وهذا العالمقد احتوى ــ قبل كل شىء ــ المظهر الأسمى للحقيقة الالهية

وأعنى به صلبها فى العالم وبالعالم · وقد لا يثبت الله هذا كله ، ولكنه يعلن عنه فى انسانيته الالهية ، وهذا الصراع اللفظى الذى استغرقرنا بأكمله بين اللاهوت والميتافيزيقا لم يسبب لى غير العناء ، ولم يقنعنى ، أو يقنع أحدا غيرى بصدق قضية واحدة من قضاياهما الدينية · وانى لأشعربتقزز حقيقى من مشاحنات اللاهوتيين الدجماطيقيين (القطعيين) ومماحكاتهم ·· أما بالنسبة لتاريخ العقيدة المسيحية والمجالس المسكونية ، فقد لا يفوقها فى التعبير عن الصغار الانسانى والخداع والغش ، غير أشياء قليلة ·

وقد اتهمنى بعض نقادى الدينيين المخلصين بأننى أكثر ايمانا بالفلسفة منى بالدين ، وأنا « فعلا » فيلسوف ـ رغم ما قد يبدو لهم فى ذلك من غرابة ، ولا أستطيع أن أرى ـ بكل ما أملك من نيات طيبة ـ أى شىء يحط من نفسى عندما أسمى ما أقوله أو أكتبه « فلسفة » · بل أتجاسر فأقول ان فى الفلاسفة شيئا اكثر تواضعا منه فى اللاهوتيين ، الذين يصدموننى أحيانا بانعدام الحياء منهم بصورة لا نظير لها · ومن المؤكد أن ما كتبته فى هذا الفصل أو فى غيره قد يتجاوز حدود الفلسفة المتعارف عليها ، وبعد اعترافا بالايمان : والحق أن هذا الايمان منبث فى حنايا فلسفتى التى تولدت عن تجربة روحية ، ولم تستنبط من مقدمات أكيدة يقينية ، كما أننى لا أستطيع أن أبدأ حتى فى التفكير فلسفيا فى غياب هذه التجربة الروحية الباطنية ·

وبتحول النتيجة العملية المستمدة من هذا الايمان الى اتهام للعصر الذى أعيش فيه ، والى اهابة بأن نكون انسانيين فى أكثر العصور لا انسانية ، وأن نصون صورة الانسان ، لأنها صورة الله · والرأى المنحط عن الانسان الذى يعد السمة البارزة لعصرنا لا يستطيع أن يزعزع ايمانى به ، ايمانى بالصورة الالهية والفكرة الالهية للانسان · وتتبدى لى الحياة باعتبارها سر الروح ، وبوصفها دراما يناضل فيها الانسان بمجهود متواصل ، لا طائل وراءه ، لتجسيد رؤية روحه الخلاقة · وأنا على وعى بعضويتى فى كنيسة المسيح الصوفية ـ وهى رابطة أقوى من كل احتجاجاتى ومشاحناتى مع الكنيسة فى مظاهرها الخارجية التاريخية والاجتماعية · ويكمن معنى الحياة فى عودة الى سر الروح الذى يولد فيه الله فى الانسان ، والانسان فى الله · بيد أن هذه العودة ليست ارتدادا الى البراءة الأولية ، بل عملية خلق تضم بمعنى ما جميع التجارب والمحن والآلام التى اكتنفت مصير الانسان · والأبدية تتجاوز « الوراء » و « الأمام » المتنازعين ، فهى تتضمن الواحد كما تتضمن الآخر · بيد أن « الروح » وحدها ، روح الثالوث الالهى ، وروح الانسان هى التى يمكن أن تكشف عن الله لنفسه وللانسان ·

الفصـــل الثانى عشـــر

بصدد معرفة الذات · حدود معرفة الذات ·
خاتمة الترجمة الذاتية

فى « الذات » يكون فعل المعرفة وموضوع المعرفة شيئا واحدا بعينه ، كما حاول «فشته» أن يبين ذلك · وليست الشخصية الانسانية موضوعا جاهزا ، وانما يخلقها الانسان ، وعلى الأخص فى معرفته لنفسه ، لأن « الذات » فعل فى المقام الأول · وقد فطن اليونان الى أن بداية الفلسفة تكمن فى معرفة الذات ، والتفت الناس خلال تاريخ التفكير الفلسفى كله ـ الى معرفة الذات باعتبارها الطريق الى معرفة الحقيقة · ولكن ، هل كانت معرفة « الذات » هذه ، معرفة بالذات الانسانية العينية الفريدة التى لا تتكرر ، أم كانت مجرد معرفة « عن » الانسان ، الانسان عامة ، أو النوع المسمى بالانسان ؟ يبدو أن موضوع الفلسفة ـ حسب المفهوم الشائع ـ لم يكن هو معرفة ما يوجد ، وانما معرفة ماهية ما ، بمعزل عمن تتحقق فيه الماهية · وكان ينظر الى الذات العارفة بنفسها باعتبارها عقلا أو عقلا كليا ، وموضوع معرفتها هو الانسان عامة أو الذات عامة · ولم يتخلف بذلك أى أثر للانسان ذاته العارف بنفسه · كل ما تخلف هو الملامح المشتركة أو الحدود العامة التى تنطبق على الناس جميعا ، ولكنها لا تعبر عن سماتهم الفريدة · وعلى الرغم من عبارة « اعرف نفسك » المنقوشة على معبد دلفى ، فان الفلسفة اليونانية لم تتطلع الا الى معرفة الصورة الموضوعية التى لا تتغير باعتبارها الشـــىء الوحيد القابل للمعرفة ، وتتألف قيمة المعرفة من الضوء الذى تلقيه على الكيانات (جمع كيان) الكلية والجوهرية · بيد انه على هذا الافتراض لا يمكن أن تقوم أى معرفة حقيقية بالذات ·

ولكى نرى كيف تنشأ المعرفة الحقيقية بالذات ، وما هى هذه المعرفة ؟ ينبغى أن نترك وراءنا الفكر اليونانى وورثته فى الفلسفة التالية على المسيحية ونلتفت الى الاســــتثناءات : الى « اعترافات » القديس « أغســـطين » ، والى « باسكال » و « دوستويفسكى » و « كيركجور » و « اميل » ، والى كل هؤلاء

الذين آثروا فى اصرار وتحد ـ الذات على الموضوع بتحديداته الساحقة الصارمة.
بيد أنه حتى هنا يبدى العقل الانسانى ميلا محتوما الى احالة الاستبصارات التى ظفر بها الانسان من معرفته بنفسه احالة موضوعية • والعلامات الوحيدة للقضاء الفعال على النزعة الموضوعية نراها فى الاعترافات واليوميات والتراجم الذاتية ، والمذكرات ، ونراها حديثا فى الروايات التى لا تصف أنماطا أو مواقف عامة ، بل تسجل تجارب ذاتية خاصة ، هذه التجارب وحدها هى التى تقوم بعملية التنوير • والحق أن الرؤية قد أخذت تصبح بصورة متزايدة الوثيقة الفلسفية التى تعد أكثر الوثائق دلالة ، وصارت ـ بكل تأكيد ـ أكثر الاشكال الدالة لمعرفة الذات معرفة فلسفية • ويرجع تعلقى بالفلسفة فى بداية الأمر الى « دوستويفسكى » الذى تضمن عمله الخلاق نتائج أنثروبولوجية وميتافيزيقية بعيدة المدى •

ولكن عندما تنظر الذات العارفة الى نفسها باعتبارها موضوعا للمعرفة ، فانها تضل فى متاهة من الصعوبات ، كانت مصدرا لكثير من النقد والمغالاة • اذ تكتنف كل محاولاتة للنظر الى الذات أخطار التحيز والغرور والادعاء والهوى • ولست أدرى ، هل نجحت ـ فى كتابتى لهذا الكتاب ـ فى الجمع بين الذاتية والصدق ، وبين الاستبطان والنزاهة ، أم هل ثبت أن حدود المعرفة بالذات ، عقبة كأداء فى حالتى ، كما هى فى الحالات الكثيرة الأخرى ، هنا خطر الاحالة الموضوعية ، ومن ثم خطر التزييف ـ فى الفعل نفسه الذى ننظر به الى أنفسنا سواء عن طريق تمجيد الذات أو انكارها ، لأن الصورة الممجدة أو المتواضعة التى ارسمها لنفسى لا يمكن أن تكون هى حقيقة ذاتى • والواقع أن معظم التراجم الذاتية ما هى الا أشكال من الأسطورية الذاتية التى تكمن تحت قشرتها المكونة من التواضع والصراحة ، طبقة كثيفة من الغرور، أو حتى من «العاطفية» التى لا يؤذى ملمسها • واذا كان مؤلفو هذه التراجم الذاتية يرسمون على وجوههم ملامح ملائكة البراءة الذين يطئون بأقدامهم حيث كان الحمقى يخافون المسير ، فانهم قلما يتحاشون فى الواقع تلك التهمة الموجهة اليهم بأنهم ليسوا أبرياء على الاطلاق ، بل بارعين يحسنون التقدير بطريقة حاذقة نوعا • وقد أردت أن أكون صريحا صادقا فى هذا الكتاب ، ولكننى لا أعلم هل نجحت فى ذلك أم لا •
واذا كنت أدعى الصدق ادعاء ما ، فذلك لأننى أعجز عجزا تاما عن القيام بدور الممثل على أى مسرح كان ، ولو كان مسرح الحياة • وبعض مؤلفى التراجم الذاتية يكتبون بفكرة ثاقبة عما سوف يبدو لهم شائقا مؤثرا اذا عنوا بقراءته مرة أخرى ، وقد أعدت قراءة هذا الكتاب ، بيد أن الانطباع الذى تركه فى نفسى هو عدم الارتياح لأسلوبه المتعرج الذى يخلو من كل رشاقة ولمادته القاصرة •

كتب « نيتشه » فى كتابه « ما وراء الخير والشر » قائلا : « ماذا نستطيع

أن نصف ؟ وا أسفاه ·· لا شيء الا ما بدأ يذوى ويفسد » · ويقول « سان بيف » عن مذكرات « شاتوبريان » : « لقد استبدل المشاعر التى تجول بنفسه ساعة الكتابة « بالمشاعر التى كانت لديه حقا فى اللحظات التى يرويها » · وثمة تفاوت اليوم بين أعمق أفكارنا وبين التعبير الخارجى لها · والزمان والذاكرة يخدعاننا دون أن نفطن الى ذلك · والانسان مخلوق ماكر ، ومع ذلك ، فمن السهل تضليله وانخداعه بايحاءاته وافتراضاته اللاشعورية الخاصة به · ولو كنت متسقا مع نفسى لما تحدثت أو كتبت على الاطلاق · غير اننى أملك الشجاعة على أن أكون غير متسق ، كما لا أستطيع أن التزم الصمت · وما من أحد استطاع أن يعبر هذا التعبير اللاذع عن مأســـاة الكلمة المنطوقة كما فعل « تيوتشف » حين يقول :

كن صموتا ، واحجب نفسك ، ودع حلامك
وأشواقك تشرق وتغرب فى حنايا قلبك ،
اطرح كنوزك جانبا ، حتى تتمكن نجوم الليل العميق
من النفاذ فى بهجة الى روحك ·
كيف يستطيع الفؤاد أن يجد التعبير عنه ؟
وكيف يستطيع انسان أن يقرأ ما يجول بعقل غيره ،
او أن يعرف شخص آخر ما به تعيش ؟
الفكرة المنطوقة ليست غير اكذوبة ،
واذا تحركت ، عكرت ماء الجدول ·
فاغتذ على أحلامك ،
ولا تحرك ســــاكنا ·
عش فى نفسك ، فهناك عالم باكمله
من الوجود يموج داخل روحك ··
عالم من الفكر ، والأفكار المسحورة ،
غير أن الضوضاء التى تنبعث من الخارج
تصيبها بالصمم ··
ووهج النهار يصيبها بالعمى ، فتنقطع
اغانيها ·· أواه ·· اسكت ، وانصت !(١)

---

(١) ترجمهـا فرانسيس كورنفورد فى كتابه « أشعار من الروسية » (طبعة فابر آند فابر) ·

وقد تم أخيرا كشف لا يعد مذيرا كل التنوير ، وهو أن الكتاب يكتبون الكتب ، والمصورين يرسمون اللوحات ، والموسيقيين يؤلفون الموسيقى ، لا ليكشفوا عن أنفسهم ، بل ليحجبوها ، أو ليعبروا عن عكس ما يفكرون فيه ويشعرون به ، وما هم عليه فعلا · وقام « نيتشه » ، و «كيركجور» و « كافكا » والرواية النفسية ، ومدرسة التحليل النفسى على وجه الخصوص ، بتموين رواد هذا الكشف واتباعه بالذخيرة اللازمة · ليس الانسان هو ما يقوله الانسان عن نفسه · هذه الحقيقة الجزئية قد استخدمها « ليو شستوف » واستغلها استغلالا سيئا ، وهو الاستاذ البارع العظيم فى التورية والمفارقات · ومهما يكن من أمر ، فان صحة هذا الكشف مما لا يمكن انكاره ، اذ ينبغى ألا يعرف الانسان « من أعلى » فحسب ، بل « من أدنى » كذلك ، أى فى أبعاده الكامنة المدفونة تحت الشعور · وهكذا أصبحت النظرية المسيحية القائلة بالطبيعة الانسانية الخاطئة ــ وهى النظرية التى تحولت بسهولة فى الماضى الى تجريد لاداعى له ــ أصبحت هذه النظرية شيئا عينيا ملموسا ، واكتسبت طابعا أقرب الى العلم · وكانت نظريات « ماركس » و « نيتشه » و « فرويد » و « هيدجر »، وكشوف الرواية الحديثة ، وتجارب الحرب والثورة ، والمظاهر المعروفة وغير المعروفة من أشكال القسوة، مع الميل الحديث الشامل الى تزييف كل شىء ، كان هذا كله سببا فى تبديد الافكار المغالية فى قيمة الانسان · و مع ذلك ، أعتقد أن « بسكال » و « دوستويفسكى » كانا أقرب الى الحقيقة ، وأقل تعرضا للاوهام فى اظهارهما للانسان على أنه كائن مزدوج ، وضيع نبيل ، ومنحط متسام فى الوقت نفسه · وقد عرفت آمالا كثيرة تمشى فيها الفساد ، ورأيت كثيرا من الوضاعة والزيف واللؤم والقسوة والخداع ، وعانيت العديد من خيبة الأمل فى الرجال ، وكنت أنا نفسى سببا فى خيبة أمل الكثيرين · ومع ذلك ، فقد احتفظت بايمانى فى الانسان ، وبفكرة الله عن الانسان ، لأن الايمان بالانسان هو العلامة المميزة للايمان بالله وبما هو الهى ·

ولا أعتقد من ناحيتى ــ أو على الأقل فيما يختص بهذه الترجمة الذاتية ــ أننى موضوع مناسب أو واعد للتحليل النفسى · فعلى الرغم من عزلتى وتحفظى، لم أحاول عامدا أو غير عامد ــ اخفاء نفسى فى أى شىء كتبته · وهناك أمور عديدة فى حياتى لا أحاول اطلاقا الافصاح عنها فى هذا الكتاب · فهو ليس اعترافا · ولم أقصد به أن يكون اعترافا أمام قسيس ، أو فى عيادة محلل نفسانى · بل كان هدفى أشد تواضعا ، وأكثر شمولا ، وهو أن أقوم بفعل وجودى فلسفى لمعرفة نفسى ، وللكشف عن معنى طريقى الروحى والعقلى ·

كتب « أندريه جيد » كتابين تحدث فيهما مباشرة عن نفسه : أحدهما روايته التى يترجم فيها عن نفسه بعنوان : « اذا لم يمت القمح » ، و « يومياته »

الحديثة نسبيا . ومن المعروف أن مشكلة « الاخلاص » هى واحدة من المشكلات الرئيسية عند «جيد» اذ يريد أن يكون صريحا صراحة مطلقة ، ويحاول أن يصبح كذلك الى حد الهوس . وكان يبدو له أن التصريح بأقبح الاشياء واشدها نكرا عن نفسه مسألة خليقة بالزهو . ومن المؤكد ان هذا الموقف هو نفسه احالة عقلية، وهو موقف انعكاسى و «عاطفى» ، وليس تلقائيا « ساذجا » . ومع ذلك ، فان هذه الرواية وتلك اليوميات تضيفان بلاشك قدرا كبيرا الى معرفتنا بالانسان . وخاصة انسان العصر الحاضر .

وهناك مثل آخر ، يقدمه لنا « ليو تولستوى » ، وهو من أصدق الكتاب ف الأدب العالمى . غير أن « اعترافات » تولتسوى ، رغم ما تنطوى عليه من تنوير لا مثيل له – أبعد ماتكون عن الاعتراف بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة . اذ يبالغ ف حالته ، فيصور نفسه قاتلا ولصا وزانيا وما شاكل ذلك . وهذه الاتهامات الذاتية ليست أكثر من بطاقات يمكن تعليقها على كل انسان عامة ، أو على لا أحد خاصة . وليست « الاعترافات » ذات أهمية باعتبارها شهادة على آثام عينية فردية تم اقترافها فعلا ، بل باعتبارها قصة رحلة روحية للبحث عن الحقيقة . وبالمثل ، نرى أن « الشعر والحقيقة » لجيته ، مزيج من « الحقيقة » الذاتية ، و « الشعر » ، من الاعتراف والتأويل أو الابتكار . ولا يمكن أن نثق « باعترافات » روسو ثقة تامة ، كما أنها ليست بذات أهمية من حيث أنها تسجيل لأمور ارتكبت أو لم ترتكب (وعلى الجملة ، يبدو أن روسو مسرور بنفسه حتى وهو يعترف بآثامه ومنكراته) ، ومع ذلك فانها تسجل بداية موقف جديد ازاء الحياة العاطفية للانسان .

ومسألة الصراحة والاخلاص كما تبدت لى خلال كتابتى لهذه الترجمة الذاتية لا تختلف عن المشكلة الكامنة وراء كل اعتراف ، وان لم اكن معنيا بالاعتراف بأى شىء لأى انسان . واكرر أن هذا الكتاب محاولة للكشف عن معنى الحياة داخل اطار سيرة من السير . وربما كان انسب عنوان استطيع أن اختاره لهذا الكتاب هو « الحلم والواقع » ما دام ليس – فى نهاية الأمر – اكثر من وصف لصراع اساسى مع هذا العالم واهابة بصورة عالم آخر . ومن ثم كان ذلك الالحاح على الخيال والحرية والابداع – وهى الفاظ ترددت كثيرا على صفحات هذا الكتاب ، وكذلك كان ايثارى لرفض « دوستويفسكى » للعالم وللحرية « الجبل » عند « ابسن » . وقد قللت بدلا من أن أبالغ – من شأن الهوة التى تفصلنى عن الأشياء من حولى ، والتى تفغر فاها فى وجهى حيثما اتجهت : وهذه الأشياء هى الابتذال ، والانسان العادى ، والـ « نحن » و «جميعنا» ، و « العقل الجمعى » وما شاكل ذلك ، ومع ذلك مضيت فى حياتى محوما بين العزلة والاستقلال عن العالم من ناحية ، وبين رغبة عارمة فى

الاتصال الروحى با خوانى البشر . و فى اقامة علاقات اجتماعية حرة عادلة ، من ناحية أخرى • ولا أعتقد أنه من الممكن تفسير هذه المفارقة بمصطلح الفردية أو بمصطلح الميل العاجز لتحويل عاطفة الاتصال الاجتماعى الى مورد فلسفى

ولم أحاول قط أن آغلق على نفسى فى عالم خاص بى – سواء أكان ذلك طواعيه أم كرها ، بل الأحرى ، أننى كنت أرغب فى العثور على مخرج الى العالم الفسيح ، وفى أن أكون حاضرا فى العالم ، وأن أجعل العالم حاضرا فى ، على أن يكون حضورى ذاك محفوفا بالخطر والحرية • ولقد خلق الانسان عالما مصغرا microcosmos ، ورسالته هى أن يعيد خلق الكون داخل نفسه • وقد كان « ماكس شترنر » Max Stirner على حق فى قوله ان العالم كله ملك للمتفرد • غير ان حقيقة هذه القضية كذبتها « انعزالية » شترنر نفسها ، فقد كانت « ذاتيته » الانعزالية انعكاسا ماديا شاحبا ، ومسخا للروح الكونية المصغرة (الميكروكوزمية) التى دعا اليها التصوف الالمانى •

العالم كله مستقر داخل الانسان ، ومتشخص به ، ولا ينبغى اعتبار أى شىء خارجا عنه • غير أن العالم الظاهرى التجريبى كما يتبدى – فى الواقع أمامى – ليس عالمى الخاص ، بل على العكس يفرض نفسه علىّ من الخارج ويحرص على تحطيمى ، ولست الكون المصغر الذى ينبغى أن أكونه • وحالة الانسان الفعلية هى على نحو يجعل من شدة وعية بنفسه مقياسا لعبوديته لعالم غريب عليه ، وهو يثور على هذا العالم حتى يوقف مد ضغوطه المدمرة • وأنا لا أملك فى الواقع العالم والطبيعة والمجتمع التى تقف فى مواجهتى ، وما أملكه ضئيل غير ملموس بالقياس اليها ، ضئيل الى حد أنه يفلت تماما من ادعاءات الطبيعة والمجتمع والعالم بصورتها الاجمالية • ولا أوافق على الخضوع أو الاندماج الا مع الطبيعة أو المجتمع الذى يستطيع أن ينفذ الى نفسى ، ويصبح ملكى الخاص •

هذه هى أرستقراطية الروح الانسانية ، استقراطية هى المقابل تماما لكل تلك العلاقات التصاعدية التى تميز الأنماط المستقرة من الحياة الاجتماعية • ولقد كنت دائما أرى أن كل تنظيم اجتمـاعى ذو طابع غوغائى ، وأن التنظيم الارستقراطى المزعوم للمجتمع ، غوغائى من الطراز الاول ، ان الاحساس بالنظام التصاعدى يرتبط باحساس من الانتماء الى كل ما ، سواء أكان اجتماعيا أم كونيا أم الهيا – كونيا ، حيث يحتل كل شخص المكان المخصص له ، وحيث يخضع للمرحلة الأعلى منه فى البناء التصاعدى ، وتبعا لذلك يتم النظر الى قيمة الشخص الانسانى كما يحددها الكل ، أو العام ، الذى تؤلف جزءا منه • ولا

أستطيع أن أواجه مثلا صارخا على النزعة المعادية للشخصية أكثر من هذا التصور • أما فيما يختص بى ، فاننى أخلو من كل احساس بالنظام التصاعدى، بل لا أستطيع أن أحتمله حين توصف العلاقات الانسانية بمصطلح المرتب الاجتماعية ، أو عندما أسمع اشارات عن شخص ما بانه قد حقق لنفسه « مكانا فى المجتمع » • كما كنت أمتعض متعض دائما من الناس حينما يشيرون الى باعتبارى مالكا لمنزل ، أو رب أسرب ، أو رئيس تحرير صحيفة ، أو رئيس الأكاديمية الدينية ـ الفلسفية • ولم أستطع قط أن أضع نفسى فى مركز الشخص الذى ينظر الى الصفات الحقيقية والمزايا أو العيوب للاشخاص مرتبطة بمركزهم فى المجتمع بأية طريقة كانت • ذلك أن القديسين والأنبياء والعباقرة لم يشغلوا مطلقا مثل هذه المناصب •

وعندما يحدثنى الناس عن « النظام الجديد » الذى لابد أن يتحقق ، وعن أن الانسان سوف يتحرر نتيجة لتغيير فى آلية المجتمع ، اود أن أقول لهم : بحق الله أنعشوا ذاكرتكم ! ان نظامكم الجديد قديم قدم أى نظام آخر • ولم يأت زمان كان الانسان فيه متحررا من المجتمع ، بل كان دائما تحت رحمته •• تحت رحمته الطائفية أو الدينية • على هاذ النحو كان الحال بين القبائل البدائية، وعلى هذا النحو استمر منذ ذلك ، وسيظل هكذا ، بلاشك ، حتى النهاية • سوف ينشأ «نظام» جديد ، على حطام النظم جميعا ، ونتيجة للثورة الفعالة الوحيدة، وهى الثورة الشخصية •

* * *

لست على وعى بأى نظام تصاعدى فى حياتى ، ولا أرى فيها تحقيقا لخطة معينة ، اذ كانت تبدو لى الخطط والنظم جميعا قيدا خارجيــا على حريتى لا استطيع الا ان أرفضه • ولم أحاول قط أن اكيف نفسى للوصول الى اغراض محددة ، وان كنت على وعى شديد برسالتى فى الحياة • ولقد كانت حياتى تبدو لى دائما بمعنى ما ، مضطربة ، لا عقلية ، لا محددة ، فكنت اقدم على المجازفات الضرورية لأن احيا مثل هذه الحياة • وانى لمدين ، معترف بالفضل لعدد كبير من الناس الذين قدموا لى يد المعونة بطريقة او باخرى • وقد كنت أعلم علم اليقين ـ أن قوة عليا تراقب حياتى وترشدها كلما تهددها خطر عظيم • بيد أن الحياة فى احداثها الجارية كانت تذكرنى أيضا بحلم ـ واحيانا بكابوس ـ لا تضيئه غير ومضات عابرة من ضوء النهار • وكلما تركت عينى تتأمل الأشياء التى تحيط بى ، اشتد احساسى « بموضوعيتها » ، وبلا واقعها النهائى ultimate unreality والحسن لهذه الكلمة ، ومن المحتمل اننى مازلت كذلك وعندما كنت أصــغر ســنا من ذلك ، كنت « مثاليا » بالمعنى الصحيح

وقد تكون « المثالية » حقا مجرد أنانية الشاذ المضطرب ، ولكنها قد تنفث الحياة أيضا فى تلك المنطقة من الروح التى يكمن فيها الخيال كأنه منفى لا يعوقه عائق فى بلاط الظــلال · وقد عرفت فيما أقبل من حياتى المســئوليات الرهيبة التى يفرضها علينا الواقع الخارجى بضروراته واسترقاقاته التى لا تلين · بيد أننى لم أستطع أن أبدد احساسى بما تنطوى عليه معرفة هذا الواقع من مرارة ·

وقد لا تكون « الواقعية » أقل زيفا من المثالية · فهناك واقعية لا تأتى بشىء اللهم الا الاذعان لعالمنا الوهمى هذا ، الذى ينبغى على الناس أن يأخذوه على علاته ، على حد اعتقادهم ، ولكنهم فى حقيقة الأمر يحيلونه احالات مثــالية وعقلية فى ثنايا نزعتهم الواقعية · وتنبع كل من الواقعية الحقيقية ، والمثالية الحقيقية ، من الاعتراف بالسر الكامن تحت هذا العالم وعبره ، انها موقف الشخص الذى لا يفصح عيناه عما تعرفان أو عما لا تعرفان · أما ذلك الشخص الذى لا يعرف سرا ، فانه يعيش فى عالم مسطح ، ماسخ ، ذى بعد واحد ·

فاذا لم يدرك الوعى بالسر والعمق واللامتناهى تجربة التفاهة والغثاثة ، لم تعد الحياة قابلة للعيش · وفى الطفولة ، تبدو الأشياء جميعا ـ حتى ولو مجرد ركن مظلم فى الحجرة ـ مشوبة بطابع السر · ويضيق ملكوت السر فيما بعد رويدا رويدا ، ويصير العالم الموضوعى من حولنا أكثر فأكثر ابتذالا ، بل حتى العمق اللامتناهى لليل المرصع بالنجوم يفقد استسراره · أما بالنسبة لذلك الشخص الذى لا يرضخ لهذه الموضوعية ، فان السر يظل قائما وان تحول الى مجال آخر · وفى هذه الحالة ، يكون مجرد ظهور العالم الموضوعى مصــــدرا للدهشـــــة ·

قلت فيما سبق اننى ارفض أن أدرج باعتبارى شاغلا لأى مركز فى العالم سواء أكان مركز رب الأسرة أو زعيم حركة أو مدرسة من مدارس الفكر ، أو معلم حياة · واذا وصفت نفسى بأننى أخلاقى ، فلست أعنى بذلك أننى حريص على تعليم أحد أو اقناعه ·· الشىء الوحيد الذى أرجو أن أضعه هو أن أستفز الناس · وما برحت أعتبر نفسى شابا ، لا أقل من ذلك ولا أكثر · وحتى عندما أحدق فى المرآة ، أستطيع أن المح وراء ملامح الوجه الهرم الذى أنهكته السنون ، صورة شاب ، ولكل انسان مرحلته المميزة الباقية من العمر ، أما أنا ، فمازلت حالما ، وعدوا « للواقع » كما كنت فى شبابى ، ولست أملك شيئا من الحكمة والوقار التى توصف بهما عادة أعوامى السبعين ، فانا الآن أكثر اندفاعا وتأثرا بالانطباعات منى فى أى وقت مضى، وان كنت أشعر من الناحية الجثمانية ، بالمرض والارهاق ، فى أغلب الأحيان ، ولو كنت صادقا مع سنى لكان من المفروض أن أرتاب فى كل شىء ، وأن أصطنع احتياطات لانهاية لها ·

وهذا ما لا أفعله اطلاقا اللهم الا فى قليل من التصـــرفات التى تنم على غرابة الأطوار ، والتى تتميز بها الشيخوخة ، والانحلال الجثمانى ، وخاصة فيما يتعلق بالأدوية ٠

الحياة حركة ، ومن مشكلاتها الأساسية مشكلة التغير الذى يطرأ علينا ، والذى يطرأ على من يحيطون بنا ٠ ونحن لا نســـتطيع أن نتحدث عن الحياة الانسانية الا اذا قسنا جريانها بالتغير ، كما أننا لا نستطيع أن نتحدث عن التغير فى الحياة الا بالقياس الى شىء ما يبقى ثابتا فيها ٠٠ هذا الشىء هو موضوع الحياة ٠ ولقد كتب « كانت » يقول : « ان كل مايتغير يبقى هو نفسه ، ولا تتغير الا حالته ٠ » وقد يكون التغير علامة صعود وتقدم واثراء ، ولكنه قد يعنى أيضا ، الانحطاط والانحراف والخيانة ٠ والمسألة التى نحن بصددها هى كيف نضمن ألا يصبح التغير خيانة ، وأن يبقى الانسان فى حالة تغيره صادقا مع نفسه ٠ ومن الأشياء المعروفة أن الانسان يبدى طبيعته الحقيقية فى المحن والكوارث والاخطار ٠ ولما كان من نصيبى أن شهدت تغيرات وكوارث تاريخية كثيرة ، فقد لاحظت تحولات تلحق بالناس ، بحيث تبعث على الدهشة ٠ وليست هناك تجربة اشد ايلاما من الاخفاق فى التعرف على اشخاص كنا نعرفهم حق المعرفة ، فخانوا أنفسهم نتيجة لتكيفهم مع ظروف الحياة المتقلبة ٠ خبرت ذلك فى روسيا، وسمعت عنه فى المانيا ، وليس من شك ، أننى سأعيش لأراه فى فرنسا ٠ بيد أننى شاهدت أيضا مظاهر للتغير أبدى فيها الناس قوة روحية ملحوظة غير متوقعة فى الثبات أمام ضغط ظروف الحياة المتغيرة ، وأدهشتنى على الأخص بعض النسوة فى هذا السبيل ، وانى لأعتقد أن النساء أكثر ثباتا من الرجال على وجه العموم ٠

ويلعب التغير دورا هاما فى العلاقات الانسانية ٠ وقد لاحظت أن التغير فى نفسى وفى نفوس الآخرين تأثيرا حاسما على اتصالى بهم ٠ وكان من الصعب على أحيانا أن اجارى التحولات التى تطرأ على حياة أصدقائى ونظرتهم ، لأننى فقدت الاحساس بذاتيتهم ٠ بيد أن هذه التحولات تنجح أحيانا فى اظهار خلقهم الحقيقى ، وفى تقوية علاقتنا ٠ وليس من شك ، أن أصدقائى قد عرفوا مثل هذه التجارب فيما يتعلق بى ٠

ولقد صدمنى الموقف الغريب ، المستوجب للوم نوعا ما ، الذى عبر عنه « جيته » فى كتابه « الشعر والحقيقة » فيما يتعلق بغرامياته ، التى لم تكن قليلة العدد ٠ فلقد كانت كل مغامرة غرامية من تلك الغراميات ــ على حد وصف جيته لها ــ خطوة الى الأمام فى طريق الاكتمال الذاتى لجيته، ومناسبة لثرائه العاطفى.

بيد أن النساء اللواتى أسهمن – كل بطريقتها – فى هذا التقدم ، عفى النسيان سريعا عليهن ، وبهذا تحولن الى مجرد أدوات فى تطور « جيته » · ومهما يكن هذا التطور مجيدا باعثا على الغبطة فى نظر « جيته » ، فانه قلما يكافىء المصير الشخصى لأولئك النسوة اللواتى لا حصر لهن ، واللواتى تركهن جانبا على هامش حياته الغنية الخصبة ·

تحاشيت عن قصد – كما أشرت الى ذلك من قبل – الاشارة فى هذا الكتاب الى أوثق الصلات أنفة ، تلك الصلات التى يمكن أن توضع تحت عنوان «الحب» · غير أن هذه العلاقات كانت بالنسبة لى أنا أيضا ، مصدرا للاثراء العظيم ، وأن ألقت هى أيضا ظلا على الشطر المبكر من حياتى · وحتى ، لو أردت ألا أكون مراوغا فى هذا الموضوع ، لما استطعت أن أتكلم ، لأننى لم أتحدث قط الى أحد ، ولن أتحدث عن علاقاتى الحميمة بالناس · وأيسر على أن أجد الألفاظ للتعبير عن مشاعرى نحو قطتى المحبوبة «مورى» ، أو الى كلابى التى فارقت الحياة جميعا، من أن أجد الألفاظ المناسبةللتعبير عن مشاعرى نحو المخلوقات الانسانية · وانى ، لأشعر فى بعض الاحيان حقا بأن الحيوانات أيسر منالا لى من الانسان ، اذ لم أستطع أن أعبر عن نفســـى عاطفيا وأن أسقط قناع التحفظ الا نحوها وحـــــــدها ·

تحدثت فى الفصول الأولى عن جدبى العاطفى ، بيد أن هناك شيئا واحدا يستطيع أن يزيل جفاف قلبى فى الحال ، هذا الشىء هو الموسيقى · وأنا أعلم بالطبع أن الارتعاشات العاطفية التى من هذا النوع ليست اختبارا موثوقا به للقيمة الجمالية ، بيد أننى لا أعتقد أن مثل هذه الايحاءات يمكن التغاضى عنها تماما · وأنا لا أعرف عن الموســـيقى الا القليـل ، ولى أذن رديئة ، وذاكرة موسيقية ضعيفة ، وظلال الأداء الموسيقى ولطائفه تفلت منى ، ولا أقدر على مواصلة الحديث عن موضوع الموسيقى ، كما لا أستطيع أن أميز فى المناقشات التى تدور بين النقاد وأهل الموسيقى عامة ، رأسا من ذيل، ولكنى أتهم اتهاما قويا مثل هذه المجادلات بأنها تمنع الانسان من الاستمتاع بالموسيقى · وقد ينطبق هذا بمعنى من المعانى على سائر نقاد الفن ، وعلى النقد الفنى · وعلى كل حال ، وعلى الرغم من قصورى الموسيقى ، فان الموسيقى تهز أعماق كيانى ، وتبدد فى بعض الاحيان حالات الكآبة والقنوط · وهذا الاحساس يماثل ذلك الذى حاولت وصفه فى الفصل الذى تعرضت فيه للابداع ·

ولقد اكتسبت الموســـيقى مكانا بارزا غير عادى الى حد كبير فى المدنية الحديثة · غير أن هذه المكانة البارزة ليست نعمة خالصة من كل شائبة ، اذ تجعل فى الامكان أن ينتقل البورجوازى الأوربى بسرعة ، ودون جهد أو نصب ،

نظير عشرين فرنكا ، الى ملكوت السماء ، وأن يعود بنفس السرعة الى عالم شئونه التافهة الوضيعة البشعة · وليست الموسيقى نفسها ، ملومة بالطبع على هذه الدعارة ·· « فبتهوفن » لم يتعذب ويبدع ليقتل ساعات الخمول لدى البورجوازى الاوربى · ان كل فعل ابداعى حقيقى يدخل ملكوت الله ، وما يبقى منه على الأرض، يتحول الى موضوع تحت تصرف أولئك الذين يستحقون — أو أولئك الذين لا يستحقون فى معظم الأحيان — ما ينطوى عليه من روعة ·· وفى هذا دليل على مأساة الفن التى تلحق بالفنانين الصادقين جميعا بعد وفاتهم والفن — شأنه فى ذلك شأن كل نشاط ابداعى — يحرر الانسان من وطأة الابتذال حتى وهو يصور هذا الابتذال ، ويحمله الى عالم آخر متسام · بيد أن الرجل البورجوازى لا يشعر بأية رغبة فى مثل هذه الحرية ، او هذا العالم الآخر ! أنه مجرد مستهلك يبحث عن دفعة جديدة لتوطيد مملكته المبتذلة وتوسيعها ·

واذا كان من الممكن ان نجرب الموسيقى باعتبارها طريقة للتحرر من التفاهة ، فان هذا الكلام نفسه يمكن أن يقال عن الضحك وعن الصحك ·· فالضحك قد ينتشلنا هو أيضا ، ولو لحظة واحدة ، من رتابة الوجود وجهامته، كما يستطيع أيضا أن يثقب ذلك الغلاف الجوى المتضخم من الوقار الذى يحيط به الناس انفسهم لحمايتها من المزعجات ·

ومن ميزات الانسان انه يستطيع أن يكون متعارضا ، وهو يستطيع أن يجمع فى نفسه عناصر متضاربة أو متناقضة ، ولا تستطيع أية فكرة عامة عن الانسان أن تخفف هذه المتعارضات والمنازعات والمتناقضات · وقد اعترف علم النفس الحديث بهذا اعترافا تاما · فاذا تحدثت عن نفسى مثلا ، قلت انى على وعى بتعايش يتم فى نفسى بين ميل ثورى قوى ، وميل الى تكوين العادات ، بين فوضوية عاطفية وعقلية ، وميل الى النظام فى حياتى الخاصة · هذا العنصران ينبثقان ، على ما يبدو فى ذلك من مفارقة ، من منبع واحد ، ولقد تحدثت أكثر من اللازم عن ميلى الثورى ، ولكن كيف أفسر نزوعى الى تكوين العادات ؟ الاجابة هى أولا ، أن كل الأشياء التى ترتبط بتنظيم الحياة العملية اليومية شاقة الى أبعد حد على نفسى ، وليست لى أية مهارة فى هذه المسألة ، وأجزع من تبديد كثير من الطاقة فى سبيلها ، وبالتالى أحاول تخفيض الجهد اللازم الى الحد الأدنى عن طريق العادة ، والغرض الثابت منها هو تجنب المجهود ، وبعبارة أخرى أحاول فى بساطة الهروب من الصعوبة بواسطة العادة التى تخلق وهم التحرر من الوجود اليومى · والواقع أنها تمنح الحرية من المجهود الذى يتطلبه التعارض مع هذا العالم المادى فقط ·

بيد أن هناك سببا آخر للدور الذى تلعبه العادة فى حياتى ·· لقد أشرت

مرارا الى تجربة الغربة ازاء العالم على نحو ما وجدته ، هذه التجربة أشربتنى باحساس حاد من القلق والشوق الى الاكتمال والتكامل ٠٠ وهنا تكون العادة طريقة لمكافحة تلك الغربة ، وأقصد بالعادة ، العادة التى يكونها الانسان بنفسه، لا ما يفرض عليه من الخارج ٠ ان كل افتراق عن الأماكن أو الأشخاص الاعزاء على المرء ، يجعل ألم الغربة أكثر شدة ٠ فلو أننى أخذت نفسى بعمل شىء محدد ، ولو أننى أقلمت نفسى مع عالمى الخاص ، وسارت حياتى وفقا لايقاع معين ، فان الاحساس بالغربة تخف حدته ٠ ولاشك أن هذا مجرد مسكن أو حتى مجرد مخفف ٠ لأن لاشىء يمكن أن ينقذ العالم من حالة الغربة فى نهاية الأمر غير الله ٠ ان العناصر الثورية الفوضوية فى نفسى تحرص على تقويض دعائم الترتيب فى هذا العـــالم الغريب ٠ غير أننى مازلت أمتلك روابط تمنحنى احساسا بالانسجام النسبى ، روابط سوف تدوم حتى لو التقى العالم الغريب بدماره التام الذى يستحقه ٠ ولكننى لست استاذا فى فن الحياة ، أو فى التوفيق بين الخلافات والمشاحنات التى أشعر بها تتصارع فى نفسى ٠ ويمكن أن تعتبر حياتى أى شىء ! لاأن تكون عملا من أعمال الفن ، كما أننى لم أستطع أن أتلاعب بها قط ٠ لقد تمسكت بالحياة دون أن يكون لى سند غير بحث مجرد عن حقيقة تختلف اختلافا تاما كاملا عن العالم ، ودون أى شهوة، اللهم الا شهوة الحرية ٠٠ تلك الحرية التى تذيب الاشكال المتجمدة المتحجرة من الحياة والوعى ٠

ختـــام

(١٩٤٠ – ١٩٤٧)

انقطعت ترجمتى الذاتية ، ولكننى أحب أن أضيف الآن صفحات قلائل ، تبدو هذه القصة ناقصة بدونها ، فقد حفلت أعوام الحرب العسيرة بالأحداث والتجارب التى كانت على أعظم قدر من الأهمية بالنسبة لى ، ذلك أن حدثا بهذه الضخامة كالحرب العالمية الثانية، قد كان صدمة هائلة للعالم فى مجموعه، ولكل شـــخص على حدة ، وألقى كل شىء فى الدوامة · وكنت أتوقع دائما نكبات جديدة ، ولا أطوى جوانحى على أى ايمان بمستقبل يسوده السلام ·

ولم تتضح فظائع الحرب الا بعد الاحتلال الالمانى لفرنسا ، والهجوم الالمانى على روسيا · اذ لم يكن ذلك يبدو مجرد غزو خارجى ، بل تسلل من الداخل · وقد تركنا باريس فى يونيو سنة ١٩٤٠ ميممين شـــطر « بيلات » بالقـــرب من أركاشون » · ورافقنا القط « مورى » ، وكانت الرحلة مرهقة ، ولم يكن حظه من الارهاق أقل من حظنا ، ولكنه احتمل نصيبه بجلد أعظم من جلدنا · وكنا نأمل أن نهرب من الحياة تحت الحكم الالمانى ، غير أن هذا الأمل كان وهما كاملا ، اذ ما كدت تنقضى على وصولنا الى « بيلات » أيام معدودات، حتى كان فيها من الجنود الالمان أكثر مما فى باريس فى أى وقت مضى · و « بيلات » بقعة رائعة ، ولكنها كئيبة نوعا ما ، تقع بين المحيط وغابات الصنوبر السوداء ·· ولكننا كنا على الأقل بعيدين عن باريس التى زادت حمولتها من انفعالات الانهيار الشامل · واستقر بنا المقام فى كوخ بين الغابات ، وكان هناك عدد من الأصدقاء الروس الذين لا يعيشون بعيدا عن « أركاشون » · وعلى الرغم من الدعوات الملحة ، والطلبات المتكررة ، رفضت السفر الى امريكا ، ولست نادما على ثباتى فى وجه هذا الاغراء · وربما لا توجد غير تجارب قليلة ، أشد مرارة على النفس من الاحتلال الأجنبى ، اذ ينطوى على شىء فيه حطة عميقة ، وما كنت أطيق النظر الى بزة الالمان الرسمية ، ومهما يكن من أمر فقد مكثنا فى « بيلات » ثلاث أشهر ، واصلت خلالها كتابة ترجمتى الذاتية ·

وسرعان ما أدركت عند عودتى الى باريس أن موقفى محفوف بالخطر ، فقد هاجمت الاشتراكية الوطنية والفاشية فى أكثر من مناسبة ، وكان من المعروف أننى خصم مذهبى « للنظام » · وكان قد ألقى القبض فعلا على بعض على بعض الروس ، غير أن عددا كبيرا من المهاجرين الروس فى فرنسا رحبوا بالانتصارات الالمانية ، وازداد ذلك جلاء على وجه الخصوص عقب هجوم هتلر على روسيا · وكان موقفهم مزيجا من الأمل لانشاء روسيا جديدة من بنات خيالهم ، ومن التزلف المخاتل نحو الالمان · وأيا كان الأمر ، فقد كانت هناك استثناءات ملحوظة · ولقد هزنى غزو الجيوش الألمانية للأراضى الروسية هزا بلغ أعماق كيانى · أحسست أن وطنى « روسيا » قد تعرض لخطر قاتل ، وأن أوصاله قد تتقطع ، وقد يستعبد · وكان الالمان يتقدمون بسرعة مذهلة ، فاحتلوا أوكرانيا ، ووصلوا الى القوقاز · وقد انطلقوا ، كما هو معروف ، فى ارتكاب فظائع لم يسبق لها نظير ضد الشعب الروسى ، وأخذوا يعاملونه كأنه من حثالة الأرض · وأتى حين من الزمان ، اعتقد فيه الكثيرون أن المانيا ستنتصر، أو على الأقل فى روسيا، أما أنا ، فلم أفقد ايمانى اطلاقا فى أن روسيا لن تقهر ، على الرغم من أن الاخطار التى تعرضت لها كانت لى مصدر عذاب لا سبيل الى التعبير عنه · ووصلت وطنيتى الفطرية ، التى تحدثت عنها فيما سبق ـ الى درجة من الشدة غير مألوفة ، اذ أحسست بنفسى شيئا واحدا لا ينفصل عن انتصارات الجيش الأحمر وهزائمه ، بل انتهى بى الأمر الى أن قسمت الناس قسمين، أولئك الذين يأملون فى انتصار روسيا ، وهؤلاء الذين يتطلعون الى انتصار المانيا ·· وقد رفضت مقابلة القسم الأخير من هؤلاء الناس ، وكنت أعتبرهم خونة · وأثارت فى نفسى تلك الحقيقة ألا وهى أن بعض الروس يعتمدون على تحرير هتلر لروسيا من البلشفية ، أثارت فى نفسى هذه الحقيقة كل مشاعر النفور القديمة ضد نفسية المهاجرين الشريرة الملتوية ، تلك النفسية التى حاربتها خلال أعوام ما بين الحربين ، والتى أصبحت الآن بوجه أخص ، شنيعة كل الشناعة · وأنا لم أنحن قط أمام القوة ، وخاصة القوة العسكرية ، غير أن القوة التى أظهرها الجيش الأحمر فى الدفاع عن روسيا كانت مستمدة من العناية الالهية ، وقد لمست فى المحن التى اجتازتها روسيا ، علامة على تحقيق رسالتها التاريخية ·

كانت الحياة فى باريس عسيرة أشد العسر ، اذ ألقى القبض على عدد من أصدقائنا ، وهلك بعض أولئك الذين تم ترحيلهم الى المانيا باعتبارهم معتقلين سياسيين ، فى ظروف فاجعة · وزارنى أعوانى الجستابو (كانوا يأتون الى دائما اثنين اثنين) فى مناسبات عديدة ، واستجوبونى عن طبيعة نشاطى ، ولكنهم لم يستطيعوا اثبات أى تهم محددة ضدى · وذات يوم ظهر اعلان فى الصحف السويسرية مؤداه أننى اعتقلت · وبعد أسبوع أو نحو ذلك ، وصل

أعوان الجستابو للقيام بعدة تحريات عن أصل هذه الشائعة ، وقالوا أن هذه الشائعة سببت شيئا من الفزع فى برلين (هذه مبالغة بلا أدنى جدال) ، وأنهم يريدون أن يؤكدوا لى « موقف السلطات الطيب » نحوى • وكان الموقف بالنسبة لى محرجا مقززا الى أبعد حد ، وساءلت نفسى مرارا لماذا لم أعتقل ، علما بأن الالمان لا يتورعون عن ارتكاب شىء ، وكثيرا ما يعتقلون أناسا أبرياء تماما، حتى من وجهة نظرهم هم أنفسهم ، بينما قد جاهرت أنا بعدائى نحو الاشتراكية الوطنية فى الصحف والأماكن العامة كلما تعرضت لمعالجة المشكلات المعاصرة • ولما أعربت عن دهشتى تلك لأعوان الجستابو عن هذا الموقف المحير من جانب السلطات النزية ، أضفت مازحا ، انه من الواضح أن شيئا لا يستطيع أن يمحو احترام الألمان للفلسفة •

ولم أتمكن ــ بالطبع ــ فى تلك الاعوام المضطربة ، من الاشتغال بأى نشاط اجتماعى ، فقبعت فى منزلى « بكلامار » Clamart ، وقلما كنت أذهب الى باريس ، فقد أصبحت المكاتب العامة والمقاهى (التى كنت أتحاشاها دائما فى الماضى) أماكن محفوفة بالخطر • وأعرضت عن الاشتراك فى أى عمل يرتبط ــ ولو ارتباطا بعيدا ــ بالالمان • وهكذا لم أستطع القاء محاضرات عامة ، أو قراءة أبحاث لابد لقراءتها من الحصول على اذن من السلطات الالمانية أو السلطات التى يسيطر عليها الالمان • وكرست وقتى كله للكتابة والقراءة • ومع ذلك احتفظنا باجتماعات أيام الآحاد التى تعقد فى منزلنا ، وفى هذه الاجتماعات كان يظهر عدد من الروس ذوى العقلية الوطنية ، وقليل من الفرنسيين بين حين وآخر • وأصبح منزلنا ملتقى الوطنيين الروس •

وكان النشاط الخارجى الوحيد الذى اشتركت فيه هو مغامرة « الآنسة دافى » • فقد تمكنت فى تلك الظروف الصعبة السائدة فى باريس أن تجمع حولها عددا من الاشخاص الذين يرتبطون بحركة المقاومة بصورة أو بأخرى، ومعظمهم من الكاثوليك اليساريين وقليل من البروتستانت والأرثوذكس • وكانت الآنسة «دافى» ، وهى امرأة مثقفة موهوبة ــ مسئولة عن سلسلة من المؤتمرات التى عقدت بالقرب من باريس ، وخصصت لدراسة المشكلات الدينية والفلسفية • وفى هذه المناسبة ، اختلفت مع « جبرييل مارسل » الذى اتهمنى بالفوضـوية ، وبجرائم من هذا القبيل ، كنت بها فخورا •

وتعرفت خلال هذه الاعوام أيضا « بروماں رولان » ، الذى كانت زوجته أرملة ابن أخ لى ، وكان « تولستوى » قد أثر فى وقت من الأوقات تأثيرا قويا عليه (كان رومان رولان أول من ترجم لحياة تولستوى من الفرنسيين) ، وكان يتمتع بشىء من جدية « تولستوى » وبحثه عن الحق • ولم يكن عطفه على

البلشفية وروسيا السوفيتية صادرا عن « اعتقاد فى المادية » ، بل يرجع أصله الى تقدير صادق للدلالة الروحية للشيوعية الروسية · وكان مظهره الذى يسترعى الانتباه ، وتعبيره الذى يدل على امتياز نادر ، رمزين على تكامل أخلاقى وعقلى عظيم ·

* * *

فى غضون تلك الأعوام من الحرب القاتلة ، والدماء المراقة ، والدمار الشامل ، ومعسكرات الاعتقال ، والاحزان الانسانية التى لا سبيل الى وصفها ، كنت مدفوعا اكثر فاكثر الى تأمل الموت والشر ، والعذاب والجحيم والأبدية ·· ويضم ثمار هذه التأملات كتابى الذى أعتقد أنه سيكون الأخير ـ « الالهى والانسانى » ·

وفى خريف عام ١٩٤٢ اجريت لى عملية خطيرة ، ومكثت ستة أسابيع فى دار للتمريض ، مع صديقتنا « تاتيانا سافيلليفنا لامبيرت » التى عنيت بى فى اخلاص عظيم وانكار للذات · وكادت نتيجة العملية أن تكون مميتة ، وتركنى الألم بلا حراك تقريبا ، وكان الشىء الذى اثر فى هو تجربة التخدير الجزئية البشعة ، اذ كنت على وعى كامل ، غير أن الشطر الأكبر من جسمى كان مخدرا، وكأنما أقيم جدار من الضرورة المحتومة التى لا مهرب منها بين « نفسى » الخارجية ، و « نفسى » الباطنية · وعانيت هذه التجربة بوصفها شبيهة بالفظاعة الناشئة عن الغربة الذاتية التى هى كابوس الوجود الانسانى ·· ذلك الحلم المزعج بأننى شىء مختلف دائما عما أنا عليه ·

وفى الوقت الذى تحررت فيه باريس ، فقدنا قطنا المحبوب « مورى » الذى وافته منيته بعد مرض أليم · وكانت آلامه قبل موته بمثابة آلام الخلق وعذاباته كلها فى نظرى ، فعن طريقه اتحدت بالخلق كله ، وانتظرت فداءه · وكان من الأمور المؤثرة الى أقصى حد ، مراقبة «مورى» ، فى اليوم السابق على وفاته ـ وهو يتخذ طريقه صوب حجرة ليديا (وكانت هى نفسها فى أشد حالات المرض)، ثم يقفز على سريرها · لقد جاء لوداعها · ونادرا ما ابكى ، غير أننى بكيت بكاء مرا عند وفاة «مورى» (مما قد يبدو غريبا ، أو هزليا او سخيفا) · والناس يفكرون عن « خلود الروح » ، ولكننى كنت أطلب لمورى حياة أبدية خالدة ، فما كنت أريد شيئا أقل من الحياة الأبدية معه · ولم تمض شهور قلائل حتى فقدت « ليديا » ، وعن هذا الموضوع سأتحدث فيما بعد ·

* * *

بدأت فى الظاهر ، حياة جديدة بتحرير باريس • ولم تكن الحرب قد وضعت وزارها بعد ، غير ان المرء كان يستطيع أن يوقن بنتيجتها المواتية • وانطلقت عقب التحرير عاصفة من الانتقام ، كانت محتومة حقا ، ولكنها كانت رغم ذلك باعثة على التقزز • واعتقل كثير من الروس لأسباب مناقضة للاسباب التى دفعت الى الاضطهاد الالمانى • وليس من شك أن بعض هذه الاعتقالات كان لها ما يبررها ، لأن كثيرا من الروس أدانوا أنفسهم بما عقدوه من صفقات مريبة مع سلطات الاحتلال الالمانية ، غير أن عددا آخر من الاعتقالات كان ظلما تاما لا أساس له على الاطلاق • ويبدو أن عددا من المهاجرين الروس قد عانوا تغييرا سريعا غير متوقع فى قلوبهم ، وشرعوا يسجدون أمام الشيوعية التى لا يفقهون عنها شيئا ، ويرقصون رقصة الزلفى حول السفارة السوفيتية • أما أولئك الذين أظهروا أى احساس بالكرامة والحرية ، فكانوا قليلين •

أما أنا ، فلم أر ما يدعونى الى تغيير موقفى من القضايا الرئيسية للشيوعية أو من « اتجاهى السوفييتى » الأساسى ، فيما يختص بالعـــلاقات الدولية ومضيت أعتبر الحكومة السوفييتية الحكومة الوطنية الوحيدة التى تمثل الشعب الروسى فى الخارج ، وان كنت لا أوافق على سياستها فى بعض النواحى • فما كان من الممكن أن يشعر أى روسى حقيقى أو يعتقد بأن « النظام » الشيوعى احتلال أجنبى ، أو ان يقبل الرأى القائل بأن سـياسة الحكومة تتعارض مع « المصالح القومية » • ان ميولى الكامنة فى أعماق نفسى تتجه نحو الفوضوية وأنا فى نهاية الأمر لا احبذ الحكومات جميعا • بيد أن هذا لا يعنى أننى لا أدرك ضرورة الحكومة فى حياة المجتمعات القومية • وأنا على كل حال ، اشد عناية بالشعب الروسى ، و « بالثورة » باعتبارها لحظة باطنة فى مصيره التاريخى ، ولا أستطيع الشروع فى تقويم روسيا بعد الثورة ، الا بعد أن عشت أو حاولت أن أعيش ـ هذا المصير ، وأن أجعله مصيرى الخاص ، ولا أستطيع أن أنظر الى روسيا من تلك الأعالى الخيالية للمبادىء الديمقراطية الحرة المجردة • ولكنى لا أستطيع أن أوافق على أن أجعل تفكيرى وسلوكى خاضعين لتوجيهات السفارة السوفيتية، أو أن اكتب مثبتا عينى باستمرار صوب صاحب السعادة الســـفير السوفييتى ، كما فعل ذلك بنجاح بعض مواطنى •

وعندما أعلن اتحاد الوطنيين السوفييتى (كان اسمه فى البداية اتحـــاد الوطنيين الروس) الذى كنت أرتبط به ارتباطا واهيا فى ذلك الحين ـ تاييده وولاءه غير المشروط للحكومة السوفييتية وللنظام السوفييتى ، احتججت بشدة، ذلك أنه لا ينبغى على انسان أن يقبل حكومة أيا كانت قبولا غير مشروط ، لأن هذا أقرب الى العبودية ، ولا ينبغى على الانسان أن ينحنى لأية قوة مهما كانت، لأن هذا معناه التنازل عن حريته •

تغيرت دائرة أصدقائى تغيرا ملحوظا ، فلم أكن التقى الآن بالروس الذين يمثلون « الاتجاه السوفييتى » ، وبالكتاب الشبان والصحفيين ، ورجال الدين الذين ينتمون الى الكنيسة البطريركية • وانقطع كل اتصال بينى وبين المعهد اللاهوتى ، ولكنى ، على خلاف «الوطنيين السوفييت» لم أكن أدخل من السفارة السوفييتية وأخرج منها ، وهو نشاط كنت أعتبره مزريا الى أقصى حد • غير أن عددا من رجال السفارة السوفييتية اعتادوا أن يحضروا لرؤيتى ، وكنت أقدر هذه الاتصالات باعتبارها فرصة فريدة لمعرفة الحياة فى روسيا • وتأثرت خاصة بدبلوماسى سوفيتى شاب • وكانت أكثر الصلات اثمارا وتنويرا معرفتى بكاتب سوفييتى ، كان رجلا جذابا موهوبا يتردد علينا كثيرا • ولست أعتقد اننى تلقيت انطباعا أكثر حدة عن روسيا الراهنة • ولم تكن فيه أدنى علامة من التعصب أو التحيز المذهبى • كان انسانيا حساسا ، متفهما ، مشبعا بروح الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر ، ومع ذلك كان نتاجا نموذجيا لروسـيا الحديثة عقب الثورة بايمانها العارم اللامحدود فى الانسان ، وبتلقائيتها البدائية، وتفاؤلها العجيب • بيد أنه كان من الجلى أن تقاليد الفكر الفلسفى الروسى لم تنفذ بعد الى القشرة السميكة التى تغلف العقيدة الفلسفية السوفييتية الرسمية• فيمايتعلق بالفكر الفلسفى ، كانت عقول الناس تتغذى فقط على « بيلنسكى » و «تشيرنشفسكى» و «دوبروليوبوف» الى جانب كلاسيكيات الماركسية • وما كان يسعنى الا الشعور بالسـخرية المريرة من أن تعرف كتبى فى أوروبا وأمريكا وآسيا واستراليا ، وتترجم الى كثير من اللغات ، فى الوقت الذى لم يسمع فيه أحد فى وطنى شيئا عنى • وهذا شاهد على انقطاع أساسى فى تقليد الثقافة الروسية • بالرغم من أن العودة الى تقاليد الأدب الروسى التالية على الثورة تعتبر ذات أهمية عظمى ودليل على مواصلة التطور فى هذا الاتجاه •

ومن الممكن أن يسمح لى بالعودة الى روسيا • ولكن ماذا أستطيع أن أفعل هناك ؟ ان مسألة عودتى أصبحت مصدرا لعذاب متزايد بالنسبة لى • ولم أشعر قط باننى أقرب الى روسيا كما أشعر الآن ، ومع ذلك لم كن أجد غير سـرور ضئيل فى هذا الشعور ، وكان قلبى ينزف كلما فكرت فيها • ولقد واجهتنى مرة بعد أخرى ــ وان لم يكن ذلك بتلك القوة التى أشعر بها الآن ــ الطبيعة المعقدة الفاجعة للمصير الروسى • ولست أعتقد أن الناس فى أوروبا الغربية سيعرفون ذلك المصير او يفهمونه ، غير أن شيئا لا يمكن أن يمنعه من أن يكون مصيرا ، ولا شىء يمكن أن يحرمه من معناه ، ولابد من أن تحياه روسيا حتى النهاية •

* * *

يتردد على زيارتى باستمرار أشخاص من الأجانب ، كما أتلقى عددا لا حصر

له من الخطابات • وهذه المراسلة الواسعة مدعاة لقنوطي وسوء حظي ، اذ لست ممن يجيدون فن الرسائل، ولا أستطيع أن أحتمل كتابتها • وجدت نفسي - لدهشتي وضيقي - أنني قد أصبحت معلما محترما وقورا للحياة • وأحب أن أؤكد لقراء هذه الترجمة الذاتية أنني لست شيئا من ذلك ، كل ما في الأمر أنني باحث عن الحقيقة، ومتمرد يشتهي الحرية للحياة من ربقة الأشياء والموضوعات والتجريدات ، والايديولوجيات وقدرية التاريخ • ولكنني لا أستطيع في الواقع ، أن أقول اذا كانت هذه الابحاث قد حررتني أم لا ، فأنا لا أعبأ بالنتائج • وأحيانا أعتقد أنها لا تقودني الا الى الصليب ، حيث سأجد نفسي محطما على ما هو مستعبد ، وممل في الحياة • ومن ثم ، كانت تلك الكآبة التي تغشى كياني كله في أغلب الاحيان ، والتي أحاول اخفاءها تحت طلاء من الفكاهة وحضـــور البديهة •

* * *

اوشكت الحرب على نهايتها تحت ســحابة من الحزن الشخصي العظيم المقسوم لي • فقد أصيبت « ليديا » بشلل خطير في عضلات الحلق ، فلم تكن تستطيع الكلام أو ابتلاع الطعام ، وأخذت قوتها الجثمانية تضمحل يوما اثر يوم، ولكنها احتملت هذا المرض الأليم بصبر عجيب • وقضت نحبها في نهاية سبتمبر سنة ١٩٤٥ • وكانت وفاتها مصدرا لتنوير عظيم ، وألم محرق ، في وقت معا • وما عرفت قط شخصا يلهمه مثل هذا الايمان على أعتاب الموت • فلقد احتفظت بصفاء ذهنها ووعيها حتى النهاية ، وكان كل ما كتبته (كانت تكتب دائما ، لأنها لم تكن تستطيع النطق) قبل موتها يعكس رؤيتها الروحية الثاقبة • واعتدت أن أقضي الساعات الطوال في حجرتها أقرأ مذكراتها التي تكتبها بالقلم الرصاص، وأتحدث اليها • وكانت ألفاظها تبدو أشبه بشهادة مباشـــرة لبصيرة روحية وتجربة عظيمتين • ولم أكف مطلقا عن تنكر ما فقدته بفقدها ، وما تعلمته منها خلال تلك الأشهر الاخيرة • وأنا لا أستطيع أن أتصالح مع الموت ، ومع التناهي الفاجع للموجود الانساني، وكياني كله يقاوم فكرةالموت باعتبارهالواقع النهائي• تلك الفكرة التي أضفى عليها « هيدجر » صبغة طبيعية ، ولا يمكن أن توجد حياة الا اذا استعادت اليها أولئك الذين نحبهم جميعا •

غير أن ذلك يختص بجانب واحد من جوانب الموت ، الموت باعتباره سارقا ، يغتصب كل ما هو موضع الاعزاز الشديد • ولكن ثمة جانب آخر ، أكثر من ذلك اشراقا ، فقد يكون الموت انتصارا للحب والتضحية بالذات • والانسان يشق عليه أن يواجه سر الموت ، ولكنه يدرك في نهاية الأمر أن الموت ينطوي على سر فريد هو الحب النابع في الحياة الأبدية • ولابد من أن نفقد الحياة لكي نظفر بها

ظفرا كاملا · والحب والموت لا ينفصلان ، غير أن الحب أقوى من الموت ، ولهذا يستمر فى الموت الاتصال الروحى بهؤلاء الذين نحبهم · بل انه يزداد توثقا ، وذلك لأنه اجتاز تضـحية الحب العظمى التى هى الموت · وعندما أخبرتنى « ليديا » عشية موتها أنها ستظل دائما معى ، كنت أعلم أن ما تقوله صـدق صراح · الموت حادثة فى الزمان ، وعلامة على صولة الزمان على الانسان ، بيد أنه حادثة تضعه وجها لوجه ازاء الأبدية حيث ينتصر الحب والقرابة على الغربة والانفصال ·

ويقال فى المثل : اذكروا محاسن موتاكم ، والا فاصمتوا · وهذا المثل يتضمن حقيقة عميقة لم يدركها أحد ـ كقاعدة ـ حق الادراك · ولماذا تحمل الوجوه الميتة لمحة من جمال غريب ؟ أعتقد أن الأمر كذلك لأن الموت هو لحظة التنوير العظمى ، ولأن الانسان يتحرر فى الموت من ملامحه الفظة القبيحة ، ولأن الموت ايذان بالتحول السامى · ويحسن بالمؤرخين وكتاب السير أن يلاحظوا ذلك ، والا استبعدوا من وجوه الموتى الروح التى تسمو بهم ولم يتركوا غير آثار فانية باردة فقط ·

وأنا أعيش وحدى الآن مع « جينيا » · وهى صديقة عزيزة على ، قديرة على الفهم بنوع خاص · ولست أدرى كيف يمكن أن أعيش ، اذا فارقت هذه الحياة ·

وردت الى سنة ١٩٤٧ مشكلة روسيا ردا أشد عنفا ، ولقد أصبحت هذه المشكلة مصدر عذاب عقلى متزايد بالنسبة لى · ويبدو أن آمالى قد خابت اذ لم تستطع العمليات والحركات المرجوة التى تمت داخل روسيا عقب حرب بطولية ان تأخذ مجراها المنشود · وتعرضت الحرية للخطر مرة أخرى · وتركت قضية « أخماتوفا وزوشتشنكو » على وجه الخصوص انطباعا أليما على نفسى ·· وما قراءة الصحف والمجلات السوفييتية بتجربة أقل من ذلك ازعاجا ··· وفرضت سياسة « الخط العام » بقوة جديدة ، وكانت النتيجة خانقة · والسمة المعوضة الوحيدة هى التغيير الأساسى الذى اعترى موقف الحكومة من الكنيسة الأرثوذكسية التى تتمتع بحرية ملحوظة ·· غير أن مجال الحياة الكنسية كان قد تحدد ، ولم تكن حريتها تمتد الى ما وراء الحدود الخاصة بالشئون الكنسية والشعائرية (على الرغم من اعادة فتح المدارس اللاهوتية) · ولم يعد ثمة شك فى أن الحركة الدينية تنمو نتيجة لتجربتى الثورة والحرب ، وأن الايمان المسيحى لدى الشعب الروسى أقوى منه فى أى وقت مضى ·

ومهما يكن من أمر ، فان السمة المزعجة هى الوضع السـائد بين رجال

الكنيسة، وخاصة بين أصحاب المناصب الدينية ـ من نزوع الى الرجعية الدينية، وميل الى اقامة نماذج الحياة الكنسية من جديد ، كما كانت تمارس فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، اذ تفهم المسيحية على أنها دين الخلاص الفردى داخل اطار الحياة الشعائرية • فلا علامة هناك على الفكر الخلاق ، أو حتى على أى قلق عقلى •• وهذا النوع من الدين المحافظة الموسوم بتلك السمة على وجهه ـ هو وحده الذى كانت تشجعه الحكومة السوفييتية • وانى لأعطف عطفا تاما على نمو الشعور الوطنى بين رجال الكنيسة ، ولكن ، ينبغى الا يفضى ذلك، كما هو ظاهر ، الى النزعة القومية التى تعد خيانة للفكرة الروسية الحقيقية •

وانا لنرى القصة القديمة عينها بين « المهاجرين » ، اذ يعيشون ويفكرون فى سؤال واحد وضعوه نصب أعينهم وهو : هل ترفض أنت روسيا بعد الثورة بغير شروط أم لا ترفضها ؟ ولقد ثبت الآن أن منطق هذه المعضلة المفتعلة قد أصبح ورطة تامة لا مخرج منها لعقل المهاجر الروسى القاصر وقلبه : وحالته الراهنة من الهوس دليل على ذلك • وأعتقد أننى قد أوضحت فعلا وضعى الخاص ، فانا أوافق على الثورة، وعلى كثير من التغيرات التى ادخلتها فى بنية المجتمع ، ومازلت أومن بالرسالة العظمى للشعب الروسى ، ولكننى أريد فى الوقت نفسه .. أن أترك حرا لنقد أعمال الحكومة السوفيتية أينما وحيثما كانت لا تتفق ـ فى رأيى ـ مع مبدأ الحرية الانسانية • وانى لا أحتمل ما يقوم به المسيحيون الأرثوذكس عندما يحددون موقفهم من روسيا السوفييتية على أساس المبدأ القائل : « لا قوة غير قوة الله » • هذا القول المأثور عن القديس بولس ، له فى واقع الأمر معنى تاريخى ضيق • ويؤسفنى أن أقول انه كان مصدر كثير من العبودية والمذلة فى الكنيسة •

ان موقفى النقدى من الأمور القبيحة التى تجرى فى روسيا السوفييتية ، موقف معقد ، وان لم تستطيع الغاءه تلك الحقيقة ، وهى أننى أشعر فى الموقف الدولى الحاضر بأننى ملزم بالدفاع عن وطنى • وانى لعلى استعداد لتأييد المبادىء التى تتحكم فى السياسة الخارجية السوفيتية ازاء عالم معاد يتزايد عداؤه ، وان كنت لا أوافق على جميع الأساليب المستخدمة فى تطبيقها • وهكذا أجد نفسى ممزقا ، ولا أرى حلا قاطعا حاسما • وانى لأدرك مر قبعد أخرى المعنى والمصدر « الارستقراطى » للشخصية والحرية الانسانيتين اللتين لا يحددهما ولا يقيدهما شىء من الخارج ، كما أدرك فى الوقت نفسه تورطى العميق فى مسالك التاريخ التى لا تقبل العودة الى الماضى •• تلك المسالك التى تتطلب مراجعة دائمة لموقف المرء من روسيا فى ضوء الثورة الاجتماعية بعيدة المدى التى حدثت وما برحت مستمرة هناك • وانى لأستطيع أن أوجد بين هاتين

الوجهين داخل نفسى ، ولكن هل يمكن تحقيق وحدتهما تلك على مسرح التاريخ المكشـــــوف ؟

فى ربيع عام ١٩٤٧ خلعت على جامعة كمبردج درجة الدكتوراه فى اللاهوت، وكنت أعلم أن حاملى الدكتوراه الفخرية الروس من جامعة كمبردج فى الماضى يضـــمون « تشايكوفسكى » و « تورجنيف » • وأيا كان الأمر ، فان حقيقة اختيارى لهذا الشرف قد صـــدمتنى باعتبارها مسألة تنطوى على شـىء من السخرية نوعا ما ، اذ اننى افتقر الى جميع الفضائل التى تؤهل المرء للامتيازات الأكاديمية ، كما اننى افتقر فضلاً عن ذلك الى كافة الفضائل اللاهوتية التى تؤهلنى لحمل درجة فى اللاهوت • فانا ـ كما سبق أن أتيحت لى الفرصة لتأكيد ذلك ـ لست لاهوتيا ، بل « فيلسوف دينى » ، وهو نوع نادر من الطيور قد يكون مجهولا تماما فى أوروبا الغربية ، وان يكن منتشرا ـ ان خيرا أو شرا ـ فى روسيا • وعلى الرغم مما فى ورطتى تلك من سخرية ، زادها حدة أننى وجدت نفسى فى كمبردج بصحبة مستر «بيفن» ونائب الملك السابق فى الهند ـ فقد شعرت حينذاك ـ كما احسست بذلك فى عدد من المناسبات السابقة ـ أننى لم اقابل فى اى بلد آخر بمثل هذا العطف والفهم اللذين قوبلت بهما فى انجلترا • وقد كان ذلك مصدر تشجيع عظيم لى ، وخاصة خلال أعوام الحرب الصعبة •

وفى الخريف اشتركت فى احتفالات « المقابلات الدولية فى جنيف » المخصصة لدراسة مشكلات « التقدم التكنولوجى والأخلاقى » • وهناك سبب خاص يدفعنى الى تسجيل هذه المناسبة ، اذ عانيت تجربة غير متوقعة هى تجربة القائى فى الجو الروسى الذى ساد منذ خمسين عام مضت ، عندما كانت الماركسية تمارس قوة جاذبيتها لا باعتبارها برنامجا اسياسيا أو اجتماعيا فى المحل الأول ، بل باعتبارها فلسفة حياة • وكانت الماركسية هى النقطة التى دار حولها المؤتمر كله ، وان لم تكن مدرجة فى جدول الأعمال ، باستثناء البحث الذى أعددته • وهناك طموح الى العقيدة فى الانسان الحديث ، طموح يماثل ذلك الطموح الذى ألهم الروس خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين •• ذلك أن الأوربى الحديث الذى يواجه ما فى وجوده من عبث ـ يجد نفسـه مهجورا ظامئا • والمشكلة ليست بالطبع سياسية بالمعنى الضيق ، وانما تتعلق بما يعرف بالقيم

البورجوازية للحياة ، هذه القيم قد خلقت فراغا مرعبا فى عقل الانسان الحديث وقلبه · وما برح الفراغ موجودا ، ولم تفلح المسيحية التاريخية أو رجال السياسة ، على ما يبدو فى ملء هذا الفراغ ، والماركسية ــ بغض النظر عن تقديمها للحل الخاص بمسألة تحسين المستويات الاقتصادية للمعيشة لدى الطبقة العاملة ــ حريصة على ملء هذا الفراغ · ومن ثم ، فعلى المسيحيين أن يظهروا شيئا أكثر من مجرد تذوق موضوعات القرن العشرين ، وأكثر من مجرد نبذ الشيوعية «التى مازالت حياتها حصرما بالنسبة لهم» ، أو لتكيف معها ، بل عليهم أن يظهروا القوة على تحريك الناس الذين بلغوا الرمق الأخير من اليأس ، دون أن ينظروا الى اليمين أو اليسار ، مسلحين باحساس صادق بقضايا العصر ، أما من ناحيتى أنا ، فلا أستطيع أن أرى حلا لخيانة العالم على يد المسيحيين أو لخيانة المسيحيين على يد العالم حتى يبلغ التاريخ نهايته ، لأن انتصار روح الله والانسان لا يتم الا عبر التاريخ ·

المحتـــــويات

الفصل التاسع :

٣٢

الفصل العاشـــر :

الفصل الحادى عشر :

الفصل الثانى عشر :

رقم الايداع ٨٤/٤٣٨٥
الترقيم الدولى ٩ ـ ٠٤٢٩ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

هذا الكتاب « رحلة ذاتية فلسفية » أو « تاريخ للروح ومعرفة الذات » للفيلسوف الروسى الكبير نيقولاى بردياف (١٨٧٤ - ١٩٤٨) ويقوم فيه بمحاولة للكشف عن معنى حياته ، وهذه المحاولة فعل خلاق فى حد ذاته ، إذ لا تكتفى بمجرد التسجيل الموضوعى للحوادث الماضية وإنما تصبح ذاته وحياته موضع النقد والاتهام . والكتاب فلسفى فى تصوره ، وهو يتوقف على مشكلات الفلسفة ، ويهتم بمعرفة الذات ، وبحاجة المرء إلى فهم نفسه ، والكشف عن صورته الخاصة ، ومصيره الخاص .

وقد خبر المؤلف العالم الذى يحيط به ، والتقلبات التاريخية وأحداث عصره جميعاً بوصفها جزءاً من نفسه ، ومن حياته الروحية ، واعتبر أن كل ما حدث فى العالم قد حدث له ، وبذلك تطرق إلى كتابة هذه الترجمة الذاتية على أعمق مستوى ممكن يربط فيه الإنسان بين ذاته الصغرى وبين الكون الأكبر المحيط به ، وانتهى إلى الإيمان — من خلال المحن التى عاناها — بقوة عليا كانت تهديه ، وهى التى أنقذته من الضياع ، هى قدرة الله سبحانه وتعالى .

٢٢٥ قرشـــاً